

DT
106
R.3
1947
11

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



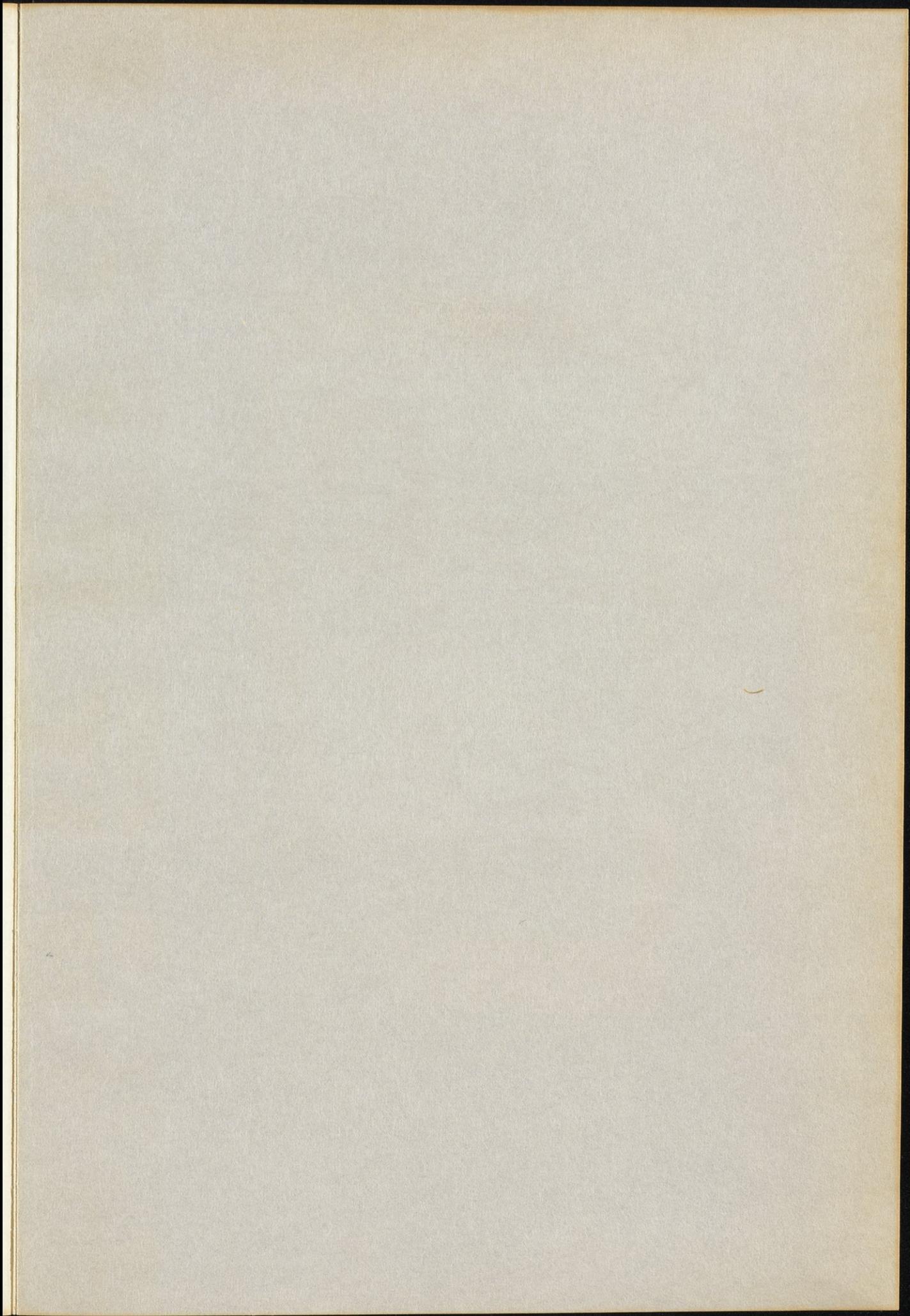
OLIN LIBRARY - CIRCULATION

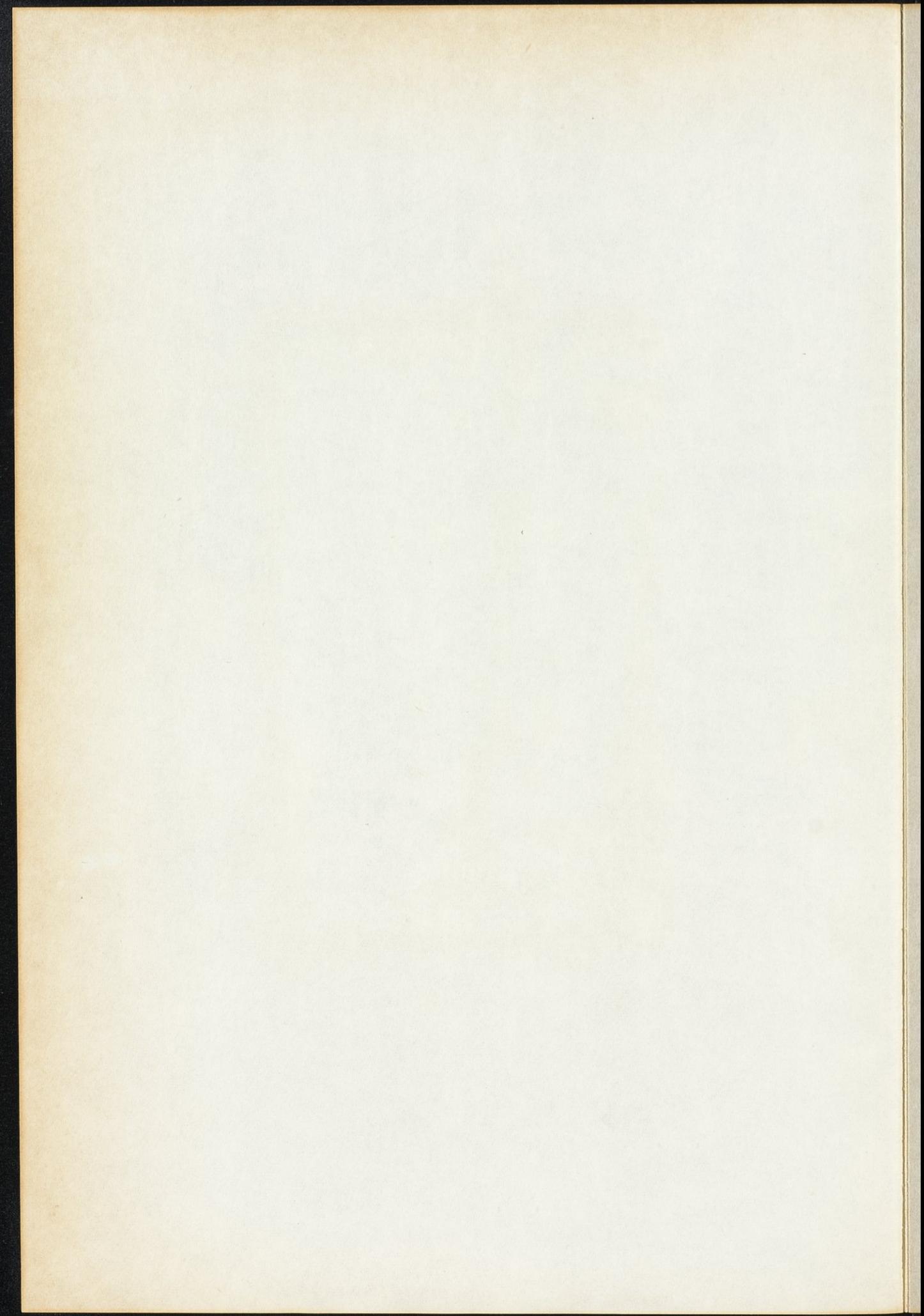
DATE DUE

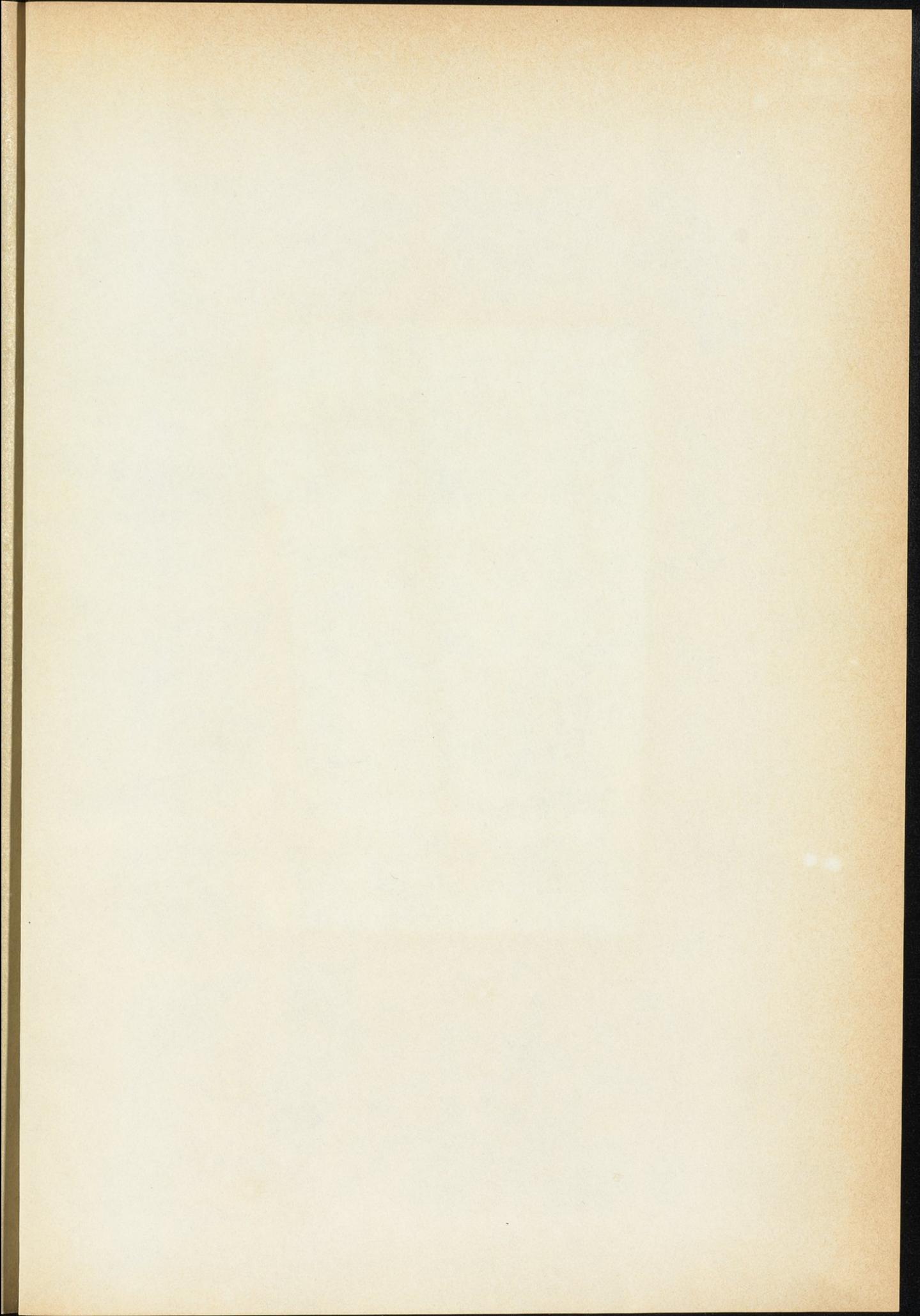
FEB 22 1985 8:00 AM

CAYLORD

PRINTED IN U.S.A.







عَصْرُ اسْمَاعِيل

بِقَلْبِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّافعِيِّ بْنِ

الْجَزْءُ الْأَوَّلُ

الطبعة الثانية

١٣٦٧ م - ١٩٤٨ م

محتويات الكتاب

(الجزء الأول) يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

(الجزء الثاني) وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل

من الجزء الأول
٣٠ قرشاً

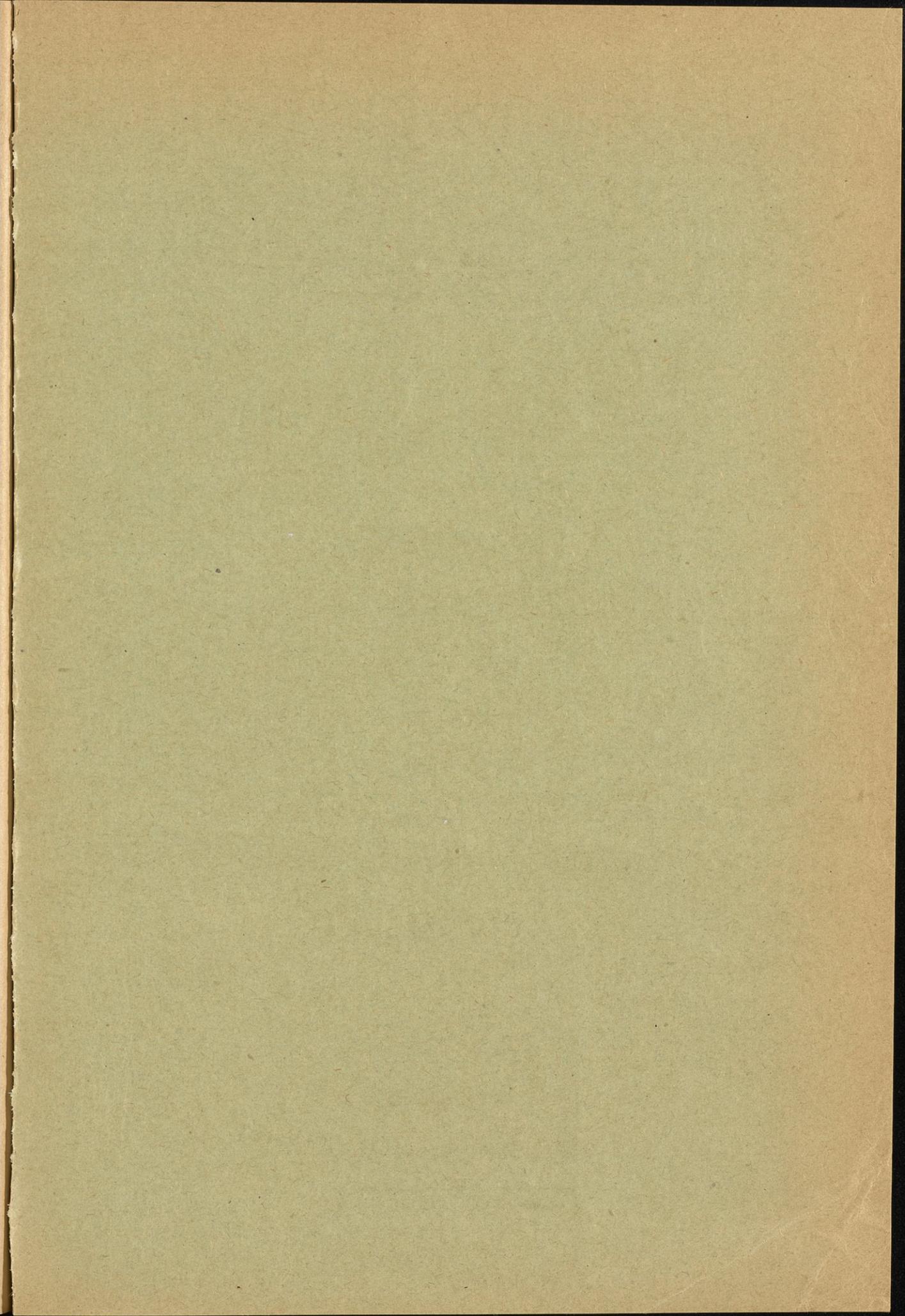
حقوق الطبع محفوظة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الهرمة المصرية

٩ ش عدل باشا - ت ٥١٣٩٤ - القاهرة

مطبعة دار الفكر ش منشأة الفاضل



عَصْرُ الْمُهَاجِرِينَ

بِقَلْمِ

عبد الرحمن الزافعي بك

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٦٧ - ١٩٤٨ م

محتويات الكتاب

(الجزء الأول) يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

(الجزء الثاني) وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل

ثمن الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة

٣٠ قرشاً

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ ش عدلي باشا - ت ٥١٣٩٤ - القاهرة

مطبعة دار الفكرة ش منشأة الفاضل

A
D
G

R
B
A
T

B719817
55
S

VAD

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وشغلتُ بعدها بإخراج الحلقات التالية من هذه المجموعة ، وقد أفادت من الانتظار هذه السنتين قبل إخراج الطبعة الثانية ، إذ تمنى لي أن أطلع على ماظهر خلاها من كتب وترجم ، ومؤلفات ووثائق ، عن عصر اسماعيل ، يتفق بعضها مع وجهة نظرى في الكتابة عنه ، وبعضها يعارضها ، وقد يكون ردآ عليها ، ثم أمعنت النظر أيضاً في البحوث والمقالات والخطب التي ألقيت سنة ١٩٤٥ في دار الأوبرا الملكية ، وفي غيرها من المحافل والمعاهد ، لمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة الخديو اسماعيل ، وأعدت النظر فيها كتبت عنه سنة ١٩٣٢ ، لعلى أكون قد أخطأ في موضع من الموضع ، فأصحح خطئ ، أو انحرفت عن الرأى الصواب ، فأعدل عن رأى ، ولا غضاضة على الإنسان في أن يعدل عن رأيه إذا تبين له خطأه فالحقيقة بنت البحث ، والعصمة لله وحده ، على أنى بعد أن استكملت هذه الدراسة ازدلت اطمئناً إلى صحة ما كتبت ودونت عن عصر اسماعيل ، واعتقدت أكثر مما كنت أعتقد أنى لم أتجاوز الحقيقة فيما ذكرت له أو عليه ، وهذا هو واجب المؤرخ في الترجم ، فعليه أن يذكر ما لله ترجم وما عليه ، أما أن يذكر الحسنات دون السيئات ، أو يقتصر على هذه ويغفل الحسنات ، فهذا ليس من التاريخ الصحيح ، وما لا ينبغي أن يكون أساس البحث والتدوين ، والتاريخ الصحيح يقتضى ذكر الحقائق بأكملها ، لتكون الصور التي يعرضها المؤرخ عن الحوادث والشخصيات صوراً صحيحة ، لاتشويه فيها ولا إيهام وعلى ذلك فإني أعيد طبع هذا الكتاب ، دون أن أغير أو أنقص منه شيئاً

فالطبعة الثانية هي ذات الطبعة الأولى . لا تغيير فيها ولا تبدل ، ولم أزد عليها سوى إضافات يسيرة بالجزء الثاني ، لا تتجاوز ثلاثة ، وقد حرصت على أن أجعلها في هامش الكتاب ، لكي يبقى الأصل كما أخرجهته أول مرة ، وأضفت إلى الوثائق التاريخية النص

الكامل للائحة تأسيس مجلس شورى النواب والائحة النظامية ، وكنت قد لخصت أحکامها في الطبيعة الأولى ، فأبقيت التلخيص كما هو ، وأضفت إليه نصوص اللائحتين ، وأردت من نشرها استكمال الوثائق التاريخية الهامة عن هذا العصر ، ولم أزد على ذلك شيئاً

والله أسأل أن يلهمنا قول الحق ، ويحنّّنا مواطن الزلل ، ويهدينا سواء

السبيل

عبد الرحمن الرافعي

اكتوبر سنة ١٩٤٨

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بهذا الكتاب ندخل في غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية ، إذ كان عهد الخديو اسماعيل أكثر العهود صلة بعصرنا الحاضر ، وأقربها منا أثراً آخر جنا قبل الآن ثلاثة أجزاء من هذا التاريخ ، بسطنا في الأول منها منشأ الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وكشفنا عن الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، واشتمل الثاني على تمهيدها الشعبية ووقائعها إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية من بعد ذلك إلى ارتقاء محمد علي أريكة مصر يارادة الشعب ، ثم أفردنا الجزء الثالث لعصر محمد علي ، وفصلنا الكلام فيه عن ظهور الدولة المصرية الحديثة ، وتحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمها إلى حظيرة الوطن ، وما تم في ذلك من جلائل الأعمال

وكتابنا اليوم يتضمن الحديث عن خلفاء محمد علي و « عصر اسماعيل » ، وقد جعلناه في جزأين ، كتاباً مستقلاً ، لاشتماله على صفحة قائمة بذاتها في تاريخ مصر القومي ، وسنجدونه هذا الحدو فيما نخرجه بمشيئة الله من سلسلة تاريخ الحركة القومية فنجعل ل بكل منها كتاباً مجتمعاً ، قال الكتاب الآتي في (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي) ، والذي يليه عن (مصطفى كامل) ، وهلم جرا



إن الحقيقة من الزمن الذي تولى الحكم فيها عباس الأول ، ثم سعيد ، ثم اسماعيل ، هي صفحة هامة من تاريخ مصر القومي ، لأنها بمثابة دور الانتقال من عصر محمد علي إلى الثورة العرابية

انقضى عصر محمد علي وابراهيم بعد أن توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة ،

وتأسس الجيش المصري ، والأسطول المصري ، والثقافة المصرية ، ووضعت قواعد
النهاية العلمية والاقتصادية في البلاد

ثم جاء عهد عباس الأول ، ويصبح اعتباره عهد الرجعية والنكسة ، لأن فيه وقفت
حركة التقدم وفقرت النهاية التي ظهرت على عهد محمد على

تم كان عهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تُعد من أدوار الحركة
القومية ، ترجع إلى نزعة سعيد الوطنية ، وميله إلى خير المصريين ورفاهيتهم ، والعمل
على تحريرهم من نير المظالم ، وبث روح القومية في نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب
العلية في الجيش والإدارة ، ولكن إلى جانب هذه الحامد ، بدأت على عهده ثغرات التدخل
الأجنبي في شؤون مصر ، بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوروبية ، مخالفًا في
ذلك تعاليم أبيه العظيم ، وافتتاحه عهد القرصان الأجنبية التي جرت الكوارث على البلاد ،
وكانت سلالتها وأغلاها

ثم جاء عهد اسماعيل ، وهو عصر طويل ، يتمثل فيه تاريخ مصر القومي والسياسي
في إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويعد عصرًا هاماً ، له أثره النافع ، كما له
أثره الضار ، في تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من
نهضة ورقي وعمان ، ثم ماتخلله واقترن به من أخطاء وأرذاء أدت إلى التدخل الأجنبي ،
وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهاية التي قامت في ذلك العهد ، وتجني من ثمارها ،
وتلمس آثارها بيدتها ، فإنها أيضًا تعاني عواقب الأغلاط التي وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ،
من مالها وحقوقها ومرافقها ، هذا إلى أن معظم القيود والنظم التي تقرر في ذلك العصر
لاتزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) ، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب في مرافق مصر
والديون التي كبدت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبي في شؤون مصر المالية
والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عهد اسماعيل

* * *

كان هذا العهد عصر تقدم ونهضة ، إذ نال الخديو اسماعيل من تركيًا أقصى ما يمكن
من الحقوق والميزانية توصلًا بمصر إلى الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان ، ومد

حدود الدولة المصرية إلى منابع النيل ، وشواطئ المحيط الهندي ، أى إلى تخومها الطبيعية ، فكان عمله من هذه الناحية عظيماً مجيداً ، وعنى بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربي ، وإنهاض البحريـة المصرية ، وإقامة أعمال العمران في مختلف النواحي ، وبعث النهضة العلمية والفكرية من مرقدـها ، بإنشـاء المدارس والمعاهـد ، وتأسيـس الجمعـيات العلمـية ، وتشجـيع التـأليف والـصحافـة ، ورعاية العـلوم والأـداب والـفنـون ، وأـسس نوعـاً من الحياةـ الـنيـابـية بإـنشـائه مجلسـاً محدودـاً للـسلـطة يـعرـف بمجلسـ شـورـىـ النـوابـ ، كانـ لهـ الأـثر البـالـغـ فيـ تـطـورـ الحـرـكةـ الوـطـنـيةـ

فيـ عـصـرـ اسمـاعـيلـ حدـثـتـ نـهـضـةـ زـاهـرـةـ ، يـزـدانـ بـهـاـ تـارـيخـهـ ، وـلـكـنـ هـذـهـ نـهـضـةـ قدـ تـعـثـرـتـ فـيـ سـيرـهاـ لـمـاـ شـابـهـاـ مـنـ إـسـرـافـ الـخـدـيـوـ وـبـذـخـهـ ، وـرـكـونـهـ إـلـىـ الـأـوـرـوـبـيـينـ ، وـشـدـيدـ ثـقـتـهـ بـهـمـ ، وـاعـتـمـادـهـ عـلـيـهـمـ ، فـأـدـتـ هـذـهـ عـوـاـمـلـ مـجـتمـعـةـ إـلـىـ تـورـطـهـ فـيـ القـرـوـضـ الـبـاهـظـةـ الـتـيـ نـامـتـ الـبـلـادـ بـحـلـمـهـاـ ، مـنـ حـيـثـ لـمـ تـسـكـنـ فـيـ حـاجـةـ إـلـيـهـاـ ، فـكـانـ الـذـرـيـعـةـ الـتـيـ توـسـلتـ بـهـاـ الـدـوـلـ الـأـجـنـيـةـ لـتـعـبـيـثـ بـحـقـوقـ مـصـرـ الـخـالـدـةـ ، فـوـقـ هـذـاـ عـبـثـ ، وـتـعـدـدـ مـظـاهـرـهـ ، فـنـ

إـنـشـاءـ صـنـدـوقـ الدـيـنـ ، إـلـىـ فـرـضـ الرـقـابـةـ الشـائـيـةـ عـلـىـ مـالـيـةـ مـصـرـ ، إـلـىـ تـأـلـيفـ جـنـةـ تـحـقـيقـ أـجـنـيـةـ لـفـحـصـ شـؤـونـ الـحـكـوـمـةـ الـمـالـيـةـ ، إـلـىـ تـعـيـينـ وزـيـرـيـنـ أـوـرـوـبـيـيـنـ فـيـ الـوـزـارـةـ الـمـصـرـيـةـ ، إـلـىـ تـغـلـغـلـ نـفـوذـ الـأـجـانـبـ عـامـةـ فـيـ مـرـاقـقـ الـبـلـادـ ، فـهـذـهـ الـأـحـدـاثـ الـجـسـامـ قدـ تـصـدـعـ لـهـاـ صـرـحـ الـاسـتـقـلالـ الـذـيـ نـالـتـهـ مـصـرـ بـحـمـوـدـهـ وـتـضـيـاتـهـ الـعـظـيمـةـ مـنـ عـهـدـ مـحـمـدـ عـلـىـ

* * *

أـثارـتـ هـذـهـ السـكـوارـثـ سـخـطـ الـأـحرـارـ مـنـ ذـوـيـ الرـأـيـ وـالـمـكـانـةـ فـيـ الـبـلـادـ ، فـظـهـرـتـ فـيـ صـفـوفـهـمـ حـرـكةـ وـطـنـيـةـ تـرـدـدـ صـداـهـاـ فـيـ الصـحـفـ وـفـيـ مـجـلسـ شـورـىـ النـوابـ ، وـاتـجـهـتـ غـايـتهاـ إـلـىـ إـنـقـاذـ مـصـرـ مـنـ التـدـخـلـ الـأـجـنـيـ ، وـتـقـرـيرـ النـظـامـ الـدـسـتـورـيـ أـسـاسـاًـ لـلـحـكـمـ فـيـهـاـ ، وـتـبـادـلـ زـعـمـاؤـهـاـ الرـأـيـ فـيـ اـجـتـمـاعـاتـ عـقـدوـهـاـ بـدارـ السـيـدـ عـلـىـ الـبـكـرـىـ وـمـنـزـلـ اـسـمـاعـيلـ رـاغـبـ باـشاـ ، وـاجـتـمـعـتـ كـلـهـمـ فـيـ (ـجـمـعـيـةـ الـوـطـنـيـةـ)ـ عـلـىـ المـطـالـبـ بـتـأـلـيفـ وـزـارـةـ وـطـنـيـةـ خـالـصـةـ لـلـمـصـرـيـيـنـ ، خـالـيـةـ مـنـ الـوـزـارـاءـ الـأـوـرـوـبـيـيـنـ ، وـتـقـرـيرـ مـبـدـأـ الـمـسـؤـلـيـةـ الـوـزـارـيـةـ أـمـامـ مـجـلسـ شـورـىـ النـوابـ ، فـاستـجـابـ الـخـدـيـوـ اـسـمـاعـيلـ لـمـطـالـبـ الـأـحرـارـ ، وـعـهـدـ إـلـىـ شـرـيفـ

باشا الوزير المشهور تأليف الوزارة الوطنية ، على أن تكون خالية من العنصر الأوروبي ، مسئولة أمام مجلس الأمة (وثيقة ٧ أبريل سنة ١٨٧٩) ، فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس ، فكانت أول وزارة مسئولة أنججتها الحركة الوطنية في تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها شأن أنها وضفت دستوراً على أحد المبادئ « العصرية » وقدمنته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره ، وتحولت ذلك المجلس سلطة « جمعية تأسيسية » تملك حق إقرار الدستور وتعديلاته

على أن الدول الاستعمارية لم تنظر بعين الرضا إلى ظهور هذه الحركة واطرادها ، واشتداد ساعدها ، بجمع كلمة الأمة حولها ، ومناصرة الخديو لها ، فسعت لإحباطها ، وبدأت مؤامرتها بالاعتراض على أول مشروع مالي للوزارة الوطنية ، ثم عملت على أن تخليع الخديو ، وكانت تركياً من الضعف وسوء النية نحو مصر بحيث أجابت طلب الدول ، وأعلنت خلع اسماعيل وإسناد منصب الخديوية إلى توفيق باشا (يونيه سنة ١٨٧٩)

ثم استمرت المصادمة بين الحركة القومية والمطامع الأوروبية ، إلى أن بلغت طوراً جديداً ، هو المعروف بالثورة العرابية ، فالثورة من هذه الناحية تعد ردّ فعل للتدخل الأجنبي الذي وقع في عهد اسماعيل ، ومطالبها الأساسية هي في جوهرها المطالب التي اجتمعت عليها كلية الأحرار في (الجمعية الوطنية) ، والدستور الذي تم خضت عنه الثورة

سنة ١٨٨٢ ، مقتبس من دستور سنة ١٨٧٩

* * *

فإلى عهد اسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العرابية ، وهي تطور للحركة الوطنية التي ظهرت في ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العرابية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ، ونضج العقول والقراائح ، وتبادل الرأي والمشورة ، على حين جاءت الحركة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فتضليل العامل الفكري والمعنوی ، في طورها الأخير ، وخفت صوت الحكمة والتعقل ، إلى جانب صوت السيف المدفع ، ومن ثم تذبذبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت من الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشرافها ،

والمطامع الاستعمارية تدبر مكايدها ، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزي الذى ماز لنا
نعاينيه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢)

فلبيان التطورات التي تعاقبت على البلاد في عهد خلفاء محمد على إلى انتهاء عصر
اسعاعيل ، قد خصصت هذا الكتاب ، جاعلا وجهى السعى إلى استخلاص الحقائق
والعظات ، من الحوادث وملابساتها ، لنتعرف الحاضر على ضوء الماضي ، ونصل الأسباب
بمسبياتها ، والنتائج بقدماها ، عسى أن يكون لنا في ذلك مانسترشد به في حياتنا القومية ،
أو نستظهر به على مانحن بسيله من جهاد في سبيل الوطن
أسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويلهمنا السداد في القول والعمل ، ويوفقنا إلى
ما فيه تحقق الأمل ، إنه نعم المولى ونعم المصير

لذكرى

اليومَ ختام العام الخامس لوفاة فقييد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى
اليوم يطوى الزمان خمس سنوات على احتيابك عنا يا أمين !؛ وذكراك باقية في
النفوس ماثلة في الأذهان . يجددها من الليالي وكر الأعوام
فالي روحك الطاهرة الثاوية في دار الابدية ، أبعث بتحيات الذكرى ، يرسلها القلب
وتفيض بها المشاعر ، ويحملها الر جاء إلى عالم الأرواح .

وإلى باريء تلك النفس الكريمة ، أتوجه بالدعاء ، أن يسبغ عليها آية السكينة
والطمأنينة ، فيانفس أمين ! ، اسكنى إلى جوار ربك راضية مرضية ، وياروح أمين !
سلام ، وريحان ، وجنة ونعميم

عبد الرحمن الرافعى

١٩٣٢ ديسمبر سنة

الفصل الأول

الرجعية في عهد عباس باشا الأول

١٨٤٨ - ١٨٥٤

يصح اعتبار عصر عباس باشا الأول عهد رجعية ، ففيه وقفت حركة التقدم والنهضة التي ظهرت في عهد محمد على

ولي عباس حلى الحكم بعد وفاة ابراهيم ، وفي حياة محمد على باشا ، وهو ابن طوسون بن محمد على ، لم يرث عن جده موآبه وعيقريته ، ولم يشبه عمه ابراهيم في عظمته وبطولته ، بل كان قبل ولايته الحكم وبعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات التي تحمل منه ملائكة عظيمها يضطلع بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة

نشأة عباس

بذل محمد على شيئاً من العناية في تعوييد عباس ولالية الحكم إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً ، وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا ، فعهد إليه بالمناصب الإدارية والحربيّة ، فتقلد من المناصب الإدارية منصب مدير الغرفة ، ثم منصب الكتيخائية التي كانت بمنزلة رأسة الناظار ، ولم يكن في إدارته مثلاً للحاكم البار ، بل كان له من التصرفات ما ينم عن القسوة ، وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات ، فينهاه عنها ، ويحذرها من مواجهتها ، ولكن طبيعته كانت تتغلب على نصائح جده وأوامره

وأما من الوجهة الحربية فقد اشتراك مع ابراهيم باشا في الحرب السورية ، وقد فيها أحد الفيالق ، ولكن لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة

وبالجملة فلم تكن له ميزة تلفت النظر ، سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملائكة

كبيراً، فصار اليه هذا الملك، دون أن تؤول اليه موهب مؤسسه، فكان شأنه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثه بكماته وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من الموهب والمزايا

وكان ابراهيم باشا لا يرضيه من عباس سلوكه وميله إلى القسوة وكثيراً ما نقم عليه بزعمته إلى إرهاق الأهلين، حتى اضطره إلى الهجرة للحجاج، وبقي هناك إلى أن داهم الموت عمه العظيم

ولايته الحكم

كان عباس باشا متغرياً بالحجاج لما عجلت المنية ابراهيم باشا، فامتنع إلى مصر ليخلفه على دست الأحكام تنفيذاً لنظام التوارث القديم الذي يجعل ولاية الحكم للأرشد فالأرشد من نسل محمد علي، وتولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٦٤)

أخلاقه

بقي عباس في الحكم خمس سنوات ونصفاً، كان يهدى في خلاطه غريب الأطوار، شاذًا في حياته، كثير التطير، فيه ميل إلى القسوة، سيء الظن بالناس، ولهذا كان كثيراً ما يأوي إلى العزلة، ويحتجب بين جدران قصوره، وكان يتخير لبنيتها الجهات الموعنة في الصحراء، أو البعيدة عن الإنسان، ففيها عدا سرای الخرنفش، وسرای الخلمية بالقاهرة، قد بني قصر آخر بجناح العباسية (التي سميت من ذلك الحين باسمه)، وكانت إذ ذاك في جوف الصحراء، وقد شاهد المسيو فريدينان دلسبيس هذا القصر سنة ١٨٥٥، فرأيته ضخامة، وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة، وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظم القصر واتساعه، فـكأنه بني لنفسه مدينة في الصحراء، وبنى قصر آخر نائياً في الدار البيضاء، الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر، ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم، وقصر آخر بالعطف (ذكره على باشا مبارك في الخطط ج ٧ ص ٦٣)، وقصر آخر ببنها على ضفاف النيل، بعيداً عن المدينة، وهو الذي قُتل فيه كاسينجي ببيانه

وقد أساء الظن بأفراد أسرته ، وبكثير من رجالات محمد على وابراهيم ، وخيل له الوهم أنهم يأترون به ، فأساء معاملتهم ، وخشى السكثير منهم على حياتهم ، فرجل بعضهم إلى الاستانة ، والبعض إلى أوروبا ، خوفاً من بطشه ، واشتد العداء بين الفريقين طول مدة حكمه ، وبلغ به حقده على من يستهدفون لغرضه أنه حاول قتل عمه الأميرة نازلى هامم ، واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت إلى الاستانة خوفاً من بطشه .

وسعى في أن يغير نظام وراثة العرش ليجعل إبنه إلهامي باشا خليفة في الحكم ، بدلاً من سعيد باشا ، ولذلك لم يفلح في مسعاه ، ونقم على سعيد باشا الذي كان بحكم سنة ولي العهد ، واتهمه بالتأمر عليه ، واشتدت بينهما العداوة حتى اضطره أن يلزم الاسكندرية ، وأقام هناك بسرايه (بالقبارى)

وانتشرت الجاسوسية في عهده انتشاراً مخيفاً ، فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه ، ومن يغضب عليه ينفيه إلى السودان ويصدر أملاكه ، وكان نفي المغضوب عليهم إلى أقصى السودان من الأمور المألوفة في ذلك العصر

وكان عباس مولعاً بركوب الخيل والهجن ، يقطع بها المسافات البعيدة في الصحراء ، وله ولع شديد باقتناة الجنادل الكريمة ، يجعلها من مختلف البلاد ، ويعنى بتوريتها عنابة كبرى ، ويبني لها الأصطبلات الضخمة ، وينفق عليها بسخاء ، شأنه هوادة الخيل

اعماله

سياسته العامة

يختلف عهد عباس عن عصر محمد على ، فإن حركة النهضة والتقدم والنشاط التي امتاز بها هذا العصر قد تراجعت كما قلنا في عهد عباس ، وهناك ظاهرة أخرى لفرق بين العهدين؛ ذلك أن محمد على كان يستعين بذوي العلم والخبرة من الفرنسيين في معظم مشاريع الإصلاح ، لكن « عباس » لكونه لم يفكر في تعهد هذه الإصلاحات أقصى معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم ، وقام تضليل النفوذ الفرنسي في عهده ، ولم يعد إلى إلى الظهور إلا في عهد سعيد باشا ، ومن هنا نعرف سبباً لتحمل كثير من المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين على عباس ، فإنه وإن كانت أعماله لا تدعو إلى الإطراء ، لكننا

نعتقد أن أحكام الفرنسيين عليه لا تخلو من التحامل ، لتأثيرهم من تصاول النفوذ الفرنسي في عهده ، والفرنسيون لما اتصفوا به من الوطنية يكرهون كل ملك أو أمير يقترب عهده بتصاول النفوذ الفرنسي في بلاده ، من أجل ذلك نراهم يكيلون المدح جزاً لسعيد باشا ، ونعتقد أن هذا راجح إلى ميوله الفرنسية وعوده النفوذ الفرنسي إلى مصر في عهده ، على يد المسيو فردان دلسبيس وأمثاله من اتخذهم سعيد بطانته وأولياءه

فعباس إذن قد أقصى عنه الخبراء من كبار الموظفين الفرنسيين ، فلم يعد لهم نفوذ لديه ، بل لم يكن يعاملهم معاملة عطف واحترام ، واستغنى عن خدمة بعضهم وعلى العكس ، بدأ النفوذ الانجليزي يظهر في عهده على يد المستر (مرى) القنصل البريطاني في مصر وقشط ، فقد كان له عليه تأثير كبير ، وله عنده كلمة مسموعة

ولا يعرف السبب الحقيقي لهذه المنزلة ، سوى أنها نتيجة المصادفة ، فإن الملوك والأمراء المستبدون ليس لهم قاعدة مستقرة ، ولا تصدر أعمالهم عن برنامج أو تفكير ، بل يتبعون الهوى في كثير من أعمالهم ، وقد يكون لكتفاعة المستر مرى دخل فيها ناله عند عباس ، من النفوذ ، وقيل إنه كان يستعين به في السعي لدى حكومة الاستانة بوساطة سفير إنكلترا للتغيير نظام وراثة العرش ، كي يؤول إلى ابنه إلهامي ، وفي رواية أخرى إنه كان يستعين به وبالحكومة الانجليزية لينبع تدخل حكومة الاستانة في شؤون مصر إذ كانت تبغي تطبيق القانون الأساسي المعروف بالتنظيمات على مصر .

إصلاح الطريق بين القاهرة والسويس

ومهما يكن من السبب فالمستر مرى كان له أثر ظاهر في اتجاه أفكار عباس ، ويتبين هذا النفوذ من أن أول أعماله بعد ولادته الحكم هو إصلاح طريق القاهرة إلى السويس ورصده بالحجارة ، بجعله معبدا ، تسير فيه العربات بسهولة ، فهذه الفكرة وإن كانت في ذاتها فكرة عمرانية سديدة إلا أن الموزع بها هو المستر مرى ، وغرضه منها تسهيل سهل المواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر ، وسرعة نقل البريد البريطاني والسياح بين الهند وإنجلترا

وكانت السياسة الانجليزية ترمي إلى تعبيد طريق المواصلات بين إنجلترا والهند في

مصر بواسطة انشاء سكة حديدية ، تصل الاسكندرية بالقاهرة ، ومنها إلى السويس ، وكانت تعارض في أن تنشأ بمصر طريق بحري للمواصلات ، ولذلك عارضت في شق القناة البحرية في بربخ السويس ؛ وحيث مد السكة الحديدية بين الاسكندرية والسويس ، وحاجتها أن شق القناة يسهل على الدول البحرية المنافسة لها في الاستعمار طريق الوصول بسفنه الحربية إلى البحر الأحمر ؛ ثم إلى الهند ، فيتعرض سلطانها هناك للخطر ، أما فرنسا فكانت على العكس تحبذ فتح القناة ، وتعارض في مشروع السكة الحديدية ؛ لأنه مشروع انجليزي

السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة

ولقد فازت السياسة الانجليزية بضم عباس إلى وجهة نظرها ، فتم على يده إصلاح طريق السويس ، ثم شرع في مد السكة الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٥٢ ، وعهد بتنظيم العمل إلى المهندس الانجليزي الشهير روبرت ستيفنسون Stephenson ، يعاونه مهندسون مصريون ، لكن المهندسين المصريين هم الذين تم على أيديهم انشاء الخط كـ يقول المسيو مريو ^(١) Meruau ، ومنهم من صار لهم فيها بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب ، مثل سلامة باشا ابراهيم ، وثاقب باشا . ومظفر باشا . وبهجرت باشا ، واستخدم عباس في تعبيد الطريق وتركيب القضبان الجنود والبحارة المصريين ، وانشأ من سكة الحديد في عهده الخط الوacial بين الاسكندرية وكفر الزيات (سنة ١٨٥٤) ، وتم الخط بأكمله في عهد سعيد ، ويئس المسيو فردینان دلسیس من نجاح مشروع شق القناة ، ولم يعاوده الأمل إلا بعد أن تولى سعيد باشا الحكم كـ سيدجيء بيانه وإذا نحن صرفا النظر عن التزاحم السياسي بين انجلترا وفرنسا ، فما لا شك فيه ، من وجهة النظر المصرية ، أن مشروع السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس أذعن للبلاد ، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة ، فان مصر لم تستفاد شيئاً من فتح قناة السويس ، بل كانت القناة شؤماً عليها كـ ستفصله في موضعه ، ولأن

(١) في كتابة (مصر الحديثة) ص ١٠٢ ، والمسيو مريو معاصر لعباس وسعيد واسماويل



عباس باشا الأول والى مصر

من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥٤

السكة الحديدية قد نهضت بعمان البلاد التي مرت بها ، بخلاف القناة
فاصلاح طريق السويس ، والشروع في مد السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة ،
هما من أول ما فكر فيه عباس ، وهما من المشاريع الجليلة ، ولعل هذا هو العمل الوحيد
الإنساني الذي يذكر لعباس ، لأنها لا يخفى أن السكك الحديدية هي من أعظم دعائم
العمران والتقدم ، وكانت هذه السكة أول خط حديدي أنشئ في مصر ، بل في الشرق
قاطبة ، فصر قد سبقت دول الشرق في أعمال العمران ، ولا يخفى أن تركيا وهي أقوى
دول الشرق وقائمة تأخرت عن مصر في مد السكك الحديدية واستخدام القطارات البخارية ،
وإنك لتلحظ تقدم مصر وسبقها تركيا في ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز
مصر سنة ١٨٦٣ ، فإنه لما ركب القطار من الاسكندرية إلى القاهرة تملأه العجب ، لأنها
لم يكن رأى القطارات البخارية في حياته من قبل (١)

ضبط الأمن

وعنى عباس باستتاب الأمن ، فضرب على أيدي الأشقياء وقطع الطرق ، وطاردهم
واعالمهم بالقسوة ، خشوا بأسه ، وانقطع دابرهم ، وأمن الناس شرورهم ، فاستتب الأمن
في عهده ، وهذا من خير أعماله

المدارس والمصانع

أما المدارس ، فقد ساءت حالتها في عهده ، فاللغى معظمها (بعد الذي عطل منها
في أواخر عهد محمد علي) ، واقفلت أبوابها ، بين عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها
إلا النذر اليسير ، وكأنما كان عباس يكره العلم والتعليم ، فإنه لم يكتف بإغلاق معظم
المدارس ، بل أنفذ إلى السودان طائفة من كبار علماء مصر في ذلك العهد ، مثل رفاعة
بك رافع . ومحمد بيومي أفندي ، ودقلة أفندي ؛ بحجة إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم؛
والسبب الحقيقي هو إبعادهم ونفيهم من مصر ، وقد ساءت حالتهم كما بینا ذلك تفصيلاً

(١) انظر كتاب «سياحة السلطان عبد العزيز من الاستانة إلى القاهرة»، المسمى وجاردي
ص ٦٤٩ و ٦٥٣

في ترجمة رفاعة بك رافع^(١) ، ومات منهم هناك محمد يومي ~~كبير~~ أستاذة الهندسة
والرياضيات في مدرسة المهندسخانة

وانتقى من تلاميذ المدارس التي ألغتها عدداً منهم أدخلهم مدرسة أنشأها سنة ١٨٤٩ ،
ودعاها «المفروزة» اشارة الى أنه أفرز تلاميذها من بين طلبة المدارس ، وكانت هذه
المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حرية

وأقفل ما بقي من المعامل والمصانع التي أنشأها جده بحججة الاقتصاد في النفقات

البعثات

وأرسل إلى أوروبا ١٩ طالباً من تلاميذ المدارس المصرية لإتمام دروسهم بالمدارس
الأوروبية ، على أنه استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم في فرنسا من ذهنه
عهد محمد علي

السودان

لم يعن عباس بالسودان عناية جده به ، ولم يفكري يوماً في زيارة ذلك الإقليم العظيم
الذي يعد الجزء المكمل لمصر ، ليشاهد بنفسه شؤون البلاد وأهلها ، ويعرف أحوالها
كما فعل محمد على الذي لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة من أن يجوب السودان باحثاً
مستطلاعاً .

الجيش والبحرية

أنفذ عباس بعض الإصلاحات الحربية التي فكر فيها إبراهيم باشا قبل وفاته ،
كتجديد الإستحكامات ، وإنشاء الطرق الحربية ، وفيما عدا ذلك فان الجيش في الجهة لم
يسكن موضع عنایته ، وقد تسرب إلى إدارته الخلل وسوء النظام ، بعد أن كان مضرب
الآمثال في النظام والكمال على عهد محمد علي ، وزاد في أضيق حالاته أنه أدمج فيه نحو ستمائه ألف
من الأرناؤود ، جعلتهم خاصة جنده ، وسلحهم بالمسدسات ، فكانت لهم في عهده الصلوة

(١) راجع «عصر محمد علي» ص ٤٨٨ (من الطبعة الأولى)

والسلطة ، وشخوا بأنوفهم على المصريين ، جنوداً أو أفراداً ، وجرد عباس الأهلين من السلاح ؛ وحضر عليهم حمله ، فعاد الأرناؤود في الأرض فساداً ، بما اشتهر عنهم من الظلم والعنف والإرهاق ، وبقي هؤلاء الأخلاط قوام الجيش في عهده
وظل سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ولكن يده غلت عن النهوض به وإصلاح شؤونه

وساءت حالة البحريية بعد أن كانت زاهرة ، وأخذت في الانحسار. ويرجع ذلك إلى إهمال عباس أعمال العمران عامه ، ثم إلى سبب خاص ، وهو كراهيته لعممه سعيد باشا ، وملعون أن سعيد كانت نشأته في البحريية ، وكان قائداً عاماً للأسطول في عهد محمد على ، فلما تولى عباس الحكم حقد على البحريية جملة واحدة ، لحقده على سعيد باشا . ! فأهمل شأنها ، وتعطلت أعمال الترسانة ، ووقف إصلاح السفن ، فسرى إليها العطب والتلف

اشتراك مصر في حرب القرم

يقى الجيش المصرى رغم ما أصابه من الخلل قوة لا يستهان بها ، وظهرت بسالته في حرب القرم ، وهى الحرب الوحيدة التي خاضت مصر عماراتها في عهد عباس
شبّت نار القتال بين تركيا والروسيا سنة ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد إلى عباس باشا أن يمدّ بالجندي والأساطيل ، فلبى عباس طلب ، وكانت دار الصناعة (الترسانة) في ذلك الحين معطلة كما قدمنا ، فعاد إليها النشاط والعمل ، واستدعى إليها العمال الذين كانوا مصروفين عنها ، وجهز الأسطول المصرى ، وعهد بقيادته إلى الأمير الحسن باشا الأسكندراني ، أحد خريجي البعثات في عهد محمد على^(١)

وأعد حملة مؤلفة في بدء الحرب من نحو ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة سليمان باشا فتحى أحد القواد الذين حاربو تحت لواء إبراهيم باشا في حروب سوريا والأناضول ، فأقلعت الحملة على ظهر العمارة المصرية ووصلت إلى الاستانة ، ومضت إلى ميدان القتال على نهر الدانوب ، ورابط معظم الجيش المصرى في (ساسستريا) وكان الروس يهاجمونها ، فأبل

(١) ترجمنا له في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد علي ص ٥٣١ من الطبعة الأولى)

المصريون بلاه حسنا في المدافعة عنها ، وأقاموا بها حصنًا عرف بطابية العرب ، كان له
فضل كبير في الدفاع ، فاستطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس سنة ١٨٥٤ ،
 واستمرت الحرب إلى عهد سعيد باشا كاسينجيء بيانه

وقد ساهم الأسطول المصري في الحرب البحرية ، فسار قسم منه إلى شواطئ
الأناضول الشمالية بالبحر الأسود ، ولكن السفن الروسية أوقعت به ، واشتركت بقية
السفن في نقل القوات الحربية إلى ثغور البحر الأسود ، وبقيت تؤدي واجبها إلى انتهاء
الحملة

مقتل عباس

اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولاً في قصره بينها ، وهذا أمر مقطوع
بصحته ، ولكن الخلاف في رواية مقتله ، وليس عجياً أن يختلف الرواة في ذلك ، فإن
قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لا يسهل
اكتشاف حقيقتها ، أو الاتفاق على روايتها ؛ لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع
في جنح الظلام ؛ بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها إلا ما تناقله الألسنة بعد
وقوعها ؛ ومن هنا ينشأ الاختلاف في الرواية ؛ ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، إحداهما
ذكرها اسماعيل باشا سرهنوك في كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥)
والآخرى ذكرتها مدام أولمب ادور كاسمعتها بمصر في أوائل عهد اسماعيل ودوتها في
كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣)

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنوك ، أن (عباس) كانت له حاشية من المالكين
يقر لهم إليه ويصطفيهم ، ويتحذذ منهم خواص خدمه ، ولم ينم عنده من المنزلة ما جعله يغدق
عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاعة يستحقونها ، حتى حاز أكثرهم رتبة قائم مقام
وكان لهم كبير من خاصة غلبهانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيها بعد بحسين بك
الصغرى ؛ وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك المالكين ، فاستطالوا عليه بالغمز واللعن ،
وخاصصة لأنه كان صغير السن . فاتخذوا من حداثته معمزا للأقاويل ، فسخط
عليهم ، وشكاهم إلى مولاه ، فأمر بجلدهم ، فجلدوا ، وجردوا من ثيابهم العسكرية .

وأليسهم خشن اللباس . وأرسلهم الى الاصطبلات لخدمة الخيل ، فعز ذلك على « مصطفى باشا » ، أمين خزانة عباس . لأنهم كانوا من اتباعه المقربين اليه . فسمى جده لدی سیده ليغفو عنهم . فلم ينل بادیء الأمر بغية ، فلما ذهب عباس باشا الى قصره بينما يصحبه احمد باشا يكن وابراهيم باشا الائفي محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا أن يطالبا العفو عنهم ، فطلبا ذلك الى عباس . فأجاب ملتمسهما . وأصدر أمرًا بالعفو عنهم . وردهم الى مناصبهم . فجاءوا الى بينما ليعرفوا او اجب الشكر للأمير . واسكنهم أضمر والفتوك به انتقاما لما أوقع بهم . فاقتربوا به مع غلامين من خدمة السرای . يدعى أحدهما عمر وصفي والآخر شاكر حسين . واتفق الجميع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من ماليكه . في ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولیه سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون في غسق الليل على اتفاق معهما . وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير ، وهو نائم ، ولما أرادوا الفتوك به استيقظ وحاول النجاة ، فصده عمر وصفي ، وتکاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوزعوا الى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر الى اليوم التالي وما لم يستيقظ الأمير في موعده دخل عليه احمد باشا يكن وابراهيم باشا الائفي فوجداه مقتولا ، فذعوا بهذه الفاجعة ، واتفقا على اخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل الى القاهرة في عربة ، ووصلوا به الى قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

واراد جماعة من أنصار عباس ، وعلى رأسهم ابراهيم باشا الائفي أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله ابراهيم إلهامي باشا الذي كان وقئد بأوروبا ، فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، وينعوا عنه عممه سعيد باشا أكبر أبناء محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم . وكان سعيد باشا وقتئذ بالاسكندرية ، يقيم بسرایه بالقيباري . فكتبوا سرا الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا . وأبلغوه بما اتفقا عليه . وطلبووا منه القيام على الشرف حتى يحضر إلهامي باشا . فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم . لعله أن الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد اليه من فوره . وأنهى اليه خوى الرسالة . فشكراه سعيد باشا على إخلاصه . وذهب صحبه الى سرای رأس التين . وأعلن اعتلاءه العرش . وأجريت حفلة الجلوس . وأطلقوا المدافع . ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة يصحبه أمراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء .

والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم
تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرهنك

أما رواية مدام أولمب ادور خلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم حمة عباس هي
التي اتسرت به وهي في الاستانة ، وأنفدت ملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت واياهما ،
على أن يعرضان أنفسهما في سوق الرقيق بالقاهرة ؛ كي يشتريهما عباس ويدخلهما في خدمته ،
وكان المملوكان على جانب من الجمال ، مما يرغب وكيل الأمير في شرائهما ، فجاءا القاهرة
فعلا ، ونزلتا سوق الرقيق ، الى أن رآهما يوماً وكيل الأمير ، فراقه جاهما ، فاشتراهما
وأدخلهما سراي مولاهم بيتها ؛ فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ليلا ، قالت
مام دام أولمب ادور ، فلما كانت الليلة الأولى لم يحرر المملوكان على ارتقاب القتل ،
لأنهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخفافاً أن يقاومهما وينجو
من فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما مواد الملاك المحروم ، فانقضت الليلة
الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستج绾ان قوتهم الانفاذ القتل عند سنوح الفرصة ،
حتى جاءتهما التوبة الثانية لحراسة مولاهم ، فاعتزموا أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم
يكدر يستغرق عباس في النوم حتى انقض عليهم وقتلهم ، ولم يدعاه الوقت ليصبح أو يقاوم ،
ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراي ، وطلبوا إلى السائس أن يجهز
لهم فوراً جوادين بحجة أن الباشا يتطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم
في الأمر ، وجهز لهم الجوادين فسارا بهما عدوآ إلى القاهرة ، ومن هناك فرا إلى
الاستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلى هانم مكافأة سخية على إنجاذ المؤامرة

وتقول مدام أولمب ادور إن إلهامي باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثار لأبيه ،
فالتحق بأحد هما في الاستانة ، فقتله رمياً برصاص مسدسه ، ولم يستطع اللحاق بالثاني ولم
يغادر له على مكان ، وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرناؤود فراراً من القتل (١)
فالروايتان ، مع اختلافهما في بيان المحرضين على القتل وطريقة ارتقاب الجريمة
متتفقتان كما ترى في أن عباس مات مقتولاً إثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفدت في
قصره بيتها

(١) كشف السقار عن أسرار مصر لمدام أولمب ادور .

ميزة عباس

كان عهد عباس كاتری خلوا من أعمال النهضة وال عمران ، اللهم ما كان من إنشاء سكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية ، وإصلاح سكة السويس الحجرية

على أن لعباس ميزة يجب أن يذكرها له التاريخ ، وهي أنه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبي ، فلم يمكن للأجانب في البلاد ، ولم يمده إلى الاستدانة منهم ، بل ترك خزانة مصر حرمة من أثقال الديون الأجنبية التي كبلها بها خلفاؤه من بعده ، وكان يجتهد دائمًا في سد عجز الميزانية ، دون أن يلجأ إلى القروض ، ولم يكن يميل إلى منح الأوروبيين امتيازات باستثمار مرافق البلاد ، وهذه ميزة يجب أن تذكر له بالخير ، ويتذبذب (من هذه الناحية) على سعيد و اسماعيل ، خطأً سعيد باشانه منح الميسو فردينان دلسبيس امتياز حفر قناة السويس ، وافتتح عهد الاقتراض من الخارج ، وخطأً اسماعيل أنه كل مصر بالديون الجسيمة التي اقترنتها من البيوت الأوروبية

الفصل الثاني

النهاية الوطنية في عهد سعيد باشا

١٨٥٤ - ١٨٦٣

من النهضات الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ، ومنها ما يكون مصدره الملك والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنية جديرة بان تعد دورا من أدوار الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث

وترجع هذه النهضة الى ميل سعيد باشا ذاته ؛ فقد كان ذاته وطنية مدوحة ، نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ؛ ولازمه بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها في كثير من اصلاحاته وأعماله ، وقام هذه النزعه أنه كان يميل بجواره الى خير المصريين ورفاهيتهم ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التي أصابتهم ؛ ويخفف عنهم عبء الضرائب التي ينوهون بها ؛ ويبيث فيهم روح الوطنية . ويشجعهم على تقلد المناصب العالية في الجيش والادارة . بعد أن كانت من قبل وقفا على الترك والشراسة

نشأته

هو ابن محمد علي الكبير . ولد سنة ١٨٢٢ ؛ ونشأ في حجر أبيه . محظوظاً بعطافه ورعايته . وكان أبوه يعزه ويغنى بتربته وتشقيقه ، وتنشئته النشأة الحسنة . وأنختار له السلك البحري فدر به على فنون البحريه وجعل شأنه شأن تلاميذه . ولعل هذه النشأة مما حبب إلى نفسه مبادئ الديمقراطية . فقد كان أثناء دراسته ومرانه زميلاً لطائفة من التلاميذ . من خصوصياته أبوه لدراسة الفنون البحريه . يعيش عيشتهم . ويسيير على نهجهم . وينظر إليهم كما ينظر الطالب إلى أقرانه وأصدقائه . ولما أتم دراسته انتظم في خدمة الأسطول قومندانا لأحدى البوارج التي كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار . واعتاد النظام الذي هو أساس الحياة العسكرية . فكان يحترم رؤساه . ويتساوى في ذلك وزملاؤه ضباط

الاسطول ، وما يذكر عنه أنه لما نال حظاً من الفتن البحريه ، وكان وقتيذ « سعيد بك » جمله أبوه معاوناً لمطرش باشا ناظر البحريه وقوندان الاسطول ، وأصدر أمره اليه بأن يمثل لأوامره ، ويؤدي اليه التعظيم العسكري ، بوصف كونه رئيساً له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على ، إذ عود ابنيه ، احترام النظام ، وارتقي سعيد في المراتب البحريه حتى وصل في أواخر عهد أبيه إلى منصب « سر عسكري الدونمة » أى القائد العام للأسطول

فهذه النشأة كان لها أثراً في إيلافه المبادئ الديموقراطية ، مما جعله عند ما تولى العرش يميل إلى المصريين ؛ ويعمل على ترقيتهم وتقديرهم ورفاهيتهم

أخلاق سعيد

أهم الصفات البارزة في أخلاق سعيد ، طيبة قلبه . وسلامة قصده وكرمه . وشجاعته وصرحته . وميله للخير . وتسامحه . وحبه للعدل . ونفوره من الظلم والإرهاق

ولكنه إلى جانب ذلك . كان ضعيف الارادة كثير التردد ، لا يستقر على رأى واحد . ومن هنا جاءت تقلباته في الخطط والبرامج والأعمال . وانصياعه لآراء خلطاته من الأوروبيين . وسرعة تأثره بما يسمعه . ثم سرعة غضبه . ورجوعه عن غضبه لأوهى الأسباب . وكانت نقطة الضعف فيه إسرافه . والتجاهد إلى الاستدامة من البيوت المالية الأوروبية . رحسن ضنه بالأوروبيين . وشدة ركونه إليهم . وميله الفرنسيية التي جعلته يسترسل في الإصلاحات لتأثيرات الميسيو فردینار دلسیس وأضرابه . وفي عهده أخذ الجانب يبسطون أيديهم على مرافق البلاد ، ويستطيعون على سلطة الحكومة وسيادتها . ويشمخون بأنوفهم . وصار للقناصل نفوذاً لم يكن لهم من قبل في عهد محمد على وابراهيم وعباس

إصلاحاته الزراعية

واللامنة السعيدية

بذل سعيد باشا جهوداً موفقة لإصلاح حالة الفلاحين والترفيه عنهم ، فهو لهم حق

الملكية العقارية للأراضي الزراعية ، وسن لهذا الغرض قانونه المشهور باللائحة السعيدية الصادرة في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (١) ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هـ ، وهي من أعظم إصلاحاته ، لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان في القطر المصري ، وهي من آثاره الخالدة التي تذكر له بالخير ، لأن الملكية هي من الدعائم الأساسية للبيئة الاجتماعية ، وكان الفلاح محرومًا حق التملك في عهد محمد على

وألغى أيضًا نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، ذلك النظام الذي كان معمولاً به في عهد أبيه ، وأخذ في الإضياع في عهد عباس ، وصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته ، وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يتغذى بها

وخفف عن الأهالى عبُّ الضرائب ، فقد كان عليهم متاخرات من السنتين الماضية تجاوزت عنها جملة واحدة ، ولم تكن هذه المتاخرات بالشىء اليسير ، فقد بلغ مقدارها كما يقول المسييو مرييو (٢) ٨٠٠٠ جنية ، وهو مبلغ ضخم إذا قيس بشروة ذلك العصر ، فاستراح الفلاحون من اعباء المتاخرات القديمة التي كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ليستوفوا ما تأخر عليهم منها

ورغب إلى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغام نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على الحاصلات وتتصرف فيها وتحاسب الفلاح على السعر الذي تقرره هي بمطلق إرادتها ، صار للفلاحين حق امتلاك حاصلاتهم ، والتصرف فيها بالبيع بالسعر الذي يرتضونه ، وأداء الضريبة نقداً ، وبذلك نالوا حق الملكية العقارية وملكية الحاصلات ، وحرية التصرف فيها ، وحيازة ثمنها ، وصار للفلاح وجود اقتصادي مستقل عن الحكومة ، بعد أن كان مستعبدآ لها ، فكان هذا الإصلاح من أسباب نهضة الفلاح من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية

(١) منشورة في القاموس العام للادارة والقضاء الفيليب جلد ج ١ ص ١١٨ وفي كتاب الأطيان والضرائب لجرجس بك حنين ص ٣٨٨

(٢) في كتابه (مصر الحديثة) ص ٦٤

واقترب تنفيذ هذا الإصلاح بصعب جمة ، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم ، لم يكن بأيديهم النقد الذي يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد ، فقرر سعيد إتمالهم في الدفع ، حتى يتسمى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة وأداء الضريبة من ثمنها ، فشعر الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة ، ووقف تيار الهجرة من القرى

وقد ألغى أيضاً ضريبة الدخلية التي كانت تجبي على الحاصلات والمتأجر مما تتبادل المدن والقرى في داخلية البلاد ، وهذه الضريبة مصدر إعانت وإرهاق للأهالي ، كما أنها عقبة تحول دون حرية التجارة الداخلية ، إذ كانت الحكومة تقتضي على المتأجر ١٢ في المائة من قيمتها عند دخولها أي مدينة أو قرية ، وهذا يؤدي إلى ارتفاع الأسعار واستداد الغلام ، ويضعف حركة المعاملات ، كأن طريقة تحصيل هذه الضريبة تتطوى على نوع آخر من الإرهاق ، إذ كانت جبائيتها موكولة إلى ملتصمين ييتزرون الأهالي أكثر من قيمتها ، فالغايتها فيه تخفيض عن الأهالين وتحرير للتجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعرقل

لائحة المعاشات

ومن أعماله الاجتماعية سنّه لائحة المعاشات للموظفين التقاعدin ، وهي الأساس الذي بني عليه نظام المعاشات المتبع في مصر لموظفي الحكومة

أعمال العمران

تطهير ترعة محمودية

عن سعيد باشا بتطهير ترعة محمودية ، ذلك أنها منذ إنشاؤها في عهد محمد على لم تعن الحكومة بتطهيرها ، وانقضى عهد عباس دون أن يذكر في أمرها ، فلما تولى سعيد كاد الطمي المتراكم على مدى السنين يطمرها ويفسد استعمالها ، فلا تعود صالحة لمرور السفن ، ولا تجري فيها مياه الري بالمقادير التي يتطلبها العمران
فاعتزم سعيد باشا أن يطهرها ، ويقاد تطهيرها في هذه الظروف يشبه أن يكون

احتفاراً لها من جديد ، لأن الطمى كان قد سد قاعها ، وقد استشار المسيو موجيل بك كبير المهندسين فيما يلزم من العمال والجهود لاجراء هذا العمل العظيم ، فحسب مقدار ما يجب رفعه من الآترية من قاعها ، بلغ ثلاثة ملايين متر مكعب ، على طول الترعة الذى يبلغ ثمانين كيلو متراً ، وقدر أن العامل يرفع متراً ونصف متراً في اليوم ، فالعمل يقتضى سبعة وستين ألف عامل ، وبذلك يتم تطهير الترعة على أيديهم في ثلاثين يوماً

فأصدر سعيد أمره إلى المديريات بارسال هذا العدد من الفلاحين ، ولم تك足 المديريات بارسال العدد المطلوب ، بل ضاعفت المهمة ، وأرسلت ١١٥ ألف عامل ، فوزع هذا العدد على طول الترعة ، وزوّدت عليهم الفؤوس ، بمعدل فأس لكل خمسة من العمال ، وأحد منهم يحفر الأرض بفأسه ، والثانى يملاً الغلقان من الردم ، والثلاثة الآخرون يحملونها إلى جانب الترعة ، حيث أمر سعيد باشا بإنشاء طريق زراعي معبد ، عرضه عشرة أمتار ، وقد سار العمل على هذه الوتيرة ، وعنى سعيد باشا بالشهر على صحة العمال ، فأحضر أطباء يلاحظون حالتهم الصحية طول مدة العمل ، وتم تطهير الترعة وإنشاء الطريق في اثنين وعشرين يوماً ، دون أن يموت أحد من العمال ، بخلاف ما وقع حين إنشاؤها في عهد محمد على ، ولم يزد عدد المرضى الذين أعيادهم العمل عن خمسة في الألف (١)

فكان هذا العمل الضخم وإتمامه في هذه المدة القصيرة مدعاه للإعجاب ، لما تجلى فيه من مقدرة الفلاح المصرى على إنشاء أعمال العمران التي تنوء بها الجماعات من الشعوب الأخرى

وقد كان نجاح هذا المشروع مما شجع المسيو فرديان دلسبيس على إغرام سعيد باشا بتسيير الآلاف من الفلاحين في احتفار قناة السويس ، فرضى بتأثير هذا الإغراء أن يسخر الآلوف المؤلفة منهم في عمل عاد بالضرر الويل على مصر والمصريين

السكك الحديدية والتغيرات

توفي عباس قبل إتمام الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية ، فأتمه سعيد باشا سنة ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات وبنها حتى وصل إلى العاصمة ، ولم تكن

(١) مربو ، مصر الحديثة ص ١٢٣

«الكبارى» بنيت على النيل ، فكان القطار عند اجتيازه الفرعون ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر الى آخر وأنشأ خطوطاً تلغرافية على الطريقة الحديثة من الاسكندرية والقاهرة والسويس بعد أن كان الموجود منها في عهد محمد على على طريقة (شاب) القديمة

ومداخن الحديدى بين القاهرة والسويس . كتمنة لخط الاسكندرية والقاهرة ، وفتح للواصلات سنة ١٨٥٨ ، فعاد على ميناء السويس رعماها بالفوانيد الجمة ، لأنها كان سبباً في زيادة ورود السفن التجارية إلى هذا الشغور لنقل ممتلكاتها وركابها إلى القاهر ثم إلى الاسكندرية بطريق السكة الحديدية ، فنشطة حركة العمران والتجارة فيها ، ولما كثر توارد السفن إليها شرع سعيد باشا في إصلاح مينائها

ومن أعماله في العمران الاحتفاظ بالآثار المصرية وجمعها في مخازن أعدت لها في بولاق ، وعهد بهذه المهمة إلى العالم الأثري مارييت (باشا) كما سيجيء بيانه ، وعهد إلى العلامة محمود بك (باشا) الفلكي الرحلة إلى دنقلاً لرصد كسوف الشمس بها ، فقام بهذه المهمة وأغتنم هذه الرحلة لتحقيق ٤٤ موقعاً من المواقع الفلكية بين أسوان ودنقلة وبعد عودته كلفه سعيد باشا وضع خريطة مفصلة للقطر المصري ؛ فقام بهذا العمل خير قيام ، واشترك معه في أدائه طائفه من المهندسين المصريين

إصلاحاته الحربية

وبشه الروح القومية في الجيش

اشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش ، ولعل نشأته الأولى على ظهر الأسطول جبيت إليه الحياة الحربية ، بريه كانت أم بحرية ، فعنى بعد أن ولى الحكم بترقية شؤون الجناد ، وكثيراً ما كان يصرف أيامه في معسكر الجيش ، و تعرض عليه شؤون الحكومة وهو وسط جنوده ، ويطيب له أن يسير بهم منتقلًا في أنحاء البلاد

ولقد بذل جهداً كبيراً في سهل ترقية الجيش من الوجهتين المادية والمعنوية ، وصيغه بالصيغة الوطنية ، وذلك أن الجيش كان قد اضمحل في عهد عباس الأول ، كما تقدم بيانه ، فقد الروح التي كانت تفيض عليه صفات العظمة والبطولة في عهد محمد علي

وابراهيم ، فعمل سعيد على نيرد إلى الجيش صبغته الوطنية ، وبذل جهداً كبيراً في إصلاح حالتة

فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها في الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الإصلاح أثر حسن في ترغيب الانتظام في سلك الجنديية إلى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب النظام القديم كان مقصوراً على الطبقات الفقيرة (وهو الآن كذلك مع الأسف) ، فوغر في أذهان الناس أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلي بها تلك الطبقات ، وما زاد في نفور الأهلين منها طول مدة التجنيد ، فكان المجندون تطول غيابهم عن أهالיהם ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم في الحروب المتواصلة التي حدثت في عصر محمد على ، فيجهل أقرباؤهم مصيرهم

فلا إصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، ثم عمها على جميع الشبان ، على اختلاف طبقاتهم ، بجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، وبذلك أدخل في نفوس الناس الطائفة على مصير أبنائهم المجندين ، وأخذوا يشعرون بأنهم سيعودون قريباً إلى قراهم وعائلاتهم ، وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية ، بحيث يقترب أبناء المشايخ والعمد وأقاربهم كسائر الفلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجنديية ، وترحب الشبان في الخدمة العسكرية ، لأن العمد والمشايخ هم في الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخول أبنائهم في سلك الجيش تكريماً للجنديية ، وتقويم لنفوس الشبان إذ يشعرون أن التجنيد واجب عام ، يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء

وعلاوة على ما تقدم ، فإن سعيد باشا عنى بترقية حالة الجنود والترفيه عليهم من جهة الغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون أنهم تحت لواء الجيش أحسن حالاً مما كانوا عليه في قراهم ، طعاماً ، ومسكناً ، وملبساً ومظهرآ

وكان لهذا الإصلاح أثره في إيلاف الأهالي الخدمة العسكرية ، وفي تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ يعودون إلى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم كانوا ينقلون إليها مبادئ النظام والتقدم والنظافة التي تعودوها في ظل الجنديية

ولو استمر العمل بهذا النظام طويلاً لافتت الأمة الخدمة العسكرية ، ولاعتادها الشبان من مختلف الطبقات

وكان لسعيد باشا ميلاً إلى ترقية الضباط المصريين وادعائهم حقوقهم في التقدم ، وفي عهده ارتقى كثير منهم إلى المراتب العسكرية العالية ، بعد أن كانت منحصرة في الترك والشراسكة ، وقد نقل عنه عرابي باشا خطبة ألقاها في مأدبة بقصر النيل ، تدل على عواطف وطنية شريفة ، قال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار رجال الحكومة الملوكين والعسكريين :

«أيها الأخوان، أني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ، فوجدت أنه مظلوماً مستبعداً لغيره من الأمم الأرض، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة، كالعرب الرعاة (المكسوس) والأشوريين، والفرس، حتى أهل ليبيا والسودان والميونان، والرومان، وهذا قبل الإسلام، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة، كالأمويين، والعباسيين، والفاطميين من العرب، والترك، والأكراد، والشركس؛ وكثيراً ما أغارت فرنساً عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن (بونابرت)؛ وحيث أني اعتبر نفسي مصرياً؛ فوجب على أن أرب أبناء هذا الشعب، وأهذبه تهذيباً، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة، ويستغنى بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل»^(١)

ويقول عرابي باشا في مذكراته تعليقاً على هذه الخطبة، إنه لما انتهى سعيد باشا من القائمها خرج المدعون من الأمراء والعظام غاضبين، حانقين، مدھوشين مما سمعوا، وأما المصريون نخرجوا ووجوههم تهلل فرحاً واستبشرآً، ويقول إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر في أساس مبدأ (مصر للمصريين). قال: «وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضح أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة».

هذا ما يقوله عرابي باشا، وهو قول لا غبار عليه، ونصيف إليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة في عهد خلفاء سعيد باشا لما كانت البلاد في حاجة إلى شباب الثورة العرابية، لأن هذه الثورة قامت لتحقيق المبدأ الذي اتبعه سعيد باشا، فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لتم الغرض الذي دعا إليه العرابيون في سكينة وسلام، وكانت البلاد في غنى عن قيام تلك الثورة، التي مهما قيل لها أو عليها، فلا نستطيع أن نغفل تلك الحقيقة المؤلمة، وهي أنها أفضلت

(١) مذكرات عرابي (كشف الستار عن سر الأمصار) ص ١٦

بالبلاد الى الاحتلال الانجليزى، وليس يخفى أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان

ومن أعماله الحربية إنشاء (القلعة السعيدية) بالقناطر الخيرية. وكان يقيم بها أحياناً.

وجعلها بحيث تستطيع صد هجمات الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا من طريق النيل

على أن سعيد باشا كان لا يستقر على و蒂رة واحدة في اهتمامه بشؤون الجيش.

ومرجع ذلك إلى ضعف إرادته. وقلة حزمه. وتقلبه في الرأي. وقد كان هذا الخلق

من مواضع ضعفه. فكثيراً ما لوحظ عليه أنه يرى في يومه نقيض ما رأه بالأمس.

ولا يثبت على رأى واحد. فبينما هو يعني بزيادة عدد الجيش إذا به يصرفه. فلا يقى منه

إلا النزول اليسيير

ففي سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش. ولم يبق منه إلا ست أورط من المشاة.

وثلاثة بلوكت من الفرسان. وبلوكين من المدفعية. ولما سافر في رحلة إلى السودان

أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب أورطتين من الجيش وأبقى الأورط الأربع الأخرى

بالقاهرة والاسكندرية وبني سويف. ثم جمع الضباط وجعل منهم مدرسة بالقلعة

السعيدية بالقناطر الخيرية. وذلك خوفه من أن يقوم الجيش بثورة في البلاد أثناء غيابه

بالسودان

وفي سنة ١٨٦٠ أعاد الجيش ثانية. وأعاد إليه الضباط. ونظم فرقه. وكان غرضه

الاستعداد للقتال حينما توترت العلاقات بينه وبين تركيا. بسبب مسألة قناة السويس.

وقاد بنفسه هذا الجيش وعسكر به في مريوط. وأقام هناك ثلاثة أشهر. كان لا ينفك

خلالها يجرى المفاورات الحربية. وكان عدد الجيش وقىئذ ٦٤٠٠٠ رجٍ مقاتل كا أحصاه

اسماعيل باشا سرهنوك في كتابه (ج ٢ ص ٢٧٥) ثم صرف معظم هذا الجيش بعد أن

عادت العلاقات الودية بينه وبين تركيا

وفي سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفرق، وكان لا يقر له قرار إلا بين جنده

ويلازمهم في معظم أوقاته

وذكر عنه المسيو فريدينان دلسيس أنه نقص الجيش من ستين ألفاً إلى ثمانية آلاف أو عشرة

آلاف مقاتل. وذلك لـ^أكي يخصص أكبـر عدد من المقترعين لأعمال الحفر في قناة السويس^(١)

ومن هذا يتبيـن لكـ أنـ القـناـةـ . عـلـاوـةـ عـلـىـ ماـ جـلـبـتـهـ لمـصـرـ منـ المـضـارـ كـاـ سـيـجيـ . بـيـانـهـ ،

كـانتـ منـ أـسـبـابـ اـضـحـالـ الجـيشـ المـصـرىـ

(١) وثائق عن تاريخ القناة للمسيو فريدينان دلسيس ج ٤ ص ٣٣٣

البحرية

قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة بحرية ، وانتظم في سلك الأسطول قبل أن يتول الحكم ، فكان ميلاً بطبيعة نشأته إلى إحياء البحرية المصرية ، بعد ما أصابها من الاضمحلال والإهمال في عهد عباس

وقد وجه عنایته فعلاً إلى ترقية شأن الأسطول ، فلما عادت السفن الحربية المصرية أن حرب القرم أمر بإصلاحها وإنشاء سفن أخرى جديدة ، ولكن انجلترا خشيت من تعود إلى مصر قوتها البحرية ، التي كانت لها في عهد محمد على ، فأوعزت إلى الحكومة التركية أن تمنع سعيد باشا من تجديد الأسطول ، وزينت للسلطان هذا العمل موهمة إياه أن الأسطول اذا قوى شأنه يصبح خطراً يهدد تركيا كما كان في عهد محمد على ، فاستمع السلطان لدسائس انجلترا ، وأصدر أمره إلى سعيد باشا بالكف عن إصلاح سفن الأسطول وإنشاء سفن جديدة إلا بأمره ، فكان ذلك سبباً لاضمحلال قوة مصر البحرية ، وقد ذكر اسماعيل باشا سرهنك في كتابه حقائق الأخبار (ج ٢ ص ٢٧١) أن سعيد باشا إذ رأى أن معظم السفن الرئيسية أمام دار الصناعة بالاسكندرية لا تصلح للقتال إلا بعد إصلاح جسيم وإنها إذا تركت وشأنها أصحابها التلف ، أمر بتكسيرها وبيع أخشابها وإحرق ما لا يصلح منها ، وسرح معظم ضباطها ، وأدخل الكثيرين منهم في الوظائف الملكية ، وخاصة في مطابخه الواسعة ، ولما أنشأ إدارة للملاحة النيلية ، وهي التي دعيت مصلحة (الإنجارية) ابتعث لها كثيراً من البواحر النيلية ، واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود ، وهناك سبب آخر لاضمحلال البحرية في عهد سعيد ، ذلك أن الدول الأوروبيةأخذت تستبدل بالسفن الحربية الشراعية السفن الجديدة البخارية التي صارت الأسطول الحربي تتالف منها ، ولكن مصر قصرت عن ممارسة الأسطول الأوروبي في هذا المضمار ، ومن هنا أمعنت البحرية المصرية في الضعف وآلت حالتها إلى الاضمحلال

ولو كان سعيد باشا على شيء من العزمية التي امتاز بها أبوه العظيم لما ترك الأسطول الضخم الذي بذلت مصر في سبيل إنشائه ما بذلت من الجهد يتبدد ويتسسر ، ولما صدع بأمر السلطان في هذا الصدد ، بل كان عليه أن يتهدد الأسطول ، فيصلح مما يعطى من

سفينة ، ويحدهه بانشاء السفن الحربية البخارية بدلاً من السفن الشراعية ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهو الذي كان يحدره أن يقدر قيمة الأسطول إذ نشأ في البحرية ومارس فنونها وعرف مبلغها من الجلال وخطر الشأن

أهمل إذن سعيد شأن البحرية البحرية ، على أنه عنى بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية ، فأنشأ شركتين للملاحة ، إحداهما بحرية ، والأخرى نيلية

شركة الملاحة النيلية

فالشركة الأولى للملاحة النيلية . أُسست سنة ١٨٥٤ . والغرض منها نقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل على الباخر

والسبب الذي دعا سعيد باشا إلى تأسيس هذه الشركة أن المراكب الشراعية التي تنقل الغلال والمتاجر من داخلية البلاد إلى الإسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تتأخر في سيرها ، لعากسة الريح . فكانت تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية في خمسة عشر يوماً . في حين أن الباخر تقطعها في ست وثلاثين ساعة . ولما كانت الإسكندرية تستمد أقواتها ومواد الغذاء من الداخل . فتأخر السفن الشراعية يؤدى إلى أزمة في الأوقات . وخاصة بعد أن زاد عدد سكانها . هذا إلى ما في استخدام المراكب الشراعية من تعطيل المواصلات التجارية عامة . فأسس سعيد باشا هذه الشركة لتسهيل سبل المواصلات النيلية

غير أن عيب هذه الشركة أنها شركة أجنبية ، مؤسسوها من الأوروبيين ، ومعظم رءوس أموالها أجنبية ، ولعل هذه أول شركة أجنبية أُسست في عهد سعيد باشا

ولم يكن من أعضائها من المصريين سوى رئيسها الفخري (الذى لم يكن له عمل ما) وهو ذو الفقار باشا وزير المالية ، أما أصحاب الامتياز فهم ، فيما عدا ذو الفقار باشا جماعة من الماليين الأجانب من مختلف الجناس ، وهم الميسيو رويسنر Ruyssenaers قنصل هولندا العام في مصر ، والميسيو بوبولاني popolani ، وكوينيج بك Bey Koenig سكرتير سعيد باشا الأوروبي ، وموجيل بك Mougel Bey كبير مهندسى الرى ، وأيدى Aide وليونidas ليغونس Lyghounes ، ومدة امتياز هذه الشركة ١٥ سنة ، ومن شروط

عقد تأسيسها ، أنه عند وقوع خلاف بينها وبين الحكومة فلا يرفع الخلاف إلى القنصليات بل يحسم بواسطة التحكيم ، وأن بواخر الشركة ترفع العلم المصري باعتبارها تابعة لشركة مصرية

سميت هذه الشركة (الشركة المصرية للملاحة البخارية) ، ولم تكن مصرية إلا بالاسم وكان في إمكان الحكومة أن تشتري الباخر من مالها بدلاً من الاتجاه إلى روس الأموال الأجنبية ، وقد سوغ أنصار سعيد باشا إعطاء هذا الامتياز لشركة أوروبية بقولهم إن الحكومة عهدت إلى الشركة القيام ببعض أعمال الإصلاح في ترعة محمودية دون تكليف الخزانة المصرية نفقاتها ، كتوسيع مأخذ الترعة من النيل ، وتوسيع مصبها في البحر الأبيض المتوسط ، وتطويرها ، وإنشاء طbellات عند العطف لتغذيتها

شركة الملاحة البحرية (الشركة المجيدة)

أما الشركة الثانية فهي شركة مساهمة للملاحة البحرية ، أسست سنة ١٨٥٧ رئيسها الأمير مصطفى فاضل بن ابراهيم باشا . ومجلس إدارتها خليط من الوطنيين والأجانب . وهم نوبار باشا (وكان لم يزل بك) نائباً للرئيس . وله في غيبته أن يقوم بأعمال الرئاسة . وعبد الله بك ، والمنيو دميريكر Dumreicher وحسن كامل بك . واسماويل فوزي بك . والمسيو لييف . ومحظي بك . والمسيو باستري Pastre ، والمسيو رويسنر . وسعيد افندي ، وهو ج ثوربرن Huge Thurburn والمسيو زكالي zaccalli

وسميت (القومانية المجيدة) . نسبة إلى إسم السلطان عبد المجيد الذي كان يتولى عرش السلطنة العثمانية وقتئذ . والغرض منها تسخير الباخر في البحر الأحمر . ومنه إلى المحيط الهندي ثم الخليج الفارسي . وفي البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس ونفور الحجاز واليمن والقصير وسوakin ومصوع وتنقل الحجاج ذهاباً وإياباً إلى نفور الحجاز . ولها بواخر أخرى بالبحر الأبيض المتوسط . ومدة امتيازها ثلاثون سنة . وبواخرها ترفع الرأية المصرية . ومنازعاتها لا ترفع أمام المحاكم القنصليات بل أمام المحاكم التجارية المصرية . ولها مستودعات ومحطات في السويس والقصير ومصوع

ولما كان هذه الشركة قد سرى إليها الأضمحلال في أواخر عهد سعيد . لفساد ادارتها ، فلتها الحكومة . وتولت تصفيتها على عهد اسماعيل وأعادت الاسهم الى أصحابها مقسسة على عشر سنوات فبلغت مع فوائدها ٣٤٠٠٠ جنيه . وحلت محلها الشركة العزيزية التي أنشأها اسماعيل كاسيجي ببيانه ..

إصلاح ميناء السويس

نشطت حركة التجارة والعمان في السويس بعد إنشاء السكة الحديدية التي تصلها بالقاهرة . وبعد إنشاء الشركة المجيدة للبواخر . واتخاذ السويس ميناء لخطوط الملاحة في البحر الأحمر . فعزم سعيد باشا على إصلاح مرافقها وتوسيعه ، وعهد بذلك إلى شركة فرنسية تعرف بشركة (ديسو) Dussau . وتعاقد واياها على إنشاء حوض عامم بالميناء لاصلاح السفن . ثم على توسيع الميناء . وقد كملت أعمال الاصلاح في عهد الخديوي اسماعيل

حروب مصر في عهد سعيد باشا

اشتركت مصر على عهد سعيد باشا في حربين ، الأولى حرب القرم ، والثانية حرب المكسيك

(١) حرب القرم

تقدما الكلام عن اشتراك مصر في هذه الحرب على عهد عباس باشا ، وحسن بلاه الجيش المصرى في الدفاع عن (سلستريا)

وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد باشا نجدة إلى الجيش المصرى فيها

وما يذكر عن هذه الحرب أن المصريين عانوا فيها الشدائـد والأهوـال ، إذ كانوا يقاتلون في شدة البرد خلال شتاء عامي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ، ولقي الكثير منهم منيتهم في ميادين القتال ، أو من فتك الأمراض ، وقد دافعوا دفاعاً مجداً عن (إياتوريا) ، وهي

مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم ، احتلها الحلفاء لمراجحة موقع الروس الحصينة في
شبه الجزيرة

واستشهد سليم باشا (فتحي) القائد العام للجيش المصري في حصار (ايياتوريا) ،
ذلك أن الروس هاجموا المدينة بغتة ، وكان سليم باشا يتولى قيادة المصريين فيها ، فبينما
هو قائم باعباء القيادة أصابته رصاصة في جبهته أرده قتيلا ، ومع أن الروس ارتدوا
عن المدينة ، لكن مقتل سليم باشا كان خسارة كبرى أصابت الجيش ، ووقيعت وقعا
أليها في نفوس الجندي والضباط

ذكر المسيو (فانترينيه) Vingtrenier نبأ مقتله في كتابه (سليمان باشا) . قال : « إن
مصر شعرت بالآلم الشديد لوفاته ، إذ فقدت فيه قائداً فذاً في الكفاءة الحربية ، ورجلا
نزيهاً محباً للخير ، اكتسب يشجاعته اعجاب رؤسائه ومحبة زملائه »

ولما قتل سليم باشا فتحي ، جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا المنكلى ،
والامير الاى على بك مبارك (باشا) من أركان حربه ، وكان وقئذ ناظر المدرسة
المهندسخانة . واشترك في الحرب كما تراه في ترجمته بالفصل التاسع

ونال الجيش المصري في حرب القرم ثناء مستطاباً من شهدوا حسن بلائه في القتال
نقل المسيو فانترينيه في كتابه (سليمان باشا) ما ذكرته في هذا الصدد جريدة
مونيتور الفرنسية . قالت :

« أثبتت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن ايياتوريا . ونالوا هذه المكانة
ذاتها في حرب الدانوب . واحتلوا وحدهم معظم العباء في الدفاع عن سلسليا »

وقالت في موطن آخر : « ان المصريين يعرفون في الجيش التركي وفي البلاد التركية
بالعرب . وطريقتهم في القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التي تجمع الى الشجاعة
والاقدام . الذكاء والنظام » (١)

وشهد الجنرال اسمونت Osmont أحد قواد الجيش الفرنسي في حرب القرم شهادة
قيمة للجيش المصري . قال (ص ٥٧٤ من الكتاب المتقدم ذكره) : « لقد اشترك قسم

(١) سليمان باشا لل المسيو فانترينيه ص ٥٧٢

من الجيش المصرى معنا فى حرب القرم ، وحينما كنت محافظاً لاباتوريا شاهدت فرقه من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ الف جندي ، يؤلفون جزءاً من جيش عمر باشا ، ورأيت هذه الفرقه فى المناورات البحرية ، كما رأيتها وهى تخوض غمار الحرب ، بجانب فرقتين من الترك ، وأشهد إنها كانت تفوق الفرقتين التركتين في كل المزايا »
وقال المسيو مريو في كتابه مصر الحديثة يصف الجيش المصرى في عهد سعيد باشا
لمناسبة حرب القرم :

« إن كفاءة الفلاح المصرى في فهم النظام الحربى ، واتباعه اياته ، وما اشتهر به من الشبات والشجاعة في مواجهة الأعداء ؛ كل هذه المزايا قامت عليها البيانات ، لا في ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا في عصر محمد على فحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلسليا وايباتوريا في حرب القرم الأخيرة » (١)

وقد غرق الأدميرال حسن باشا الاسكندراني قائد الأسطول المصرى في تلك الحرب ، وذلك أنه كان عائداً باسطوله إلى الاستانة لإصلاح بعض السفن ، فهبت على الأسطول ريح عاصفة ، وتکاثر عليه الضباب ، فحال دون اجتيازه بوغاز البوسفور بسلام ، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز ، فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد) (والبحيرة) ، فانكسرتا ، وغرق من بهما من الجنود والضباط . وعدهم ١٩٢٠ مقاتل . لم ينج منهم سوى ١٣٠ ، وكان من الغرقى حين باشا الاسكندراني وستان بك من قواد الأسطول المصرى

وانتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفاؤها على الروس وسقوط قلعة سباستبول ؛
وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ في مؤتمر باريس الذي سُلِّمَ فيه الروسية بطالب الحلفاء

(٢) حرب المكسيك

والحرب الثانية هي حرب المكسيك ، وقد تأخذ الدبهشة من اشتراك مصر في حرب المكسيك بأمريكا ، إذ لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولكن كذلك شاءت ميول سعيد

(١) مصر الحديثة للسيو مريو ص ٤٢

(٢)

نحو نابليون الثالث امبراطور فرنسا في ذلك العهد وصداقته له أن يلبي دعوته حينما طلب إليه أن يمده بقوة حرية مصرية تعاون الجيش الفرنسي بها

كانت المكسيك جمهورية تتخللها الفتن والثورات ، كما هو شأنها إلى اليوم ، وكان يتولى رأسة جمهوريتها سنة ١٨٦١ المسيو جوارز Juarez ، فقادت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وإطلاع السلطة من يده ، فصادفت هذه الحركة هو في نفس الامبراطور نابليون الثالث ، واعترض أن يغضدها ليسيطر نفوذه على المكسيك ويؤسس بها الامبراطورية تحت رعيته . وتذرع بما لحق الرعایا الأوروبيين في الحرب الأهلية من المضار ، فطالب الحكومة المكسيكية بتعويض هذه الخسائر ، فلما رفضت ألب عليها إنجلترا وأسبانيا ، ثم ما لبست هاتان الدولتان أن نفينا أيديهما من المسألة ، أما نابليون فقد جرد على المكسيك جيشه أكان مصيره إلى الهزيمة ، واستند في خلال الحرب بصديقه سعيد باشا فسرعان ما أمدته بكتيبة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، يقودهم البكباشى جبرة الله محمد السودانى ، والصاغ محمد افندى الماس ، فأبحرت هذه القوة إلى المكسيك سنة ١٨٦٢ ، وأبلغت في الحرب هناك بلاء حسناً ، وشهد لها المارشال فوري Forey قائد الجيش الفرنسي بالشجاعة إذ قال عن جنودها : « إن هؤلاء ليسوا من الجنود ، بل هم أسود » (١) واستمرت الحرب سجالاً بين الجيش الفرنسي وقوات الثورة ، وأعلنت الامبراطورية في عاصمة المكسيك فترة من الزمن ، واعتلى عرشها الأرشيدوق مكسميليان النمساوي سنة ١٨٦٤ ، ثم كانت الغلبة لقوات الثورة ، خلا الفرنسيون عن البلاد ، وقتل الامبراطور مكسميليان رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧ ، وفي غضون ذلك ظلت الكتيبة لمصرية تكافح في تلك البلاد السحيقة نيفاً وأربع سنوات ، قتلت في خلالها البكباشى جبرة الله ، خلفه الماس افندى ، وفى معظم رجالها ، ولم يبق منهم بعد انتهاء الحرب سوى بقية من ضباطها ، ونحو ثلاثة من جنودها ، ولما جلا الجيش الفرنسي عن المكسيك عادت الكتيبة إلى فرنسا ، فاستعرضها الامبراطور نابليون الثالث ، يصحبه القائد

(١) راجع تاريخ هذه الكتيبة في البحث المنشور في مجلة مصر Revue d'Egypte بالسنة الأولى (١٨٩٤) ص ١٠٤ وما بعدها ، وما ذكره اسماعيل باشا سر هناك في كتابه حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٧٦

المصرى شاهين باشا ، الذى كان يزور باريس وقىضى ، فهناً الأمبراطور ألماس افتدى على
شجاعة السكتية وحسن نظامها ، ووزع الأوسمة على بعض المميين من رجالها ، ورجعت
إلى مصر في مايو سنة ١٨٦٧ ، فاستعرضها الخديوى اسماعيل بسرای رأس التين
بالاسكندرية ، وأمر بترقية طائفة منها ، وأقام لطيف باشا وزير البحريه مأدبة لضباطها
تكريراً لهم ولسائر رجال السكتية

السودان

من عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتاً ما . ولم يحدث في عهده ما
ليسترعى النظر سوى إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، وقد فصلنا الكلام عنها في
كتاب « عصر محمد على » (ص ٤٨٨)

وتولى منصب الحكم العام للسودان في عهد عباس خالد باشا الذي كان يشغله من
عهد محمد على ، ثم عبد اللطيف باشا الذي أنشئت في عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية .
ثم رسم باشا وقد مات بالخرطوم ، ثم اسماعيل باشا أبو جبل ، ثم سليم باشا ، ثم
على باشا سرى

ولما توفي عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيباً من اهتمامه ، فقد
اقتبس من أبيه فضيلة العناية بهذا الإقليم العظيم المتقدم لمصر ، وفي أول عهده جعل على باشا
شركس حكمداراً للسودان ، وأوفد أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتتفتيش على إدارته ،
وإصلاح شؤونه ، ولكن الأمير لم يطل البقاء فيه ، لظهوره وباء جعله يعيجل بالعودة إلى مصر
لـ اعتزم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتلقى أحواله كما فعل أبوه من قبل ، فذهب
إليه يصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راغب باشا ، ذو الفقار باشا ،
وإبراهيم بك النبراوى ، والمسيو فردان دلسبيس ، والدكتور أباته باشا ، وأراكيل بك أخرى
نوبار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم في ٢٠ يناير سنة ١٨٥٧ والتقي بأعيان الأهلين ، فقدموه
له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكم ، فاستمع لشكایاتهم ، وتألم
لحالهم ، وساورته يوماً فكرة إخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا
إليه أن يعدل عن رأيه ، متحججين بأن إخلاء السودان يؤدي لا محالة إلى تفاقم الحالة فيه ،

إذ تعمه الفوضى ، فعدل سعيد عن رأيه ، واعتنم إصلاح حاليه ، فأمر بإعفاء الأهالى من المتأخر عليهم من الأموال ، وخفض الضرائب تحفيضاً عظيماً ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السوقى فى الأطيان ، لأن السوقى تبين مبلغ خصب الأرض ، ودرجة إنتاجها ، فجعل على مجموع الأرض التى تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش ، وأما الأطيان التى تروى من غير حاجة إلى السوقى فجعل على القدان الواحد منها ضريبة تراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشاً

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالى يشكون من سوء معاملتهم ، واعتنم تعويذ الأهلين حكم أنفسهم بإنشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات^(١)، ورفع المظالم عن الأهلين ، وفك اسار الكثيرين منهم ، ورسم بالغاء السخرة ، وأمر مديرى الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين ، وألا يرهقونهم في جباية الضرائب ، وقضى أن لا يعهد إلى الجنود في تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة

ومن إصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات في صحراء (كروسكو) ، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين

ولما عاد إلى مصر عهد إلى موجين بك كبير المهندسين تسهيل سبل المواصلات بين وادى حلفا والخرطوم ، فرأى موجيل بك أن خير وسيلة لإدراك هذا الغرض إنشاء سكة حديد ووضع مشروع لذلك ، ولكنه لم ينفذ لكتلة ما يقتضيه من النفقات ، وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) ، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة في ادارتها بعضها عن بعض ، ترجع كل منها في شؤونها إلى وزارة الداخلية ، شأن مدیريات القطر المصرى ، وجعل من الخرطوم وستاندر مديرية واحدة ، وعيّن أراكيل بك نوبار مدير لها ، لكي يشرف على الإصلاحات التي قررها ، وقد بقي يتولى منصبه إلى أن توفي سنة ١٨٥٩ ، ثم خلفه حسن بك سلامة حتى عزل ، وخلفه محمد بك راسخ

(١) ذكر ذلك المسيو فردینان دلسیس في كتابه (ذكريات الأربعين سنة) ج ٢

شم رأى سعيد باشا أن استقلال مديرى الأقاليم جعلهم يحنون إلى الاستبداد والظلم، ويسيئون إلى الأهلين، فألغى استقلالهم، وأعاد منصب حكمدار السودان، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب، فـكـارـتـ من أـعـظـمـ ولاـةـ السـوـدـانـ شـائـناـ، وـلـهـ فـيـهـ إـصـلاحـاتـ جـمـةـ، مـنـهـاـ أـنـهـ عـيـنـ مـنـ الـأـهـلـيـنـ نـظـارـ أـقـسـامـ (ـمـأـمـورـيـ مـرـاكـزـ)ـ، وـمـعـاـونـيـنـ، وـعـقـدـ وـرـؤـسـاءـ هـمـ بـجـالـسـاـ، وـسـنـ قـوـانـيـنـ جـديـدـةـ لـتـنـظـيمـ الصـرـائـبـ، وـتـسـهـيلـ جـبـاـيـتهاـ رـقـدـ عـضـدـ سـعـيدـ رـحـلـاتـ وـالـاـكـتـشـافـاتـ الجـغـرـافـيـةـ فـيـ أـنـحـاءـ السـوـدـانـ، فـكـثـرـ عـدـ المـكـتـشـفـيـنـ فـيـ عـهـدـهـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـحـذـ حـذـوـ أـيـهـ فـيـ اـيـفـادـ بـعـثـاتـ مـصـرـيـةـ كـالـبـعـثـةـ الـتـىـ أـنـفـذـهـ مـحـمـدـ عـلـىـ السـوـدـانـ بـقـيـادـةـ الـبـكـبـاشـىـ سـلـيمـ بـكـ قـبـطـانـ أـحـدـ ضـبـاطـ الـبـحـرـيـةـ الـمـصـرـيـةـ، بـلـ تـرـكـ أـمـرـ هـذـ الرـحـلـاتـ المـكـتـشـفـيـنـ الـأـجـانـبـ، وـهـىـ نـاحـيـةـ ضـعـفـ وـقـعـ فـيـهـاـ هوـ وـاسـمـاعـيلـ مـنـ بـعـدـهـ

رحلة سعيد باشا إلى الحجاز

قصد سعيد باشا إلى الحجاز في أوائل سنة ١٨٦١ ، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضا سياسيا ، فإنه لم يذهب إلى الحجاز في موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة ، وكانت الرحلة أشبهه بتجريدة عسكرية ، إذ كان يصحبه من الجندي والخاشية نحو الفي رجل من مشاة وفرسان ومدفعية واتباع ، واختلفت الآراء في الباعث لسعيد على هذه الرحلة ، ويؤخذ من روایة محمد بك صادق (باشا)^(١) الذي رافق الامير في رحلته ان لها سببا سياسيا ، وهو استدعاء الحكومة التركية ايام للحضور إلى الاستانة ، فرفض الذهاب إليها ، واعتزم زيارته المدينة لكن يتم حل الاعذار ويجد مسوغا للرفض ، وبدأ سعيد باشا رحلته في ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ (٢٣ يناير سنة ١٨٦١) فقصد من القاهرة إلى السويس ، ومنها إلى (الوجه) من ثغور الحجاز ، ثم سارت الحملة برا إلى المدينة المنورة ، وصلتها في أول شعبان (١٢ فبراير) ، وبعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى بمادر المدينة في اليوم السادس منه ، وسار إلى ينبع ، ومنها استقل الباخرة (نجد) إلى السويس فوصل إليها في ١٧ منه (٢٨ فبراير)

(١) في بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية عدد مايو سنة ١٨٨٠ ص ١٩ تحت عنوان

المدينة منذ عشرين عاما Medine il y a vingt ans

التعليم

لم يوجه سعيد باشا عناديته إلى إحياء النهضة العلمية، واستمر الجمود الذي أصاها في عهد عباس، وهذا موضع نقد شديد في تاريخه

وقد حاول المسيو (ميرو)، وهو من المعجبين بسعيد، أن يتلمس مسوغاً لهذا التقصير المعيب، فلم يجد ما ينبع بدفاعه، قال في كتابه (مصر الحديثة):

«لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس، فاصابها الاضمحلال والتدهور، وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفووضى جعل الباشا يرى من الحكمة إيقافها نهائياً، بدلاً من السعى في تنظيمها. إذ كان السعى عبثاً لا يجدى»^(١)

وهذا دافع كاترى لا يسوغ عمل سعيد، إذ ليس من العقول ولا مما يقبله المنطق أن يعالج التقهقر في المدارس بإيقافها، بل العلاج المشروع هو تنظيمها وإصلاحها، وإذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم، فأسهل من ذلك إصلاح ما اختلف من شؤونها

تولى سعيد الحكم وليس بالقطر المصري من المدارس التي أنشئت في عهد محمد على سوى النزر اليسير، فلم ي العمل على إحياء ما اندر منها. بل ظهر عدم اكتراثه بشؤون التعليم بالغاء ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقيئه عبدى شكري باشا وألغى أيضاً مدرسة المهندسخانه ببلاط سنة ١٨٥٤، وكان يتولى نظارتها العلامة على بك مبارك (باشا) فأنفذه سعيد ضمن الحملة التي أرسلها لمساعدة تركيافى حرب القرم وأغتنم هذه الفرصة لإغلاق المدرسة، وألغى أيضاً مدرسة (المفروزة) سنة ١٨٥٥ وأنشأ مدرسة حرية بالقلعة عهد بنظارتها إلى العلامة رفاعة بك رافع وسميت مدرسة أركان حرب

ثم أعاد سعيد فتح مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٥٨ وجعلها مدرسة حرية نقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحرية، وأعاد فتح المدرسة البحريية

(١) مصر الحديثة. للسيو ميرو ص ٨٢



سعید باشا والی مصر

من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٦٣

بالاسكندرية، وفي عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العيني، ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقابلات عهد بنظارتها والتدریس قيها إلى السيدة جليلة مرهان التي تلقت علومها الطبية في مدرسة القابلات القدیمة المنشأة على عهد محمد على والمبلغة في عهد عباس

وقرت حركة البعثات العلمية فلم يرسل إلى أوروپا سوى ٤١ طالباً

ومع جمود حركة التعليم إلى هذا الحد فإنه لم يدخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها، ففتح إعانت سنوية لراهبات البون باستور Bon Pasteur (راعي الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والاسكندرية، ولراهبات الصدقية بالاسكندرية، ووهب للبعثة الأمريكية بناء بمصر لتخذه مدرسة لها، وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الإيطالية بالاسكندرية إعانته قدرها ٢٤٠٠٠ جنيه، ووهب لها قطعة أرض في أجود جهات الاسكندرية لتنشئ بها المدرسة، فكانت عنایته بنشر التعليم الاجنبي أكبر من عنایته بنشر التعليم الأهلي، وهذا من متناقضاته

نظام الحكم في عهد عباس وسعيد

النظام السياسي

بقـ الحـكمـ فـ عـهـدـ عـبـاسـ وـ سـعـيدـ حـكـماـ يـتـولـاهـ وـلـيـ الـأـمـرـ إـذـ كـانـ يـجـمعـ فـ يـدـهـ السـلـطـةـ التـشـريعـيـهـ وـ التـنـفـيـذـيـهـ وـ القـضـائـيـهـ،ـ فـهـوـ المـرـجـعـ فـ كـلـيـاتـ الـأـمـرـ وـ جـزـئـاتـهاـ وـأـهـمـ (ـمـجـلسـ المـشـورـةـ)ـ الـذـىـ أـسـسـهـ مـحـمـدـ عـلـىـ وـانـعـقـدـ عـلـىـ عـهـدـهـ حـيـنـاـ وـكـانـ نـوـاـةـ لـنـظـامـ شـورـىـ (ـ رـاجـعـ كـتـابـ «ـ عـصـرـ مـحـمـدـ عـلـىـ »ـ صـ ٥٧٢ـ)ـ فـلـمـ يـظـهـرـ لـهـ أـثـرـ فـ عـهـدـ عـبـاسـ وـ سـعـيدـ

المجلس الخصوصي

ذـكـرـنـاـ فـ كـتـابـ عـصـرـ مـحـمـدـ عـلـىـ »ـ (ـ صـ ٥٧٩ـ)ـ انـ مـحـمـدـ عـلـىـ أـنـشـأـ سـنةـ ١٨٤٧ـ مـجـلسـ دـعـاهـ (ـ المـجـلسـ الـخـصـوصـيـ)ـ،ـ وـاـخـتـصـاصـهـ النـظـرـ فـ شـؤـونـ الـحـكـوـمـةـ الـكـبـرـىـ،ـ وـسـنـ الـلـوـائـحـ وـالـقـوـاـنـىـنـ،ـ وـإـصـدـارـ التـعـلـيمـاتـ بـجـمـيعـ مـصـالـحـ الـحـكـوـمـةـ،ـ وـكـانـ يـرـأـسـهـ اـبـراـهـيمـ باـشاـ

وقد أعيد تأليف هذا المجلس في عهد عباس الأول بمقتضى لائحة صدرت في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) وتولى رئاسته السكتنخدا باشا وهو أكبر موظف بالحكومة، وأعضاؤه من كبار الذوات والعلماء، واحتضن بنظر المسائل العامة للحكومة وسر اللوائح والقوانين وترتيب النظم العمومية وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى، فكان ينزلة مجلس النظار، وتولى السلطة التشريعية، وشاركه فيها مجلس الأحكام، وقد بقى هذا المجلس قائماً إلى أن خلفه مجلس النظار في عهد اسماعيل

الوزارات

وفي سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد باشا تنظيم الدواوين فعمل منها أربع وزارات وهي الداخلية، وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت، والمالية وعهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل والخارجية وتولاهما الأمير محمد عبد الحليم، والخارجية وتقلدتها اسطيفان بك أحد خريجي البعثات في عهد محمد على

النظام القضائي

مجلس الأحكام

وكان في البلاد منذ عهد محمد علي هيئة قضائية علياً تسمى (جمعية الحقانية) انشئت سنة ١٨٤٢ وقد سميت هذه الهيئة منذ سنة ١٨٤٩ مجلس الأحكام، وهو المجلس الذي كان له شأن كبير في عهد سعيد واسماعيل، وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا في البلاد، ويتألف من تسعه أعضاء من الكبار ومن عالمين أحدهما حنفي والآخر شافعى، وكان أيضاً يشاركه (المجلس الخصوصي) في السلطة التشريعية

مجالس أو محاكم الأقاليم

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت في عهد محمد علي، وبقي لها اختصاصها في المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية، غير أنه انشئت محاكم أو «مجالس» جديدة للفصل في المسائل المدنية والتجارية سميت (مجالس الأقاليم)، بلغ عددها خمسة

في بدأة تأسيسها ، وهي (مجلس طنطا) و يختص بنظر قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة ، و (مجلس سمنود) و يختص بنظر قضايا الدقهلية والشرقية والقلويية ، و (مجلس الفشن) و يختص بنظر قضايا الجيزة والمنيا و بنى مزار و بنى سويف والفيوم ، و (مجلس جرجا) و يختص بنظر قضايا أسيوط واسنا و قنا ، و (مجلس الخرطوم) و يختص بنظر قضايا السودان

وكان كل مجلس يتتألف من رئيس وأربعة أعضاء ، وأربعة كتاب عدا (مجلس سمنود) فإنه يتتألف من رئيس وعضوين

وعين لكل مجلس اثنان من العلماء بوظائف مفتين أحدهما حنفي والآخر شافعى وكان (المجلس الخصوصى) و (مجلس الأحكام) يصدران اللوائح والقوانين لهذه المجالس ، فكان بمثابة الهيئتين التشرعيتين في البلاد ، ويتبين من ذلك أن مجلس الأحكام فوق كونه هيئة قضائية عليا كان أيضا هيئة تشريعية

ولاية القضاء

إن أهم إصلاح قضائي تم في عهد سعيد أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان العمل جارياً على أن قاضى القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم^(١)

وهذا الإصلاح فضلاً عما فيه من تحقيق الإستقلال القضائى لمصر فانه منع مصدراً من مصادر الفساد في النظام القضائى ، فان قاضى القضاة كان يعين القضاة حسبما تملى عليه أهواؤه ، وكثيراً ما يجعل تعينهم مقابل جعل من المال ، وفي ذلك من إفساد القضاء مالا يخفى عن الأذهان

إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادةه

وفي سنة ١٨٥٥ غضب سعيد باشا على مجلس الأحكام ، فأصدر أمرآ بالغائه ، وقيل أن سبب هذا الالغاء اعتقاد سعيد باشا أن أعضاءه لم ينجوا طريق الاستقامة ، وقد أمر بإحالة الدعاوى التي كانت من خصائص المجلس على الأمير اسماعيل باشا (الخديو)

(١) مصر الحديثة للمسعودي مريوص ١

وكفه عرض ما يلزم عرضه على سعيد باشا ذاته، أى أنه لم ينشئ هيئة أخرى مكان مجلس الأحكام المذكور، ولكنه رجع وأمر بإعادة تأليف مجلس الأحكام وأسند رأسه إلى الأمير اسماعيل باشا سنة ١٨٥٦، وألفه من عشرين عضواً منهم أحد عشر عضواً من الأعيان وتسعة من الذوات

ولم يمض عامان على تأليف هذا المجلس حتى عاد سعيد باشا وغضب عليه، وكان سعيد مشهوراً بكثرة تقلبه في الآراء والميول، وسبب غضبه أنه انتهى إليه أن أعضاءه ارتكبوا الرشوة في قضية عرضت عليهم، فارتوى الغاءه سنة ١٨٦٠، وألغى كذلك (مجالس الأقاليم)

على أنه عاد بعد ذلك سنة ١٨٦١ وأمر بإعادة مجلس الأحكام وعين محمد شريف باشا (الذى صار فيما بعد الوزير المشهور) رئيساً له، وكان من قبل ناظراً للخارجية، وأعاد كذلك مجالس الأقاليم، ولكنه اقتصر منها على مجلسين، أحدهما بطنطا، ويختص بنظر قضايا الوجه البحري، والثانى بأسيوط، ويختص بنظر قضايا الوجه القبلى وكان العمل أمام (مجلس الأحكام) ومجالس الأقاليم يجرى طبقاً للقانون العثمانى والقوانين التى أصدرها سعيد باشا

وكان مجلساً طنطا وأسيوط يحكم ابتدائياً فى المنازعات، ومجلس الأحكام ينظر فيها بصفة استئنافية، ولما تولى الخديو اسماعيل أعاد تأليف مجالس الأقاليم بأن عممه إبان المديريات كما سيجيء بيانه

قضاء الأجانب

بقيت محاكم التجارة التى أنشئت فى عهد محمد على قائمته إلى عهد سعيد واسماعيل وهى المسماة (مجالس التجار) فى الاسكندرية ومصر، وكانت المحافظات والضبطيات تنظر فى المشاكل الخاصة بالاجانب، ولكن كثرة نزوح الاجانب إلى مصر وما استتبعه من ازدياد هذه المشاكل جعل جهات الادارة لا تستطيع التفرغ لحسمها، فأنشئ سنة ١٨٦١ مجلس خاص باسم (قومسيون مصر) أو مجلس القومسيون، يتألف من رئيس مصرى وعضوين مصريين، وعضو أوروبى، وآخر يونانى، وعضو اسرائىلى، وآخر أرمنى^(١)

(١) انظر كتاب المحاماة لفتحى باشا زغلول ص ٨٥ ملحقات

ويختص بنظر القضايا التي ترفع من الأجانب على الرعايا المحليين ، وللقوانين أن ترسل مندوباً من قبلها لحضور الجلسات ، وأحكامه تستأنف أمام (مجلس الأحكام) ولم يكن من اختصاصه النظر في المسائل المتعلقة بالعقار ، بل كان النظر فيها من اختصاص المحاكم الشرعية باعتبارها وقائمة المحاكم العادلة في البلاد

ثغرات التدخل الأجنبي

اجتمع في سعيد باشا عيّان جوهريان ، الأول ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم ، والثاني وهو أكبر خطرًا وأسوأ أثرًا من الأول ، ونعني به ثقته بالأجانب ثقة مطلقة ، بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأياً ، أو يرد لهم طلباً ، وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فانفتحت في كيان مصر ثغرات التدخل الأجنبي ، وأهم هذه الثغرات منح امتياز قناة السويس ، والاستدانة من البيوت المالية الأجنبية

(أ) امتياز قناة السويس

نظرة عامة

يعد مؤرخو أوروبا ، والفرنسيون منهم خاصة ، مشروع قناة السويس مفخرة سعيد باشا ، ويقولون أنه بهذا العمل قد أدى أعظم خدمة للإنسانية والحضارة ، وهم فيما يقولون إنما ينظرون إلى هذا العمل من وجهة النظر الأوروبية ، فلا شك أن قناة السويس قد أفادت التجارة الأوروبية فوائد كبرى ، بتقريرها طريق المواصلات بين أوروبا والشرق ، وأفادت أيضًا الاستعمار الأوروبي ، لأنها مكنت الدول الاستعمارية من إرسال الجنود والتجاريد الحربية من طريق القناة إلى آسيا وأفريقيا لاخضاع ممالك الشرق وشعوبه ، ورفعت عن تلك الدول مشقات اجتياز طريق المحيط الأطلنطي ورأس الرجاء الصالحة ، ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمخاطر والخطار

فمن وجهة الأوروبية لا جدال في أن فتح قناة السويس عاد بأعظم الفوائد على التجارة الأوروبية والاستعمار الأوروبي

أما من وجهة النظر المصرية ، فالقناة كانت شئوماً على البلاد واستقلالها ، لأنها

أطمعت فيها دول الاستعمار ، وجعلتها تسعى سعياً حششاً للاستيلاء على مصر ، وتضاعف جهودها القديمة لتحقيق هذا الغرض ، ومن المحقق أن مساعي إنجلترا خاصة في احتلال مصر قد تضاعفت واشتدت بعد أن شقت القناة أرض مصر ، وحجتها في ذلك أنها أرادت الاطمئنان على هذا الطريق الجديد الواصل إلى الهند ، وتساير بوضع يدها عليه ، وهي حجة لا أساس لها من الحق والإنصاف ولكنها الامر الواقع الذي توحى به مطامع الفتح والاستعمار ، فانجلترا بعد فتح القناة صارت أكثر تطلعًا وأقوى تحفزاً إلى احتلال مصر ، فلا عجب أن كانت مصر ضحية قناة السويس ، تلك حقيقة واقعة ، كان يجب أن لا تفوّت سعيد باشا عندما منح امتياز القناة ، وأن يفطن إليها اسماعيل باشا عندما بذل تأييده للمشروع بعد اعتلاء العرش حتى وصل به إلى غايته

وإذا كان المؤرخون الأفرنج يعدون مشروع القناة أكبر مفخرة لسعيد باشا ، فإننا نعده بالعكس أكبر غلطات له في تاريخه ، لأنه بعمله هذا قد فتح باب التدخل الاستعماري في مصر على مصراعيه ، وجعلها هدفاً للمطامع الأوروبية

ويزيد في تبعته أنه كان عالماً برأى أبيه العظيم محمد على ومعارضته في فتح القناة ، ويعلم عندما منح امتيازه أنه خالف وصايا أبيه الذي كان يعد القناة بوسفوراً ثانياً يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر

إن المسألة المصرية قد دخلت دوراً جديداً بعد فتح القناة ، إذ صار ينظر إليها كأنها هي مسألة قناة السويس ، فكانها اندمجت فيها ، وتبدل أول ضاعها تبعاً لهذا الاندماج ، وصار النظر إليها من ناحية الدول الاستعمارية مرتبطة بوجهة نظرها في مسألة القناة ، وملوم أن إنجلترا جعلت خطتها في مسألة القناة أن تسعى جهدها في وضع يدها عليها وعلى الأرض التي تحيط بها ، وأن يكون يدها مفاتيح القناة ، ولذلك وضعت نصب عينيها أن تحتل مصر بعد أن تم فتح هذا الطريق البحري الخطير الواصل إلى مستعمراتها في الشرق

ففتح القناة يعادل في تأثيره الاستعماري بالنسبة لمسألة مصرية غزو نابليون بونابرت ، فكما أن الحملة الفرنسية جعلت إنجلترا تتطلع إلى احتلال مصر ، كذلك كان شأن قناة السويس ، الفارق بين الحادتين أن إنجلترا قد أخفقت في تحقيق مطامعها التي

أثارتها الحملة الفرنسية ، وارتدى عن السكينة دون أن تزال منها منالا ، وسوى المسألة المصرية في عصر محمد على طبقاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة التي كفلت مصر استقلالها الداخلي التام ، وبقيت المسألة المصرية سائرة على منهاج تلك المعاهدة إلى أن تم فتح القناة ، ومن ثم تغيرت أوضاعها ، وسعت إنجلترا من جديد في تحقيق أطماعها القديمة التي أخفقت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلا جرم أن كان فتح القناة مقدمة دور جديد للمسألة المصرية ، ولقد كان هذا الدور شواماً على البلاد ، إذ اجتمعت فيه الظروف السيئة التي مكنت إنجلترا من تحقيق أطماعها في مصر ، فان فتح القناة في ذاته ، وبيع اسماعيل أسمهم مصر فيها إلى الحكومة الإنجليزية ، قد هيأ لإنجلترا أن تخطو أول خطوة نحو الاحتلال

فسعيد باشا لم ينظر إلى القناة كعمل حيوى مصر ، وأغلبظن أنه لم يوازن بين مزاياها ، ومضارها ، بل نظر إلى فائدتها للإنسانية خسب ، ولقد زينت له نصائح الميسيو فرديان داسبس أنه بهذا العمل يعد من أكبر خدام الحضارة ، وبديهي أن النظر إلى القناة من وجهة فائدتها الإنسانية هو وهم لا يليق بالأمم التي تقدر معنى الوجود والحياة ، لأن حياة الأمة واستقلالها مقدمان على كل خدمة عامة للإنسانية ، وليس في تاريخ الشعوب قديماً وحديثاً أمة رضيت أن تضحى بأية مصلحة لها مما ضرلت ، بل استقلالها ، في سبيل خدمة الإنسانية ، فالحق أن هذه أوهام لا تجوز إلا على الأمم المستضعفنة ، فإننا على العكس نرى الأمم التي تستخدمها مثالاً للتقدم والعظمة تهزأ بتلك الأوهام ، وتضحى بمصالح الأمم والإنسانية جماء تحقيقاً لأطماعها الاستعمارية بل تستبيح كل الوسائل في سبيل السيطرة على العالم ، واستعباد الشعوب

فنأضعف النظريات وأبعدها عن العقل والمنطق أن يقال إن سعيد واسماعيل يستحقان الإعجاب لأنهما خدموا الإنسانية بإنفاذ مشروع القناة ، والحقيقة المؤلمة إنهما بعملهما هذا قد مهدَا السبيل لاحتلال إنجلترا مصر

والآن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل فنقول ، إن سعيد باشا بنجحه الميسيو داسبس امتياز القناة قد جلب على البلاد مضار جسيمة نذكرها فيما يلى :

أولاً - ان القناة عرضت استقلال مصر للخطر ، ولم يكن هذا الخطر ليخفى على ذي بصيرة في الأمور ، فلقد أدركه السياسيون الأوروبيون من يوم البدء في المشروع

وما يذكر في هذا الصدد أنه لما تم منح الامتياز كتب المستر بروس Bruce فنصل انجلترا في مصر وقىئذ إلى حكومته ينبئها بالخبر ، ويقول في حتم رسالته : « إن فتح القناة سيؤدى إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعاً مراكز للدول الأجنبية في هذه البلاد ، ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، فتتخد ذريعة إلى التدخل المسلح في شؤونها ، وهذا التدخل يفضي إلى الاحتلال الدائم ، ويتوقع أن تحدث هذه النتائج في مصر ذاتها »

فهذا التنبؤ الذى أدركه القنصل الانجليزى سنة ١٨٥٤ هو ما كان يجب أن يتوقعه كل من عنده قليل من بعد النظر فى السياسة ; وهو ما وقع على مر السنين ، فإن انجلترا بعد أن تم فتح القناة سعت سعيها فى الاحتلال مصر ، وتم لها ذلك سنة ١٨٨٢ أى بعد اثنتeen عاماً من افتتاح القناة للملاحة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ . ومن مصادفات القدر أنه عند ما فتحت القناة كان المستر غلادستون على رأس الوزارة الانجليزية ، وعندما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ كان هو أيضاً يشغل هذا المنصب

ويدخل في هذا السياق ، أنه لما اشتدت معارضه انجلترا في فتح القناة ، وجرت مفاوضات بشأن إقناعها بالعدول عن معارضتها ، كان مما اشترطته الحكومة الانجليزية لموافقتها على المشروع احتلالها السويس ، وحمايتها للقناة ، فيتبين من ذلك أن انجلترا لم تكن تخفي نياتها الاستعمارية نحو مصر عند إنشاء القناة ، ولم يكن خافياً أن هذا المشروع يجعل استقلال مصر هدفاً لمطامعها الاستعمارية

وفي هذا الصدد يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) وهو من الكتاب الأوروبيين المشهود لهم بالاعتدال وإصالة الرأى : « إن منح امتياز القناة إلى الميسىو دلسبيس قد فتح أبواب الدلتا على مصراعيها للأوروبيين »^(١)

ويقول الميسىو كوشري Cocheris : « إن بدء الارتبادات المالية والتدخل الأوروبي

(١) تاريخ مصر المالى ص ٣ مؤلف لم يعلن اسمه (ولعله الميسىو بابونو Paponot) ويعود كتابه من أهم المراجع فى بيان حالة مصر المالية على عهد سعيد وإسماعيل

المشروع في شؤون مصر يرجع في الحقيقة إلى سنة ١٨٥٤ وهي السنة التي منح فيها امتياز
قناة السويس إلى المليونير دالسيس^(١)

(ثانياً) أن سعيد باشا بقبوله إنشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثانية للتدخل
الأجنبي، وكان الضرر أخف وطأة لو فتحتها مصر بنفسها ولحسابها

(ثالثاً) أنه أسرف في منح الشركة امتيازات وحقوقاً جعلتها شريكة مصر في سيادتها
وجعلت منها حكومة داخل الحكومة كاسبيجيء بيانه

(رابعاً) لم تستفيد مصر من الوجهة الاقتصادية فائدة ما من القناة، بل على العكس
أضرتها اقتصادياً، لأن طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر إلى
القناة المائية التي أصبحت ملكاً لشركة أوروبية، خسرت مصر الأرباح التي كانت تعود
عليها من مرور المتاجر في وسط الدلتا، بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية،
وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة، وهذا من غير شك خساران كبير

(خامساً) على الرغم من مضار المشروع على مصر فإنها انفقت عليه من ما لها نيفاً وستة
عشر مليون جنيه، بذلت في أسهم اكتتابت فيها، وأملاك تنازلت عنها، وأعمال قامت
بها، وتعويضات أدتها للشركة، وقد خسرت هذه الملايين في وقت كانت أحوج ما تكون
إليها، وإنفاذ مشروع كان شئماً عليها من كل الوجوه

ولأن عادت القناة يوماً إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمناً باهظاً
وتضحيات جسمية، ويكتفى أنها بذلت لها ستة عشر مليون جنيه من أموالها، ثم حرمت
ما هو أعز من المال، وهو الاستقلال، وعندما استرد مصر استقلالها تماماً فستكون قد
حرمت استقلالها بسبب القناة رداً طويلاً من الزمن، وهو حرمان لا يعوض بمال

نبذة وجيزة في تاريخ المشروع

لم يسبق لحكومة مصرية قديمة أو حديثة أن وصلت البحرين الأبيض والأحمر
بقناة ملحة تخترق بربض السويس

(١) المركز الدولي لمصر والسودان للسيور كوشري ص ٦٧

في عهد الفراعنة والفتح الإسلامي

ولما وقع الاتصال عن طريق النيل ، فكانت ترعة الفراعنة القديمة تخرج من فرع النيل البيلوذى القديم ، وتسير بمحاذاة وادى الطميلاط ، ثم تشقى جنوباً فتخترق البحيرات المرة ، ثم تصب في البحر الأحمر

وفي عهد الفتح الإسلامي أنشأ عمرو بن العاص «الخليج» المعروف بخليج أمير المؤمنين ، بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويبدأ من مصر القديمة ، حيث يتدلى خليج مصراليوم حتى القاهرة ، ومنها إلى المطريه ، ومنها إلى العباسة ، ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة

في عهد الحملة الفرنسية

وفي عهد الحملة الفرنسية فكر نابليون كأصلفنا في الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية (ص ١٢٤) في وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، وعهد بدرس هذا المشروع إلى المسيو (لوبير) كبير مهندسي الري والطرق والجسور ، فقضى عامين في درسه وفشه ، وعاونه فيه بعض مهندسي الحملة ، وقد تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر ، وكان تصميم المشروع كما وضعته المسيو لوبير أن تixer قناة من السويس إلى البحيرات المرة ، ويعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى مع بحر مويس بقرب بو باسط (الزقازيق) ، ومن بحر مويس إلى فرع دمياط ، ومنه إلى ترعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية ، وحيث أن المسيو لوبير أيضاً فكره وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تختار بربخ السويس ، فيما بين بيلوز (الطينة) على البحر الأبيض المتوسط ، ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأً أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر لوبير مشروعه في كتاب (تخطيط مصر) بالجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة ، وخليج أمير المؤمنين ، وتخطيط الجهات التي ينفذ فيها المشروع ، ونفقات إنشاؤه ، ويقع هذا البحث في أكثر من ثلاثة صفحات ، وهو من أجل الأبحاث التي وضعها علماء الحملة الفرنسية

في عهد محمد على

جاء المسيو فردينان دلسبيس إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١، على عهد محمد على باشا، متوليا منصب مساعد للقنصل الفرنسي، فأبدى البشا نحوه عطفاً كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الأكونت ماتيو دلسبيس Mathieu Delesseps من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصل لفرنسا في مصر سنة ١٨٠٣، واتصل فردينان دلسبيس بالأمير محمد سعيد، إذ عهد إليه أبوه أن يعني بتراثه الرياضية، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة في ركوب الخيل، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا

وقد وقع في يد المسيو دلسبيس وهو في الإسكندرية بحث المسيو لوبيز عن وصل البحار الأبيض بالبحر الأحمر، وأكب على هذا البحث يدرسه درساً عميقاً، فلم يلبيث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية، ثم انتقل من منصبه بالقطر المصري، وطوطحت به المناصب السياسية إلى مختلف الأقطار، على أنه كان لا يفتأ يفكر في أمر هذا المشروع

لجنة سنة ١٨٤٦

وكان مشروع وصل البحرين بقناة ملحة موضع البحث والتفكير في أوروبا بين مختلف المهندسين من يوم أن وضع المسيو لوبيز تقريره عنه في عهد نابليون، وكان الخطأ الذي وقع فيه المسيو لوبيز إذ ظن أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار عقبة يراها رجال الفن حائلة دون إمكان وصل البحرين عن طريق

بر ZX السويس

على أنه في سنة ١٨٤٦ تألفت من بعض المهندسين من مختلف الأمم لجنة فنية لدرس مشروع حفر القناة، وجاء أعضاؤها إلى مصر لفحص المشروع في أو آخر عهد محمد على، واستمرروا على عهد عباس، وعاونتهم الحكومة في إجراء تلك المباحث، وعهدت بتحيط الموافق إلى بعض كبار المهندسين مثل لينان بك (باشا) وسلامه افندى إبراهيم (باشا) وإبراهيم بك رمضان وطائل افندى وغيرهم، وانتهت اللجنة إلى أن فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تحتاز الدلتا

وكان محمد على منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة، غير راغب فيه، لما يتوقعه إذا تم من العواقب الوخيمة، فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع، بل كان يردهم بلطف وحكمة، ويعدهم وينهיהם، وفي الوقت نفسه يضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى انتهى حكمه

وقد بلغ به بعد النظر أنه لم يقبل أن يعهد إلى شركة إنجلزية مد سكة حديد بين القاهرة والسويس، حتى لا تكون هذه السكة ذريعة إلى التدخل الأجنبي؛ وكذلك أعرض عباس باشا الأول عن مشروع القناة، وضرب صفحات عن أبحاث اللجنة، وحاول المسيو فردينان دلسبيس أن يقنعه بفائدة المشروع، وأرسل تقريراً عنه إلى المسيو رويسنر Ruyssanaers قنصل هو لندا العام في مصر ليعرضه على عباس، ولكن الفكرة لم تلق من الأمير قبولاً، واتجه فكره إلى تسهيل سبيل المواصلات بطريق البر بين الاسكندرية والسويس، بدلاً من شق ترعة ملحة بين البحرين، فأصلاح الطريق بين مصر والسويس وجعله صالح لمرور العربات من غير عناء ولا مشقة، ثم شرع في إنشاء سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة كما تقدم بيانه، ويئس المسيو دلسبيس من نجاح مشروعه على يد عباس الأول

في عهد سعيد

فليما مات عباس وتولى الحكم سعيد باشا استبشر المسيو فردينان دلسبيس خيراً بنجاح فكرته، على يد صديقه القديم، فأرسل إليه ينهئه بارتقائه العرش، وبلغه عزمه على الحضور ليقدم له فروض التهانى، فأجابه سعيد على تهنئته، واستدعاه إلى مصر، فسرعان ما جاء الاسكندرية (في نوفمبر سنة ١٨٥٤)، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة، ذاكراً صداقته القديمة، ثم أصطحبه في رحلة من رحلاته الحرية التي كان يسير فيها على رأس جنده، وسار معه من الاسكندرية إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية، وكان الأمير يقود في هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل

فاغتنم المسيو دلسبيس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا في أمر المشروع، وكان لمهاراته في ركوب الخيل أثر في تمهيد السبيل لنجاح مسعاه، ذلك أنه امتنع صهوة جواد آهداه له الأمير، فوثب به يوماً عن حاجز من الأحجار، على مرأى من قواد الجنود من حاشية

سعید ، فأعجبیو به ومهارته وفروسيته ، وفي مقدمة المعجبین به ذو الفقار باشا وزیر
المالية الذى كانت له منزلة كبيرة لدى سعید باشا

في اليوم التالي ، فاتح المیسو دلسیس سعید باشا في أمر المشروع ، وزین له أنه إذا
وفق اليه خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره^(١) ، وبالرغم من أن سعید باشا كان يصرح
بأنه لا يخالف وصايا أبيه في الإعراض عن فتح القناة ، فإنه ضعف أمام إغراء المیسو
دلسیس ، وقبل المشروع ، ووعده بمساعدته ، وتأييده في تحقيقه ، واستدعي قواد جنده ،
وعرض عليهم الفكرة ، وكانوا متأثرين بإعجاباً بفروسية المیسو دلسیس ، فسارعوا إلى
استحسان المشروع ، دون أن يبحثوه ، أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه ، فكانوا هم
وسعید في قصر النظر سواء

فاظظر الى ما صارت اليه شؤون الدولة في عهد سعید ، وكيف كانت عظام الأمور
يبدت فيها من غير بحث أو روية ، ولا نظر في العواقب ، وهذا من أسباب الضعف الذي
أصاب مصر في عهد خلفاء محمد على ، وإنه لما يدعوا الى الدهشة والألم معاً ، أن مشروعًا
خطيرًا كقناة السويس يقرر في رحلة صحراوية ، من غير تمحیص ولا تفكير ، وأن مجرد
إعجاب « رجال الدولة » بفروسية المیسو دلسیس ومهارته في رکوب الخيل كان كافياً
لإقرار المشروع .. !

ولم يفت المیسو دلسیس ملاحظة هذه الحقيقة المؤلمة ، فقد أشار إليها ، في شيء من
التهكم والسخرية ، قال في هذا الصدد: « جمع سعید باشا قواد جنده ، وشاورهم في الأمر ،
ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد رکوب الخيل ويقفز بجوده على الحواجز والختائق
أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف ، انحازوا الى جانبي ، ولما عرض عليهم الباشا تقريري
عن المشروع ، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة
أن منحني الباشا ذلك الامتياز العظيم »^(٢)

وقال في موضع آخر : « بعد أن قبل سعید باشا المشروع استدعي قواد جنده ، ودعاهم

(١) مراسلات ويومنيات ووثائق عند قناة السويس للمیسو دلسیس ج ١ ص ٤

(٢) أصول قناة السويس ص ١٥

إلى الجلوس أمامه ، وقص عليهم الحديث الذي دار بيننا ، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم في مشروع « صديقه » . فلم يكن من هؤلاء المستشارين ، وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأي في مناورات الخيل منهم في التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراعيه ، إلا أن نظروا إلى « بملء أعينهم » ، كأنما يريدون إفهامي أن صديق مولاهم الذي رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة ، لا يمكن أن يدل إلا بأراء صائبة ، وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم بين آونة وأخرى علامه على الموافقة ،^(١) وذكر عن سعيد باشا ذاته (ص ٥٧) أنه قال له بعد أن منحه الامتياز : « أعتذر لك بأنني لم أفكّر طويلاً في الموضوع ، وإنما هي مسألة شعور ، وليس من عادتي أن أقلد الناس في ما يتبعون ويعملون »

منحة امتياز القناة

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤

ولما بلغ سعيد باشا القاهرة أُنْزَلَ المُسِيُّودَسِيسَ ضيفاً عنده ، محفوظاً بالآرام والرعاية ، ولم تمض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس ، واستمرارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة ^(٢) . وهكذا نال دلسيس بغيته التي كان يسعى لها منذ ثلاثة وعشرين سنة وهذا العقد هو المعروف بعقد الامتياز الأول : تميزاته عن عقد الامتياز الثاني المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الذي سيرد الكلام عنه

وقد عهد سعيد باشا إلى مهندسيه لينان بك ، وموجيل بك ، أن يرافقا المُسِيُّودَسِيسَ إلى برزخ السويس ، لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ، ورفع تقرير اليه عن نتيجة مباحثهم ، وكان رأيهم من قبل في جانب المشروع

(١) أصول قناة السويس ص ٤٠

(٢) فتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أى أن مدة الامتياز تنتهي في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وتصبح القناة بعدها ملكاً لمصر

فقام المهندسان الفرنسيان واليسو دلسبيس بهذه المهمة، واتهى بهم البحث إلى الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع ، وهى أن تنشأ القناة مستقيمة في أضيق نقطة في البرزخ : بين موقع بيلوزه (بور سعيد الآن) على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر

حصص التأسيس

ثم جمع الميسو دلسبيس من بعض الماليين حصص التأسيس لشركة القناة التي أزمع تأليفها ، وجعل قيمة الحصة خمسة آلاف فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة هذه الحصص لنفقات المشروع الأولى ، على أن تحول قيمة الحصص إلى أسهم خاصة في الشركة عند ما يتم تأليفها

لجنة دولية لدرس المشروع

وانتخب الميسو دلسبيس باتفاقه مع سعيد باشا (في نوفمبر سنة ١٨٥٥) لجنة دولية من المهندسين الفنانيين لدراسة المشروع ثانية، بعد اطلاعها على تقرير ليبان بك وموجيل بك ، لتبدى رأيها في صلاح المشروع وامكان تنفيذه ، وذلك حتى يطمئن الناس إلى نجاحه ، فيقبلون على الاكتتاب في أسهم الشركة عند تأليفها

فذهب أعضاء اللجنة إلى بربخ السويس ، وأجروا مباحثهم الهندسية ، ووافقوا على المشروع كما وضعه ليبان وموجيل ، بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد ، وأن الأرض صالحة لاجتياز القناة الملحقة

شروط الامتياز

٥ يناير سنة ١٨٥٦

ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض الميسو دلسبيس نتيجة هذه المباحث على سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثاني بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ م - (٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ هـ) ، صدق فيه على الامتياز السابق منحه إلى الميسو دلسبيس ، وضمّنه شروط الامتياز التي خولها الشركة ، وكانت شروطاً فادحة ، لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد ، وهكذا خلاصتها

(١) منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر، وإنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقي من النيل، وتصب في القناة الملحية، وإنشاء فرع لرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة، ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد)
(مادة ١ من عقد الامتياز)

(٢) تنازلت الحكومة للشركة بمحانا عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحية وترعة المياه العذبة وتواجدها، وهي منساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع إنشاؤها، بعرض كيلو مترين من الجانبيين^(١)، تنازلت عنها الحكومة بمقابل، مع إعفائها على الدوام من الضرائب، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضي القابلة للزراعة لتساصاحها الشركة وترويجهما وتزرعها، مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب لمدة عشر سنوات من تاريخ استئمارها (مادة ١٠)

(٣) خولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لإجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز، في مقابل أن تدفع الشركة لاصحابها تعويضات «عادلة» (مادة ١٢)، ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصالحة الشركة

(٤) على أصحاب الأطيان الواقعة أعلاه كهم على ضفاف الترعة التي تنشئها الشركة إذا أرادوا رى أراضيهم بما يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة في مقابل تعويض يؤدونه لها (مادة ٨)

(٥) منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى وصيانتها وملحقات المشروع، دون دفع أى رسوم أو ضريبة أو تعويض، وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية، والعوايد عن جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج (مادة ١٣)

(٦) حدد أجل الامتياز بـ ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة، وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ١٦)

ولسكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدي إلى تعطيله ، أو يفتح باباً للمشاكل ، وهو وجوبأخذ الحكومة في هذه الحالة جميع المهمات والمعدات الخصصة لاعمال المشروع البحري Materiel et approvisionnements للشركة قيمتها التي تقدر سواء بالتراسى أو بناء على تقدير الخبراء

وليس ما يمنع الشركة أن تبالغ في تقويم المعدات التي خصصتها أو تخصصها في المستقبل للمشروع ، أو أن تعمد إلى إسراف فيها لتعجيز الحكومة ، ولكن تخلق العقبات التي تعرّض حق مصر في استرداد القناة

ثُم ان المادة ١٦ لم تذكر شيئاً عن المنشآت التابعة للقناة ، كالمبانى ، وقد كان العقد الأول (مادة ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة في رجوعها للحكومة . دون مقابل ، فالعقد الثاني كما ترى صيغ في أسلوب محرف بحقوق مصر كل الإجحاف ، وهذا يدل على الروح التي أملت شروطه ، وأغلب الظن أن سعيد باشا ترك تحريره إلى « صديقه » الميسودسيبس (كما يصفه في العقد) ولم يراجعه في شيء من نصوصه

(٧) خُولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التي تمر في القناة البحريّة أو الترع والشغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد في النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

(٨) في مقابل الأراضي والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ في المائة من صافي الأرباح السنوية (مادة ١٨)

وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩ ، وذلك أنه لما ارتبت أحوالها المالية بسبب إسراف اسماعيل باعـتـ هـذـاـ النـصـيـبـ إـلـىـ الـبـنـكـ العـقـارـيـ بـفـرـنـسـاـ مقابل ٢٢ مليون فرنك

(٩) يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) ، وتعهدت الحكومة ببذل مساعداتها للشركة وتوكيل جميع موظفيها وعمالها في جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) ، وقد فسرت الشركة هذه النصوص على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أخماس العدد الذي تطلبها الشركة من العمال ، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لإجراء أعمال الحفر والإنشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم

وكان عقد الامتياز الأول (مادة ٢) يخول الحكومة حق تعيين مديرى الشركة ، ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر في عقد الامتياز الثاني، وهذا العقد يقضى بالغاء النصوص الواردة في العقد الأول ما يخالف أحكام العقد الثاني ، واقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثاني على أنه «يرأس الشركة وينديها صديقنا ووكيلنا المسيوف فردينان دلسبيس بصفته المؤسس لها طوال المدة التي تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدئ من تاريخ استغلال الامتياز » ، ومعنى ذلك أن الحكومة المصرية خسرت في عقد الامتياز الثاني حق تعيين مديرى الشركة ، وحافظ لها فقط حق تعيين «مندوب » عنها لدى الشركة يمثل حقوق الحكومة ومصالحها في تنفيذ العقد

وكان العقد الأول ينص (بالمادة ٤) على أن الحصون التي ترى الحكومة لزوم إنشائها في منطقة القناة لا تكلف بها الشركة ، وقد أغفل هذا النص في العقد الثاني ، وفسر إغفاله بأن لا حق للحكومة في إقامة الحصون في هذه المنطقة

وإنك لتري في هذه الشروط روح التساهل والإسراف التي تعاقد بها سعيد باشا مع الشركة ، فإنه خوطها من ايا جعلها تشارك الحكومة المصرية في حقوق ملكيتها العامة وسيادتها ، وملكها مرفق ومنافع عامة ليس للأفراد من أهل البلاد حتى تملكها، وهذا جعل منها دولة داخل الدولة المصرية ، وليس من عجب أن يحوى عقد الامتياز تلك الشروط الفادحة فأن المسيو دلسبيس هو الذي تولى تحرير العقد ووضع فيه ما شاء من النصوص والأحكام

مقاومة إنجلترا للمشروع

اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يصدق عليه السلطان العثماني ، على أنه كان معترضاً تنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق ، وأعطى المسيو دلسبيس العهود والمواثيق أن لا ينظر إلى هذا التصديق إلا كمظهر شكلي ليس بذى بال ، وفي الواقع إن ما ناله مصر من حقوق الاستقلال الداخلي طبقاً لمعاهدة لندن لا يجعل مثل هذا التصديق ضرورياً لصحة الامتياز ، ولكن دلسبيس أراد زيادة الاطمئنان على مشروعه ، فذهب إلى الاستانة يتلمس فرمان التصديق ، فألقى مناهضة للمشروع من السفير البريطاني بايعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية إنجلترا في ذلك الحين

وكانَتْ السياسة الانجليزية ترمي حينذاك الى عرقلة المشروع خشية امتداد النفوذ الفرنسي في مصر، وخوفاً على طريق المرور الى الهند أن يصبح تحت سيطرة دولة سواها فقاومت المشروع من طريق الحكومة التركية ، إذ حرضتها على رفض التصديق ، ثم من طريق الأسواق المالية إذ ألقت في روع الماليين أن المشروع خيالي لا يمكن تحقيقه

معاضدة سعيد للمشروع

على أن سعيد باشا قابل هذه المقاومة بمعاضدة المسيو دلسبيس في مشروعه ، وكانت صداقته لدلسبس تدفعه الى تذليل العقبات لإنجاح المشروع، فبذل له أو لا المبالغ المتوفرة في خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ الف جنيه ليستعين بها على العمل

تأليف الشركة

وفي ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ عرض دلسبيس أسهم الشركة للاكتتاب العام بفرنسا وغيرها من البلدان ، فلقيت إقبالاً عظيماً، وغطت أسهم الاكتتاب عدة مرات، وتألفت الشركة في ديسمبر سنة ١٨٥٨

وجعل رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨٠٠٠٠٠ جنية تقريباً) موزعة على ٤٠٠٠ سهم، قيمة السهم خمسينات فرنك (٢٠ جنيهاً)، ثم قسم السهم الى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠٠٠٠ سهم ، وقد صارت قيمة السهم الأصلي الآن (سنة ١٩٣٢) حوالي ١٥٠٠٠ فرنك بعد أن كانت ٥٠ فرنك

وانكتب سعيد باشا بـ ١٧٧٦٤٢ سهماً^(١) أي بما يقرب من نصف مجموع الأسهم، ودفع جزءاً منها وقسّط الباقي على سنوات

البدء في حفر القناة

٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩

وفي ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ ذهب المسيو دلسبيس يصحب أعضاء مجلس إدارة الشركة الى شاطئ البحر الأبيض ، في الموقع الذي انشئت فيه بعد ذلك مدينة بور سعيد، وأقيم

(١) مراسلات و يوميات ووثائق عن القناة ج ٤ ص ١٣٣

هناك احتفال حافل ضرب فيه دلسبيس أول معمول في أرض القناة ، واقتدى به الحاضرون ، فكانت تلك الضربة إيدانا بالمشروع في العمل ، وكانت في الواقع أول ضربة في صرح استقلال مصر

ثم أخذ العمال يعملون في حفر الأرض ، ولم يكن قد صدر الفرمان العثماني بالتصديق على الامتياز ، ولكن سعيد أراد أن يضع تركيا وإنجلترا أمام الأمر الواقع ، ويعضد المشروع بكل ما لديه من حول وقوة ومال



ابتداء العمل في حفر القناة (٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩)

وترى في الصورة المسمى دلسبيس ممسكا بيده معمولاً للحفر وحوله العمال المصريون
ييدأون في حفر القناة

وقد هاج هذا العمل غضب الحكومة الانجليزية ، فسعت سعيها لدى تركيا لوقف العمل ، ومرت ظروف ساعدت إنجلترا في مسعها ، ففي مايو سنة ١٨٥٩ شبّت الحرب في ربيع إيطاليا بين فرنسا والنمسا ، فهالت فرنسا إلى محاسنة إنجلترا ، وتراحت في تأييد المشروع ارضاً للحكومة الانجليزية ، وكادت إنجلترا تنجح في مسعها إلا بحبط المشروع ودبرت مع الباب العالي خلع سعيد باشا ، وجاء الأسطول الانجليزي إلى ثغر الاسكندرية في يونيو سنة ١٨٥٩^(١) ، ولكن التدبير لم يتم ، وتتردد سعيد في الأمر ، وعهد إلى شريف باشا وزير الخارجية وقتنى أن يرسل للسمو دلسبيس كتاباً يطلب إليه فيه وقف العمل^(٢) ،

(١) ورد ذكر الأسطول الانجليزي وحضوره إلى الشغور المصرية في كتاب « مراسلات ويومنيات ووثائق عن القناة » ج ٣ ص ١٢٤

(٢) مراسلات ويومنيات ووثائق عن القناة ج ٣ ص ١٣٣

على أن الحرب بين فرنسا والنسما ما لبّثت أن وضعت أوزارها ، وعقدت بين الدولتين المدنة المعروفة بصالحة (فيلا فرنكا) Villa Franca ، فنفذت كلية فرنسا في ميدان السياسة العامة ، وعادت إلى مناصرة المشروع وتأييده ، غير أن الحكومة الانجليزية ما فتئت تسعى لدى حكومة الاستانة حتى جعلتها تصدر أمراً إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر في برباز السويس ، وأوفدت مندوباً عنها يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد

فعاد نابليون الثالث يبذل نفوذه لدى تركيا لحلها على إبطال هذا الأمر ، وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولى في نجاح المشروع ، واطمأن سعيد باشا إلى رعايتها إياه ، وعاد إلى معاونة المشروع بكل قواه ، وبلغ به تفانيه في تعاضديه أن سخر الفلاحين ليعملوا في حفر القناة ، وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقرامهم ، وبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠ عامل ، كانوا يقاومون الشدائد والأهوال في عمل لم تنتفع منه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالوبال والخسران

وقد سار العمل في إنفاذ المشروع وحفر القناة الملحة إن أن جرت فيها مياه البحر الأبيض حتى بحيرة التمساح ، وذلك في ١٨٧٢ نوفمبر سنة ^(١) ، وإلى هذه المرحلة وصلت القناة في عهد سعيد باشا ، إذ أدركته الوفاة بعد ذلك بشهرين في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، تاركاً ل اسماعيل إتمام ما بدأ به ، والوصول بالمشروع إلى نهايته

٣ -

بدء القروض الأجنبية

بدأ عهد القروض الأجنبية خلال حكم سعيد باشا ، فكانت هذه البداية نذير الكوارث المالية والأحداث السياسية التي أصابت البلاد في عهد اسماعيل وتوفيق ولا ندرى ما الذي حمل « سعيد » على أن يوجه وجهته نحو الاقتراض ، ولم يكن

(١) مراسلات وپويمات ووثائق عن القناة ح ٥ ص ٦

ذلك من سنة أبيه ، كما أن الحكومة لم تكن في حاجة مُلحةً إلى الاستدانة من البيوت المالية ، فان سنوات سعيد كانت في الجملة سنوات يُسرٌ ورخاء ، ولم تقع في خلاطها حروب طويلة تستنفذ موارد الحكومة المالية

يقولون إن نفقات الجيش زادت عن المقدار لها في الميزانية ، فاضطر سعيد إلى الاقتراض ، ولكن هذا السبب لا ينهض بحججة لتسويغ عمله ، فإن « سعيد » ذاته كان لا يستقر على و蒂رة واحدة في تقوية الجيش وزيادة عدده ، بل كان — لأسباب غير مالية — يصرف أحياناً معظم قوله الحرية ، وقد كان أجدر به أن ينقص من ميزانية جيشه إذا وجد أن حالة الخزانة لا تسمح باستبقاء جيش عمره يكلف البلاد ما لا طاقة لها به من النفقات ، والواقع أن قصر النظر السياسي هو الذي دعاه إلى مد يد الاستدانة من الخارج ، ففتح على البلاد باب التدخل الأجنبي

وفي ذلك يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) : « إلى سعيد باشا يرجع الفضل التعمس في عقد أول قرض اقتضته مصر من أوروبا »^(١)

وقال في معرض المقارنة بينه وبين محمد على وإبراهيم :

« لقد استطاع محمد على وابنه الأكبر إبراهيم أن يهضا بالبلاد ويجهدا في سبيل ستقلاتها ، ذلك الجهد الذي كل بالنصر ، دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك »

ذلك ما يقوله أوروبي خبير ، لا يمكن أن يرمى بالتحامل على بلاده ، فهو يصارحنا في كتابه بان الاستدانة من أوروبا كان عملاً تعسياً

عقد سعيد أول قرض ثابت سنة ١٨٦٢ ، ومقداره الاسمي ٣٤٢٨٠٠ جنيه انجليزى من بنك فروهانج وجوشن بلندن بفائدة ٧ في المائة ، أما قيمة الحقيقة فكانت ٤٤٢٠٠ جنيه تقريباً ، أى ان مصر خسرت من رأس ماله ٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه وزيادة ، وتعهدت بوفاء هذا الدين على ثلاثين سنة ، قيمة القسط السنوى من رأس مال وفوائد ٢٦٤٠٠ جنيه ، أى ان مجموع الأقساط ٧٩٢٠٠٠ جنيه ، في حين ان أصل الدين

(١) تاريخ مصر المالى ص ١

٤٠٠٠ ل. ج. ، وعدا هذا القرض الثابت فإنه ابتدع طريقة السندات على الخزانة وهي أن يستدين من المرابين ديونا سائرة بواسطه سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة ، وتلك وسيلة خطرة على مالية البلاد ، لأنها استدانة لا ضابطا لها ولا حساب ، ولا رقابة عليها ، فإذا اندفعت الحكومة في سبيلها تورطت في الديون المعروفة بالديون السائرة ، دون أن تلتفت إلى الخطر الذي ينجم عن الاستزادة منها

وقد اختلفت الآراء في إحصاء الدين السائر الذي استدانه سعيد باشا ، وكلها متفقة على أنه كان متلافا للنقود ، لكثره نفقاته على قصوره ، وميليشته الخاصة ، وطمع المرابين فيه لما جبل عليه من السخاء وعدم التدقيق في حسابه

وإذا أخذنا باحصاء مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عرف عنه الاعتدال في كتابته كان الدين العام الذى تركه سعيد حين وفاته ١١٦٠ ل. ج. (١)، فإذا استبعدنا منه الدين الثابت بلغت الديون السائرة ٨٦٨٠ ل. ج. تقريرا ، وهو مبلغ فادح تنوء به مالية البلاد في ذلك العصر

ولو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة ، لكان محتملا أن تتغير المصاير وتبدل النتائج في تاريخنا القومى

وفاة سعيد باشا

١٨٦٣ يناير سنة

ذهب سعيد باشا إلى أوروبيا ليستشفي من مرض عضال أصابه ، ولم ينجع فيه دواء ، فرجع إلى الإسكندرية في أواخر سنة ١٨٦٢ ، والداء قد استعصى علاجه ، فما زال يشتغل به ويهذب من قواه حتى أدركته ممليكته في صبيحة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) ولهم من العمر ٤٢ سنة ، وكانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام (٢)، ودفن بالاسكندرية بمسجد النبي دانيال ، ولا زال قبره هناك

(١) تاريخ مصر المالى ص ١٢

(٢) عن التوفيقات اللاحامية للواء المصرى محمد مختار باشا ص ٦٤، وهذا التاريخ (١٨ يناير) يوافق ما ذكره المسيو دلسبيس في وثائق القناة ج ٤ ص ٢٧٦

الفصل الثالث

عصر الخديوى اسماعيل

١٨٧٩ - ١٨٦٣

نظرة عامة

ان عصر الخديوى اسماعيل هو في مجموعه صورة لتاريخ مصر القومى والسياسي والاقتصادى في إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، إلى مقدمات الشورة العرابية، وإذا أردنا ان نصفه بكلمة عامة ، فهو كما قلنا في مقدمة الكتاب عصر له أثره النافع كله أثره الضار في تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من حضارة وعمران ، وما تخلله واقترن به من أخطاء وأرذاء أفضت إلى تدخل الدول الأجنبية في شؤون مصر ، وتصدّع لها بناء الاستقلال المالي ثم السياسي

بهذه الكلمة الوجيزة ، يمكننا ان نلخص عصر اسماعيل ، فهو يمثل من ناحية عهد تقدم وعمران ، ويعد من ناحية أخرى عهد القروض المشؤومة والاغلاط المتلاحقة التي عصفت باستقلال البلاد

وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التي قامت في ذلك العصر ، وتلمس آثارها بيدتها ، فإنها أيضاً تعانى إلى اليوم بنتائج الأرذاء والأحداث التي وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ، من مالها ، وحقوقها ، وحريتها ، واستقلالها

ويعد هذا العصر أقرب العصور صلة بالعصر الحاضر ، لأن معظم القيود والنظم التي حلت بمصر على عهده لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢)، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب في مراقب البلاد ، والديون التي كبدت البلاد حكمة وشعباً ، والتدخل الأجنبي في شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عصر اسماعيل



اسحاعيل باشا

خديو مصر

من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

نشأة اسماعيل

هو اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على ، وهو ثانى انجال ابراهيم باشا ، من والدة غير والدى أخويه الاميرين احمد رفعت ومصطفى فاضل ولد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، في قصر المسافرخانة بالقاهرة (بالمجالية) ، وعنى أبوه بتربيته ، فتعلم مبادى العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، وقليلا من الرياضيات والطبيعتيات ، وأرسله أبوه إلى فينا عاصمة النساء ، وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، ليماجج بهامن رمد صديدى أصابه ، وليتكم تربيته ، وقضى بها عامين ، ثم انتقل إلى باريس ليتقطم فى سلك البعثة المصرية الخامسة ، فانضم إلى تلاميذها ، وكان من بينهم الامير احمد رفعت أخوه ، والأمير ان عبد الحليم وحسين من انجال محمد على ، وناول فى باريس حظا من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ؛ وأتقن اللغة الفرنسية كتابة وكلاما ، وبهرته بباريس وما فيها من جمال وروعة ، وغواية وفتنة ، ومن هنا نشأت ميله للباريسية ، التي لازمت طول حياته ، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى في أن يجعل القاهرة باريسيانا ، ولو كلفه ذلك أن يمد يده إلى القروض التي نامت بها البلاد ، وظاهر من مبلغ تعلميه أنه لم يintel من المعارف والثقافة في باريس أو في فينا حظا كبيرا ، بل اقتصر على مبادىء من العلوم ، ولم يستفاد من مكتبه بباريس إلا نصيبيا قليلا من العلوم الهندسية والحربيه ، وأتقن اللغة الفرنسية التي كان يتكلماها كأحد أبنائها ، وكان له في ذكائه بعض العوض عمما ينقصه من العلوم

عاد اسماعيل إلى مصر في عهد ولاية أبيه ابراهيم باشا ، ولما مات ابراهيم خلفه في الحكم عباس الأول ، وكان يحقد على عممه ويجهوهم ، فلما تولى الحكم شعر اسماعيل وأخوه بكراهية عباس لهم ، ثم مات محمد على ، واشتد الخصام بين عباس وبقية الأمراء على تقسيم ميراث جده ، وارتحل اسماعيل وبعض الأمراء إلى الاستانة ، وعيشه السلطان عبد المجيد عضوا بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وأنعم عليه بالباشوية ؛ ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس في أثناء حكم سعيد ، ولما عاد من الاستانة لقي من عممه سعيد باشا عطفا كبيرا ، وعهد إليه برأسة (مجلس الأحكام) الذى كان أكبر هيئة قضائية في البلاد ، وأوفده سنة ١٨٥٥ في مهمة سياسية لدى الامبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعى سعيد لدى الدول في توسيع نطاق استقلال مصر ، بعد اشتراكها مع الحلفاء في حرب القرم ،

فأدى اسماعيل هذه المهمة بما امتاز به من ذكاء ولباقة ، ووعده نابليون الثالث بتأييد مقتربه في مؤتمر الصلح بباريس ، ولكن لم يتحقق وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) في رحلته موFDA من قبل سعيد ، فأكرم الخبر الروماني مشواه ، ثم عاد إلى مصر

ولم يكن اسماعيل يفكّر أثناء حكم سعيد باشا في أن يقول إليه العرش من بعده ، إذ كان يحجّبه عنه أخيه الأكبر الأمير احمد رفعت ، ولكن حدثاً جائياً ساقته الأقدار سنة ١٨٥٨ أزال العقبة القائمة في سديله ليكون ولياً للعهد ، ذلك أن سعيد باشا أقام بالاسكندرية حفلة دعا إليها أمراء البيت العلوي ، فلبوا الدعوة ، ومن بينهم احمد رفعت، أما اسماعيل فقد اعتذر عن اجابتها لوعك في صحته ، وفيما كان الأميران عبد الحليم وأحمد رفعت عائدين إلى القاهرة بقطار خاص مع حاشيتهم ، سقطت العربة التي تقلّهمَا في النيل عند كفر الزيات ، فغرق احمد رفعت ، ونجا عبد الحليم ، فأصبح اسماعيل بعد غرق أخيه ولـ عـهـدـ الأـزـيـكـةـ الـمـصـرـيـةـ بـحـكـمـ نـظـامـ الـورـاثـةـ الـقـدـيمـ

وقد من اسماعيل على بعض مناصب الدولة ، وهو بعد ولـ عـهـدـ ، فاستخلفه سعيد مرتين ، وجعله نائباً عنه (قائم مقام) أثناء غيابه عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا سنة ١٨٥٩ ، والمرة الثانية حينما ذهب إلى الحجاز لزيارة المدينة المنورة في أوائل سنة ١٨٦١

وكان سعيد يهدى لا بن أخيه ارتياحه من الطريقة التي أدى بها أعمال النياية عنه ، ولما عاد للمرة الثانية إلى مصر جعله سرداراً للجيش المصري ، وعهد إليه إخماد فتنة بعض القبائل في السودان ، فاضطُّلَع بهذه المهمة دون أن يسفك فيها قطرة من الدماء

ولما أدركت « سعيد » الوفاة خلفه على عرش مصر في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣

سياسة مصر الخارجية

في عهد اسماعيل

نبدأ بالكلام عن سياسة مصر الخارجية ، لأنها كانت ذات الأثر الفعال في شؤونها الداخلية ، ولعل ذلك ناشيء عن أن اسماعيل كان يضع السياسة الخارجية والخطط المرتبطة بها في المكان الأول من الأهمية ، وتليها المسائل الداخلية

فلنبحث إذن عن سياسة مصر الخارجية ، ولهذه السياسة وجهان ، أولهما علاقة مصر بتركيا ، والثانى علاقتها بالدول الأوروبية

ففيما يتعلق بتركيا كانت الخطة التى ترسّمتها اسماعيل هي توسيع نطاق استقلال مصر ، وكسب أكثر ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية ، حتى يصل بالبلاد إلى الاستقلال التام

ولاشك أن هذه نزعة مدوحة ، تعدد من مفاسير اسماعيل ، فإن الوصول بالبلاد إلى استقلالها التام هي الغاية التي ترمي إليها الحركة القومية

أما فيما يخص علاقات مصر بالدول الأوروبية ، فقد كان اسماعيل يصدر عن فكره أخرى ، تناهى فكرته في علاقته بتركيا ، فيينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقایا السيادة التركية ، إذ هو لا يفادى مصر من النير الاجنبى المالى والسياسي ، بل كان يتسبب فى تطويقها بسلسل التدخل الأوروبي ، بحيث لم يوشك عهده أن يقارب نهايته ، حتى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسي الذى كسبته مصر فى عصر محمد على

ولو أنه بذل فى سبيل بقاء البلاد حرمة من اخطار التدخل الاجنبى جزءاً ولو يسيرآ مما كان يبذله للانفصال عن تركيا ، لتحقق مشروع الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولاقترن اسمه فى التاريخ بهذا المشروع القومى العظيم ، ولكنه كان لا يحسب حساباً للتدخل الأوروبي ، وما ينطوى عليه من المطامع التى تهدى كيان الاستقلال ، وهذا الخطأ الجسيم ، فى سياسة اسماعيل الخارجية ، ناشئ عن نزعته الأوروبية ، فإن هذه النزعة جعلته يشق بأوروبا ، والدول الأوروبية ، والجاليات الأوروبية ، ثقة عميماء ، ويركز إليها ، ويعتقد فيها حسن النية ، ولا يفطن لطامعها الاستعمارية ، ففتح أبواب البلاد على مصر اعوها للتدخل الأجنبى ، وسمح للأوروبيين أن يتغذوا فى مرافقتها ، ويتوالى المناصب والماراكن الرفيعة فى حكومتها ، وبلغت به الثقة فى سلامتها نيتهم جداً جعله يفترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الأجنبية ، حتى صار للجانب فى عهده نفوذ مالى وسياسى لم يكن لهم من قبل ، وانقلب هذا النفوذ إلى حقوق ومزاعم ادعوها ، وما ليسوا أن نالوها ، بإنشاء صندوق الدين ، وفرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد ، وتعيين وزريرين أجنبيين فى الوزارة المصرية ، كما سيجيء بيانه

فسياسة اسماعيل الخارجية حيال الدول الأوروپية كانت اذن سياسة خاطئة ، أوقعت مصر تحت النير الأجنبي المالي والسياسي ، مما نشعر بنتائجها السيئة الى اليوم (١٩٣٢)
هذه كلية اجمالية عن سياسة اسماعيل الخارجية ، حيال تركيا والدول الأوروپية ، نمهد بها الى بيان هذه السياسة تفصيلاً فيما يلي

(١) سياسة اسماعيل حيال تركيا

العلاقات الودية

جول اسماعيل نصب عينيه تحرير مصر من قيود السيادة التركية التي فرضتها عليها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمانات سنة ١٨٤١^(١) ، أى أنه أكمل العمل الذي بدأه محمد علي ، ولكن الفرق بينه وبين جده أن محمد على كسب مصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصرى ، أما اسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشاوة يبذلها لرجال الاستانة ، ليحصل على الفرمانات التي وسع بها نطاق الاستقلال

وليس يخفى أن وسيلة محمد على هي صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث ، تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومى ، أما وسيلة اسماعيل فلا تستثير في النفوس إحساس المجد والفتخار ، هذا فضلاً عن أنها من الأسباب التي دعت اسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية ، فكانت من هذه الناحية ، من العوامل التي أدت إلى تصدع بناء الاستقلال الحقيقى ، وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية جسمية في سبيل الحصول على الامتيازات التي نالها ، إذ لم تكن حكومة الاستانة تصدر فرمانا إلا في مقابل الأموال الطائلة من الرشا والمدايا ، يقدمها اسماعيل لرجال الاستانة ، على اختلاف صفاتهم ، ولا يستثنى منهم السلطان ذاته ، والصدر العظام ، فبلغت هذه الأموال طوال حكمه نحو اثني عشر مليوناً من الجنيهات

بدأ اسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ورجل حكومته ، فلما تولى

(١) راجع (عصر محمد على) ص ٣١٠ وما بعدها

الأريكة المصرية ذهب إلى الاستانة ليقدم له فروض الولاء ، واتهـز هذه الزيارة لـأحكام
روابط الود بينه وبين تركيا ، وتـوـدـدـ إلىـ السـلـطـانـ عـبـدـ العـزـيـزـ ، وـدـعـاهـ إـلـىـ زـيـارـةـ مصرـ ،
فـوـعـدـهـ بـقـبـوـلـ الدـعـوـةـ

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

أبريل سنة ١٨٦٣

بر عبد العزيز بوعده ، جاء مصر في شهر أبريل سنة ١٨٦٣ م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ،
ونزل بالاسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وقضى في ضيافة اسماعيل عشرة أيام ، لـقـيـ
فيها من مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ماجعل لـاسماعيلـ منزلةـ كبيرةـ عنـدهـ
ولا غـرـوـ فقدـ كانـ عبدـ العـزـيـزـ هوـ السـلـطـانـ العـمـانـيـ الـوحـيدـ الذـيـ جـاءـ مصرـ زـائـراـ ،
بعدـ السـلـطـانـ سـلـيمـ الذـيـ دـخـلـهـ فـاتـحاـ ، فـكـانـتـ هـذـهـ الـزـيـارـةـ تـسـكـرـ يـماـ كـبـيرـاـ لـاسمـاعـيلـ ،
وـتـعـظـيمـ لـشـائـتهـ

وـاغـتـمـ هـذـهـ الفـرـصـةـ ، فـاستـغـلـ المـنـزـلـةـ الـتـىـ نـالـهـاـ لـيـكـسـبـ منـ تـرـكـياـ حـقـوقـاـ وـمـزاـياـ
جـديـدةـ ، وـاسـتـخدـمـ إـلـىـ جـانـبـ ذـلـكـ الـمـالـ يـذـلـهـ بـسـخـاءـ ، فـغـمـرـ السـلـطـانـ وـحـاشـيـتـهـ بـالـمـدـاـيـاـ
وـالـتـحـفـ الـفـاخـرـةـ ، حتـىـ مـلـأـ بـهـ سـفـيـنةـ بـأـكـلـهـاـ ، وـزوـدـ الصـدرـ الـأـعـظـمـ فـوـادـ باـشاـ وـحدـهـ
بـسـتـينـ أـلـفـاـ مـنـ الجـنـيـهـاتـ رـشـوةـ لـيـتـخـذـ مـنـهـ عـونـاـلـهـ فـيـ مـسـاعـيـهـ لـدـىـ الـحـكـوـمـةـ التـرـكـيـةـ ،
وـعادـ عبدـ العـزـيـزـ مـنـ زـيـارـتـهـ مـغـتـبـطاـ مـاـ لـقـيـهـ مـنـ الإـكـرـامـ ، وـمـهـدـتـ هـذـهـ الـزـيـارـةـ الطـرـيقـ
أـمـامـ اسمـاعـيلـ لـيـشـالـ رـغـائـبـهـ

تغيير نظام توارث العرش

وـفـرـمـانـ ٢٧ـ ماـيوـ سـنـةـ ١٨٦٦ـ

أـوـلـ ماـوـجـهـ إـلـيـهـ اسمـاعـيلـ جـهـدـهـ ، هوـ الـعـمـلـ عـلـىـ تـغـيـرـ نـظـامـ تـوارـثـ العـرـشـ ، فـقدـ
كانـ النـظـامـ الـقـدـيمـ الذـيـ فـرـضـهـ فـرـمـانـ سـنـةـ ١٨٤١ـ يـقـضـيـ بـأنـ يـؤـولـ عـرـشـ مصرـ إـلـىـ أـكـبرـ
أـفـرـادـ الـأـئـمـةـ الـعـلـوـيـةـ سـنـاـ ، كـالـنـظـامـ الـمـتـبعـ فـيـ تـرـكـياـ

فسعى اسماعيل جده في أن يرث العرش إلى أكبر أبناءه ، ونجح في مسعاه ، بفضل المثابة ، والدأب على الطلب ، وبفضل الأموال الطائلة التي بذلها في الاستانة ، وقد بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ، فكان هذا السعي من الأسباب الأولى لديون اسماعيل ، وليس ثمة شك في أن هذه التضييق المالية لا توازيها الفائدة التي نالتها مصر من هذا التغيير ، لأن طريقة توارث العرش ليست مسألة جوهرية تهم البلاد حتى تبذل في سبيلها هذه الملايين ، هذا إلى أنها كلفت مصر تضييق مالية أخرى ، ذلك أن تركيا اشتراطت مقابل هذا التغيير زيادة الجزية السنوية من ٤٠٠ ألف جنيه عثماني ، إلى ٧٥٠ ألف ، أى إلى ما يقرب من الضعف ، وهي زيادة فادحة ، تحملتها مصر باستمرار من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر ، بلغت نيفاً وخمسة عشر مليون جنيه مصرى لغاية سنة ١٩١٤ ، وهى السنة التي زالت فيها السيادة العثمانية عن مصر ، واحتملتها بعد زوال هذه السيادة ، لأن الحكومة الخديوية قبلت تحويل الجزية إلى ذاتى تركيا ، وتعهدت بدفع أقساط ديونهم السنوية خصماً من الجزية لغاية سنة ١٩٥٥ ، فإذا حسبنا خسارة مصر في زيادة الجزية من سنة ١٨٦٦ لغاية سنة ١٩٥٥ ، بلغت نيفاً وخمسة وعشرين مليون جنيه مصرى ، عدا فوائدها ، وهي خسارة جسيمة لا يبرر ولا مسوغ لها

ومن الإسراف في القول ما يزعمه بعض المؤرخين أن اسماعيل قصد بسعيه في هذه المسألة مصلحة البلاد ، وأغلبظن أن الباعث له على هذا التغيير هو ما كان ييشه وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم من الشقاق والشحفاء ، ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لها وحقده عليهما ، وكان الأميران أيضاً لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهم لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى في حرمانهما من وراثة العرش وجعلهما في ذريته من صليبه

وقد أغتنم حكام تركيا وذرو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس ، ليبيتوا من أموال مصر ما تصل إليه أيديهم ، فقد بذل الأميران عبد الحليم ومصطفى فاضل أموالاً طائلة في الاستانة ، لإحباط مساعي اسماعيل ، فاستفادت من الناحيتين ، ولكن اسماعيل كان أكثر مالاً ، وأعز جانباً ، فنصح في مسعاه ، وهكذا كان للمال الأثر الفعال في نفوس حكام الاستانة

وساعد اسماعيل في نجاح مسعاه عامل آخر غير المال ، وهو أن عبد العزيز سلطان تركيا وقىئذ كان يميل أيضا إلى تغيير نظام توارث العرش ، ويتمى أن يؤول عرش تركيا من بعده إلى ابنه يوسف عز الدين ، فأيد اسماعيل في مسعاه ، كي يمهد السبيل لنفسه ، ولكن له لم يستطع أن يقدم على هذا التغيير ، لما فيه من الخروج على التقاليد الموروثة عن آل عثمان

كانت نتيجة مساعي اسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ (١٢ محرم سنة ١٢٨٣)
القاضى بانتقال مسند ولالية مصر وملحقاتها وقام مقامى سواكن ومصوع إلى أكبر
أولاده ، ومن هذا إلى أكبر ابنته ، وهل جرا

ونص في هذا الفرمان على امكان زيادة الجيش المصرى إلى ثلاثين الف جندى ، وكان
في الواقع يزيد على هذا العدد من قبل ، وإقرار حقها فى ضرب نقود مختلفة العيار عن
نقود السلطنة العثمانية ؛ ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الشانية^(١)

واستتبع هذا الفرمان صدور فرمان آخر في ٢ صفر سنة ١٢٨٣ (١٥ يونيو سنة
١٨٦٦)^(٢) ، بترتيب نظام للوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصرا

وقد أبلغ الباب العالى الفرمان السابق إلى الدول العظمى التي اشتراك فى إبرام
معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، مما جعل له صفة المعاهدة التي تربط تركيا دوليا إزاء مصر ،
بحيث لا تملك تعديله الا بموافقة مصر ، وخاصة لأنه صدر مقابل زيادة في الجزية

قلنا إن هذا التغيير في نظام التوارث لا يعد مكسيماً كبيراً لمصر ، حتى تبذل من
أجله تلك التضحيات المالية الباهظة ، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول ،
لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش إلى الخديو توفيق ، أكبر أنجحـال
اسماعيل ، ومعلوم أن توفيق باشا لم تسكن ولايته خيراً على البلاد ، وهو الذى اعتلى
العرش حينما خلع أبوه ، ولم يظهر نحوه من الوفاء ما كان يتظره الألب من ولده ، ومضى

(١) قاموس الادارة والقضاء لفيليپ جlad ج ٦ ص ٧٣٠

(٢) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية (لنور ادنجيان افندي ج ٢ ص ٢٥٥) . وقاموس

اسماويل سنوات النفي ، واحتمل غصنه وآلامه ، دون أن يلقى من ابنه عطفاً عليه في محنته ، وإذا أغضينا النظر عن هذه الاعتبارات العائلية ، فلا يمكننا أن ننسى أنه في عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزي ، وكان عليه جانب كبير من تبعه وقوته ، فلو لم يتقرر نظام التوارث الجديد ، لكان جائزًا أن يختلف اسماعيل على العرش أميرًا أفعى للبلاد وأخلص لها من توفيق باشا

وقد كان صدور الفرمان بهذا التغيير سبباً لاتساع هوة الخلاف والنفور بين اسماعيل وأخيه مصطفى فاضل ، الذي كان ولها للعهد طبقاً لنظام الوراثة القديم ، واستمر العداء بينهما طول الحياة ، وكذلك اشتدت السكرافية بينه وبين عميه الأمير عبد الحليم بن محمد على ، فإنه كان يتطلع إلى الأريكة المصرية ، وجاء هذا الفرمان قاضياً على آماله وأدت هذه الحالة إلى اشتداد الدسائس بين الفريقين ، مما شغل اسماعيل وجعله يبذل جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة في سبيل إضعاف مركز منافسيه ، ولو بذلت هذه الجهود والأموال في سبيل مصلحة البلاد لكان ذلك خيراً وأولى

وأفضت هذه السكرافية ، وما استتبعها من الوشایات والمؤامرات ، إلى رحيل الأميرين المذكورين واسرتיהם من مصر ، وانتخاذهما الاستانة وأوروبا مقراً لهما ، ونقم الأمير مصطفى فاضل على حكومة السلطان عبد العزز لتغييرها نظام توارث الأريكة المصرية ، وعلم بما بذله اسماعيل في هذا السبيل من الأموال الطائلة ، فانضم إلى أحرار تركيا الناقدين على الحكم الاستبدادي فيها ، والذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم والتخلص من استبداد السلاطين ، وعاونهم بنفوذه وماله ، ومن هنا جاءت تسميةه بأبي الاحرار في تركيا

أما عبد الحليم ، فقد نفاه اسماعيل من مصر إثر اكتشاف مكيدة لاغتياله ، قيل إن الأمير دبرها ، فاتخذ اسماعيل هذه الرواية ذريعة للتخلص منه ، فقرر نفيه

فرمان ٨ يونيو سنة ١٨٦٧

والحصول على لقب خديو

واستمرت العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وظل اسماعيل يبذل المال بسخاء على

ضفاف البوسفور ، فحصل في ٨ يونيو سنة ١٨٦٧ (٥ صفر سنة ١٢٨٤) على فرمان جديد ، يخوله وخلفاءه لقب (خديو) ، بعد أن كان (واليا) ، فارتقي صاحب العرش بهذا اللقب السائى إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلطانين ، وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها في إدارة شؤونها الداخلية والمالية ، وحقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب في داخلية البلاد ، وشئون الضبط للجاليات الأجنبية^(١)

فتور العلاقات ثم الجفاء

بين مصر وتركيا

على أن علاقة مصر بتركيا ما لبست أن اعتراها الفتور والجفاء ، ثم الخصام والعداء ، ويرجع السبب الجوهرى في هذا التحول إلى رغبة اسماعيل في الانفصال عن تركيا ، والظهور بمظهر العاهل المستقل

ذكر محمود باشا فهمي في كتابه (البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٩) أنه في خلال حملة كريت (التي سيرد الكلام عنها) طلب اسماعيل من الباب العالي أن يخوله حق تعين سفراً لمصر لدى الدول الأجنبية ، فرأى الباب العالي أن مقاصده الاستقلال والانفصال عن تركيا ، فرفض طلبه ، وكان من نتائج الرفض أن غضب اسماعيل ، وتهدد الحكومة التركية بسحب جنوده من جزيرة كريت ، أو يستحوذ على الجزيرة إذا لم تجحب طلباته

وذكر اسماعيل باشا سرهنوك في كتابه (حقائق الأخبار ج ٢ ص ٣٤١) ما يدل على اشتداد الجفاء بين اسماعيل وتركيا خلال حملة كريت ، مما يؤيد روایة محمود باشا فهمي ، وكلامها معاصر لهذه الحوادث ، قال انه لما وقع هذا الخلاف أوعز الخديو إلى شاهين باشا قائد الجيش المصرى في حملة كريت أن يعمل على ترغيب سكان الجزيرة في الانضمام لمصر ، فأخذ هذا يتودد إلى زعماء الجزيرة ، ويجتذبهم بالمال والهدايا ، فلما علمت الحكومة التركية بذلك طلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من قيادة الجيش المصرى

في كريت ، فاضطر إلى استدعائه ، وجعل مكانه قائداً آخر هو الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحرية وقيئد

وقد تعددت الحوادث والمظاهر التي تدل على سعي اسماعيل للانفصال عن تركيا فمن ذلك مفاوضته الدول الأوروبية رأساً في صدد إنشاء النظام القضائي المختلط ، دون وساطة الباب العالي ، واشترى كه في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وظهوره فيه نمذج الملك المستقل ، وإقامته به قسماً خاصاً لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديراً بتمثيل مملكة مستقلة ، ثم توصيته المعامل الفرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديدة الطراز ، لتسليح الجيش المصري ، مما جعل الحكومة التركية تتوجس خيفة من مقاصد اسماعيل ، وتتوقع أن يستعد ويتأهب لإعلان الاستقلال التام

واستفاضت الآباء بأن تركيا عازمة على إرسال جيوشها إلى مصر بعد إخماد ثورة كريت ، وخشي اسماعيل أن تنفذ تركيا يوماً وعيدها ، فاستعد للدفاع وال الحرب ، وأنشأ حصوناً جديدة بين الإسكندرية وبور سعيد ، ورمم الحصون القديمة ، وابتاع من معمل ارمسترينج بإنجلترا نحو مائة مدفع من المدافع الضخمة ، سلح بها تلك القلاع ، ويلاحظ أن كثيراً من هذه المدافع باقية إلى اليوم في حصون الإسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر ، وقد علاها الصداً من الإهمال وتوالي السنين ، وعلى أكثرها تاريخ السنة التي أنشئت فيها وهي سنة ١٨٦٩ ، أى السنة التي اشتد فيها الخلاف بين مصر وتركيا

وازدادت العلاقات فتوراً بين البلدين لدعوة اسماعيل ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها إلى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، دون وساطة تركيا ، فاعتبر السلطان هذه الدعوة إغفالاً لواجب الولاء نحوه ، واحتج لدى الدول على مسلك الخديو ، فلم يكتثر اسماعيل لهذا الاحتجاج ، واستمر ماضياً في دعوته ، وأقام حفلات القناة برأسه ، وحضرها ملوك أوروبا وأمراؤها

وكان معزماً بإعلان استقلال مصر التام في تلك الحفلات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم تساقطه في غرضه ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت حفلات القناة والجفاء مستحكم بين اسماعيل والباب العالي

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وما فيه من القيود

كان من تائج هذا الجفاء صدور فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ (٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦)، حمله رسول من الباب العالي إلى مصر عقب انفلاط حفلات القناة ، جاءه صدمة لآمال اسماعيل ، إذ بينما هو يأمل لمناسبة تلك الحفلات أن يصل إلى الاستقلال التام ، كانت النتيجة صدور فرمان ينتقص من سلطته

قيد السلطان بهذا الفرمان حقوق الخديو ، فنص فيه على أنه لا يجوز له أن يقترب قروضاً جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها ، ويحصل على إذن من السلطان بعقدها^(١) ، وكان السبب الظاهر لهذا التقيد غيرة الباب العالي على مصالح مصر ، واستياءه من تورط اسماعيل في الديون الباهظة التي استدانها

وفي الحق أن اسماعيل كان في حاجة إلى من يغلي يده عن الإسراف في الاستدانة ، ويقيده في تصرفاته المالية ، وحيثما لو أن هذا القيد جاء من ناحية الأمة ، أو بعبارة أخرى من ناحية مجلس شورى النواب ، الذي كان ينعقد كل عام ، على أنها لانعتقد أن الباب العالي كان يقصد إلى مصلحة مصر في تقيد اسماعيل بهذا القيد ، بل أغلب الظن أنه كان يرمي إلى استرداد حقوق جديدة لكي يكيد للخديو ويسيء إليه وقد استاء الخديو من هذا الفرمان ، ولم يعقد احتفالاً حافلاً لتلاوته بالأبهة المعتادة ، بل قرئ في قصر النيل دون جلبة ولا إعلان

تحسين العلاقات

فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢

على أن اسماعيل أخذ يسعى في تحسين علاقته بتركيا ، لما رأى أنه في حاجة إلى

(١) راجع نص الفرمان في القاموس العام للادارة والقضاء لفيليب جلد ج ٦ ص ٧٣٣

عصفها ، بعد أن خذلت الدول الأوروبية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد إلى الاستدانة في صيف سنة ١٨٧٢ يصبحه اسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا في إعادة المياه إلى مجاريها ، وبذلوا هناك مبذلا من مظاهر الولاء ، ومن المال والرشا والمدايا ، حتى عادت علاقات الود بين الخديو والحكومة التركية

فنا في سنة واحدة فرمانا في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٧ رجب سنة ١٢٨٩) يثبت الامتيازات السابقة منحه إليها ، وينسخ القيد الوارد في فرمان سنة ١٨٦٩ ، وخطأ شريفاً في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩) يؤكده مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ، ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون شرط ولا قيد

وقد ابتهج الخديو ابتهجاً عظيماً لورود الفرمان والخط الشريف إلى مصر يحملهما كبير كتاب المابين ، وعقد لقاءاً احتفالاً نفما في ديوان الغوري بالقلعة وقرئاً بحضور المدعون ، وأطلقت المدافع أياً نصر المبين ، ونشر نصهما في الجريدة الرسمية^(١)

وكان من نتائج صدور الفرمان والخط الشريف المذكورين عقد قرض سنة ١٨٧٣ ذلك القرض المسؤول الذي كان طامة كبرى على البلاد كما سنبينه فيما يلي

الفرمان الجامع (٨ يونيو سنة ١٨٧٣)

لم يكتفى الخديو اسماعيل بهذا الفرمان ، بل أراد أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التي نالتها مصر منذ تولية محمد على حكم مصر بطريق التوارث إلى ذلك العهد ، فقصد إلى الاستدانة في صيف سنة ١٨٧٣ متذرعاً بالأموال يرسو بها رجال الحكومة التركية ، وصحبه في رحلته جمع من أركان حكومته وبطانته كنوبار باشا وزير الخارجية ، واسماعيل صديق وزير الداخلية ، ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس الخصوصي العالى) وغيرهم ، وما زال يسعى حتى تال الفرمان المؤرخ ٨ يونيو سنة ١٨٧٣ (١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٩٠)^(٢) ، وهو الفرمان الجامع الذي ثبت المزايا الواردة في الفرمانات القديمة والحديثة ، وتتلخص هذه المزايا في الحقوق الآتية :

(١) الواقع المصرية عدد ٤٨٠ الصادر في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٢

(٢) الوثائق الدوائية للسلطنة العثمانية لنور الدينجان افيدي ج ٣ ص ٣٤٧

- (١) توارث عرش مصر في أكبر انجال الخديو، ومن بعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر وهلم جرا
- (٢) تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ماصار إلهاقه بها من قائم مقامى سواكن ومصوع وملحقاته مما
- (٣) حق الحكومة المصرية في سن القوانين والنظمات الداخلية على اختلاف أنواعها
- (٤) حق عقد الاتفاقيات البحرية والمعاهدات التجارية
- (٥) حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان من الحكومة التركية
- (٦) زيادة الجيش إلى أى عدد يقتضيه الخديو
- (٧) حق بناء السفن الحربية ماعدا المدرعات التي يجب لانشائهما استئذان الحكومة التركية
- وصحفوة القول أن هذا الفرمان الجامع قد ثبت لمصر حقوقها الكاملة في الاستقلال التام ، فيما عدا دفع الجزية السنوية ، وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه عثمانى ، وعدم عقد المعاهدات السياسية ، وحق التمثيل الخارجى ، وعدم صنع المدرعات الحربية وقد نشر هذا الفرمان في العدد ٥١٧ من (الوقائع المصرية) الصادر في ١٧ يوليه

سنة ١٨٧٣

عود الجفاء

على أن هذه الفرمانات لم تصل إلى إحلال الوئام بين مصر وتركيا محل الجفاء والخصام، بل على الرغم من الطواهر ، فإن تركيَا كانت لا تخلص النية نحو مصر ، كما أن اسماعيل كان يسعى بها الظن ويعتقد بحق أنها لا تتردد في استرداد الامتيازات التي نالتها مصر إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً

وبعد سوء نية تركيَا نحو مصر من مالاتها الدول الأوروبية في خلافها مع الخديو اسماعيل ، ذلك الخلاف الذي أدى إلى خلعه ، كما سنبينه في موضعه ، فأن مطالب الحكومات الأوروبية في هذا الخلاف كانت مطالب جائرة لا يقرها عدل ، ولا يسغها منطق ، وظهر فيها الافتىات الصارخ على حقوق مصر ، واتهام الدول الارتباك المالى لتحقيق أطماعها الاستعمارية ، وبالرغم من ذلك لم يتعدد الباب العالى في الانضمام إلى

الدول الأوروبية، والنزول على إرادتها، ولم يكُن يتبيّن رغبتها في التخلص من اسماعيل حتى بادره برسالته التلغرافية القاضية بخلعه من منصب الخديوية، وتعيين نجله توفيق باشا خلفاً له، ولم يكن هذا العمل لصالح مصر، ولا لصالح تركيا أيضاً، بل كان تمكيناً للنفوذ الأجنبي في مصر، ولكن تحبط السياسة التركية وسوء نيتها نحو مصر جعلها تستجيب لمطالب الدول، وتلك أول مرة خلعت فيها ولـي الأمر على مصر على عهد الأسرة العلوية برغبة الحكومات الأوروبية، وعـمالـةـ الحـكـوـمـةـ التـرـكـيـةـ، وفي ذلك أعظم افـتـيـاتـ على حقوق مصر واستقلالها

(٢)

سياسة اسماعيل حيال الدول الأوروبية

كانت القاعدة العامة لسياسة اسماعيل الخارجية الركـونـ إـلـىـ الدـوـلـ الـأـوـرـوـبـيـةـ، وحسن الظن بها ، والعمل على كسب رضاها ، وهذا من غلطاته السياسية ، لأنـهـ منـ المـعـلـومـ أـنـ الدـوـلـ وـالـجـالـيـاتـ الـأـوـرـوـبـيـةـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ أـجـنـاسـهـاـ، إنـماـ تـرـمـيـ إـلـىـ تـحـقـيقـ أـطـمـاعـهـاـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ فـيـ بـلـادـ الشـرـقـ قـاطـبـةـ، ومـصـرـ فـيـ طـلـيـعـتـهـاـ

وتـلكـ لـعـمـرـىـ حـقـيقـةـ يـعـرـفـ بـهـ الـأـوـرـوـبـيـوـنـ الـمـنـصـفـوـنـ، فـقـدـ كـتـبـ المـسـيـونـ (ـفـانـ بـلـنـ) Van Bemlen وهو قـاضـ هـوـلـنـدـيـ تـولـىـ الـقـضـاءـ فـيـ الـحـاـكـمـ الـمـخـلـطـةـ عـلـىـ عـهـدـ اسمـاعـيلـ يـقـولـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ:

«إن عـلـاقـاتـ الـحـكـوـمـاتـ الـأـوـرـوـبـيـةـ بـمـصـرـ لـمـ تـقـمـ إـلـاـ عـلـىـ قـاعـدـةـ تـحـقـيقـ مـصـالـحـهـاـ وـمـصـالـحـ رـعـيـاـهـاـ، وـانـ سـيـاسـتـهـاـ الـمـبـنـيـةـ عـلـىـ الـأـثـرـةـ وـالـأـنـانـيـةـ لـمـ يـتـخلـلـهـاـ أـىـ شـعـورـ بـالـعـطـفـ أوـ بـالـأـفـةـ أوـ بـالـوـاجـبـ نـحـوـ مـصـرـ، وـمـعـظـمـ الـأـوـرـوـبـيـوـنـ الـذـينـ جـاءـوـاـ إـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ كـانـواـ مـنـ أـحـطـ الطـبـيقـاتـ، وـلـمـ يـكـنـ هـمـهـمـ إـلـاـ إـلـزـاءـ عـلـىـ حـسـابـ الـبـلـادـ،^(١)»

هـذـاـ مـاـ يـقـولـهـ قـاضـ أـوـرـوـبـيـ عـادـلـ مـشـقـفـ سـبـرـ غـورـ الـأـمـورـ فـيـ مـصـرـ، وـتـلـكـ هـىـ الـحـقـيقـةـ الـتـىـ يـطـالـعـنـاـ بـهـاـ فـيـ كـتـابـهـ، وـلـكـنـ الـخـدـيـوـ اـسـمـاعـيلـ لـمـ يـفـطـنـ إـلـىـ تـلـكـ الـحـقـائقـ

(١) مصر وأوروبا . للقاضي المختلط فـانـ بـلـنـ جـ ١ صـ ١١٦

وهنا يبدو الفرق جليّاً بين محمد على و اسماعيل ، فمحمد على كان يقتبس من التمدن الأوروبي وسائل النهضة و القوة والتقدم ، ويستعين بخبرة علماء أوروبا ومهندسيها ، ولكن في الوقت نفسه يحذر تدخل الأوروبيين حكومات وجاليات في شؤون البلاد . ولا يطمئن اليهم ، ولذلك بقيت البلاد في عهده سليمة من تدخل النفوذ الأوروبي ، سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة المالية والاقتصادية ، ويكتفي دليلاً على بعد نظره وحكمته أنه لم يقبل إنجاز مشروع قناة السويس ، رغم الحاجة المالية والسياسية للأجانب عليه ، وكذلك لم يقبل أن يعهد إلى شركة مالية إنجليزية إنشاء الخط الحديدي بين مصر والسويس ، ولم يمتد إلى الافتراض من البيوت المالية الأجنبية ، كل ذلك لكي يصون البلاد من أخطار التدخل الأجنبي

لكن اسماعيل ، لنزعته الأوروبية ، لم يحسب حساباً لهذا التدخل ، ولعله كان يتوجه حسنيّة الدول الأوروبية نحوه و نحو مصر ، فما زال الوهم متسلطاً عليه حتى أدرك خطأه في آخر عهده ، إذ رأى الدول و الجاليات الأوروبية ، التي طالما تودذ إليها ، ومكّن لها من مرافق البلاد ، تضطره إلى بيع أملاكه وأملاك عائلته وفاته لديونه ، ورأى النفوذ الأوروبي يشل سلطنته ، فحاول عيناً أن يقاومه أو يضع له حدّاً ، ولكن هذا النفوذ كان قد طغى واستفحّ ، فلم يستطع له دفعها ، وانتهى الأمر بأن اقْتُلَّته إرادة الدول الأوروبية عن الأريكة الخديوية

والآن نتكلّم عن سياسة اسماعيل نحو الدولتين اللتين تناافستا على النفوذ والسلطة في مصر ، وهما فرنسا وإنجلترا

فرنسا

كانت السنوات الأولى من حكم اسماعيل هي الفترة التي أخذ فيها النفوذ الاجنبي يتغلّل في البلاد ، مالياً و اقتصادياً ثم انقلب هذا النفوذ في أواخر عهده إلى سيطرة مالية وسياسية شديدة الوطأة

وكان لفرنسا بادىً "الأمر نفوذ أدبى كبير على اسماعيل ، وهذا يرجع أولاً ، إلى تربيته الفرنسية ، والسنوات التي قضاهَا في باريس ، ومعاشرته الطويلة للفرنسيين ، واتصاله

بهم ، وإتقانه لغتهم ، وميله إلى تقليدهم في معيشتهم ، واقتباسه أساليبهم وعاداتهم ، فيما خلا فضيلة التدبير والاقتصاد التي اشتروا بها ، والتي تعد من أعظم فضائلهم القومية وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسي ، وهو صلة الخديو اسماعيل بالأمبراطور نابليون الثالث ، وصداقه له وإعجابه به ، ومحاكته إياه في مظاهر الأبهة والعظمة ، وسعيه في كسب ثقته وتوثيق روابط الود بينهما

ويتجلى ذلك مبلغ النفوذ الفرنسي ، في أنه لما قام الخلاف بين اسماعيل وشركة قناة السويس في أوائل عهده بالحكم ، ارتضى تدخل الأمبراطور نابليون الثالث لجسم الخلاف ، ورضي أن يجعله حكماً بينه وبين الشركة ، مع أنه يعلم بالبداية أن امبراطور الفرنسيين لا يمكن أن يكون حكماً عادلاً في مثل هذا الخلاف ، وإن حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة لشركة الفرنسية ، وقد أصدر نابليون الثالث فعلاً حكمه بإلغام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة تبلغ عدة ملايين من الجنيهات

ويبدو هذا النفوذ أيضاً في استخدام اسماعيل لطائفة من الفرنسيين في كثير من معاملاته المالية وقرره ، وإسناد كثير من مشروعات العمران إلى إخصائين من الفرنسيين

وقد بلغ هذا النفوذ أقصى مداه في حفلات افتتاح القناة سنة ١٨٦٩ ، فالقناة في ذاتها عمل فرنسي ، وفاتها فردينان دلسيبيس يمثل كفاءة فرنسا المالية والهندسية ، وكانت أوجيني امبراطورة الفرنسيين تمثل الدولة الفرنسية في إبان مجدها وأوج عزها ، وهي التي رأست حفلات الافتتاح ، متقدمة ملوك أوروبا وأمراءها وأقطابها في السياسة والعلوم والفنون ، فكانت هذه الحفلات الفخمة إيداناً بما بلغه النفوذ الفرنسي في مصر من القوة وسمو المنزلة

على أن هذا النفوذ أخذ في الانحسار حلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧١-١٨٧٠ ، فان انتصار الألمان في هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية في أوروبا والشرق ، وثل "عرش الامبراطورية" ، وكان من أولى تأثيرها سقوط نابليون الثالث صديق اسماعيل الذي كان يعتمد عليه في مهمات الأمور ، ومن ثم أخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل في مصر ، مخلفاً الطريق للنفوذ الانجليزي

انجلترا

لا يخفى أن انتصار ألمانيا في الحرب السبعينية كان له تأثير سىء في المسألة المصرية ، لأن إضعاف نفوذ فرنسا قد مهد لانجلترا السبيل لتكون صاحبة الصوت الأعلى في هذه المسألة ، ومكنتها من الانفراد بالتدخل في شؤون مصر ، حتى انتهت إلى الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، فلا يغيب عنك أنه كان ثمة تنافس بين الدولتين على كسب النفوذ في مصر ، وقد اشتد هذا التنافس من عهد إنشاء قناة السويس ، وكان التعادل بين قوتיהם يحول دون سيطرة إحداهما على مصرير البلاد ، ولكن صوت فرنسا في المسألة المصرية أخذ يضعف من نهاية سنة ١٨٧٠ ، فاغتنمت انجلترا هذه الفرصة لإنفاذ إرادتها في وادى النيل ، اعتبر ذلك فيما وقع حين قامت الحوادث العرابية سنة ١٨٨١ ، واعترضت انجلترا الاحتلال مصر ، فقد كان هذا المشروع مهدداً بالإخفاق لو اشتركت فرنسا معها في العمل ، ولكن فرنسا تركت انجلترا تحتل البلاد ووحدها ، وهذا يرجع إلى أسباب عدة لا محاجة لها الآن ، وستكلم عنها في موطنها ، ولكن لاشك أن من بين هذه الأسباب ضعف فرنسا بعد هزيمتها في الحرب السبعينية ، وخوفها من الخطر الذى يتهددها من ناحية ألمانيا

ولو بقيت فرنسا على قوتها ونفوذها قبل الحرب السبعينية لكان من تنافسها هي وانجلترا في المسألة المصرية ما يكفل لمصر التخلص من مطامع الدولتين ، ولكن التوازن بينهما قد اختل بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ، فأخذت كفة انجلترا ترجح في شؤون مصر ، وأخذ اسماعيل من ناحيته ينصرف عن فرنسا لما أصابها من الضعف ، ويتجه ببصره تلقاء انجلترا ، ويتوعد إليها

على أن انجلترا منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بدأت فعلاً في العمل على تشويت مركزها في مصر تميداً لاحتلالها ، وأخذت في الوقت نفسه تتطلع إلى السودان ، وتمد أصبغها إليه تميداً لفصله عن مصر ، يدلل على ذلك سلسلة من الأعمال ترمي إلى تحقيق تلك المطامع ، فنها أنها أوعزت إلى الخديو اسماعيل أن يعين السير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى الشهير حاكماً لمديرية خط الاستواء ، ولما انتهت مدة

عملت على أن يخالفه في هذا المنصب англичанин آخر وهو الكولونل غردون (باشا)، وسعت لاتخوي له سلطة كبيرة لارقابه عليه فيها للحاكم المصرى العام كاسيجىء بيانه وفي سنة ١٨٧٠ عهد الخديو إلى شركة انجلترا تدعى شركة جرنفلد إنف-ا-ذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية والقيام بأعمال الإصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات وانهزمت انجلترا فرصة ارتباك اسماعيل المالى لكي تزيد في ورطته، وتجعلت هذه النية واحدة، في شرائها أسلحة مصر في قناعة السويس سنة ١٨٧٥، فإن هذه الصفقة كانت أول ضربة صوبها انجلترا إلى صرح الاستقلال المصرى وفي سنة ١٨٧٧ أوعزت إلى الخديو أن يعين غردون باشا حكمدارا (حاكم عاما) للسودان، وهو منصب من أكبر مناصب الدولة وأعظمها خطرا، وتلك أول مرة في تاريخ مصر أُسند فيها هذا المنصب السامى إلى أجنبى وهذه الحوادث لم تقع عبثا، بل هي مظاهر لامتداد النفوذ الانجليزى في بلاط الخديو منذ سنة ١٨٧٠

وقد توافقت العلاقات الودية في هذه الحقبة من الزمن بين الخديو وانجلترا، وتعددت مظاهرها، فعقدت انجلترا ومصر في ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ معااهدة لتسهيل تبادل البريد

وعقدت في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معااهدة للتعاون على ابطال الرقيق ويظهر لك مبلغ حرص اسماعيل على كسب رضا انجلترا، وتجنب مجازاتها، أنه لما جرد سنة ١٨٧٦ حملة إلى شواطئ السويمال الواقعة على المحيط الهندى لبسط نفوذه مصر في شرق أفريقيا والوصول من هذه الجهة إلى أملاكه فى خط الاستواء، استاءت انجلترا من هذه الحملة، وأرسلت إلى اسماعيل تعترض على إيقاعها، فبادر الخديو إلى الاستجابة لاحتاجها، واسترجع الحملة إلى مصر استبقاءً لعلاقات الود بينهما

وفي ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عقد وإياها معااهدة اعترفت فيها انجلترا بسلطنة مصر في بلاد السويمال الشمالية، فكانت هذه المعااهدة مظهرا من مظاهر «العلاقات الودية» بين مصر وانجلترا

على أن هذه الود، لم يمنع انجلترا من أن تضمر الشر لمصر، وتعمل على إخضاعها للرقابة الأجنبية، ولما اشتد الخلاف بين الخديو والدائنين سعت سعيها في : لعنه ونبحث في مساعها سنة ١٨٧٩، فكان هذا ختام «السياسة الودية»، التي اتبعها اسماعيل حياما

الفصل الرابع

قناة السويس

إن مسألة قناة السويس من أولى المسائل السياسية التي واجهت اسماعيل في أوائل عهده، بالحكم ، إذ كانت أنظار الأوروبيين متطلعة إلى ما يؤول إليه مصير القناة بعد وفاة سعيد الذي عرف عنه أنه سند المشروع وقوامه ، فلما مات قلق المسيو فرديان دلسبيس على مشروعه ، وخشي أن يكون نصيبه الإخفاق ، ولكن اسماعيل باشا بادر في أول اجتماع له بوكالء الدول وأفضى إليهم بعزم على تأييد المشروع

فقد نجاح اسماعيل في تعضيد إسماعيل ورعايته ، لأن سعيد باشا لم يكن يتولى المشروع في خطواته الأولى ، حتى عاجله المنية ، فلو لا اتجاه إرادة اسماعيل إلى تعضيد المشروع وإنفاذه ، لكان مصيره الحبوط لا محالة ، ولعجز المسيو دلسبيس عن المضي فيه ، ولعل اسماعيل أراد كآراد سلفه أن يكسب رضا الأوروبيين من أنصار المشروع ، وينال إطراهم وثناءهم ، ويستحق في نظرهم لقب « فاتح القناة » ، فغضض المشروع بكل قوته ، واحتمل تبعه إتمامه ، كما احتمل سعيد تبعه البدء فيه والتصميم على إنفاذه

سعى اسماعيل في تخفيف شروط الامتياز

على أنه من الحق أن نقر أن اسماعيل باشا قد هالته فداحة المزايا التي نالتها الشركة في عقد الامتياز ، فسعى جهده في تخفيفها ، وكان من هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد

وما يؤثر عنه أنه قال يوماً : « إنني أريد أن تكون القناة مصر ، لا أن تكون مصر للقناة » ، وقيل إنه فكر يوماً في أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع ، ولو حقق هذه الفكرة

لجعل القناة حقيقة ملكاً لمصر ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بالاعتراض على أوجه أربعة من شروط الامتياز وسعى في إبطالها وهي : --

(١) تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إلىهم الشركة لغاية عشرين ألفاً باستمرار (١) ، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة ببعض في حال تقصيرها أو عجزها عن تقديم هذا العدد

(٢) ملكية الشركة لترعة المياه العذبة التي كلفت بمقتضى العقد إنشاءها واستغلال رى الأطيان المملوكة للأفراد على جانبها مقابل أجر تقتضيه منهم حسب تقديرها

(٣) ملكية الشركة لجميع الأراضي التي ترى أنها في حاجة إليها لحفر القناة وإنشاء الترعة العذبة ، واعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عنها ، وملكيتها لجميع الأراضي التي تستصلاحها وتزرعها ، واعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات

(٤) اضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها

وقد فاوض اسماعيل الشركة لإلغاء هذه الشروط ، واعتمد في مفاوضاته على وزيره نوبار باشا ، وقدم حججاً وأسانيد قوية تأييداً لطلباته ، وكانت حججته في إلغاء الشرط الأول رغبته في إلغاء السخرة ، لأن هذا الشرط هو إقرار فعلي لتسخير العمال والفلاحين في العمل لفتح القناة ، وهذا مالا يتفق ومبادئ الإنسانية

وحججته بالنسبة للشرط الثاني والثالث أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بملكية العقارية والتي كانت متتبعة في مصر وقتئذ لا تجيز لتنازل للأجانب عن ملكية الأرض والعقارات

وكانت أولى خطواته في تخفيف الشروط أن أبرم اتفاقاً مع الشركة في ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ (٢) يقضي بأن تتولى الحكومة إنشاء الترعة في القسم الممتد بين النيل ووادي

(١) بلغ هذا العدد ٢٢ ألفاً في أواخر عهد سعيد (ج ٤ ص ٣٤٤ من وثائق القناة للمسيو داسبس)

(٢) وثائق القناة للمسيو داسبس ج ٤ ص ٢٩٠

الطمليات ، ووصلها بالجزء الذى أنشأته الشركة من ترعة الوادى إلى القناة ، وقد عرفت هذه الترعة من منبعها إلى مصبها بالترعة الاسماعيلية ، وغرض الخديو من هذا الاتفاق تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للتربة ، وانتزاعها ملکية الأفراد من الأطيان التي يقتضيها إنشاؤها ، وكان عمله في هذا قرين الحكمة والسداد

وأوفد اسماعيل وزيره نوبار باشا إلى الاستانة ، ثم إلى فرنسا ، للسعى في تخفيف شروط الامتياز ، وأوضحت مطالبه في رسالة بعث بها نوبار إلى الشركة^(١) وتلخص فيما يلى :

(١) انفاص عدد العمال الذين تلزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفا) يضر بالبلاد وبالزراعة

(٢) زيادة أجورهم ، وجعلها فرنكين لـ كل عامل في اليوم . لـ كى يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل في حفر القناة

(٣) الغاء امتياز ملکية الشركة للأراضي ، وفي مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدها إتمام الترعة العذبة ، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات ^{إلى بذاتها في} القسم الذى أنشأته منها

وقد عارضت الشركة في هذه المطالب ، بحججة أن انفاص عدد العمال من عشرين ألفا إلى ستة آلاف يعطى إتمام المشروع ، ويطيل مدة العمل من ثلاثة سنوات إلى عشر ، مما يكبد الشركة خسائر جسيمة ، وأن تملکها للأراضي القابلة للاستصلاح ، وللتربة من رأس الوادى إلى القناة ، من المسائل الجوهرية ، التي لا تتنازل عنها

تحكيم نابليون الثالث

وقد اشتيد الجدل حول مطالب اسماعيل ، وهبّت الصحف والدواير السياسية والمالية في فرنسا للدفاع عن شروط العقد ، والمعارضة في إيطاليا ، وارتضى الخديو أخيرا تحكيم الامبراطور نابليون الثالث امبراطور الفرنسيين ، للفصل في النزاع ، فـ "كان" هو الخصم والحكم ، لما كان معروفاً عنه من تأييد للشركة ، وعطفه على الميسو فردینار

(١) بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ - وثائق القناة للميسو دلسبيس ج ٤ ص ٣٥٠

دلسبس ، ويرجع هذا العطف الى أن المشروع في ذاته عظيم النفع لفرنسا ، والى أن دلسبس يمت الى الامبراطورة أوجيني بصلة قرابة بعيدة

الحكم في النزاع

أصدر نابليون الثالث حكمه في ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ وهو يقضي بما يأتي :

(١) إبطال حق الشركة مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، وإلزام الحكومة في مقابل ذلك بتعويض مالي تدفعه للشركة ومقداره ٣٨٠٠٠ فرنك

(٢) تنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة ، والتزام الحكومة باتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها ، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضاً قدره ١٦٠٠٠٠٠ فرنك

(٣) جعل الأراضي المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣٠٠٠ هكتار تقريباً^(١) ، منها ١٠٢٦٤ هكتاراً على جانبي القناة البحرية وملحقاتها ، و٩٦٠٠ هكتار للترعة العذبة ، وثلاثة آلاف هكتار لمباني الشركة

(٤) إعادة الأرض الأخرى التي اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠٠٠ هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٣٠٠٠٠٠ فرنك^(٢)

فداحة التعويضات

فكان مجموع ما ألزمت به الحكومة من التعويضات للشركة طبقاً لحكم الامبراطور نابليون الثالث ٣٦٠٠٠٠٠ فرنك = (٣٦٠٠٠ جنية) ، وبيانها كما يأتي بالجنيهات :

(١) الهكتار عشرة آلاف متر أي أكثر من فدانين

(٢) رسائل وپومپات ووثائق عن القناة للسيپو دلسبس ج ٤ ص ٤٧٦

١٥٢٠٠٠٠ ر.ر	مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة
٦٤٠٠٠ ر.ر	مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة
٢٠٠٠٠٠ ر.ر	مقابل تنازل الشركة عن دعواها في ملكية الأراضي
٣٦٠٠٠ ر.ر	مجموع التعويضات

وإذا علمت أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم على مصر بأدائها ، وانها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة

ويُعد هذا الحكم من الأحكام الجائرة في التاريخ ، لأنه بنى على أساس لا يسيغها عدل ولا منطق ، فقد ألزم الامبراطور نابليون الثالث الحكومة المصرية بتعويض عن أمور ثلاثة وهي :

(الأول) اعفاؤها من تقديم العمال المصريين ، وبنى هذا التعويض على أنها ملتزمة أصلاً بتقديم هؤلاء العمال للشركة ، وان إخالها بهذا الالتزام سيضطر الشركة الى جلب عمال من أوروبا ، فتدفع لهم فروقاً في الاجرة ، والى استحضار آلات تغنى عن الآيدي العاملة ، وتتكلفها نفقات طائلة ، وأن الحكومة المصرية مسؤولة عن هذه الفروق والنفقات ، وقد قدرها بهذا المبلغ الضخم (١٥٢٠٠٠٠ ر.ر جنيه)

ولا مراء في ان هذا السبب ظاهر فيه التعسّف والهوى ، لانه من التأمل في شروط الامتياز يتبيّن أنها لا تتضمّن « التزاماً » من الحكومة بتقديم أي عدد من العمال ، بل كل ما ورد في العقدان أربعة أحجام العمال يكونون من المصريين (مادة ٢) ، وأن الحكومة تعهدت ببذل مساعدتها للشركة (مادة ٢٢) ، فليس في العقد « التزام » بالمعنى القانوني يؤدى الى الحكم بتعويضات فيما اذا لم تسخر الحكومة العدد الذي تقتضيه الشركة من العمال ، بل كان على الشركة أن ترغّب العمال في العمل بالاجور التي تعرّضها عليهم ، أما جعل العمل اجبارياً بواسطة سلطة الحكومة ، فأمر ثم تلتزم به الحكومة أصلاً في عقد الامتياز

(الثاني) تنازل الشركة للحكومة عن إتمام ترعة المياه العذبة ، وعن الجزء الذي أنشأته فيها ، وقد رتب الحكم على هذا التنازل إلزام الحكومة بتعويض الشركة مقابل النفقات التي بذلتها في الجزء الذي أنشأته وحرمانها من الأرباح التي كانت تناولها من استغلال الترعة بعد تمامها ، وقدره هذا التعويض بمبلغ ١٦٠٠٠ فرنك (٦٤٠٠٠ جنيه) ، وكانت العدالة تقضى بأن لا تلزم الحكومة إلا بما أنفقتها الشركة فعلا على الجزء الذي أنشأته ، مادامت قد تنازلت عنه للحكومة ، وهذا ما كان اسماعيل باشا مستعداً لادائه ، ومقداره باعتراف الشركة ٥٥٠٠٠ فرنك (٣٠٠ جنيه) ، ولكن التحيز والهوى جعلا نابليون الثالث يكيل المال جزاً للشركة

(الثالث) تنازل الشركة عن ملكية الأراضي التي تبين من الحكم عدم لزومها لإنفاذ المشروع ، وقد قدرت في الحكم بـ ٦٠ هكتار ، وهنا أيضاً ظهر الغرض والتخيّز للشركة ، لأن هذه الأرض هي جهات صحراوية جرداً ، لم تسكن الشركة قد استصلاحتها بعد ، واتضح أن إنفاذ المشروع لا يقتضيها ، وبالرغم من ذلك قدر نابليون الثالث ثمناً لها على اعتبار ما سيؤول إليه أمرها في المستقبل !! بجعل لكل هكتار (فدانين تقريراً) خمسين فرنك (٢٠ جنيه) ، وحكم على مصر بأن تدفع للشركة في هذا الباب وحده ثلاثين مليون فرنك (٣٠٠٠٠ فرنك) ، وهكذا قضت «عدالة» نابليون الثالث أن تدفع مصر هذا المبلغ الباهظ لبقاء ملكها في حوزتها ، وهذا من أغرب ما سمع في معرض الظلم والجور

والخلاصة أن مصر خرجت من هذا التحكيم بصفقة المغبون ، وعدت الشركة حكم الامبراطور فوزياً مبيناً كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر ، فلا غرو أن وصفه المسيو فردينان دلسبيس بأنه «السنن الأساسية للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها»^(١) ، وكذلك كانت مراحل المشروع منذ البدء فيه إلى ما بعد إتمامه شوئماً ووبالا على البلاد

وغيّ عن البيان أن المحكمة كانت تقضى بأن لا يتورط الخديو اسماعيل في مثل هذا التحكيم ، الذي جر على مصر هذه الخسائر الجسيمة ، ولو أنه استمسك بشروطه

(١) وثائق القناة المسمى دلسبيس ج ٥ ص ٢١٨

ولم يقبل تحكيمها لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة في العمل ، إذ كان كل شيء معلقاً على الأيدي العاملة المصرية ، ولو لا تلك الأيدي الشديدة القوية ، لوقف المشروع وقضى عليه بالحبوط ، دون أن تحرّك مصر ساكناً ، ولكن شاء جدّ مصر العاشر أن يرکن اسماعيل إلى « العدالة الأوروبية » ، فوقع على يدها مارأيت من الظلم والاعتساف

اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦

وعقد اسماعيل والشركة اتفاقاً في ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ لتسوية النزاع بينهما مع مراعاة حكم نابليون الثالث ، وهذا الاتفاق يقضي بما يأتي :

(١) تحديد مواعيد الأقساط المقدرة لأداء قيمة التسوية بحسباً للحكم بها للشركة

(٢) استعمال الأراضي المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحقة

(٣) التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضي والمباني والأعمال الفنية

التابعة لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المباني

(٤) مبيع أراضي تفتيش الوادي (١) للحكومة بشمن قدره عشرة ملايين فرنك

(٤٠٠ ألف جنيه)

(٥) حق الحكومة في احتلال أي جهة في الأراضي المعتبرة حرماً للقناة وأى

موقع حربي لازم للدفاع عن البلاد على شرط أن لا يكون ذلك الاحتلال عائقاً للهلاحة

(٦) شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضي بغير أن تنشئها لمصلحتها كالبريد

والسكنات والجمارك وغيرها ، على شرط أن تراعي كل ما تقتضى به ضرورة الانتفاع

بالقناة ، وأن تدفع للشركة المبالغ التي تكون قد صرفتها على تلك الأماكنة

ثم أبرم في ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاقاً كاملاً مع الشركة يتضمن الشروط الواردة

(١) هي أطيان تبلغ ٢٣٧٨٠ فدان سبق للشركة أن اشتراها من تركة الهاوى باشا بشمن بخمس قدره ١٧٠٠٠٠٠ فرنك (نحو ٦٨٠٠٠ جنيه) ولم تدخل في التحكيم لأنها ملك خاص للشركة

في عقد الامتياز الأصلي مع التعديلات الطارئة عليه ^(١)

تصديق السلطان - واتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩

وفي ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير

سنة ١٨٦٦ ^(٢)

وعقد اسماعيل والشركة اتفاقا آخر في ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ ، الغى فيه الشرط الخاص باعفاء مستوررات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية ، وأعطتها مقابل ذلك تعويضا قدره عشرون مليون فرنك ، وتنازلت الشركة للحكومة عن بعض المباني والمستشفيات مقابل عشرة ملايين فرنك ^(٣)

انتهاء العمل وافتتاح القناة (نوفمبر سنة ١٨٦٩)

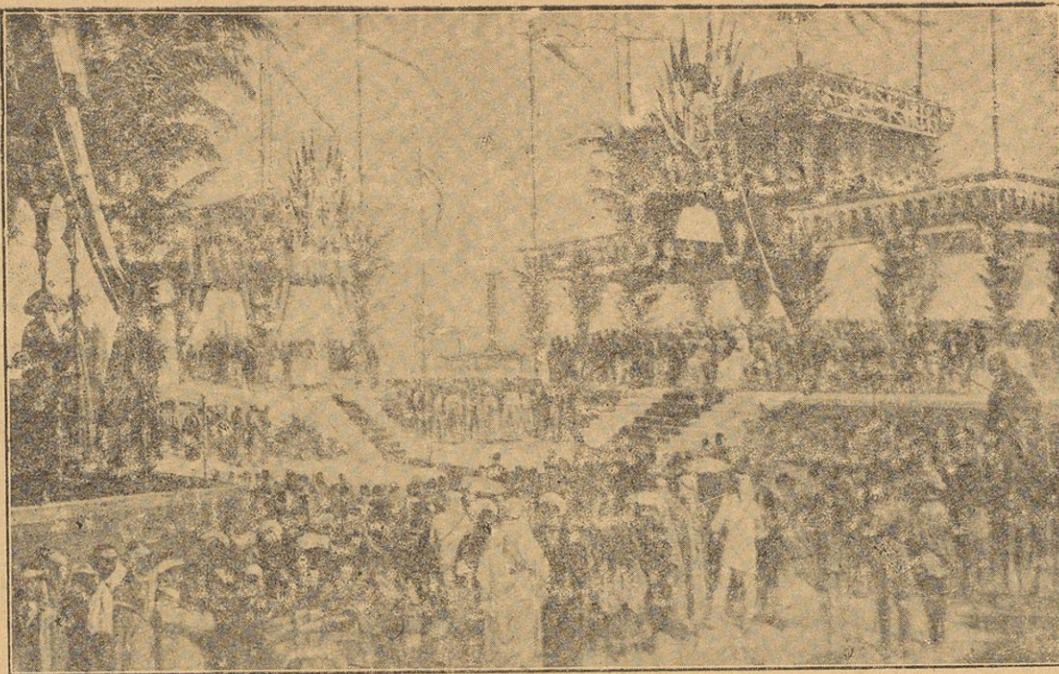
وانتهى العمل في حفر القناة واتصلت مياه البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر في نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، فكان العمل قد استمر عشر سنوات ، وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلومترا ، وأنشئت على شاطئها مدينة بور سعيد ومدينة الاسماعيلية ، وافتتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وأقام اسماعيل لمناسبة افتتاح القناة تلك الحفلات الفخمة التي لم يعرف التاريخ احتفالا يدانيها في الإسراف والتبذير

ويكفيك دليلا على مبلغ ذلك الإسراف أن تعرف نفقات الحفلات ، فقد بلغت على أصح تقدير ٤٠٠٠٠ جنية ، ولا توجد حكومة رشيدة تكلف خزانتها هذا المبلغ الضخم يضيع في حفلات لا طائل لها في الوقت الذي استهدفت فيه الحكومة والبلاد لأشد ضروب الضيق المالي

(١) و (٢) وثائق القناة ج ٥ ص ٢٣١ و ٢٦٥

(٣) كتاب د بربن وقناة السويس» للسيسيو شارل رو Roux ج ١ ص ٥١

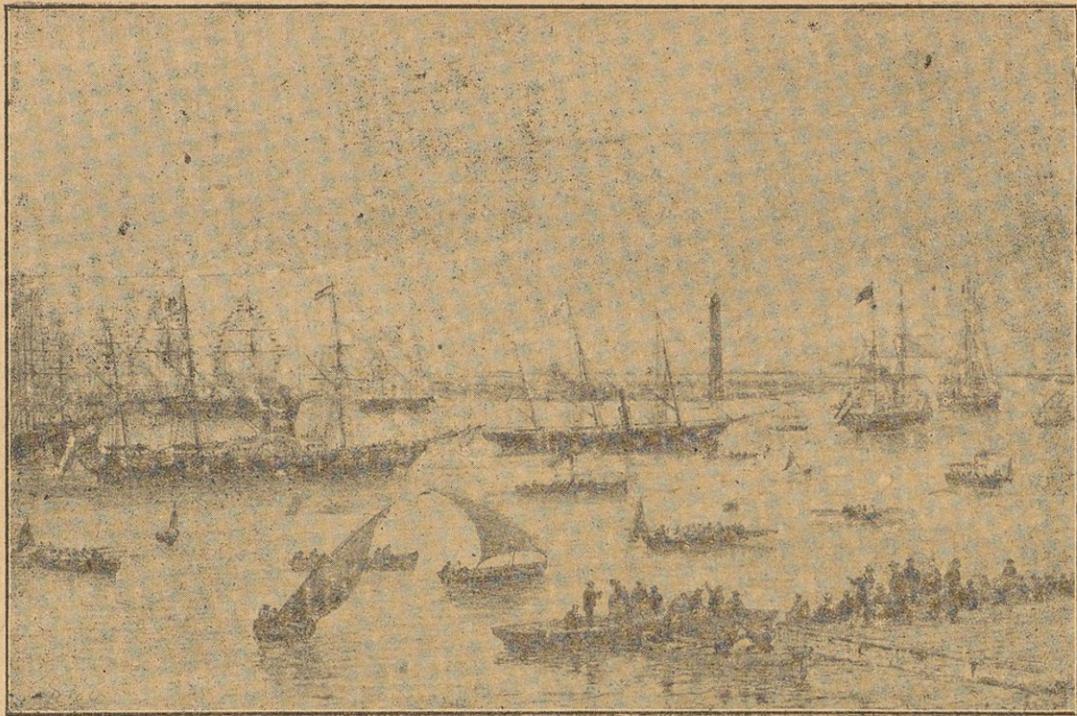


حفلة افتتاح قناة السويس ببور سعيد

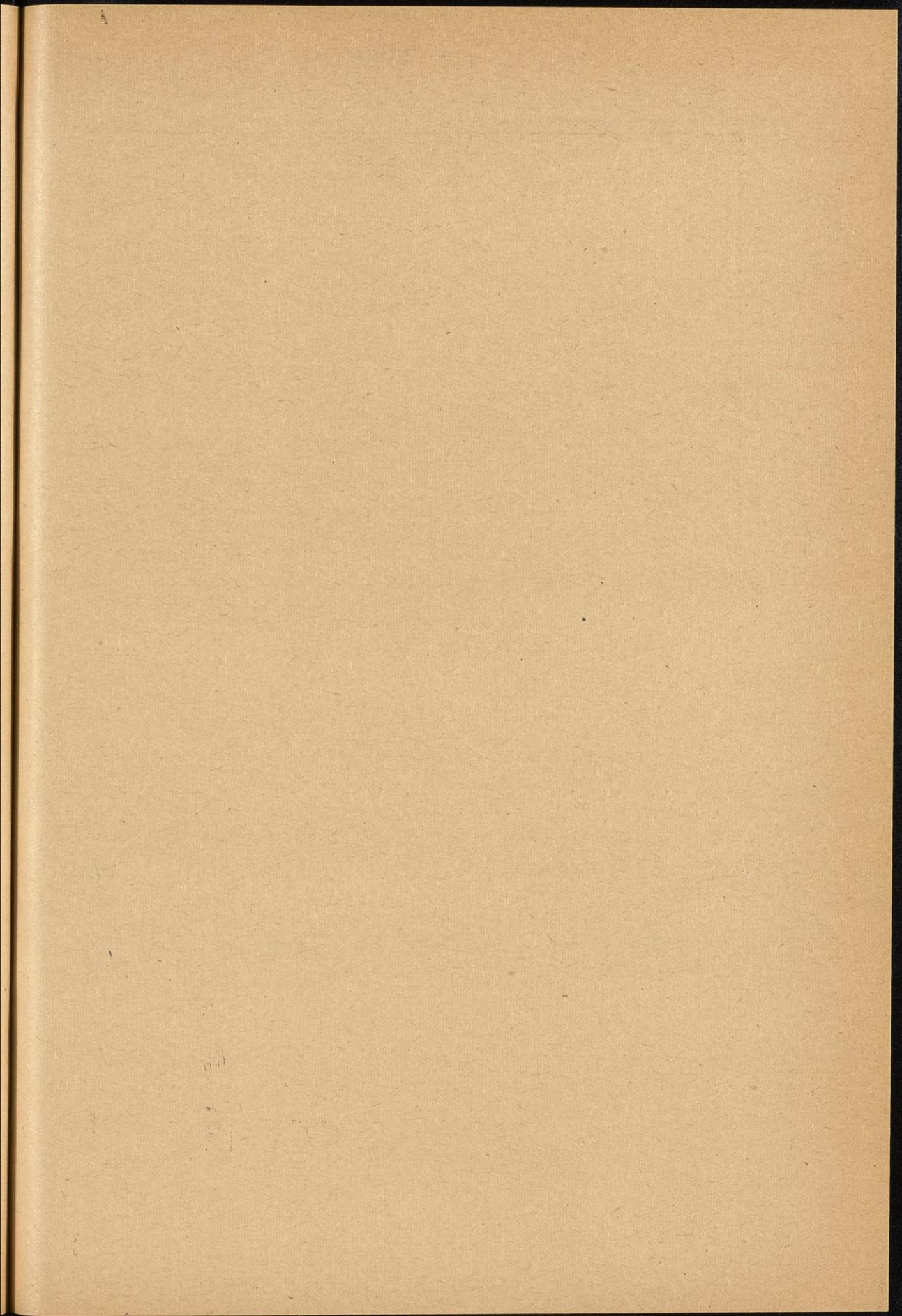
١٨٦٩ نوفمبر سنة

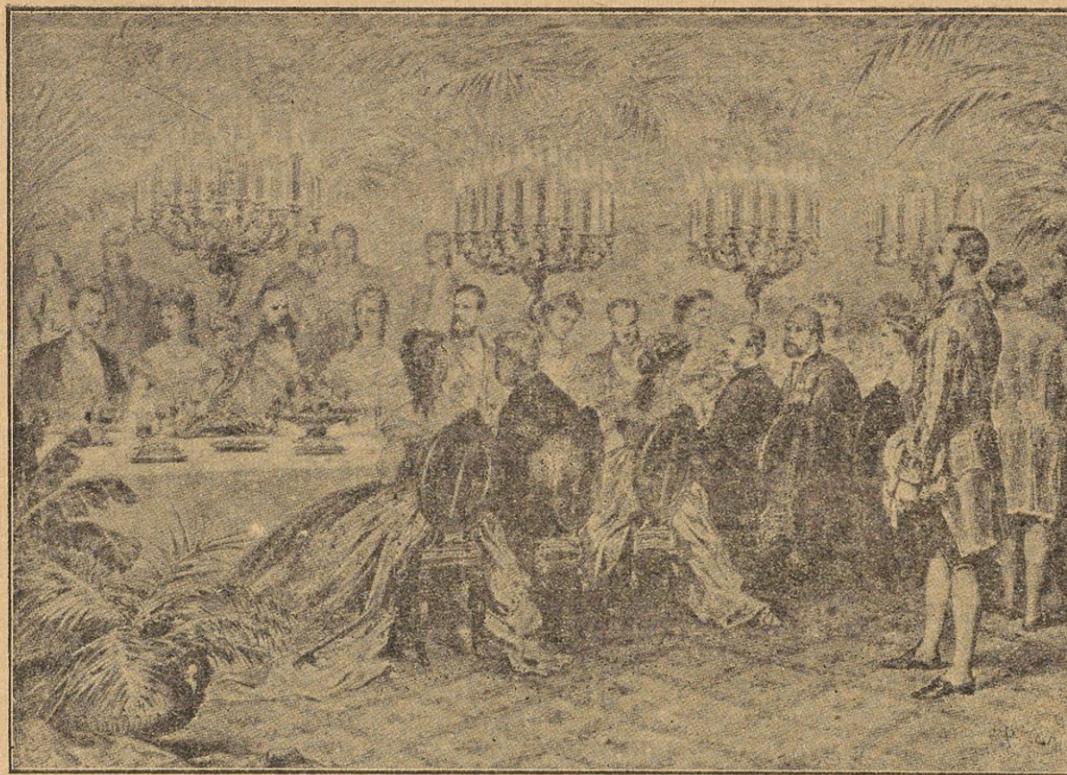
وقد أقيمت في هذه الحفلة ثلاثة منصات ، خصصت المنصة الكبرى للملوك والأمراء وكبار المدعىون ، والثانية لرجال الدين الإسلامي ، والثالثة لرجال الأكليروس ، وجلس في المنصة الكبرى: الخديو اسماعيل . أوجيني امبراطورة الفرنسيين . فرنسو اجوزيف امبراطور النمسا وملك المجر . الأمير فدرريك ويلهلم ولی عهد بروسيا . الأمير هنري أخو ملك هولندا والأميرة قرينته . السير هنرى إلیوت سفير إنجلترا بالاستانة وعميله اللیدی إلیوت . الأمير مورا . الأمير محمد توفيق باشا ولی العهد . الأمير هوهنلوه . الجنرال الجناتيف سفير الروسية في الاستانة ومدام الجناتيف . الأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا . شريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصي العالى « مجلس الوزراء ». نوبار باشا وزير الخارجية . شاهين باشا وزير الحرية والبحرية . رياض باشا خازنadar الخديو . الميسیو فردینان دلسیس . الأمير عبد القادر الجزائري . المیسو دوبست والکونت اندرآسی من وزراء النمسا . البارون بروکتش سفير النمسا في الاستانة الخ الخ ...

وقد القى الشیخ ابراهیم السقا في هذا الاحتفال كلمة تبیریک باللغة العربية . ثم تلاه المونسیور « بویر » واعظ نابليون الثالث الذي جاء خصيصاً من فرنسا لحضور الاحتفال والقى خطبة تبیریک باللغة الفرنسية



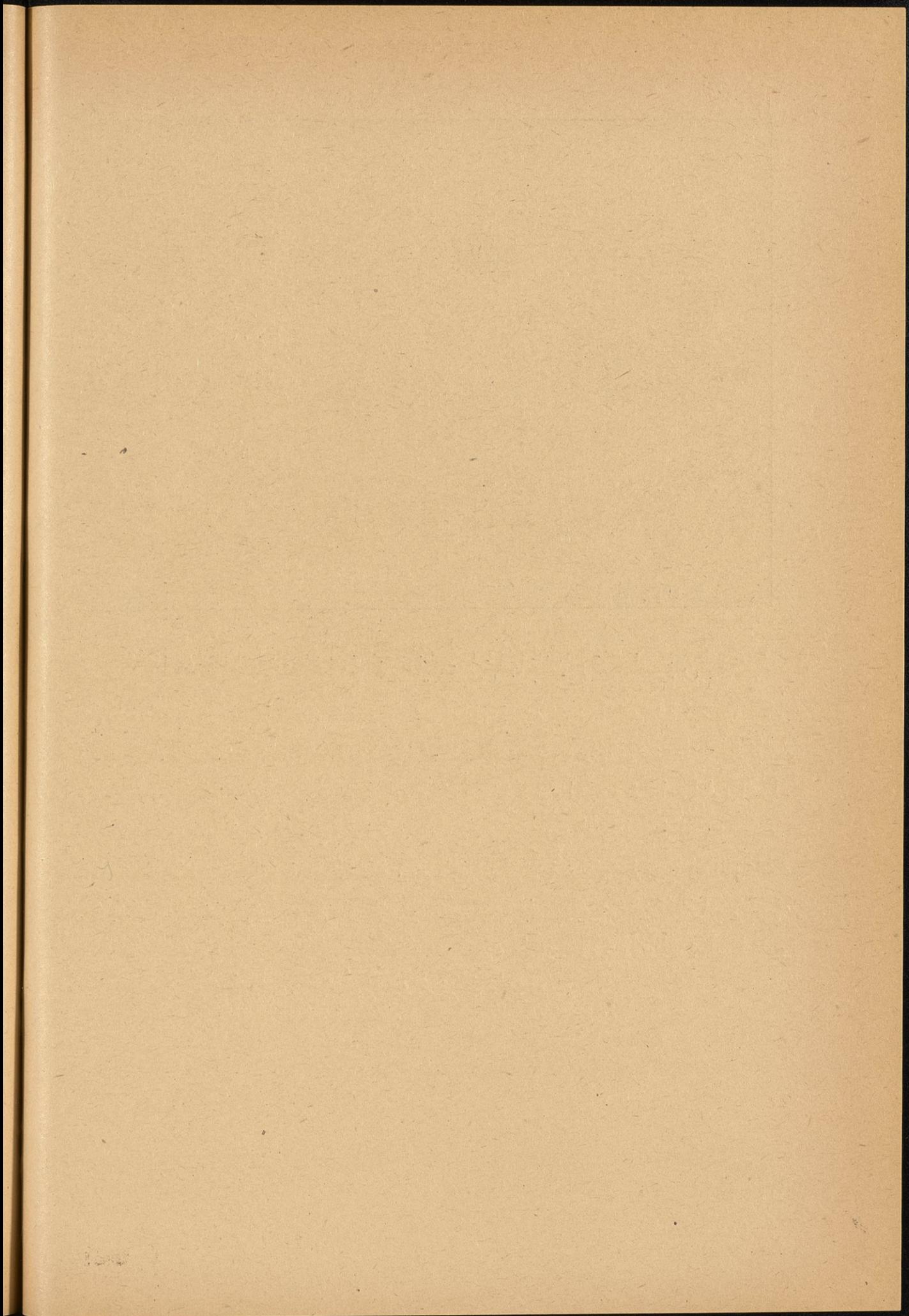
دخول الباخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس
في صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
إذاناً بافتتاح القناة للملاحة
وترى في مقدمة الباخر السفينة (ليجل) L'Aigle تقل الامبراطورة او جيني

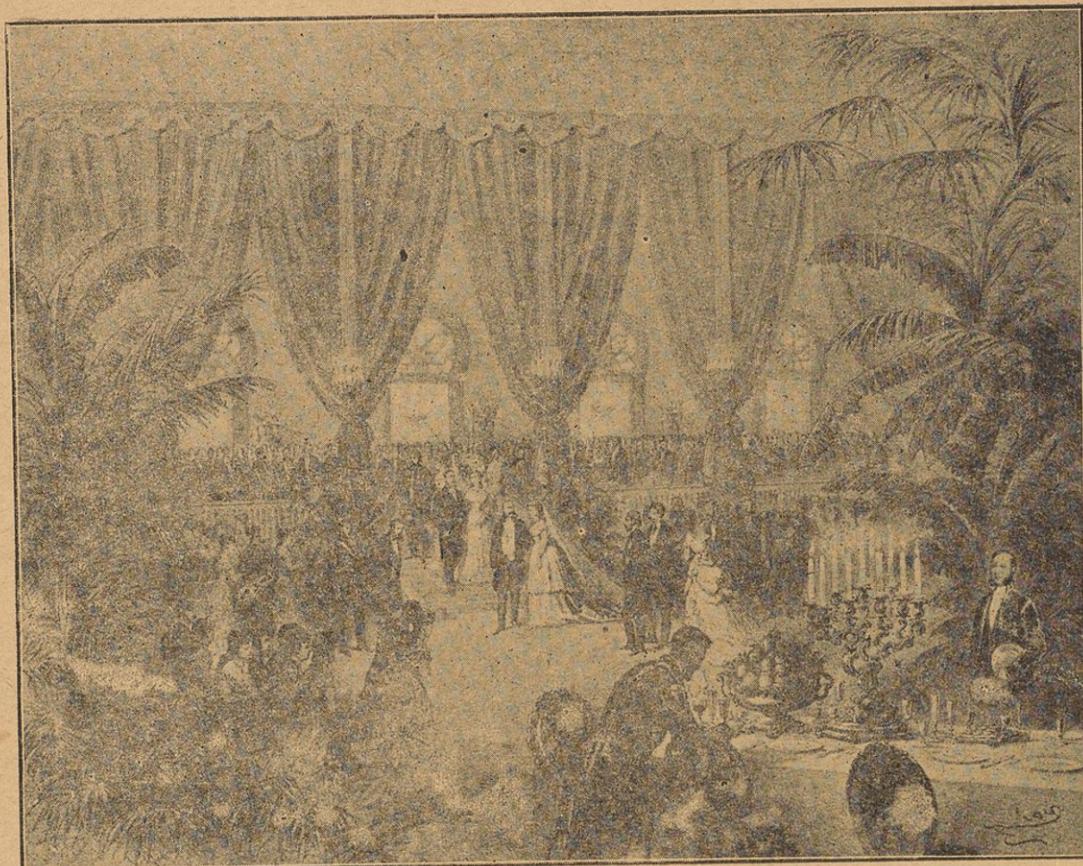




احدى الحفلات الفخمة التي أقيمت ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

وليلة العشاء التي أعدها الخديو إسماعيل لضيوفه في قصره بمدينة الإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩، وقد مدت الموائد في هذه الحفلة لآلاف المدعون، وترى في صدر المائدة الرئيسة الامبراطورة أو جيني امبراطورة الفرنسيين، وعن يمينها فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا، وعن يسارها الامير فردريك ويلهم ولی عهد بروسيا، والی يمين الامبراطور فرانسوا جوزيف عقيلة السير الیوت سفير انجلترا بالاستانة، ثم الجنرال اجناطیف سفير الروسية في الاستانة، والی يسار ولی عهد بروسيا عقيلة سفير الروسية، ثم السير هنری الیوت سفير انجلترا بالاستانة، وأمامهم الخديو إسماعيل، والی يمينه أميرة هولندا، فالامير مورا، والی يسار الخديو أمير هولندا، ثم مدام دی بواز، ثم المسیو فردینان دلسیس.





(الباللو) أو حفلة الرقص التي أقامها الخديو إسماعيل في قصره بالاسمهاعيلية

ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

(اقتبسنا هذه الصورة والصور الثلاث السابقة من كتاب افتتاح قناة السويس

للسيّد نيكول Nicole Inauguration du Canal de Suez وهذا الكتاب وضع

خصوصاً لوصف حفلات القناة ، والصور التي فيه للرسام ريو Riou)

خسائر مصر المالية في إنشاء القناة

يقدر مؤلف « تاريخ مصر المالي » ما خسرته مصر في إنشاء القناة ، من ثمن أسهمها في الشركة ، وما بذلت له من التعويضات ، وما دفعته في إنشاء ترعة الاسماعيلية ، واسترداد أطيان الوادى ، ونفقات حفلات القناة بمبلغ ١٦٥٨٠٠ جنية (١)

وهذا التقدير هو أقرب الإحصاءات للواقع ، وهو قريب من البيان الذى قدمته الحكومة لمجلس شورى النواب بجلسة ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ هـ عن ديون الحكومة وإيراداتها ومصروفاتها ، فقد جاء فيه أن مجموع مادفعته في قناة السويس ١١٩٧٥ ر. ١٦ جنية مصرى ، وهذا الإحصاء يقل عن إحصاء المستر ادون دى ليون Edwin de Leon قد صدر في الولايات المتحدة العام فى مصر على عهد اسماعيل ، فإنه قدره بمبلغ ١٧٤٢٣ ر. ١٧٨ جنية انجليزى (٢)

ومن هذه المقاربة يتضح أن إحصاء مؤلف تاريخ مصر المالي هو الرقم الوسط الذى يصح الاعتماد عليه ، وسنجهد هنا في أن نضع مفردات لهذا الإحصاء طبقاً للبيانات التي أوردناها

جنيه

٣٥٢٦٠٠٠	قيمة أسهم مصر في القناة
٣٥٣٦٠٠٠	قيمة التعويضات الحكومية بها للشركة
٠٤٠٠٠٠٠	ثمن أراضي تفتيش الوادى
١٢٠٠٠٠٠	تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩
١٢٠٠٠٠٠	نفقات الترعة العذبة
١٤٠٠٠٠٠	نفقات حفلات القناة
١٠٥٩٨٦٠٠	

(١) تاريخ مصر المالي ص ١٣٢ ، ولم يذكر المؤلف مفردات هذا الإحصاء

(٢) في كتابه (مصر الخديوى) The Khedives Egypt طبع سنة ١٦٧٧ ص ٤١٧

٥٨٤٠٠٠ فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم وما إلى ذلك

٦٢٠٠٠ المجموع بالجنيهات

ولا تحسينٌ أن في رقم الفوائد وما إليها مبالغة ، فإن المستر إدوبن دى ليون يقدرها في إحصائه بمبلغ ٣٦٦٣ جنيه (ص ٤١٧ من كتابه)

وإذا علمتَ أن نفقات إنشاء القناة بأكملها باهتة بحسب إحصاءات الشركة ٤٥١٦٥٦٦٠ فرنك ، أى نحو ١٨٠٠٠٠ جنيه ، أدركت أن مصر احتملت وحدها معظم هذه النفقات ، وإذا بحثنا عما نال مصر من بذل هذه المبالغ الجسيمة التي كانت من أسباب ارتباكاها المالي ، كان الجواب أنها لم تnel من القناة أية فائدة ، بل عادت عليها بالوبال والخسائر ، إذ كانت مقدمة الاحتلال الانجليزي ، وفي ذلك يقول المرحوم محمد بك فريد : « يمكننا القول بأنه لو لا نقود مصر وفلاح مصر الذي ما زال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة زهيدة لما أمكن دى لسبس أن يتم هذا المشروع الذى كان سبباً فيما نحن فيه من الاحتلال الأجنبى ، وما سزاه نحن وأولادنا إن لم تساعدنا المقادير » (١)

بيع أسهم مصر في القناة

كان مصر من أسهم شركة القناة ١٧٦٦٠٢ (٢) سهماً ، وهو مقدار عظيم يكاد يساوى نصف أسهم الشركة ، لأن مجموع الأسهم ٤٠٠ الف سهم

وقد أكتب فيها سعيد باشا واحتراها بمبلغ ٣٤٢٦٠٠٠ جنيهاً ، ولا ريب أن امتلاك هذا المقدار من الأسهم كان من شأنه أن يجعل مصر شيئاً من الهيمنة على الشركة وادارتها ، ويخوها حق التدخل في شؤونها ، كما أنها مورد أرباح وفيرة تعود على الخزانة المصرية بانفع الثرات ، وخاصة بعد تقدم أعمال الشركة وارتفاع أسهمها بدرجة فاقت كل تقدير

(١) تاريخ الدولة العثمانية ص ٣١٧ للمرحوم محمد بك فريد

(٢) عددها في الأصل ١٧٧٦٤٢ ، باعت منها الحكومة هن قبل ١٠٤٠ سهماً فصار

الباقي ١٧٦٦٠٢

ولـكـن إـسـرـافـ اـسـمـاعـيلـ أـبـيـ إـلـأـنـ يـحـرمـ مـصـرـ هـذـهـ الـثـروـةـ الضـخـمـةـ ،ـ فـفـيـ سـنـةـ ١٨٧٥ـ أـخـذـ مـعـينـ الـمـالـ يـنـضـبـ بـيـنـ يـدـيـهـ ،ـ بـعـدـ الـقـرـوـضـ الـبـاهـظـةـ الـتـىـ أـسـتـدـانـهـاـ ،ـ وـالـأـعـباءـ الـجـسـيـمـةـ الـتـىـ نـاءـتـ بـهـاـ الـخـزـانـةـ ،ـ فـفـكـرـ فـيـ بـيـعـ أـسـهـمـ مـصـرـ فـيـ الـقـنـاةـ ،ـ وـعـرـضـهـاـ فـعـلـاـ لـلـبـيعـ وـقـدـ بـدـأـ بـعـرـضـهـاـ عـلـىـ فـرـنـسـاـ ،ـ فـتـرـدـدـتـ فـيـ الـأـمـرـ ،ـ وـلـكـنـ الـحـكـوـمـةـ الـأـنـجـلـيـزـيـةـ مـاـبـثـتـ اـنـ عـلـمـتـ بـالـمـسـأـلـةـ حـتـىـ بـادـرـتـ بـشـرـاءـهـاـ ،ـ لـأـنـهـاـ وـجـدـتـ فـيـ هـذـهـ الصـفـقـةـ فـرـصـةـ سـانـحةـ لـوـضـعـ يـدـهـاـ عـلـىـ الـقـنـاةـ

فـاـشـتـرـتـ هـذـهـ أـسـهـمـ بـثـمـنـ بـخـسـ اـرـبـعـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ الـجـنـيـهـاتـ الـأـنـجـلـيـزـيـةـ ،ـ وـبـهـذـهـ الصـفـقـةـ أـضـاعـ اـسـمـاعـيلـ عـلـىـ مـصـرـ الـمـيـزةـ الـتـىـ بـقـيـتـ طـاـمـاـ مـشـرـوـعـ الـقـنـاةـ

خـسـاـئـرـ فـادـحـةـ

وـقـدـ بـلـغـتـ قـيـمـةـ هـذـهـ أـسـهـمـ (ـفـيـ سـنـةـ ١٩٢٩ـ) ٧٢ـ مـلـيـونـ جـنـيـهـ ،ـ وـرـجـحـتـ مـنـهـاـ الـخـزـانـةـ الـبـرـيطـانـيـةـ (ـإـلـىـ أـوـاـخـرـ سـنـةـ ١٩٢٩ـ) ٣٨٦٠٠٠ـ جـنـيـهـ ،ـ وـبـجـمـعـ ذـلـكـ نـيـفـ وـمـائـةـ مـلـيـونـ جـنـيـهـ وـعـشـرـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ الـجـنـيـهـاتـ ،ـ أـىـ أـنـ خـسـارـةـ مـصـرـ مـنـ هـذـهـ النـاحـيـةـ بـلـغـتـ إـلـىـ تـلـكـ السـنـةـ :

١٠٦٥٠٠٠ـ جـنـيـهـ - ١١٠٠٠٠٠ـ جـنـيـهـ = ٤٠٠٠٠٠ـ جـنـيـهـ

وـهـمـةـ خـسـارـةـ أـخـرىـ أـصـابـتـ مـصـرـ إـذـ تـنـازـلـتـ عـنـ ١٥ـ فـيـ المـائـةـ مـنـ أـرـبـاحـ الـقـنـاةـ الـتـىـ كـاـنـتـ تـتـرـوـلـ لـهـاـ بـمـقـيـضـيـ عـقـدـ الـأـمـتـيـازـ ،ـ تـنـازـلـتـ عـنـ هـذـهـ الـحـصـةـ بـسـبـبـ قـرـوـضـ اـسـمـاعـيلـ مـقـابـلـ ٢٢ـ مـلـيـونـ فـرـنـكـ أـىـ ٨٨٠٠٠ـ جـنـيـهـ ،ـ وـقـدـ بـلـغـتـ قـيـمـةـ هـذـاـ النـصـيـبـ الـآنـ نـحوـ ٢٠ـ مـلـيـونـ جـنـيـهـ ،ـ وـهـوـ يـغـلـ إـلـيـادـاـ لـاـ يـتـمـلـ عـنـ ٨٦٩٠٠٠ـ جـنـيـهـ فـيـ السـنـةـ وـهـذـهـ الـأـرـقـامـ تـدـاـكـ عـلـىـ مـبـلـغـ مـاـ أـصـابـ مـصـرـ فـيـ الصـفـقـتـيـنـ مـنـ الـخـسـرـانـ الـمـبـينـ

- قناة السويس
وتاريخها المأمة
- ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ -
منح سعيد باشا امتياز القناة الى
السيسيو دلسس
 - ٥ يناير سنة ١٨٥٦ -
شروط الامتياز
 - ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ -
ابداء العمل في حفر القناة
 - ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ -
حكم الامبراطور نابليون الثالث
 - ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ -
افتتاح القناة للبلاحة
 - ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ -
بيع أسهم مصر في القناة الى
انجلترا
 - ٧ ابريل سنة ١٩١٠ -
رفض الجمعية العمومية المصرية
تجديد الامتياز
 - ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ -
انتهاء الامتياز وعوده القناة
إلى مصر



خرائط قناة السويس

الفصل السادس

السودان في عهده اسماعيل

من آثار الخديو اسماعيل التي تخلد ذكره في تاريخ مصر القومي انه وجه عنايته وهمته إلى إتمام فتح السودان ، والوصول إلى حدود مصر الطبيعية ، وعلم ، أن هذه الحدود تشمل وادي النيل وملحقاته ، من البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، إلى منابع النيل والاقيانوس الهندي جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً ، إلى صحراء ليبيا (لوبيه) غرباً

ولقد أكمل اسماعيل من هذه الناحية العمل الذي بدأ به محمد علي ، فوسع نطاق السودان ، وبسط الحكم المصرى في أنحائه ، ومد رواق الحضارة وال عمران على ربوعه

توسيع نطاق السودان

يبدأ في كتاب « عصر محمد علي » (ص ١٩٢) مدى فتوح مصر في السودان على عهد محمد علي ، وذكرنا أن حدود السودان المصرى وصلت شرقاً إلى البحر الأحمر ، وضمت إقليم الناكا (كيسلا) الواقع شرق نهر عطبرة ، ووصلت من جهة الحبشة إلى القضارف والقلابات ، ودخلت سواكن ومصوع في نطاقها ، وبلغت الحملات والتجاريد جنوباً إلى جزيرة (جونكر) تجاه غندب و الواقع على النيل الأبيض

فنذكر الآن الفتوح المصرية في الأقطار السودانية على عهد اسماعيل ، وخلاصتها أن مصر فتحت مديرية فاشودة ، وضمت محافظتي مصوع وسواناً إلى أملأ كها ، وفتحت إقليم خط الاستواء وملكة (أونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة (أوغنده) ، وفتحت إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنبهيت ، وبلاد البوغوس ، وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بغاز باب المدبل ، وضمت محافظتي زيلع وببره الواقعتين على خليج عدن ، فيها

يلى بوغاز باب المندب ، وفتحت سلطنة (هرر) الواقعة في الجنوب الشرقي من الحبشة ، ودخلت سواحل السو ما ل الشهالية في أملاك مصر حتى رأس جردفون (جردفون) على المحيط الهندي ، ثم إلى رأس (حفون) ، وبذلك كاه انسحبت رقعة الفتوح المصرية ، فوصلت جنو با إلى بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا ، وشروعا إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود (واداي)

وسند ذكر فيما يلى هذه الفتوح تفصيلا

فتح فاشودة

سنة ١٨٦٥

في سنة ١٨٦٥ احتلت الجنود المصرية فاشودة احتلالاً رسمياً ، وذلك على عهد جعفر صادق باشا حكمدار السودان ، واتخذت الحكومة بها نقطة حرية دائمة لمنع تجارة الرقيق فسدت الطريق أمام النخاسين الذين كانوا يحملون الأرقاء بطريق النيل من أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء ، وصارت فاشودة عاصمة المديرية المسماة باسمها

ولفashوده أهمية كبيرة ، نالتها من موقعها الجغرافي والحضري ، فإنها تعد مفتاح النيل الأعلى ؛ لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الوالصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبى، السودان ، وعلى مقرها من ملتقى روافد النيل كنهر سوباط وبحر الغزال والنيل الأبيض وبحر الزراف ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء ، ومن يملأ كهـا يضمن النفوذ في شمال السودان وفي الجهات الجنوبيـة منه إلى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهـتين السياسية والاقتصادـية

ولا يخفى أن فاشودة هذه هي التي قامت بشأنها تلك الأزمة السياسية المشهورة بين إنكلترا وفرنسا ومصر سنة ١٨٩٨ ، حين احتلتـها كتيبة من الجنود الفرنسيـة بقيادة الكولونـل مرشـان Marchanod ، فاحتـتجـتـ الحكومة الإنجـليـزـيةـ علىـ هذاـ الـاحتـلالـ ، وارتـكـبتـ علىـ أنهاـ منـ الأـراضـيـ المـصـرـيـةـ ، ثمـ اـنتـهـىـ النـزـاعـ بـاسـحـابـ الفـرـانـسيـينـ منهاـ وبـقـائـهاـ منـ أـراضـيـ مـصـرـ ، وـقدـ اـكتـسـبـتـ شـهـرـةـ ذـائـعـةـ بـسـبـبـ هـذـاـ النـزـاعـ الذـىـ دـارـ حـوـلـهاـ وـقدـ غـيـرـ الـإنـجـليـزـ اـسـمـهاـ ، وـسـمـوهـهاـ الـآنـ (كـوـدـوكـ) ، وـغـيـرـواـ اـسـمـ مدـيرـيـةـ فـاشـودـةـ ،

جعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وذلك لـ^{كى} يمحوا من الأذهان اسم فاشودة وما يشيره من ذكرى الخلاف السياسي الذى قام بشأنها سنة ١٨٩٨ ، والذى كانت حجة انجلترا فيه أن هذا البلد من املاك مصر

فليذكر المصريون على الدوام اسم (فاشودة) ، فإنه من الأعلام التاريخية التي تسجل في وجه الخاصل حق مصر الخالد في السودان

ضم سواكن ومصوع

قانا في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على) ص ١٩٣ إن سواكن ومصوع دخلتا في حدود السودان المصرى على عهد محمد على ، لأنه إذ رأى ضرورتها للسودان ، وأنهما منفذاه على البحر الأحمر ، وخاصة لإقليم التاكا (كسلا) ، استأجرهما من السلطان (وكانتا من أملاك السلطنة العثمانية) مقابل إيجار سنوى قدره ٢٥٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا في ظل الحكم المصرى

على أن اسماعيل رأى إلحاقهما بصفة نهائية إلى أملاك مصر ، فاستصدر في سنة ١٨٦٥ فرماناً من السلطان باحالة قائم مقامى سواكن ومصوع إلى عهده ، وجعلهما فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذي تكلمنا عنه (ص ٧٣) من ملحقات مصر ، وصارت كل منهما محافظة قائمة بذاتها ، فيحافظة سواكن تمتد على البحر الأحمر من رأس علبه إلى رأس قصار (راجع الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، ومحافظة مصوع امتدت من رأس قصار حيث تنتهى محافظة سواكن إلى حلة (رهيطة) عند بوغاز باب المندب

وقد عمرت مصوع وسواكن في ظل الحكم المصرى ، ذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر ، فوصل بينها وبين اليابسة بجسر طوله ١٨٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار ، وتم إنشاؤه سنة ١٨٧٢ ، فعمرت المدينة واتسعـت ، وبُني فيها ديوان المحافظة ، وأخر للجمرك ، ومساكن للموظفين ، وشيدت بها قلعة منيعة ، وأنشئت ترعة صغيرة لتوصيل المياه العذبة إلى سواكن ، وهذه الترعة تستمد الماء من خزان أقيم جمع مياه الأمطار في سفح جبل قريب من المدينة (١)

وظات المحافظتان ملوكاً لمصر إلى شعوب الثورة المهدية ، فلما اضطرت إنجلترا الخديو توفيق إلى القرار بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وصار في نظر الدول الاستعمارية نهباً مقتضاها ، انتهزت إيطاليا هذه الفرصة بتوطئتها مع الانجليز ، واحتلت محافظة مصوع سنة ١٨٨٥ ، وما زالت تحملها إلى اليوم ، (١٩٣٢) وتسمى هي وملحقاتها مسيرة عمرة (الأريترية) ، أما سواكن فقد جعلت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة محافظة تابعة لحكومة السودان

فتح إقليم خط الاستواء

والوصول إلى منابع النيل

أسلفنا القول أن الحملات والتجاريد المصرية التي قادها البكباشى سليم بك قبطان في عهد محمد على بلغت جزيرة جونكر تجاه عند كرو (راجع عصر محمد على ص ١٩٠) ، ولكن هذا الفتح لم يكن إلا وقتياً ، بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة في تلك الجهات تقر سلطة الحكومة فيها ، فاعتمد اسماعيل أن يبسط نفوذ مصر بصفة دائمة في تلك الأصقاع ، وما يأبه جنوباً حتى منابع النيل ، ولكنه لم يحذ حذو جده في أن يعتمد بهذه المهمة القومية إلى ضباط الجيش المصرى ، بل عهد بها إلى جماعة من الانجليز ، وهذا موطن ضعف في سياسته أدى إلى عواقب وخيمة سنذكرها فيما يلى

مهمة السير صمويل بيكر Samuel Baker

فناط بالسير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى المشهور الزحف إلى الجهات الجنوبيه
غاية منابع النيل وضمها إلى أملاك مصر

رحلته في عهد سعيد باشا

بدأت رحلات السير صمويل بيكر في السودان على عهد سعيد باشا ، فقد قصد من تلقاء نفسه إلى تلك الأقطار ، لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وكان الرحالتان

اسبيك Speke وجرانت Grant قد سبقاه إلى تحقيق هذا الغرض ، موظفين من قبل الجمعية الجغرافية الانجليزية ، فجاءا بطريق زنجبار ، واكتشفا بحيرة (اكروي) ومنبع النيل منها ، وكان ذلك في ٢٨ يوليه سنة ١٨٦٢ ، وسمياها باسم الملكة فيكتوريا ، ملكة انجلترا في ذلك الحين ، فصارت تعرف من ذلك الحين باسم بحيرة (فكتوريا) أما السير بيكر فأثر أن يسلك في اكتشافه طريق الخرطوم ، وصعد جنوباً في النيل فبلغ في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ عند كرو التي وصلت إليها حملات البكباشى سليم بك قبطان في عهد محمد على سنة ١٨٤٠ ، وأخذ يتذهب لمتابعة سيره ، وإذا بالرجالتان اسبيك وجرانت قد التقى به ، وأبلغاه اكتشاف بحيرة فكتوريا ، وأنهيا إليه أن هناك بحيرة أخرى أخبرهما بها الأهلون ، لم يتم اكتشافها بعد ، فتابع سيره حتى اكتشفها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ ، وسمياها بحيرة (أليرت) باسم الأمير أليرت زوج ملكة انجلترا

ثم عاد إلى عند كرو ، وسار منها إلى الخرطوم فبلغها في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ ، وعاد من هناك إلى ببر فسوakan ، وأقلع إلى انجلترا ، وقد صحبته امرأته النيلية ، في هذه الرحلة الطويلة ، وقادته مخاطرها ومتاعبها ، وكان لها الفضل الكبير في نجاحه في مهمته التي رفعته إلى مستوى كبار المكتشفين ، ولا غرو فإن اسمه يقرن دائماً باكتشاف بحيرة أليرت إحدى منابع النيل الكبير

مهمته في عهد اسماعيل

١٨٧١ - ١٨٧٣

انقضت خمس سنوات تقريباً على رحلة صمويل بيكر الأولى ، ثم جاء مصر سنة ١٨٦٩ يصحب الأمير إدوارد ولی عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس ، فرغب الأمير إلى الخديو اسماعيل أن يعهد إليه بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان نيابة عن الحكومة المصرية ، فلم يتردد اسماعيل في قبول الطلب ، اذ كان يعني التوడد إلى الحكومة الانجليزية

لم يكن الغرض من هذه المهمة خدمة الإنسانية ، بل كانت الحكومة الانجليزية ترمي إلى تمديد السبيل لتحقق أطماعها الاستعمارية في وادي النيل ، وبيان ذلك أن انجلترا بعد

إنفاذ مشروع قناعة السويس أخذت تتطلع إلى احتلال مصر ، وترمق أملاكها في السودان ، وتعمل على استطلاع أحواله ، والتدخل في شؤونه ، لكن تختلف مصر يوماً ما فيه ، وما إرسالها السير صمويل بيكر ، ثم الكولونل غردون من بعده ، إلا تمهيداً لهذه الغاية الاستعمارية

ولو كان الخديو اسماعيل بعيد النظر ، بمقدار ما كان عليه من الذكاء ، لما ارتضى أن يبسط نفوذ مصر في السودان على أيدي بيكر وغردون وأضرابهما ، من دعاة الاستعمار الانجليزي ، لأن هؤلاء لا يمكنهم أن يخلصوا مصر ، بل هم يعملون على خدمة السياسة الانجليزية التي كانت ولا تزال ترمي إلى إقصاء النفوذ المصري عن السودان

قبل اسماعيل إذن ما عرضه عليه ولـى عهد إنجلترا ، وأصدر مرسوماً إلى السير صمويل بيكر عـهدـ اليـهـ فـيهـ بـيـسـطـ نـفـوذـ مـصـرـ فـيـ الأـصـقـاعـ الـكـائـنـةـ جـنـوـبـيـ غـنـدـكـروـ، وـتـنـظـيمـهـاـ وـنـشـرـ التـجـارـةـ بـهـ، وـمـطـارـدـةـ الـاتـجـارـ بـالـرـقـيقـ وـإـنـشـاءـ المـطـحـاتـ الـخـرـيـةـ فـيـهـ، وـجـعـلـهـ قـائـدـأـ حـمـلـةـ جـرـدـهـ لـهـذـاـغـرـضـ مـؤـلـفـةـ مـنـ ١٧٠٠ـ مـقـاتـلـ، وـأـنـعـمـ عـلـيـهـ بـرـتـبـةـ فـرـيقـ فـصـارـ يـعـرـفـ بـبـيـكـرـ باـشاـ، وـجـعـلـهـ حـاكـماـ عـلـىـ مـدـيـرـيـةـ خطـ الـاسـتـوـاءـ لـمـدةـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ، تـبـتـدـيـ منـ أـوـلـ اـبـرـيلـ سـنـةـ ١٨٦٩ـ بـرـاتـبـ قـدـرـهـ ١٠٠٠٠ـ جـنـيـهـ فـيـ السـنـةـ

وقد صحبتـهـ فـيـ هـذـهـ حـمـلـةـ زـوـجـتـهـ النـبـيلـةـ كـاصـحـبـتـهـ فـيـ رـحـلـتـهـ الـأـوـلـىـ، وـرـافـقـتـهـ فـيـ الرـحـلـاتـ الـبـعـيـدـةـ الـتـيـ قـطـعـهـاـ، وـشـهـدـتـ الـوـقـائـعـ الـتـيـ خـاصـصـهـاـ، فـكـانـتـ لـهـ نـعـمـ العـضـدـ الصـادـقـ الـأـمـيـنـ، وـأـمـتـدـحـ بـيـكـرـ صـفـاتـهـ فـيـ كـتـابـهـ (الـإـسـمـاعـيـلـيـةـ) الـذـيـ أـفـرـدـ لـذـكـرـ هـذـهـ حـمـلـةـ، وـأـشـادـ بـمـاـ بـذـلـتـهـ مـنـ الجـهـودـ فـيـ مـعـالـجـةـ الـمـرـضـيـ وـالـجـرـحـيـ، وـمـاـ كـانـتـ تـبـعـثـهـ فـيـ النـفـوسـ مـنـ رـوـحـ الـصـبـرـ وـالـشـجـاعـةـ وـالـإـقـدـامـ، وـمـاـ أـسـدـتـهـ مـنـ حـسـنـ التـدـبـيرـ لـنـجـاحـ مـهـمـتـهـ، فـكـانـتـ مـضـرـبـ الـأـمـثـالـ فـيـ مـاـ تـؤـدـيـهـ زـوـجـتـهـ لـزـوـجـهـ مـنـ جـلـيلـ الـخـدـمـاتـ، وـمـشـارـكـتـهـ إـيـاهـ فـيـ الـمـهـامـ الـجـسـامـ

جهـزـتـ الـحـكـومـةـ الـخـدـيـوـيـةـ مـعـدـاتـ الـحـمـلـةـ، وـأـقـلـتـ السـفـنـ مـعـظـمـ مـهـمـاتـهـاـ مـنـ القـاهـرـةـ الـخـرـطـومـ، وـاقـتـضـىـ نـقـلـهـاـ مـتـاعـبـ جـمـةـ، إـذـلـمـ يـكـنـ فـيـ اـسـتـطـاعـةـ الـبـوـاـخـرـ اـجـتـياـزـ الشـلـالـاتـ، فـنـقـلـتـ أـجـزـأـهـاـ مـفـكـكـةـ عـلـىـ ظـهـورـ الـإـبـلـ فـيـ صـحـرـاءـ التـوـبـةـ، وـكـذـلـكـ

نقلت المهمات الثقيلة بهذه الوسيلة ، أما يذكر باشا فقد سار بحراً من السويس إلى سواكن



نقل أجزاء البوارخ النيلية على ظهور الإبل من مصر إلى السودان
في صحراء التوبه أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح خط الاستواء



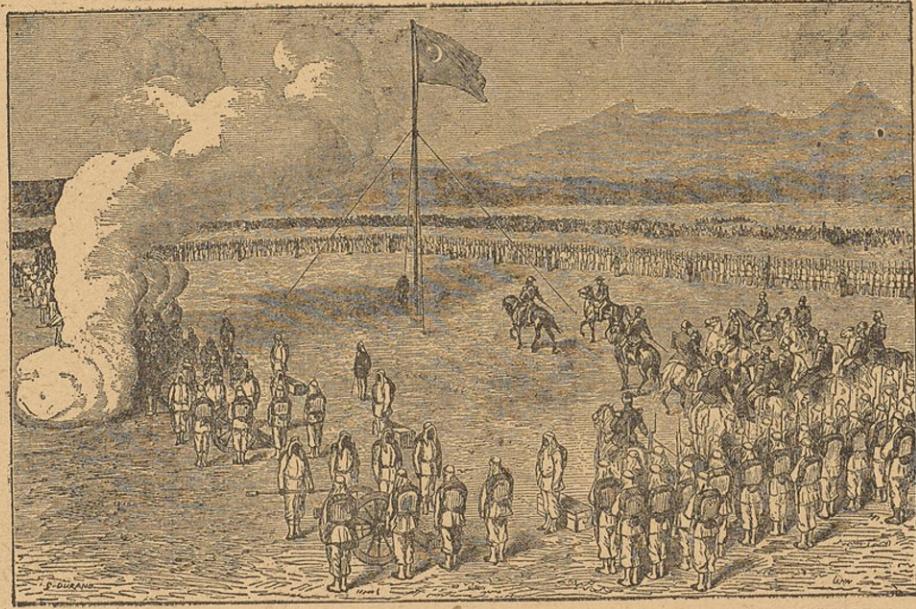
الاسطول النيلي الذي تحرك من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠
لفتح خط الاستواء وكان مؤلفاً من ثلاثة سفنية شراعية وبآخرتين

و منها الى ببر على ظهور الإبل فقطع المسافة بينهما في أربعه عشر يوما ، واستقل من ببر باخرة نيلية بلغ بها الخرطوم وصل يذكر باشا الى الخرطوم ، في عهد حكمدارية جعفر مظہر باشا ، ثم قام منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ ^(١) في حملة تقلها ثلاثون سفينة وبآخرتان قاصداً جهات خط الاستواء

فرسا بالقرب من ملتقى نهر السوباط بالنيل (جنوب فاسودة) ، وبنى هناك محطة اسمها (التوقيفية) باسم الأمير محمد توفيق ولی عهد الأوريكة الخديوية في ذلك العصر ، وأقام في هذه المحطة عدة أشهر ، ثم سار جنوبا حتى بلغ غندکرو التي وصل اليها من قبل البكباشی سلیم بك قبطان في عهد محمد على

رفع العلم المصري على غندکرو

بلغ يذكر غندکرو في ١٥ ابریل سنة ١٨٧١ ^(٢) ، فرفع عليها العلم المصري يوم ٢٦ مايوا ^(٢) ، في احتفال عسكري مهيب ، أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى أملاك مصر



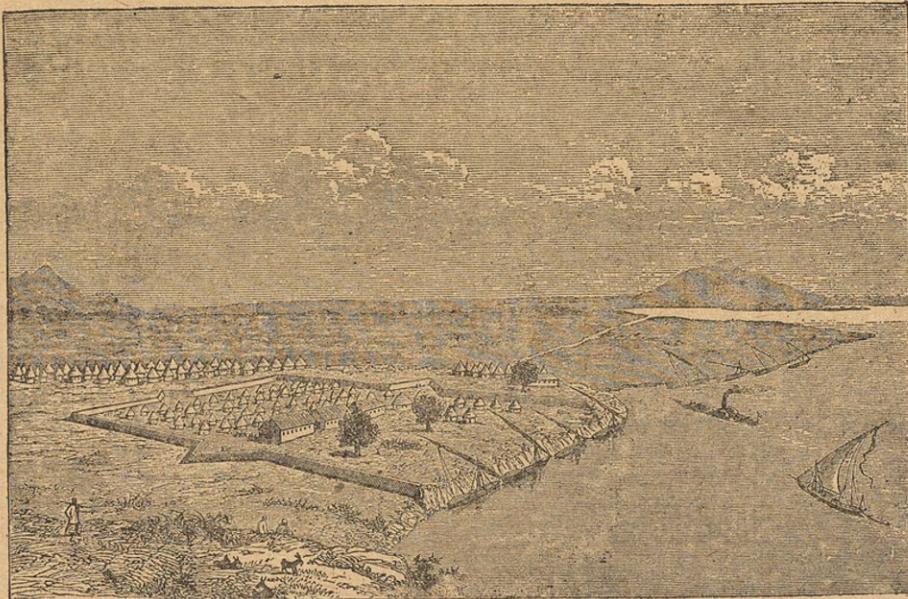
حملة رفع العلم المصري على غندکرو (الاسمهاعيلية)
اعلاناً بضمها إلى أملاك مصر (٢٦ مايوا سنة ١٨٧١)

(١) و (٢) الاسمهاعيلية للسير صمويل يذكر باشا ص ١٠١ و ١١٣

كان هذا اليوم يوماً مشهوداً في تاريخ السـ.- ودان ، إذ اصطفت الجنود المصرية بعندکرو في صعيد واحد ، على أكمة تشرف على النيل ، وبلغ عدد الجنود الذين حضروا الاحتفال ٢٠٠ مقاتل ، وقفوا صفوفاً يرتدون ملابسهم البيضاء الرسمية ، وعلى رؤوسهم الكوفيات المتداة على أكتافهم ، وساروا متقدّمهم الموسيقى إلى مكان الاحتفال حيث نصب سارية علوها ٢٥ متراً؛ وهناك أخذوا أماكنهم في نظام عسكري بديع ، تصحبهم أسلحتهم ومدافعهم ، وشهد الاحتفال رؤساء العشائر الذين جاءوا من مختلف النواحي ، ووقف بيكر باشا تحت السارية ، وقرأ على الجميع الإعلان الرسمي الذي قرر فيه باسم الخديو ضم هذه الجهات إلى أملاك مصر ، وعند ما أتم تلاوة الإعلان رفع العلم المصري على السارية الكبيرة ، فخاير الجنود جميعاً بالسلام العسكري ، وأطلقت المدفع تحية وأجلالاً

وقد أسمى بيكر باشا عندکرو (الاسماعيلية) باسم الخديو اسماعيل ، وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء (أنظر الخريطة ص ١٢٥)

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ (١) استأنف السير في النيل الأبيض (٢) ، فأسس نقاطاً



المعسكر المصري في عندکرو (الاسماعيلية) سنة ١٨٧٢

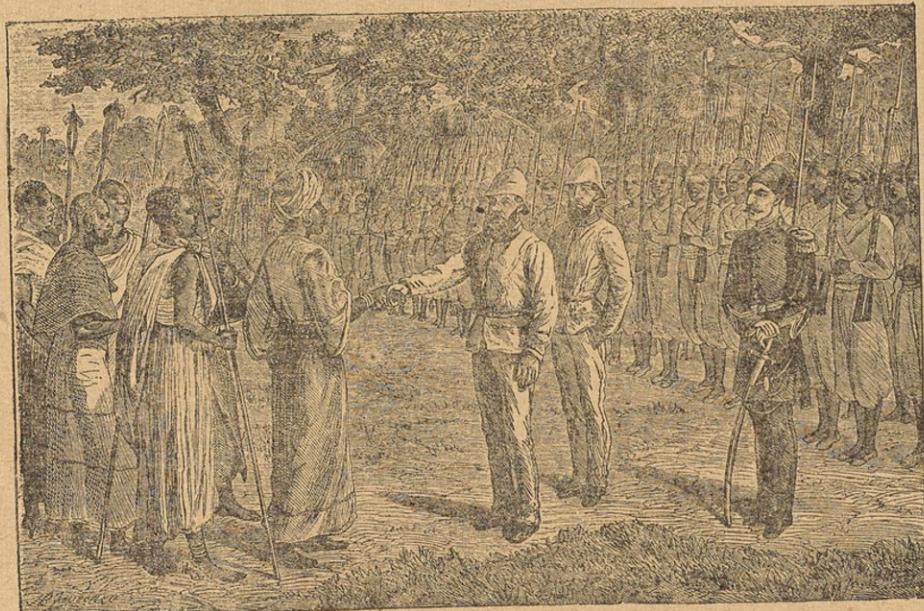
(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ١٩٣

(٢) يطلق اسم النيل الأبيض على نهر النيل من منبئه إلى الخرطوم ، ويسمى نيل فيكتوريا أو نهر السومنست من منبئه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبها في بحيرة أثرب ، ومن

عسكرية وحصونا في عدة بلاد بأعلى النيل ، منها (الابراهيمية) على بحر الجبل (بحر الرجاف) ، وقد سماها بهذا الاسم تذكارا لابراهيم باشا أبي الخديو اسماعيل ، وأنشأ حصننا أخرى في (فاتيكي) ثم في (فويرة) الواقعة على نيل فيكتوريا

فتح مملكة أونيورو (سنة ١٨٧٢ - ١٨٧٣)

وتقدمت الحملة في زحفها ، ففتحت مملكة «أونيورو» المتاخمة لبحيرة أليبرت شرقاً واحتلت عاصمتها «مسندي» في أبريل سنة ١٨٧٢ ، وكان بها ملك يدعى (كابريقه) ، فأظهر خضوعه لسلطة الحكومة المصرية وأعلن يسّكر باشا باسم الخديو



ريونجا ملك أونيورو يصافح يسّكر باشا ، والجنود المصرية مصطفة لاستقباله
بقيادة القائم مقام عبد القادر بك حلبي سنة ١٨٧٢

مخرجة من بحيرة أليبرت إلى التقانة ببحار الغزال ثم بنهر سوباط يسمى بحر الجبل «أو بحر الرجاف » ، ويشرع عنه قبل التقانة ببحار الغزال فرع يسمى «بحار الزراف» ويسير البحران شمالا متفرعين على شكل دلتا إلى أن يبلغان النيل ، ويستقر باسم النيل الأبيض إلى أن يلتقي بالنيل الأزرق عند مدينة الخرطوم ، ويقصر بعض علماء الحغرافية اسم النيل الأبيض على بحرى النزد من ملتقى السوباط بالنيل إلى الخرطوم

دخول هذه المملكة في أملك مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، وبني في ماسندي دارا للحكومة المصرية بالقرب من دار كابريقه ، وشيد حصنًا لإقامة الحامية المصرية على أن كابريقه ما لبث أن ظهرت خيانته ، فانتقض على الحامية المصرية ، وقادت الحرب بينهما ، وانتهى القتال بهزيمته وفراره ثم انسحبت الحامية المصرية من ماسندي إلى شاطئ نيل فيكتوريا ، لتأوي إلى مكان أمين

وأعلن يذكر باشا خلع الملك كابريقه ، وولي مكانه ملك آخر من الأسرة الحاكمة ، يدعى (ريونجا) ، كان يزاحم كابريقه على عرش أونيورو ، منذ وفاة الملك السابق ، فتقبل هذا التنصيب بالإخلاص والابتهاج ، وبقي على ولاية الخديو مصر ، وجرد حملة على كابريقه غلبيته على أمره

ولاء ملك أوغندہ لمصر

وقد وفد على يذكر باشا رسول من الملك (امتيسي) ملك أوغندا المجاورة لمملكة أونيورو ، والواقعة شمالي بحيرة فيكتوريا وغربها ، وعرضوا إخلاص مليكهم لخديو مصر ، فأكرم يذكر وفادتهم ، وبادل مليكهم الرسائل والمدايا ، وبقي (امتيسي) مواليًا لمصر ، ونقم على كابريقه خيانته ، وهاجمه من الجنوب جراء انتقامه ، وبفضل ولاء امتيسى لمصر انفتحت الطريق بين أعلى النيل وزنجبار على شاطئ المحيط الهندي وعاد يذكر إلى الإسماعيلية (غندکرو) في أبريل سنة ١٨٧٣ إذ انتهت مدة خدمته ، فغادرها ، واستخلف في قيادة الجند وإدارة المديرية رءوف بك أحد ضباط الجيش المصري ، ورجع إلى الخرطوم ، ومنها إلى مصر عن طريق سواكن والبحر الأحمر ، وقابل الخديو بالقاهرة (أغسطس سنة ١٨٧٣) ، فأنعم عليه بالنيشان العثماني ، وأنعم على القائم مقام عبد القادر بك حلبي برتبة الميرلاي ، واللازم محمد افندي برتبة الصاغ مكافأة لهم على خدماتهم في بسط سلطنة مصر في منطقة خط الاستواء

وقد بلغت نفقات هذه الجملة ٨٠٠٠ جنيه ، تحملتها خزانة مصر في وقت اشتبد بها الضيق المالي ، فكان هذا المبلغ من تضليلات مصر في سبيل نشر لواء الحضارة والتقدم في ربوع السودان



صمويل يذكر باشا مدير خط الاستواء في عهد اسماعيل
وحوله أركان حربه وهم القائم مقام عبد القادر حلى بك فالمهندس
هيجنبو تام Higgnboiham ، ثم الملازم يذكر

والميرلاني عبد القادر بك هو من أركان حرب يذكر باشا ، وهو ضابط كف شجاع ،
كان له فضل كبير في نجاح الجلاء ، وقد امتدحه يذكر في مواطن كثيرة ، وأشاد بصفاته
في كتابه (الاسماعيلية) ، وأثنى على شجاعته وإخلاصه ^(١) ، وترى رسمه في الصور التي
نقلناها عن هذا الكتاب

وعبد القادر بك هو الذي صار فيما بعد عبد القادر باشا حكمدار السودان سنة
١٨٨٢ ^(٢) ، قوله المواقف الحمودة في المدافعة عن سلطة مصر في السودان ، مما سيجيء
بيانه في موضعه

وكان يعاون السير يذكر في مهمته جعفر مظفر باشا حكمدار السودان حينذاك ،
(نهاية سنة ١٨٧١) ، على أن جعفر باشاررأى بشاقب نظره أن في إسناد هذه المهمة إلى
أجنبي خطراً على مصالح مصر ، وكتب بذلك تقريراً أرسله إلى الخديو اسماعيل ينبهه
فيه إلى ذلك الخطر ، وأشار بإسناد هذه المهمة إلى ضباط أركان الحرب من الجيش
المصري ، ولكن اسماعيل لم يلتقط إلى هذا الرأي الحكيم ، ولم يعامل به ، واستمر
يحسن الظن برواد الاستعمار

تعيين الكولونل غردون (باشا)

مديراً لخط الاستواء (١٨٧٤-١٨٧٦)

لم يكدر يمضي قليل من الزمن على انتهاء خدمة السير صمويل يذكر ، وخلو منصب مدير
خط الاستواء ، حتى خلفه انجليزي آخر ، وهو الكولونل غردون الذي صار فيما بعد
(غردون باشا)

ومن الغرابة يمكن أن يتطرق على هذا المنصب الخطير انجلزيان لها مقام معلوم في
نظر الجمهور البريطاني والحكومة الانجليزية ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات ، بل
إن اصبع السياسة الانجليزية كان لها دخل في هذا التعيين ، فكما أن الحكومة الانجليزية

(١) الاسماعيلية للسير صمويل يذكر ص ٦٨ و ٤١٢

(٢) كوشري . المركز الدولي لمصر السودان ص ٢٦٦

هي التي أوعزت الى الخديو اسماعيل بوساطة ولی عهد انجلترا أن يسند هذا المنصب
الى السير بيكر ، فانها هي أيضا التي سعت اراده في إسناده الى السکولونل غردون

سنة ١٨٧٤

فالسياسة الانجليزية كانت تنفذ خطتها من التهديد للتدخل في شؤون السودان ،
واختارت بدأة ذى بدء منطقة خط الاستواء ، لأنها المنطقة التي جعلتها المرحلة الأولى
لبر ناجها ، إذ فيها منابع النيل ، فهي مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما أنها مصدر
الحياة لمصر

وليس من المصادفات أن يقع اختيارها على السکولونل غردون بالذات ، فإنه الرجل
الذى كان قلبه يفيض وطنية وإخلاصاً لبلاده ، فلا جرم أن يبذل كل ما لديه من تضحية
في سبيل التوسيع البريطاني ، وقد دلت خاتمة المجزنة على أنه كان أكبر ضحية قدمتها انجلترا
لتضع يدها على السودان بعد شوبب الثورة المهدية

وي ذلك على تدخل السياسة الانجليزية في تعينه أنها أقنعت الخديو بأن يجعل له من
السلطة أكثر مما كان للسير صمويل بيكر باشا ، فقد كان هذا خاضعاً لـ حكمدار عموم
السودان ، لكن غردون عين حاكماً لإقليم خط الاستواء ، على أن يكون مستقلاً في
عمله ، وقصر الخديو سلطة حكمدار السودان على الجزء الشمالي لغاية فاشودة ، وجعل
الأقاليم الاستوائية التي تمتد من جنوب فاشودة^(١) الى خط الاستواء تحت سلطة غردون ،
وفي هذا من إطلاق يده في الجزء الجنوبي من السودان وإضعاف سلطة الحاكم العام
المصري ما لا يغيب عن البال ، كل هذا بسعى السياسة الانجليزية وتدبيرها

قام السکولونل غردون الى مصر سنة ١٨٧٤ ، وقابل الخديو وكفه الرحلة الى
السودان لتولي منصبه فيها ، وكان حكمدار السودان وقتئذ (اسماعيل باشا ايوب) ،
 فأرسل له الخديو أوامره في هذا الصدد ، وأمره بتنفيذها والحفاوة بغردون عند
قدومه ، وإجابتة الى كل ما يطلبه ، فاضطر للعمل بهذه الأوامر على ما فيها من غضاضة

(١) لم توضع حدود دقيقة بين مديرية فاشودة وخط الاستواء ، ويقول فوزي باشا ان
جهات خط الاستواء تبدأ من ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ويرى آخرون أنها تبدأ من (شامبه)
على بحر الجبل (أنظر الخريطة ص ١٢٥)

وأنعم الخديو على السكولونل غردون سنة ١٨٧٥ برتبة الفريق ، فصار يعرف بغردون باشا ، وصارت رتبته العسكرية متساوية لرتبة حكمدار السودان ، مع أن منصبه الرسمى لم يزيد عن كونه (مدير خط الاستواء)

توسيع نطاق الحكم المصرى في مديرية خط الاستواء

مضى السكولونل غردون إلى السودان عن طريق البحر الأحمر وسواءً ، ولما بلغ الخرطوم أعد حملة من الجيش المصرى ، صحبته إلى مقر سلطته ، فتحركت الحملة جنوباً على ظهر الباخر المصرية ، وصحبها من الخرطوم إبراهيم افندي فوزى ، أحد ضباط الجيش المصرى الذى صار فيما بعد اللواء إبراهيم باشا فوزى ، وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى شباب الثورة المهدية ، وشهد معظم وقائع الثورة إلى سقوط الخرطوم ومقتل غردون سنة ١٨٨٥ ، وحضر استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، وله في ذلك كتاب المشهور (السودان بين يدى غردون وكتشنر)

وصلت الحملة إلى فاشوده ، بعد مسيرة سبعة أيام في النيل ، فاستقبلها مديرها بالحفاوة اللائقة ، وشهد غردون وإبراهيم افندي فوزى « ما وصلت إليه البلاد وقضى من العمران والتقدم والحضارة بعناية الحكومة (١) »

وتابعت الحملة سيرها حتى وصلت إلى محطة سوباط ، وهي الكائنة على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ثم سارت جنوباً حتى بلغت الاسماعيلية (عند كرو) حيث يقيم رموف بك ، الذي استخلفه السير صمويل بيكر في الحكم وقيادة الجندي بمديرية خط الاستواء ، فقابل غردون بالحفاوة والتكرير ، وأطلعه على أحوال البلاد وشؤونها ، وقد أبقاءه غردون قليلاً ، ثم لما لبث أن أقاله من عمله وأمره بالعودة إلى مصر

وقد رأى غردون أن مناخ الاسماعيلية ليس صحيحاً ، فنقل مركز الحكومة إلى (اللادو) ، فصارت من ذلك العهد عاصمة مديرية خط الاستواء

وبعد أن تولى شؤون الحكومة في تلك الجهات تابع السير جنوباً حتى بلغ بحيرة

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ٥

(أَلْبَرْتُ) ، وَاسْتَوَى عَلَى عَشْرَةِ مَرَاكِبِ مِنْ سُفُنِ الْأَهْلِينَ ، اسْتَخَدَمَهَا لَا كِشَافٍ
شَوَاطِئُ الْبَحِيرَةِ ، وَاسْتَقْدَمَ مِنَ الْخَرْطُومِ العَدْدُ الْكَافِي مِنَ الْبُوَاخِرِ النَّيْلِيَّةِ وَمِنْ آلاتِ
الْتَّرْسَانَةِ الْمَصْرِيَّةِ بِالْخَرْطُومِ وَعِمَالَاهَا ، وَأَنْشَأَ بِالدَّفْلَاءِ شَمَالِيَّ بَحِيرَةَ الْبَرْتِ (تَرْسَانَة)
لِتَنْظِيمِ الْمَلاحةِ فِي أَعْلَى النَّيْلِ وَفِي الْبَحِيرَةِ ، وَاسْتَطَاعَ عِمَالُ التَّرْسَانَةِ أَنْ يَفْكُرُوا أَجْزَاءَ
بعْضِ الْبُوَاخِرِ ، وَيُرْكِبُوهَا ثَانِيَّةً فِي الْبَحِيرَةِ ، وَلَمَّا تَمَّ تَرْكِيبُ أَوْلَى بَاخِرَةٍ ، اسْتَقْلَهَا الْكَوْلُونِيلُ
غَرْدُونُ باشا وَحَاشِيهُ وَابْرَاهِيمُ فُوزِيَّ (باشا) ، فَسَارُوا بِهَا فِي لَجْجِ الْبَحِيرَةِ ، فَكَانَتْ
هَذِهِ أَوْلَى مَرَّةٍ رَأَتْ فِيهَا بَحِيرَةُ الْبَرْتِ السُّفُنَ الْبَخَارِيَّةَ ، وَقَدْ كَانَ مَنْظَرُ الْبَاخِرَةِ مَوْضِعَ
دَهْشَةِ الْأَهْلِينَ ، قَالَ ابْرَاهِيمُ فُوزِيَّ (باشا) فِي هَذَا الصَّدَدِ : « كَانَ الْأَهْلَى يَقْفَوْنَ عَلَى
شَوَاطِئِ الْبَحِيرَةِ كَلَّا أَقْتَرَبَنَا مِنْهَا صَفَوفًا مُعْجَبِينَ مِنْ رُؤْيَا الْوَابُورِ ، إِذَا لمْ
يَكُونُوا قَدْ رَأُوا السُّفُنَ الْبَخَارِيَّةَ مِنْ قَبْلٍ ، وَكَانَ يَزِيدُ عَجَبُهُمْ كَلَّا شَاهَدُوا ضِيَامَتِهِ ،
وَيَحْارُونَ فِي كَيْفِيَّةِ نَقْلِهِ مَعَ جَسَامَتِهِ إِلَى الْبَحِيرَةِ »

وَهَكَذَا كَانَ الْفَتْحُ الْمَصْرِيُّ يَحْمِلُ مَعَهُ أَيْمَانًا سَارِيَّا سَبَابَ الْحَضَارَةِ وَالْعَمَرَانِ

وَقَدْ أَنْشَأَ الْكَوْلُونِيلُ غَرْدُونَ باشا عَدْدًا نَقْطَةً عَسْكَرِيَّةً حَصِينَةً عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ ،
وَحَصْنَ النَّقْطَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا بِيَكْرَ باشا مِنْ قَبْلِ ، فَهَا أَنْشَأَهُ نَقْطَةً (سُوبَاطُ) عَلَى مَلْتَقَى نَهْرِ
سُوبَاطِ بِالنَّيْلِ ، وَ(النَّاصِرُ) عَلَى نَهْرِ سُوبَاطِ ، وَ(شَامِبَهُ) وَ(بُورُ) وَ(الْلَّادُوُ)
وَ(لَابُورِيُّ) وَ(الرَّجَافُ) وَ(الدَّفْلَاءِ) عَلَى النَّيْلِ الْأَبِيْضِ (بَحْرُ الْجَبَلِ) ، وَ(مَكْرَكَهُ)
جَنُوبِيِّ بَحْرِ الْغَزَالِ ، وَ(مَرْوِيُّ) عَلَى نَيْلِ فِيكْتُورِيَا ، وَ(مَقَانِقُو) الْوَاقِعَةُ عَلَى مَصْبَبِ نَيْلِ
فِيكْتُورِيَا فِي بَحِيرَةِ الْبَرْتِ (أَنْظُرْ مَوْاقِعَ هَذِهِ الْبَلَادِ عَلَى الْخَرِيطَةِ الْمَلْحُوقَةِ بِهَذَا الفَصْلِ
ص ١٢٥)

وَقَدْ لَقِيَ الْجِنُودُ الْمَصْرِيُّونَ فِي هَذِهِ الْحِلَلَاتِ الْبَعِيْدَةِ الْمَتَاعِبَ الْمُضَنِّيَّةَ لِبَعْدِ الْمَسَافَاتِ
وَصَعُوبَةِ الْمَوَاصِلَاتِ وَرَادِعَةِ الطَّقْسِ ، وَكَانَتِ الْأَمْطَارُ تَهَطُّ عَلَيْهِمْ لَيْلَ نَهَارَ كَأْفَوَاهِ
الْقَرْبِ ، وَاسْتَهَدُوا بِالْمَخَاطِرَاتِ وَالْمَفَاجَآتِ الْجَمَةِ ، وَاحْتَمَلُوا أَكْلَ هَذَا الْعَنَاءَ بِصَبْرٍ وَثَباتٍ
وَشَجَاعَةٍ تَسْجُلُ لَهُمْ فِي أَنْصَعِ صَفَحَاتِ تَارِيخَنَا الْقَوْمِيِّ

بسط حماية مصر على مملكة أوغندا

سنة ١٨٧٤

بسط مصر حمايتها على مملكة أوغندا سنة ١٨٧٤ ، على يد الكولونل شاي لونج بك Chaille Long bey ، وهو ضابط أمريكي ، دخل في خدمة الجيش المصري سنة ١٨٧٠ ، وعيّن سنة ١٨٧٤ رئيساً لarkan حرب غردون باشا حين ولادته على مديرية خط الاستواء ، وأخلص النية لمصر ، وخدمها بنزاهة وأمانة أثناء مقامه في السودان ، ودافع بعد ذلك بقلمه ولسانه عن حقوق مصر الخالدة في كتب قيمة ، تبعه من أهم المراجع في تاريخ السودان الحديث ، منها : كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) ، و (الانبياء الثلاثة غردون والمهدى وعرابى) ، و (أفريقية الوسطى) ، عدا ما نشره في المجالات الكبرى دفاعاً عن مصر واستئنكاراً لمطامع الانجليز في وادي النيل

ذكر شاي لونج بك في كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) انه هو الذي انفذه غردون الى عاصمة الملك (امتيسي) ملك أوغندا ، وانه أدى مهمته ، ووصل إلى عاصمة أوغندا ، وعقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ ، معااهدة بمقتضها قبل وضع مملكته تحت حماية مصر ، وقد أرسل المعااهدة إلى الخديو إسماعيل ، وهذا أبلغ الدول أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت^(١)، وقال (ص ٢٥) إن هذه المعااهدة أودعت محفوظات وزارة الخارجية ، ولكنها فقدت بعد ذلك ، وذكر أن أحد ضباط الجيش البريطاني أحرقها (بعد الاحتلال) ضمن وثائق أخرى نفيسة

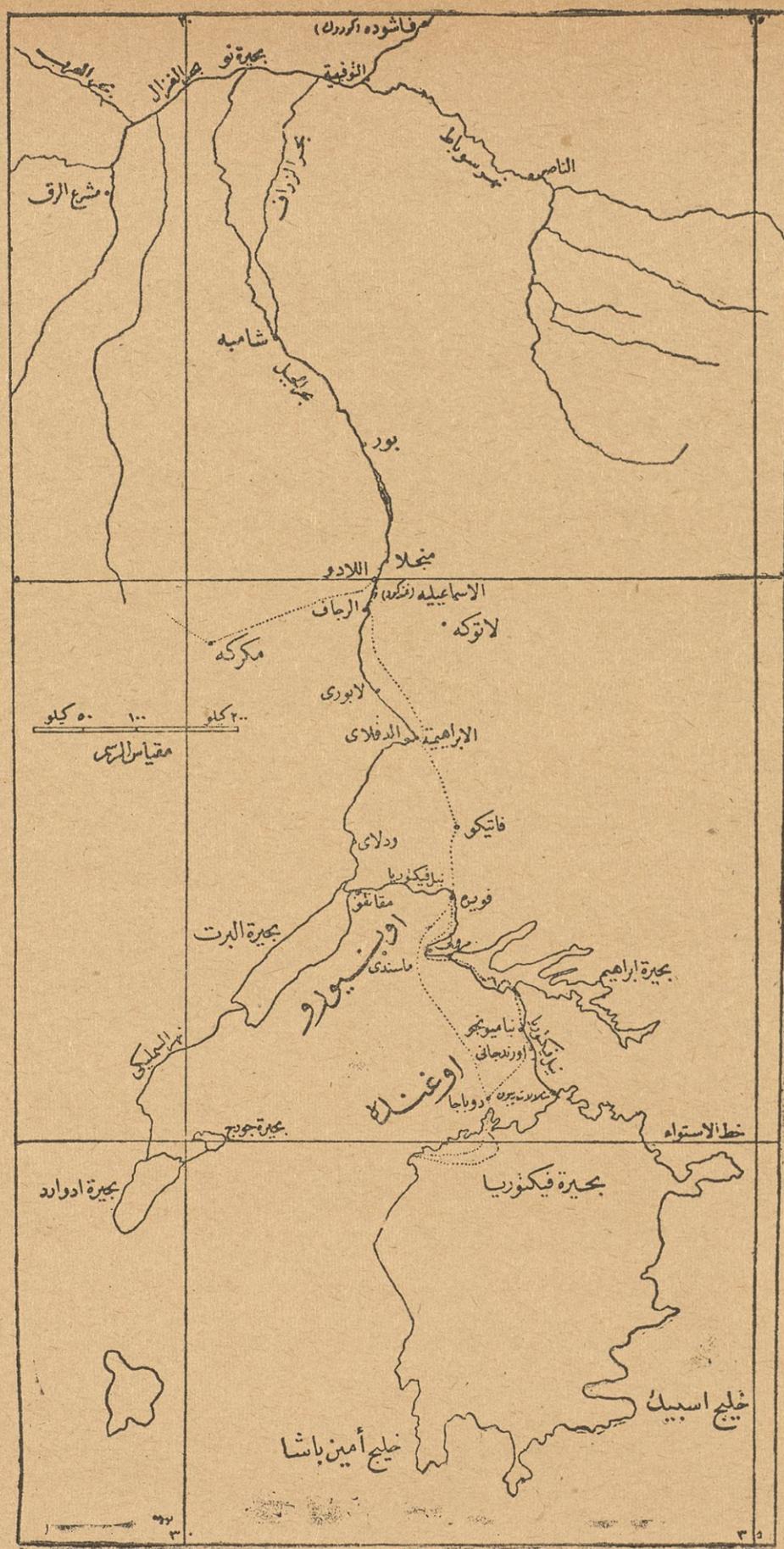
وقال في موضع آخر ص ٢٦) إنه لما وصلت البعثة الانجليزية إلى أوغندا في أبريل سنة ١٨٧٥ وجدت بحاشية الملك امتيسي ، ارنست لينان دي بلوفون (ابن لينان باشا) الذي أرسله غردون بعد معااهده الحماية مندوباً عن الحكومة المصرية في بلاط الملك^(٢)، وذكر أن نفوذ مصر قد امتد إلى كل الأصقاع التي تحيط ببحيرة

(١) مصر ومديرياتها المفقودة ص ١٢ للكلونل شاي لونج بك

L'Egypte et ses Provinces Perdues par Chaille Long bey

(٢) وقد قُتل في عودته من أوغندا إلى الراجحي في أغسطس سنة ١٨٧٥

والمناظر المنقوطة يمثل الطريق الذي سلكه الكولونل شان لوتش برك في مسيره الى أوغندا حيث عقد مع ملوكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التي قبل بمقتضاه حماية مصر على عمل ككتبه



فيكتوريا ، وخاصة مملكة أوغندا ، وان الملك امتيسي كان يفتخر بتبنيته لسلطان مصر ^(١)

مذكرة شريف باشا إلى الدول

عن أملاك مصر منطقة البحيرات

وأورد في كتابه (ص ٢٦) المذكورة التي أرسلها شريف باشا (الوزير المشهور) وزير خارجية مصر في ذلك الحين إلى الدول خاصة بضم منطقة البحيرات إلى مصر ، وخلاصتها أن غردون استولى على منطقة (مرولي) الواقعة على نهر سومرست ^(٢) ، وأن الجنود المصرية أسسوا محطة في (ماسندي) عاصمة مملكة (أونيورو) ومحطة أخرى في (أورندجان) على نهر السومرست ، بالقرب من بحيرة فيكتوريا ، وأخرى على بحيرة فيكتوريا ذاتها بالقرب من شلالات (رييون ^(٣)) ، وأخرى في كل من (ماقانقو) و (الدفلاوي) ، وعلى ذلك بسطت مصر سلطتها على جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا ، وبحيرة البرت ، وسننشر نص هذه المذكورة في قسم الوثائق التاريخية

ونشرت (الواقع المصرية) البيان الآتي عن أوغندا : « ورد تلغراف إلى المعية السنوية من سعادة غردون باشا في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمن أن الملك امتيسي طلب مني عساكر لأجل إقامتها في بندر حكومته ، فأرسلت إليه مائة وخمسين عسكريا ، ورتبت ثلاثين عسكريا في بلدة (أورندجان) ، وعشرين في بلدة (بكتيشة) ، فكانت تلك الجهات والحالة هذه في حوزة الحكومة المصرية ، وقد وصلنا إلى « مقانقو » في ٢٧

(١) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونل شاي لونج بك ص ٢٠٤

(٢) هو الاسم الذي أطلقه الرحالة إسليك على النيل بين منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبها في بحيرة البرت ، ويسمى أيضا نيل فيكتوريا

(٣) حيث يخرج النيل من بحيرة فيكتوريا

جمادى الثانية (سنة ١٢٩٢) بعد سفر سبعة أيام من (روفلى)، والبحر هناك^(١) جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة، وشطوطه معمرة بكثرة الناس فيه، وأراضيه صالحة للزراعة»

«وبعد ثلاثة أيام نتوجه إلى (مرولى) و(أورنديجان) و(امتيسا) عاصمة أوغنده، ويمكننا الوصول إلى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة»^(٢)
هذا ما ذكرته «الواقع المصرية»، وهي الجريدة الرسمية للحكومة، وفيها تأييد للحقائق التي أوردها شابي لونج بك، ومن كل ذلك يتبين انضمام أوغندا ومنطقة البحيرات إلى مصر في عهد الخديو اسماعيل

— موقف غردون —

ذكر غردون في رسائله إلى أخيه أن شابي لونج بك، أرسل إلى الخديو اسماعيل قريراً امتدح فيه ولاء امتيسى، فنال رضاء الخديوى وأرسل إلى لونج بك عربة جميلة هدية للملك^(٣)

وظاهر من لهجة غردون في رسائله إلى أخيه أنه لم يكن مرتاحاً إلى إحكام مصر روابطها بأوغندا وملائكتها، فقد ذكر^(٤) أن الملك امتيسى أقسام يمين الولاء لمصر في مارس سنة ١٨٧٦، وأنه (أى غردون) كان يبغى بقاء ملك أوغندا مستقلاً، ولكنه هو الذي دعا الحامية المصرية التي كان غردون^(٥) معتمداً جعلها في (أورنديجان) إلى الاستقرار في عاصمة أوغندا (دوباجا)^(٦) وقد استقرت بها فعلاً في أغسطس سنة ١٨٧٦

(١) يريد النيل

(٢) الواقع المصرية عدد ٦٧٤ الصادر في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ (سبتمبر سنة ١٨٧٦ م)

(٣) رسائل الكولونل غردون إلى أخيه ص ١٤٢

(٤) رسائل الكولونل غردون إلى أخيه ص ١٦٨

(٥) وتسمى أيضاً امتيسى على اسم الملك

(٦) رسائل غردون إلى أخيه ص ١٧٦

وغمى عن البيان أن غردون لم يكن يبغى من استقلال أو غنمه دفاعاً عن مصالحتها ، بل كل ما يبغى أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية ، حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لإنجلترا ، وقد بسطت فعلاً حمايتها عليها بعد فصل السودان ، وهذا يتبين لك أن غردون لم يكن خالص النية لمصر مثل شابي لونج بك ، بل كان يخدم السياسة الانجليزية أثناء تقلده منصب الحكم في مديرية خط الاستواء ، وكذلك عند ولادته حاكماً عاماً للسودان سنة ١٨٧٧ كما سيجيء بيانه

اكتشاف بحيرة (ابراهيم)

سنة ١٨٧٤

اكتشف السكولونل شابي لونج ، سنة ١٨٧٤ ، بحيرة (ابراهيم) إحدى البحيرات التي ينبع منها النيل ، وهي الواقعة شمالي بحيرة فيكتوريا ، وقد سماها بحيرة (ابراهيم) باسم ابراهيم باشا أبي الخديو اسماعيل ، وكانت تسمى من قبل بحيرة (كيوجا) ، وقد غالب عليهم الاسم الأصلي في مصورات الجغرافية (الأطلس) الخديشة وكتبها ، لأن معظم الجغرافيين من الإفرنج يأبون أن يطلقوا اسمآ عربياً مصرياً على منابع النيل ، أما البحيرات الأخرى فيسبخون عليها أسماء أوروبية ويسمونها بحيرة (فيكتوريا) وبحيرة (أوبرت) ، وبحيرة (جورج) وبحيرة (إدوارد) ، أما بحيرة (ابراهيم) فلا يروق لهم تسميتها بمثل هذا الاسم المصري فيبقون اسمها القديم (كيوجا) ، وهذا لعمري ليس من الحق ولا من الانصاف في شيء

ومن واجب مهندسي مصر وأساتذة الجغرافيا والتاريخ أن يعبروا عن هذه البحيرة باسم (بحيرة ابراهيم) ، ويتخذوه علماً لها في مباحثهم ودورسهم ومؤلفاتهم وأطاليتهم حتى يرسخ هذا الاسم في أذهان النشء والجمهور ، وفي وثائق الحكومة وخرائطها ، ويدفع بين الناس في مصر والشرق ، ثم في أوروبا ، كاذاعت أسماء بحيرة (فيكتوريا) وما إليها ، وإن أسم بحيرة (ابراهيم) أحق بالإذاعة من الأعلام الانجليزية التي أطلقت على البحيرات الاستوائية الأخرى ، فإن اكتشاف هذه البحيرة تم على يد ضابط من ضباط الجيش المصري ، باسم مصر وحساب مصر ، في عهد اسماعيل بن ابراهيم ، وجمهوره

ورعايته ، ومكتشفها قد اختار لها هذا الاسم تحقيقاً لرغبة الخديو اسماعيل ذاته ، فواجب الوفاء والمنطق يقضى باحترام هذه التسمية واتباعها (أنظر الخريطة ص ١٢١)

وقد ذكرها العلامة جورج شونفرت Schweinfurth في خريطيته التي وضعها لبيان خط سير إرنست لينان دى بلفون من الرجان إلى بحيرة فيكتوري سنة ١٨٧٥ ، وسماها باسمها الصحيح (بحيرة ابراهيم) ، وكتب بجانبها العبارة الآتية (اكتشفها لونج بك في أغسطس سنة ١٨٧٤) ، وتجدد هذه الخريطة ملحقة بالعدد الأول من السنة الأولى لمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦) ، وسماها غردون في خريطيته (بحيرة كيوجا أو بحيرة ابراهيم) ، وهي تشمل بحيرة كيوجا وبحيرة كوانيا المتصلة بها

وللكولونل شاي لونج بك رسالة منهية في مجلة الجمعية الجغرافية (مجموعه ٣ عدد ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ ص ٥٤٠) اعترض فيها على إغفال اسم بحيرة ابراهيم ، وذكر وثائق هامة عن اكتشافاته وخدماته لمصر في مديرية خط الاستواء

وفي الحق ان الكولونل شاي لونج بك يجب أن يقترب اسمه بأسماء مكتشفى منابع النيل ، فالحالتان (اسبيك) و (جرانت) اكتشفتا بحيرة فيكتوري وأمنبع النيل منها ، والسير (صمويل بيكر) اكتشف بحيرة ألبرت ، و (شاى لونج بك) اكتشف بحيرة ابراهيم ، وجرى النيل من أورنج جانى إلى مرولى ثم إلى فويره

وقد ذكر في كتابه «مصر ومديرياتها المفقودة» ص ١٤٨ أنه بعد أن اكتشف بحيرة (ابراهيم) قصد إلى (ماسندي) عاصمة (أونيورو) ، فألفي ملكها القديم (كاربيقه) يناسب الحكومة العداء ، وان كاريقه هذا هاجمه في قرة من ٦٠٠ مقاتل ، فانسحب لونج بك إلى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوري

وذكر غردون باشا (١) ان كاريقه اخلى (ماسندي) في يناير سنة ١٨٧٦ وان المواصلات أعيدت إلى هذه العاصمة

استعفاء غردون من منصبه سنة ١٨٧٦

بق الكولونل غردون مديرآ لعموم خط الاستواء إلى أن استعفي من منصبه سنة

(١) في رسائلة الى أخيه ص ١٦٥ — ١٧٦

١٨٧٦ ، وعاد إلى القاهرة ، ومنها إلى إنجلترا ، ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التي تولى حكمها ، وليستقل تعليماتها الجديدة فيما تأمره به ، لأنه لم يلبث في إنجلترا ثلاثة سنوات إلا قليلاً ، حتى تدخلت الحكومة الانجليزية لدى الخديو لتعيينه في منصب أكبر من منصبه القديم ، إذ جعله حكمدار عموم السودان ، فصارت أقاليم السودان تحت مطلق سلطته كما سيجيء بيانه

مصير مديرية خط الاستواء

عندما غادر غردون باشا منصبه الأول سنة ١٨٧٦ استخلف في خط الاستواء وكيله الكولونل «بروت» Prout ، وهو ضابط أمريكي التحق بخدمة الجيش المصري وخدم تحت لواء غردون ، وفي عهد حكمدارية غردون باشا للسودان جعل إبراهيم بك فوزي مديرآ خط الاستواء ، ثم فصله وعين مكانه الدكتور إدوار شنتر Eduard Schnitzer وهو طبيب ألماني صحب غردون في السودان واعتنق الإسلام ، وعرف بأمين بك ، وأخلص مصر ، فبقي يتولى الحكم في خط الاستواء إلى شهوب الثورة المهدية ، ولم تستطع قوات المهدى أن تستولي على هذه المديرية وظل أمين بك يحكمها باسم الحكومة الخديوية ، ونقل عاصمتها من اللادو إلى فرادلاي جنو بأ ليكون بعيداً عن غزوات المهديين ، وبقي في مركزه حتى اضطرت الحكومة المصرية بضغط الانجليز إلى إخلاء السودان ، وأنعم عليه الخديو توفيق برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر ، فصار يعرف بأمين باشا ، وأرسل إليه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء وقائد يبلغه قرار الجلاء عن السودان وتركه وشأنه ، فأثر البقاء في منصبه ، مخلصاً لمصر وحكومتها ، معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين الذين تحت إمرته ، ولكن الانجليز أبو عليهم البقاء ، فأرسلوا الرحالة استانلي بحجة «إنقاذ أمين باشا» ، والواقع لا جلائه عن مديرية خط الاستواء والقضاء على سلطة مصر فيما ، فاضطره استانلي سنة ١٨٨٩ إلى الجلاء عنها ، وبانسحاب أمين باشا من مديرية خط الاستواء تقلص ظل السلطة المصرية عن هذا الإقليم ، واتهزمت إنجلترا فرصة فاحتلت أوغندة وجعلتها تحت حمايتها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء

ولما تم استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ أكرهت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩

الباطلة التي جعلت إدارة السودان مشتركة بين مصر وإنجلترا ، وعدلت حدوده طبقاً لآهواء الانجليز ، فبعد أن كانت حدود السودان المصرى تنتهي عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهي عند (منجلا) شمالي غندکرو ، والآن تنتهي عند (نيموي) — الابراهيمية — ، وبذلك اغتصبت إنجلترا معظم مديرية خط الاستواء القديمة ، وخسرت مصر تلك المديرية الشاسعة بعد أن بذلت في سبيل فتحها وتعميرها ما بذلت من الجهد والأموال ، والضحايا والرجال

منع الاتجار بالرقيق

كان الاتجار بالرقيق من نوعاً من عهد محمد على ، لكن هذا المنع لم يكن إلا اسمياً ، وبقيت تجارة الرقيق في السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا ، بعين الحكومة وبصرها ، وبتأييد موظفيها ، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجذر في حاصلات السودان وفي الرقيق ، وتربي من كل ذلك الأرباح الطائلة ، وكان تجارة الرقيق لما لهم من النفوذ والسيطرة والمال يقيمون في مختلف الجهات معامل حصينة اتخذوها من أكز للتجارة وأصطياد الرقيق

فليما تبوأ اسماعيل عرش مصر اعتمد أن ينضم إلى حركة العاملين على تحرير الأرقام في أنحاء العالم ، وأن يكسب ثناء الإنسانية في مقاومة تجارة الرقيق ، وبذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل

ففي سنة ١٨٦٣ أرسل إلى موسى باشا حمدى حكمدار السودان وقائد يأمره بتعقب تجارة الرقيق وحربهم ، فتصدع الحكمدار بالأمر ، وضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقام بين « كاكا » و « فاشوده » وأطلق سراحهم ، وأعادهم إلى بلادهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم ، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أعطوه العهود والمواثيق أن لا يعودوا إلى النخasseة وكان لاحتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ أثر كبير في سد طريق النيل في وجه تجارة الرقيق الذين كانوا يقتنصون الأرقام في جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنونهم في السفن وأصدر اسماعيل أمره بتحرير كل عبد أو جاريه يثبت على سيدهما أنه أسماء معاملتهما وفي عهد حكمدارية جعفر مظہر باشا وأسماعيل أیوب باشا بذلت الحكومة جهوداً

موقفة في محاربة تجارة الرقيق ، وقد عهد الخديو أيضاً إلى السيد صمويل بيكر ثم إلى غردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية كـما تقدم بيان ذلك تفصيلاً في الحق أن الخديو اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الإنسانية خدمة جليلة في منع هذه التجارة الممقوتة

لـكن من الحق أن نقول أيضاً أن عمله كان في حاجة إلى شيء من الحكمة والروية ، فـإن تجارة الرقيق كان يقوم بها أناس أقوياء في السودان ، لهم من أعيان البلاد أنصار وتنافـف منهم طبقة كبيرة من الأهلين

كـانت هذه التجارة مصدر ثروتهم ، فضلاً عن الأيدي العاملة في الزراعة ورعي الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق ، وقد ألف أعيان السودان والطبقة المتوسطة من أهله استخدام الأرقام كـأتباع لهم وموال ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، فـفجأة السودان بـتحرير الأرقام دفعـة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عواقبـها ، هذا إلى أن الخديـوي قد جعل على رأسـة مقاومة الاتجـار بالـقيق جـماعة منـ الإـجانـب ، فـاستشار وجودـهم عـواطفـ الـاهـلـيـنـ الـدـيـنـيـةـ ، وـكـراـهـيـتـهـمـ لـلـحـكـوـمـةـ ، فـاجـتمـعـتـ هـذـهـ عـوـاـفـعـ وـكـانـتـ مـنـ أـسـبـابـ قـيـامـ الثـورـةـ الـمـهـدـيـةـ

فـالـأـمـرـ اـذـنـ كـانـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ التـأـنـيـ وـالـحـكـمـ ، اـعـتـبـرـ ذـلـكـ فـإـنـ الـحـكـوـمـ الـانـجـليـزـيـةـ حـيـنـاـ قـرـرـتـ إـبـطـالـ الرـيقـقـ فـيـ آـمـلـاـ كـهـاـ خـصـصـتـ عـدـدـ مـلـاـيـنـ مـنـ الـجـنـيـهـاتـ لـشـعـوـيـضـ مـوـالـيـ الـأـرـقـاءـ الـمـحـرـرـيـنـ

فـكـانـ مـنـ الـوـاجـبـ عـلـىـ اـسـمـاعـيلـ باـشاـ أـنـ يـأـخـذـ فـيـ مـشـرـوـعـهـ بـالـمـوـادـ وـبـعـدـ النـظـرـ ؛ وـحـسـنـ السـيـاسـةـ ، لـكـنهـ لـمـ يـفـعـلـ ، وـاعـتـزـمـ مـقاـومـةـ تـجـارـ الرـيقـقـ وـمـنـعـ الـاستـرـقـاقـ فـخـسـبـ فـاسـتـهـدـفـ الـحـكـوـمـ لـعـدـاءـ طـبـقـةـ كـبـيرـةـ مـنـ أـعـيـانـ سـودـانـ وـتـجـارـهـ ، مـاـ ظـهـرـ أـثـرـهـ فـنـجـاحـ دـعـوـةـ الـمـهـدـيـ أـوـاـئـلـ عـهـدـ توـفـيقـ باـشاـ إـذـ اـنـضـمـ إـلـىـ الـثـورـةـ تـجـارـ الرـيقـقـ فـيـ سـودـانـ

وـفـيـ هـذـاـ الصـدـدـ يـقـولـ المـسـيـوـ «ـدـارـيـلـ» Darylـ فـيـ مـقـدـمـةـ «ـرـسـائـلـ غـرـدونـ إـلـىـ أـخـتهـ» ماـيـأـقـيـ : «ـعـهـدـ الخـدـيـوـ اـسـمـاعـيلـ إـلـىـ السـكـوـلـونـ غـرـدونـ مـطـارـدـةـ تـجـارـ الرـيقـقـ فـيـ سـودـانـ وـلـكـنـ الـمـجـهـوـدـاتـ الـعـنـيـفـةـ الـتـيـ بـذـلـكـ الضـابـطـ الـانـجـليـزـيـ لمـيـكـنـ هـاـ مـنـ نـتـيـجـةـ عـمـلـيـةـ سـوـىـ إـنـارـةـ الـطـبـقـةـ الـتـيـ كـانـتـ مـصـرـ تـعـتمـدـ عـلـيـهـاـ فـيـ سـودـانـ»

وقد أبرم اسماعيل في ٤ اغسطس سنة ١٨٧٧ معاہدة مع الحكومة الانجليزية (١) للتعاون على منع الاتجار بالرقين ، احتوت نصوصاً تمكّن الانجليز من الافتيات على سيادة مصر وصلحها ، اذ اباحت لهم الرفاهة على السفن الحاملة للراية المصرية وتفتيشها وضبطها بمحنة تعاطيها تجارة الرقيق ، فكانت معاہدة لا خير فيها ، ولافائدة منها لمصر

ظهور الزبير باشا رحمت (٢)

كان الزبير أكبر تاجر السودان ، وخاصة في تجارة الرقيق ، وله نفوذ واسع وسلطان كبير في اقليم بحر الغزال

وقد شبّت حرب بينه وبين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك ، فامتلك الزبير بلاده ، واتخذ عاصمته مقرًا له ، وسمّاها (ديم الزبير) ، فصار فيها ملكاً ، ودانت له جهات بحر الغزال ، وتقاطر الناس عليه للالتحاظ في خدمته ، فجمعت لنفسه جيشاً قوياً لتأييد سلطنته ، واقتراض الرقيق ، وفتح طريق التجارة من بحر الغزال الى كردفان

وفي سنة ١٨٦٩ جاء بحر الغزال رجل يدعى (البلالي) قادماً من الخرطوم ومعه نفر من الجنود لاحتلال هذا الإقليم باسم الحكومة الخديوية ، ومعه فرمان بتسمية مدير آ لبحر الغزال ، ولكن الزبير جمع جيشه ، وكمّ أتباعه للبلالي فقتلوه ، ثمّ خشي الزبير عاقبة عدائه الحكومة المصرية ، فجئ إلى مسامتها ، وأظهر ولاءه لها واعترف بسلطة الخديو

وأتسّع سلطانه ، ففتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور ، ووضع بين يدي الحكومة الخديوية الأقاليم التي دانت له لتنصب لها المحکام ، وجعل تقدّمه لها دليلاً على ولائه ، وقد أخلص فعلاً لمصر وبقي على ولائه طول حياته

(١) مجموعة المعاهدات لدى مارتن . سلسلة جديدة ، ج ٢ ص ٤٩٣

De Martens. Nouv. Recueil gen. des Traites 11 P. 493

وتجدد نصها العربي في قاموس جlad ج ٢ ص ٢٣٨ طبعه سنة ١٩٠٠

(٢) استاخصنا ما ذكرناه عن الزبير من ترجمة حياته بقلمه المنشور في كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص ٦٧ ، وما ذكره ابراهيم باشا فوزي في كتابه ج ١ ص ١٣٦

فشكـره الخديـو عـلـى إـخـلاـصـه ، وـأـنـعـمـ عـلـيـهـ بـرـتـبـةـ بـكـ ، وـعـهـدـ إـلـيـهـ حـكـمـ الـبـلـادـ الـتـيـ
فـتـحـهـ بـاـسـمـ الـحـكـوـمـةـ الـخـدـيـوـيـةـ ، وـهـىـ بـحـرـ الغـزـالـ وـشـكـاـ فـصـارـ مـدـيرـ آـلـ بـحـرـ الغـزـالـ ،
وـجـعـلـتـ مـدـيـنـةـ شـكـاـ عـاصـمـةـ لـلـمـدـيـرـيـةـ

فتح سلطنة دارفور

سنة ١٨٧٤

رغـبـ الزـبـيرـ باـشاـ إـلـىـ حـكـمـارـ السـوـدـانـ ، اـسـمـاعـيلـ باـشاـ أـيـوبـ ، فـتـحـ دـارـ فـورـ ، وـكـانـتـ
إـلـىـ ذـلـكـ العـصـرـ مـلـكـةـ مـسـتـقـلـةـ ، وـلـئـنـ أـدـخـلـتـهـ الـفـرـمـانـاتـ الصـادـرـةـ لـمـحـمـدـ عـلـىـ ضـمـنـ أـمـلـاـكـ
مـصـرـ (ـانـظـرـ عـصـرـ مـحـمـدـ عـلـىـ صـ ٣٤٧ـ)ـ إـلـاـ أـنـهـ بـقـيـتـ مـسـتـقـلـةـ فـعـلـاـ عـنـ الـدـوـلـةـ الـمـصـرـيـةـ
إـلـىـ ذـلـكـ الـحـينـ ، وـكـانـ عـلـيـهـ مـلـكـ يـسـمـىـ السـلـطـانـ اـبـرـاهـيمـ يـنـاوـيـ الزـبـيرـ وـيـعـمـلـ عـلـىـ إـجـلـانـهـ
عـنـ «ـشـكـاـ»ـ ، فـأـيـدـتـ الـحـكـوـمـةـ مـشـرـوـعـ الزـبـيرـ ، وـعـهـدـ الخـدـيـوـ إـلـىـ اـسـمـاعـيلـ باـشاـ
أـيـوبـ فـتـحـ دـارـ فـورـ باـشـتـرـاكـهـ مـعـ الزـبـيرـ بـكـ

مـعرـكـةـ منـواـشـيـ (ـ ٢٥ـ أـكـتوـبـرـ سـنـةـ ١٨٧٤ـ)

فـجـهزـ جـيـشـاـ فـيـ كـرـفـانـ ، وـعـهـدـ إـلـىـ الزـبـيرـ بـكـ حـشـيدـ جـيـشـهـ فـيـ بـحـرـ الغـزـالـ كـيـ يـحـاطـ
بـدـارـفـورـ مـنـ الشـرـقـ وـمـنـ الـجـنـوبـ

فـسـارـ الزـبـيرـ مـنـ الـجـنـوبـ ، وـتـلـاقـيـ مـعـ قـوـاتـ سـلـطـانـ دـارـ فـورـ ، وـكـانـ تـتـأـلـفـ مـنـ
نـحـوـ عـشـرـينـ الـفـ مـقـاتـلـ ، فـهـزـمـهـ الزـبـيرـ غـيرـ مـرـةـ ، وـاشـتـبـكـ الجـمـعـانـ فـيـ «ـمـنـواـشـيـ»ـ ، حـيثـ
نـشـبـتـ بـيـنـهـماـ فـيـ ٢٥ـ أـكـتوـبـرـ سـنـةـ ١٨٧٤ـ مـعرـكـةـ فـاـصـلـةـ ، اـتـهـمـتـ بـاـتـصـارـ الزـبـيرـ اـتـصـارـأـ
مـبـيـنـاـ ، وـقـتـلـ السـلـطـانـ اـبـرـاهـيمـ وـتـشـتـتـ جـيـشـهـ ، فـدـانـتـ الـبـلـادـ لـلـحـكـمـ الـمـصـرـيـ ، وـدـخـلـ
الـزـبـيرـ مـدـيـنـةـ الـفـاـشـرـ عـاصـمـةـ دـارـ فـورـ

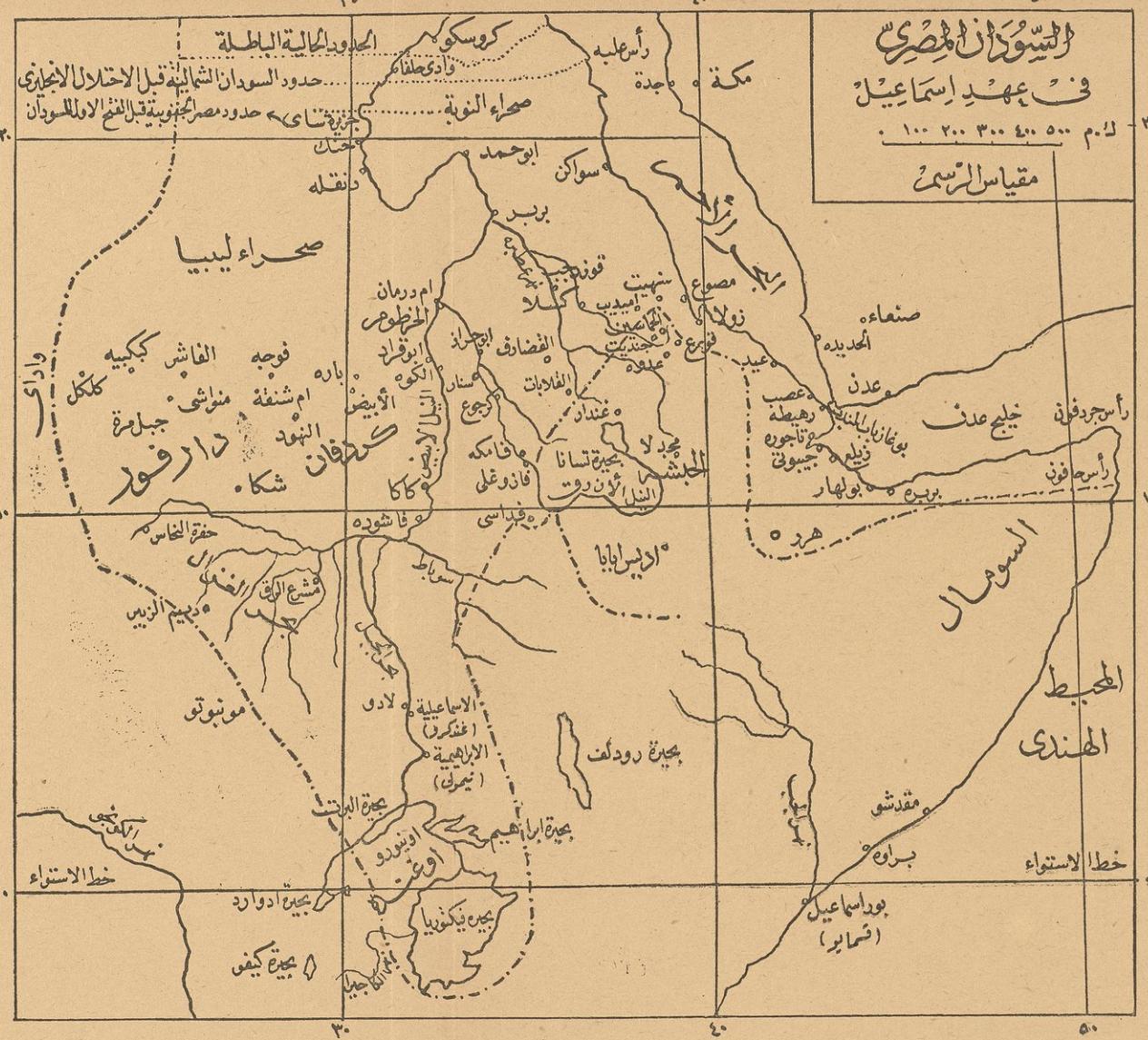
ثـمـ جـاءـ اـسـمـاعـيلـ باـشاـ أـيـوبـ عـلـىـ رـأـسـ الـفـرـقـةـ الـزـاحـفـةـ مـنـ الشـرـقـ ، فـدـخـلـ الـمـدـيـنـةـ
فـيـ ١١ـ نـوـفـيـرـ سـنـةـ ١٨٧٤ـ (ـ ٢٧ـ رـمـضـانـ سـنـةـ ١٢٩١ـ)ـ ، وـاـتـهـمـتـ الـحـرـبـ بـضمـ سـلـطـةـ
دـارـفـورـ إـلـىـ اـمـلـاـكـ مـصـرـ

وـأـرـسـلـ الـحـكـمـارـ يـبـشـرـ الخـدـيـوـ بـاـخـبـارـ الـفـتـحـ ، فـابـتـجـعـ بـهـذـاـ النـصـرـ الـمـبـيـنـ ، وـأـنـعـمـ

**السودان المصري
في عهد اسماعيل**

١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠

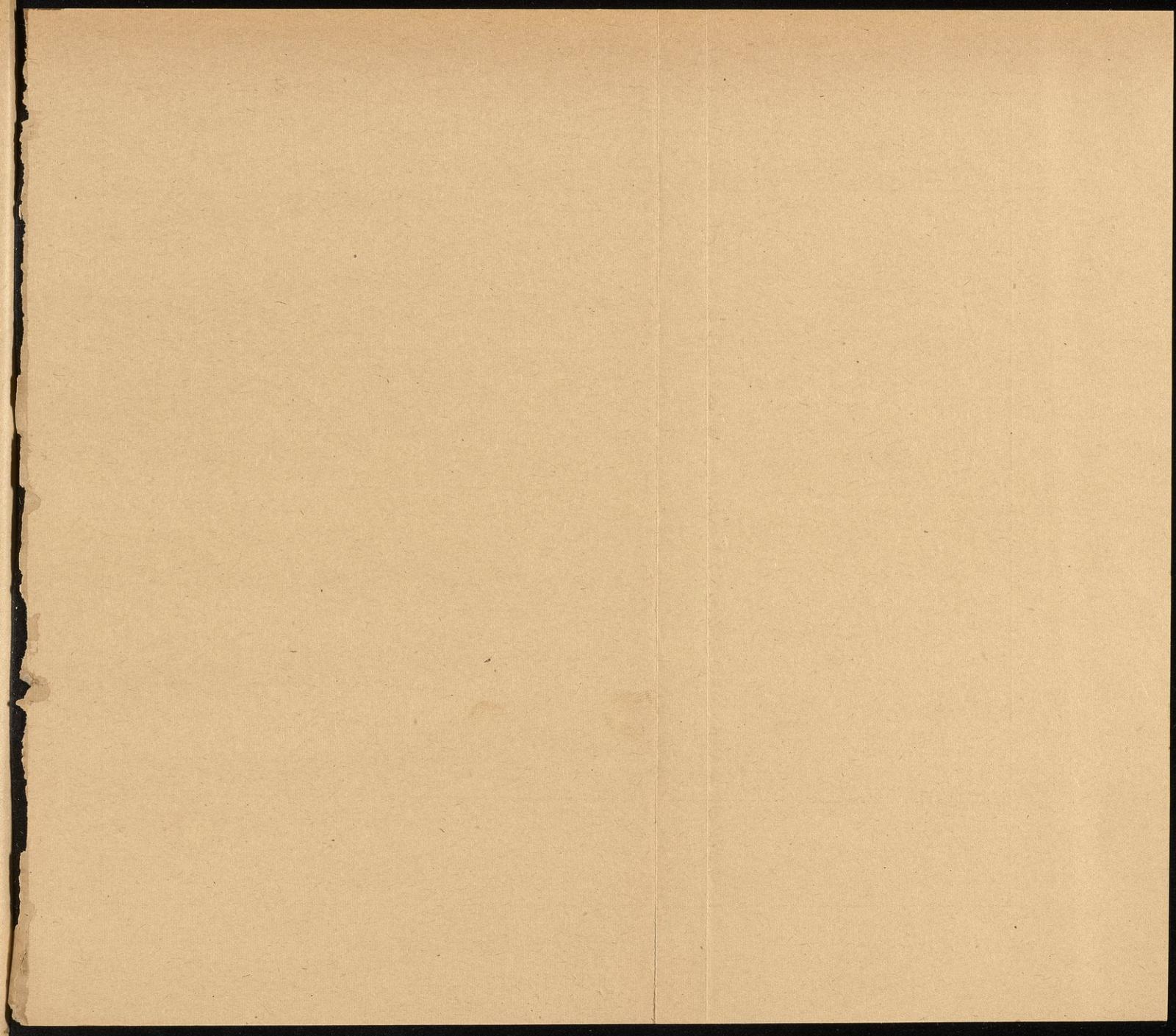
مقياس المسافات



السودان المصري وحدوده

في عهد اسماعيل

مقابل ص ١٣٠



على اسم اعميل باشا أیوب حكمدار السودان برتبة الفريق ، وعلى الزيير برتبة اللواء فصار يعرف بالزيير باشا ، وعهد الى الحكمدار تبليغ أفراد الجيش الذى تولى هذا الفتح ئناه وتحياته ، لما أبلغه في فتح دارفور ، فلما تلقى الحكمدار هذه الرسالة جمع الجيش في الفاشر ، وتلا عليهم تبليغ الخديو في احتفال عسكري مهيب ، وأطلقت المدافع ابتهاجا واجلا (١)

وبفتح دارفور زاد عدد سكان الدولة المصرية نحو ثلاثة ملايين نسمة وأقام اسماعيل باشا أیوب حصناً منيعاً في الفاشر ، وبنى دارا للحكومة ، ومنزلة للحاكم ، وشكنة للجنود ، ووطد دعائم الأمن والطمأنينة ، وأقام في المدينة سوقاً عاصمة للتجارة

على أن الزيير باشا شكا من فداحة الضرائب التي فرضها اسماعيل باشا أیوب على الأهلين ، فاستاء الحكمدار من هذه الشكوى ، ورفع الامر الى الخديو ، فأرسل يأمر الزيير باشا بعدم التعرض للحكمدار في إدارة البلاد ، فطلب الزيير من الخديو أن يجيء إلى مصر ليعرض عليه حقيقة الحال ، ويفضي إليه بآرائه في تنظيم الأقاليم ، فأجابه الخديو إلى طلبه وأذن له بالحضور ، فسار إلى مصر ، واستخلف ابنه سليمان في قيادة جنده

ولما جاء مصر أكرم الخديو وفاته ، ولكن لم يأذن له بالعودة إلى السودان ، فأدرك أن المراد من ابقاءه أن يكون رهينة لولائه للحكومة ، فأذعن للبقاء والإقامة في مصر مشمولاً بعطف الحكومة وإكرامها

ضم زيلع وبربره (سنة ١٨٧٥)

«زيلع» و «بربره» من بلاد السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذكرهما ياقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٥ وج ٤ ص ١٠٦

وأهم مدنها ثغور «زيلع» و «بربره» و «بوهار» ، وتعد الأولى ميناء سلطنة هرر على خليج عدن ، وملتقى متاجر هذه البلاد من البن وسرز، الفيل والجلود وريش النعام

(١) عن الواقع المصرية ، العدد ٥٨٥ الصادر في ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤

والصمع العربي والمر وغير ذلك ، ولهذه الشعور عامة أهمية بحرية ، لأن من يملكونها
يتساوط على الملاحة في خليج عدن إلى مدخل البحر الأحمر

ومن بلاد زيلع بلدة (جبت) التي نشأ منها أجداد (الجبرتي) المؤرخ المصري المشهور ، فقد ارتحل جده السابع (الشيخ عبد الرحمن) إلى مصر في أوائل القرن العاشر للهجرة ، واستوطنت أسرة الجبرتي مصر من ذلك العهد

كانت زيلع وبربره من أملاك تركيا ، تابعتين للواء (الحديدة) باليمن ، ففك الخديو اسماعيل في ضمهما إلى أملاك مصر حينما اعتمد فتح سلطنة (هرر) لأن زيلع هي ميناء هرر كما قدمنا ، فسعى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية ، ونجح في مسعاه ، إذ صدر له فرمان من السلطان في أول يوليه سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٨٩٢) بالتنازل له عن (زيلع) وملحقاتها ، وذلك مقابل زيادة في الجزية السنوية قدرها ١٥٠٠ جنية عثماني (١) (١٣٦٥ جنية مصرى) ، ويدخل في ملحقات زيلع ثغور «بربره» و(بولها) و(تاجوره)

وقد جعل الخديو من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظة «زيلع» ، ومحافظة «بربره» ، وأرسل الحاميات المصرية إلى الشعرين المذكورين ، فنامت زيلع كمية من الجندي بقيادة محمد رعوف باشا الذي من ذكره في الكلام عن مديرية خط الاستواء ، وجعل رعوف باشا محافظاً لزيلع ، والأمير الراضوان باشا محافظاً لبربره ، وكان هذا الأمير الراضوان يقود السفينة الحرية المصرية التي أقفلت الحامية إلى الميناء المذكور وجعل الأمير أبو بكر إبراهيم أمير زيلع السابق وكيلاً لمحافظتها وملحقاتها ، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة (٢) ثم رقى إلى منصب المحافظ (٣)

وعين المحكم العسكريون والملكيون في المحافظتين ، وعنوا بعمرانهما ، فأقاموا بهما عدة مبان للحكومة وللحرافك والسكنات العسكرية ، وأنشأوا مسجداً في «بربره»

(١) الواقع المصرية العدد ٦١٥ (١٥ يوليه سنة ١٨٧٥)

(٢) و(٣) الواقع المصرية العدد ٦٢٨ - ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٥ - والعدد ٦٣١ - ١٤

وصربيجاً لحزن المياه العذبة بها ، ومدوا أنابيب الماء فيها ، وأنشئت مكاتب للبريد في كل التغرين ، قال غردون باشا في رسائله « ص ٢٧ » إن المنشآت التي أقيمت في ببره كلفت مصر سبعين ألف جنيه

وبضم زيلع وببره امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر إلى سواحل خليج عدن الشهالية ، أى من سواكن إلى مصوع ، فزو لا ، فعید ، فعصب ، فتاجوره ، فزيلع ، فبوهار ، فبربره ، ثم وصلت إلى رأس جردفون (جردفون) على المحيط الهندي وقد بقية محافظات زيلع وببره ملكاً لمصر . إلى أن اغتصبها الانجليز بعد شباب الثورة المهدية ، إذ أكرهوا الحكومة المصرية على الجلاء عن السودان ، وشمل القرار هاتين المحافظتين ، فأخلتهما الحامية المصرية في مايو سنة ١٨٨٥ ، واحتلتها الانجليز من ذلك الحين ، وما زالوا يحتلونها إلى اليوم ، ولكنه احتلال غير شرعي ، لأن مصر لم تتنازل عن حقوقها في تلك البلاد ، ولم تقر الاحتلال الانجليزي بها

فتح هرر (سنة ١٨٧٥)

تقع سلطنة (هرر) شرق الحبشة وغربي زيلع ، وهي إمارة إسلامية مستقلة ، يبلغ عدد سكانها نحو مليوني نسمة ، وأرضها زراعية ، بجود فيها زراعة البن والقمح والذرة والفول والعدس والموز والفاكهه والقصب ، ويزرع فيها أيضاً القطن وهو أقل مرتبة من القطن المصري ، وتنسج منه أقمشة متينة ، وأهم حاصلاتها البن الذي لا يقبل جودة عن البن اليمني

وتتبادل هرر المتاجر مع الخارج ، فتصدر البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر والزبد والجلود على اختلاف أنواعها ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات والنحاس والزجاج وما إلى ذلك

و العاصمة مدينة « هرر » الواقعة على بعد ٣٣٢ ميلاً من زيلع وهي من المدن العاشرة ، يسكنها ٣٥ ألف نسمة ، وهم على جانب من الحضارة ، ذكر عنهم اللواء محمد مختار باشا أن التعليم منتشر بينهم ، وفيهم الشعراء والأدباء ، وأن جميع الصغار فيهم يتعلمون القراءة والكتابة والرياضيات والفقه على مذهب الإمام الشافعى ، وأن عادة تعدد الزوجات

معدومة بين أهلها ، والطلاق نادر فيهم ، قال : إنه قضى في المدينة سنة كاملة (من أوآخر سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٧٦) لم يشهد فيها إلا حادثة طلاق واحدة ^(١) ، وكان على هرر قبل الفتح المصري أمير يدعى محمد عبد الشكور ، سار في حكمه سيرة ظلم ، وإهانة ، فنقم منه الأهلون اعتقاده وتموا أن يدال منه

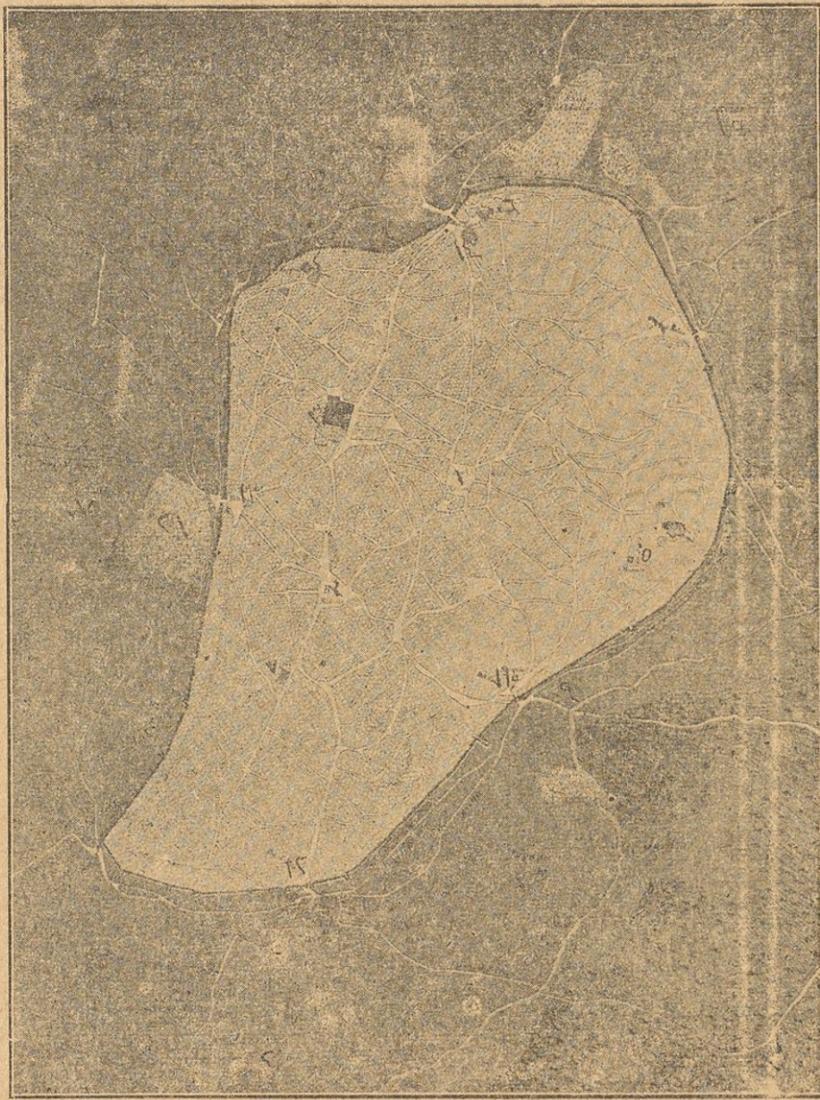
واعترض اسماعيل فتح هذه السلطنة ، لما لوقعها من الأهمية ، ولأنها تعد من البلاد المكملة للسودان ، فأخذت الجنود المصرية المرابطة في زيلع تستطلع أحواها وتنظر طرق الوصول إليها ، وبعد أن تم لها ذلك زحفت فرقه من الجيش المصري بقيادة محمد رعوف باشا في سبتمبر سنة ١٨٧٥ قاصدة إلى « هرر » عاصمة الإمارة ، ورافقت الحملة بعض ضباط أركان الحرب بقيادة البكباشى محمد مختار بك ، وهو الذى صار فيما بعد اللواء محمد مختار باشا صاحب الكتاب القيم ^(٢) ، التوفيقات اللاحامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرينجية والقبطية » ، وله المحاضرات النفيضة في الجمعية الجغرافية

لم تلق الفرقة في زحفها مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما كان من بعض قبائل الجلا إذ اعترضوا زحفها ، وأصطدموا بالحملة في معركتين ، دامت أحدهما سبع ساعات وانتهت بتسلیم القبائل ^(٣) ، واستأنفت الحملة سيرها إلى أن وصلت إلى مدينة هرر ، وفتحتها في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ورفعت العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها ، وبذلك ضمت تلك السلطنة إلى أملاك مصر

(١) انظر مبحث اللواء محمد مختار باشا عن هرر — تلاه في الجمعية الجغرافية بجلسة ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ ونشر بمجلة الجمعية بمجموعة ١ عدد ٣ ص ٣٥١ ٢٦٦٩٣٥١

(٢) هرر في ظل الحكم المصرى للأستاذ بوليتسيكى Paulitschke مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة تمرة ٢ عدد ١٠ — (مارس سنة ١٨٨٧) ص ٥٧٥ والرسيو بوليتسيكى هذا هو عالم نسوى جاء هذه البلاد في بعثة علمية وشهد الحكم المصرى بها

(٣) الواقع المصرى العدد ٦٣١ - ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥



خریطة مدينة هرر سنة ١٨٧٦

مصغرہ عن خریطة بالفرنسیہ وضعہ محمد مختار بلک «باشا» وعبد الله بلک فوزی «باشا»
من ضباط اركان حرب الجيش المصری فی حملة هرر، وتجد بالخریطة المعالم الآتیة :
١. سوق المدينة — ٢. میدان ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ — ٣. مساجد — ٤. سور المدينة —
٥. باب السلام (من أبواب المدينة) — ٦. باب الحاکم — ٧. باب النصر — ٨. باب الفتوح
٩. باب الرحمة — ١٠. باب الرحمه — ١١. حدائق — ١٢. حدائق — ١٣. مدائن هرر —
١٤. مدائن هرر — ١٥. مدائن هرر — ١٦. مدائن هرر — ١٧. مدائن هرر — ١٨. مدائن هرر — ١٩. مدائن هرر — ٢٠. مدائن هرر — ٢١. مدائن هرر — ٢٢. مدائن هرر

ثم ظهرت بوادر الانتقاض بين بعض قبائل الجلا التي كانت لها الصولة والسيطرة في عهد الأمير محمد عبد الشكور ، فطلب رءوف باشا مددًا من الجندي على سبيل الاحتياط ، بقيادة المدد من السويس إلى زيلع على ظهر البآخرة (المحروسة) ، ووصل الجندي إلى هرر فأذعن القبائل ، واستتب الأمن في أنحاء البلاد ، وانتظمت الإدارة فيها

وجعل رءوف باشا حكمداراً (حاكماً عاماً) هرر ، وعيّن أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظاً لمدينته^(١) وأطمأن الأهلون إلى الحكم المصري

لكن رءوف باشا ثم يثبت أن تنكر لأمير هرر وقتلها ، بعد أن كان يثنى عليه في تقاريره إلى الحكومة ويتمدح ولاده ، ولم يعرف السبب الذي دعاه إلى قتلها ، ولكن الآراء متفرقة على أن قتيلاً كان عملاً لا يبرر له ، ويقول غردون باشا في رسالته^(٢) إن هذا العمل لم يكن له مسوغ ، وإن ابن الأمير ذهب إلى مصر ليشكوا الحكمدار إلى الخديو فغضضب اسماعيل لهذا العمل ، لكنه لم يفعل شيئاً

وقد رسم الضباط المصريون الذين شهدوا افتتاح هرر خريطة تلك البلاد ، ومن هؤلاء الضباط محمد مختار بك (باشا) وعبد الله فوزي بك (باشا) ، وخططوا المعالم والواقع بين زيلع وهرر والجهات المجاورة

وفي عهد الحكم المصري بنيت دار للحكومة ، وأقيم مسجد جديد ، وشيدت أربع ثكنات لإقامة الجندي ، وعدة منازل للموظفين ، ولم يسرّ أحد من الأهلين في إقامة هذه المباني ، بل تولى الجنود المصريون إقامتها

وبقي رءوف باشا يتولى الحكم إلى أن أقاله غردون باشا حين عين حاكماً عاماً للسودان وأعاده إلى مصر ، وعهد بالحكم إلى رضوان باشا محافظ ببره ، ثم خلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادى باشا ، فعني بضبط الأمن وتحصين المدينة . وبقي يتولى الحكم إلى أن شبت الثورة العرابية في دصر ثم الثورة المهدية في السودان ، فلم يضطرّب حبل النظام بين الجندي في هرر ، وفي سنة ١٨٨٢ عين علي رضا باشا ، خلفاً لنادى باشا ، وظل الحكم المصري

(١) الواقع المصرية العدد ٦٣١ - ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

«رسائل غردون إلى أخيه ص ٢٧٤

مستقرًا في تلك البلاد ، إلى أن اكرهت إنجلترا حكومة مصر على إخلاء السودارن
وملحقاته ، فأرسلت تدعو القوات المصرية إلى الجلاء عن هرر ، فصدقعت بالأمر
وانسحبت منها سنة ١٨٨٥ ، وكان عددها حين الجلاء ٣٤١١ جندي ، يصحبهم ١٦٠ من
الموظفين ورجال البوليس والعمال ، و٥٠٠٥ من النساء والأطفال من عائلات الجنود
والموظفين ، فكان بمجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ قصدوا إلى زيلع ،
وأقلعت بهم البوارى إلى مصر

طوى العلم المصرى من تلك البلاد ، بعد أن ظل يخنق على ربعها عشر سنوات
سويا ، كان في خلالها رمزا للنظام والحضارة ، فقد استتب فيها الامن ، وانتظمت الادارة
ونشطت الزراعة والتجارة ، وعمد المصريون الأهالى بعض الزراعات والفواكه المصرية
كالعنب والخوخ واللوز والليمون ، وقصب السكر والبطاطس والخمر وما إلى ذلك ،
وازدادت عدد القوافل التي تنقل المتساجر من داخل البلاد إلى السواحل ، فيبينما كان
عددها سبعين قافلة على عهد الامراء السابقين ، بلغت أربعين قافلة كل سنة في عهد
الحكم المصرى ^(١)

ولما جلا المصريون عن هرر تسلم سلطة الحكم فيها أمير من سلالة الامراء الذين
كانوا يحكمونها قبل الفتح المصرى ، ثم أغار عليها ملك الحبشة وأخذها عنوة وضمها
إلى أملاكه ، وما زالت تابعة لها إلى اليوم (١٩٣٢)

حملة السوomal (سنة ١٨٧٥)

اعتمد الخديو اسماعيل فتح بقية بلاد السوomal ^(٢) ، فبرد لهذا الغرض سنة ١٨٧٥
حملة ، مقصدتها فتح بقية شواطئ السوomal ، والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب) ^(٣)

(١) بوليتتشى . المرجع السابق

(٢) تطلق بلاد السوomal على الجهات الواقعة في المثلث الذى تنتهي إليه افريقيه بين خليج
عدن والمحيط الهندي

(٣) نهر ينبع جنوب الحبشة ويصب في الاقيانوس الهندي شمالي زنجبار

ثم فتح الطريق من هناك إلى منطقة البحيرات ، لكي تتصل مصر بأملالها في هذه المنطقة ، من طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي ، فضلاً عن الطريق الطويل الذي يتبع مجرى النيل

ففي الوقت الذي أنفذ فيه حملة هرر ، جهز حملة السويم بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا مدير الموانئ والمنارات المصرية ، وتولى قيادة جنود البر في هذه الحملة الأمير الـى شابـيـ لـونـجـ بـكـ ، ذلك الضابط الشهـمـ الذـىـ تـكـلـمـنـاـ عـنـهـ آـنـفـاـ ، وـكـانـ غـرـدـونـ باـشـاـ إـذـ ذـاكـ حـاـكـمـ خطـ الاستـوـاءـ ، فـعـهـدـ إـلـيـهـ اسمـاعـيلـ الـاتـصالـ بـالـحملـةـ

أقلعت العمارـةـ المـصـرـيـةـ منـ السـوـيـسـ ، تـقـلـ الجـنـوـدـ المـصـرـيـةـ ، فـيـ فـبـرـاـيـرـ سـنـةـ ١٨٧٥ـ ، وـاجـتـازـ الـبـحـرـ الـأـحـمـرـ ، ثـمـ بوـغـازـ بـابـ الـمـنـدـبـ ، خـلـيـجـ عـدـنـ ، وـرـأـسـ فـيـ مـيـنـاءـ بـرـبـرـهـ ، رـيـثـاـ تـسـتـرـيـخـ وـتـأـخـذـ أـهـبـتهاـ ، وـتـسـتـكـمـلـ مـعـدـلـتـهـاـ ، ثـمـ أـقـلـعـتـ ثـانـيـةـ ، وـاتـجـهـتـ إـلـىـ الـمـحـيـطـ الـهـنـدـيـ ، فـوـصـلـتـ إـلـىـ رـأـسـ (ـحـفـونـ)ـ جـنـوـبـيـ رـأـسـ جـرـدـفـونـ (ـجـرـدـفـوـيـ)ـ ، وـرـكـزـ قـائـدـ الـحملـةـ الـعـلـمـ الـمـصـرـيـ هـنـاكـ ، وـدـعـاـ رـؤـسـاءـ الـقـبـائـلـ إـلـىـ الدـخـولـ فـيـ طـاعـةـ الـحـكـوـمـةـ الـمـصـرـيـةـ ، فـلـبـواـ الـطـلـبـ طـائـعـينـ ، ثـمـ أـقـلـعـتـ الـعـمـارـةـ تـخـوـضـ عـبـابـ الـمـحـيـطـ الـهـنـدـيـ ، حـتـىـ وـصـلـتـ إـلـىـ بـلـدـةـ (ـبـراـوـهـ)ـ الـوـاقـعـةـ شـرـقـيـ نـهـرـ الـجـوـبـاـ (ـالـجـبـ)ـ ، فـأـذـعـنـتـ الـقـبـائـلـ هـنـاكـ للـحـكـمـ الـمـصـرـيـ ، وـتـرـكـ بـهـاـ ماـكـيـلـوبـ باـشـاـ حـامـيـةـ مـنـ الـجـنـدـ ، وـعـيـنـ عـلـيـهاـ حـافـظـاـ ، ثـمـ اـتـجـهـ إـلـىـ بـلـدـةـ «ـقـسـمـاـيـوـ»ـ (١)ـ ، الـوـاقـعـةـ عـلـىـ مـصـبـ الـجـبـ فـقـتـحـهـ ، وـسـارـتـ الـقـوـارـبـ تـحـمـلـ الـجـنـوـدـ فـيـ نـهـرـ الـجـوـبـاـ نـحـوـ ١٥٠ـ مـيـلـاـ ، وـلـكـنـ الـمـلاـحةـ تـعـذـرـتـ فـيـهـ ، فـرـجـعـوـاـ إـلـىـ بـلـدـةـ قـسـمـاـيـوـ «ـبـورـ إـسـمـاعـيلـ»ـ ، وـتـأـهـبـتـ الـحـمـلـةـ الـبـرـيـةـ لـلـسـيـرـ غـرـبـاـ ، قـاصـدـةـ بـحـيـرـةـ فـيـكـتـورـيـاـ ، وـفـقـأـ لـلـخـطـةـ الـمـرـسـوـمـةـ لـهـاـ مـنـ قـبـلـ ، وـلـكـنـهـاـ أـبـطـأـتـ فـيـ الزـحـفـ مـنـ قـسـمـاـيـوـ ، وـيـقـوـلـ شـابـيـ لـونـجـ بـكـ إنـ مـنـ أـسـبـابـ إـخـفـاقـهـ إـغـصـاءـ غـرـدـونـ عـنـ الـاتـصالـ بـهـاـ رـغـمـ الـأـمـرـ الصـادـرـ لـهـ مـنـ الـخـدـيـوـ إـسـمـاعـيلـ

ويـنـسـبـ لـونـجـ بـكـ هـذـاـ إـلـيـهـ اـتـهـالـ وـصـوـلـ تـعـلـيـمـاتـ مـنـ الـحـكـوـمـةـ الـأـنـجـلـيـزـيـةـ

(١) جـنـوـبـ خـطـ الاستـوـاءـ ، وـقـدـ سـمـيتـ فـيـ الـخـرـيـطةـ الـتـيـ وـضـعـهـاـ ضـبـاطـ أـركـانـ حـرـبـ الـجـيـشـ الـمـصـرـيـ «ـبـورـ إـسـمـاعـيلـ»ـ ،

إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة^(١) ، وهذا يدل على عدم إخلاص
غردون لمصر ، وعدم ولائه للحكومة المصرية ، وقد اعترف غردون في رسائله أنه
بالرغم من تكليف الخديو ما كيلوب باشا وشاي لونج بك انتظاره على نهر الجوبا
« فإن انتظاره سيكون على غير جدوى »^(٢) ، فـ « كأنه كان مصر آ على إهمال العمل
بأوامر الخديو ».

وكانت هذه الحملة قد أزعجت الانجليز ، خابت أسماعيل في السُّكُف عنها ، وأرسل
وزير خارجية إنجلترا إلى الخديو مذكرة بهذا المعنى ، تخفي عواقب المشاكل بينه وبين
الحكومة الانجليزية ، وكان في الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة ، فاستدعى ما كيلوب
باشا ، وانسحبت الحملة من الجوبا في يناير سنة ١٨٧٦ ، وعادت إلى مصر^(٣) .

وهكذا أخفقت تلك الحملة ، ولم تصل إلى تحقيق غايتها ، وهي بسط نفوذ مصر على
شواطئ المحيط الهندي ، ومنها إلى منابع النيل ، وذهبت الجهدات التي بذلت فيها سدى ،
ويرجع إخفاقها كما ترى إلى تدخل السياسة الانجليزية ، ومعارضتها الخديو في الاستمرار
فيها ، وكان أسماعيل قد استغرق في الديون ، وشعر بحاجته إلى إرضاء الانجليز ومحاجلتهم
فاضطر تحت تأثير هذه الحاجة إلى الإذعان للتدخل الانجليزي ، والعدول عن الحملة

اعتراف إنجلترا بسلطة مصر في السومال

على أن الحكومة الانجليزية اعترفت بامتلاك مصر بلاد السومال الشمالية الواقعة على
خليج عدن ، ذلك أنها عقدت واياها معاهدة في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧^(٤) ، اعترفت
فيها مصر بامتلاكها سواحل بلاد السومال لغاية رأس جرفون « جرفون » ثم رأس
« حَفَّون » الواقع جنوبيه على المحيط الهندي

وقد وقع على المعاهدة كل من شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة

(١) كتاب « مصر ومديرياتها المقودة » للـ كولونل شاي لونج بك ص ١٢٤

(٢) رسائل غردون إلى أخيه ص ١٦٤

(٣) مصر ومديرياتها المقودة للـ كولونل لونج بك ص ١٥١

(٤) منشورة في قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاد (النسخة الفرنسية) ج ٢ ص ٤٩٠

المصرية ، والمستر « فيفيان » ففصل انجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الانجليزية
أقرت الحكومة الانجليزية في هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية في سواحل
السودان

وقبلت مصر أن تبقى « بربه » و « بوهار » ثغرين حرين ، وأن لا تعطى فيما أى
امتياز أو احتكار لأحد ما ، ولا تاذن بإجراء أى عمل يعطل حركة التجارة فيما ، وأن
لا تأخذ رسوما عن الواردات أكثر من خمسة في المائة ، ولا تزيد الرسوم الجمركية عن
واحد في المائة في موانيء « تاجوره » و « زيلع » وسائر سواحل بلاد السودان التابع لها ،
وأن تعامل مصر رعايا انجلترا وسفنهما في تلك الجهات معاملة دولة ممتازة ، وتعهد الخديو
بأن لا يعطي أى قطعة من هذه البلاد إلى أية دولة أجنبية (بند ٢)

ورخصت مصر للحكومة الانجليزية تعين مأمورى قنصليات فى جميع الشعور والبلاد
الكافحة على سواحل البلاد المذكورة ، على أنه لا يجوز لها تعين مأمورى قنصليات
من أهالى البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها

فى هذه المعاهدة إقرار من انجلترا بسلطة مصر فى بلاد السودان الشمالية ، ومن
تهكم القدر أن الدولة التى أقرت بذلك سنة ١٨٧٧ وأخذت على مصر عهداً بأن لا تتنازل
لدولة أجنبية عن جزء من تلك البلاد ، هي ذاتها التى اغتصبتها بعد أن أكرهت مصر
على إخلاء السودان ، فوضعت يدها على زيلع وبربه وملحقاتها وأخذتها من أسلاك
مصر ، كما أخذت فرنسا تاجوره وملحقاتها ، وایطالیا رأس جرفون « جرفوى »

النزاع بين مصر والحبشة

للنزاع بين مصر والحبشة فى عهد اسماعيل صفحة طويلة ، خلاصتها أن العلاقى بين
البلدين لم تسكن ودية طيلة مدة حكمه ، بل كان يشوبها الجفاء والخصام ، ثم الحرب والصدام
ويرجع الخلاف إلى أن اسماعيل بعد أن ظفر بضم محافظى سواكن ومصوع نهائياً
إلى مصر ، اعتزم أن يصل بين مصوع وكسله بخط حديدى ، يمر بسنحيت ^(١) ، ويسهل

(١) شمال مصوع ، وتسمى أيضاً « كرن » Keren ووردت بهذا الاسم فى معظم مصورات
الجغرافية ، وهي عاصمة أقليم « البوغوس »

سبيل المواصلات بين السودان والبحر الاحمر ، ويسطرواق العمران في شرق السودان ،
وكان يعد البلاد الواقعة بين البيلدين وخاصة مدينة « سنهيت » أرض مصرية منذ الفتح
الاول « في عهد محمد على »

ولكن النجاشي « تيودورس » ملك الحبشة عارض الخديو في ذلك ، وادعى أن
سنهيت، أرض جبشية ، فوقع الجفاء بينهما

الحرب بين الانجليز والحبشة (سنة ١٨٦٧ - ١٨٦٨)

وظهر أثر هذا الجفاء في موقف الخديو تجاه الحبشة حين قام الخلاف بينها وبين
الانجليز سنة ١٨٦٧ ، فقد اعتقل الملك « تيودورس » بعض التجار الانجليز ومنهم المستر
كامرون قنصل انجلترا ، فغضبت الحكومة الانجليزية من هذا العمل العدائي ، وطالبت
ياطلاق سراح المعتقلين ، فرفض النجاشي إجابة طلبها ، واشتد الخلاف بين الدولتين ،
فانحاز الخديو الى جانب الانجليز وأرسل الى النجاشي كتابا (١) ، من انشاء عبد الله
باشا فكري ، يطلب اليه فيه أن يجسم الخلاف ياطلاق سراح المعتقلين وارسالهم الى
مصور ، وحضره عواقب إصراره على اعتقالهم ، وتهدهد بنشوب الحرب بينه وبين
الانجليز ، وبأنه في هذه الحالة لا يمانع الانجليز في احتياز الاراضي المصرية لمحاجته

فأصر النجاشي على الرفض ، فجردت انجلترا على الحبشة سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية
بقيادة اللورد نايبية Napier ، واتهز الخديو هذه الحرب فأمد الانجليز فيها بالمعونة
والتأييد ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجي محافظ مصوع وقائد بمعاونه الجيش الانجليزي
في نزوله الى البر ، ووضع الأسطول المصري تحت تصرف الانجليز ليشنل مهماتهم
ومؤوثتهم من السويس الى مصوع

وانتهت هذه الحرب بفوز الانجليز واحتلالهم مدينة « مجدلا » شمال أديس أبابا ، وقتل
النجاشي تيودورس سنة ١٨٦٨ ، ثم عاد الانجليز الى بلادهم
وآل عرش الحبشة إلى الملك « يوحنا » الذي كان يعاونه الانجليز ضد الملك تيودورس

(١) بتاريخ جمادى الآخر سنة ١٢٨٤ (سبتمبر سنة ١٨٦٧)

والمملك يوحنا هو من أعظم ملوك الحبشة شأنًا ، وأشدهم بأساً ، وفي عهده وقعت الحرب بين مصر والحبشة كما سيجيء بيانه

فليما خلف يوحنا الملك تيودورس على عرش الحبشة اغتنم الخديو فرصة انصرافه إلى محاربة قبائل «الجلا» لتحقيق غرضه الأول وتوسيع أملاك مصر من ناحية الحبشة

منزنجر باشا Munzinger pacha

وقد استحوذه على تحقيق هذا الغرض المسيو منزنجر قنصل فرنسا في مصوع ومنزنجر هذا له شأن كبير في تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة في عهد اسماعيل ، وهو رجل سويسري الجنس ، جاء مصر ، ثم جاب أنحاء السودان والحبشة ، وأقام في مصوع منذ سنة ١٨٦٠ ، وتزوج بسيدة حبشية من أهالي البوغوس ، ثم شغل منصب قنصل فرنسا في ذلك الشغر ، وعاون الانجليز في حربهم مع الحبشة بما له من الدراية بأحوال البلاد ولغتها ومسالكها ^(١)

وفي سنة ١٨٧٠ عينه الخديو محافظاً لمصوع ، ثم أسنده إليه فيما يعده منصباً أعلى ، إذ جعله محافظاً لسواحل البحر الأحمر ومديراً لشرق السودان ، وأنعم عليه برتبة البكوية ، ثم الباشوية ، فصار يعرف بمنزنجر باشا ، وعين أراكيل بك نوبار من أقرباء نوبار باشا محافظاً لمصوع تحت إمرته (وهو غير أراكيل بك الذي تكلمنا عنه ص ٤٠) ومنزنجر باشا هو الذي زين للخديو اسماعيل فكرة فتح الحبشة ، وألقى في روعه أنه لطول مكثه في هذه الجهات قد سير غورها ، وعرف أسرارها ، وأقنعه أن فتح الحبشة لا يكلف مصر عناء كبيراً ، لما كانت عليه من الضعف والفوضى والانقسام فأعجب اسماعيل بالفكرة ، وشرع في تحقيقها ، وعهد إلى منزنجر ذاته فتح أقاليم (البوغوس) وعاصمتها سنهيت

(١) عن ترجمة منزنجر باشا ، بقلم المسيو دوربك في مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الأول من السنة الأولى «نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦» ، ص ١٢١

فتح سنهيت وضم إقليم البوغوس

فسار منزنجر باشا من مصوّع في قوة من الف وخمسينه مقايل ، وقصد إلى سنهيت
وفتحها باسم مصر

ووسع نطاق مصر من هذه الناحية ، قتم على يده فتح بلاد البوغوس ، وضمها إلى
مصر ، واشتري مقاطعة (إيلت) الواقعة بين مصوّع والجاسين من حاكمها الذي كان
على خلاف مع النجاشي ، وشملت سلطة منزنجر سواكن ومصوّع وبلاط البوغوس ،
والتاكا ، والقضارف ، والقلابات ، وأميديب ، وبركه ، أى السودان الشرقي في أقصى
حدوده

وقد نقم الملك يوحنا من مصر هذا التوسيع ، وازدادت العلاقات بين البلدين توتراً ،
وكادت الحرب تنشب بينهما ، لو لا اشتغال الخديو بفتح هرر والحملة على السومال

حرب الحبشة

سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦

هي الحرب العظيم التي خاضتها مصر في عهد اسماعيل ، والعقبة الكاداء التي اصطدمت
بها فتوح مصر في حوض النيل وملحقاته ، ومن أى ناحية نظرنا إليها نجد أن مصر لم
تسكن في حاجة إليها ، ولا مصلحة لها في خوضها ، وإنما ساق إليها النزق ، وسوء التدبير ،
فانتهت بالهزيمة والخسران

رأيت مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر
وفتحت (سنهيت) وبلاط (البوغوس) الواقعة شماليها ، و(هرر) المجاورة لها من الجنوب
الشرقي ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلا عن مجاورتها لها من الغرب منذ
عهد محمد على

في هذه الواقع كان يكفي مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى
الحبشة مسلمة لها ، إذ تحتاج إليها للوصول إلى البحر الأحمر ، ولكن اسماعيل حدثه
نفسه بفتح الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها

الوحيمة ، فالحبشة كما يعرفها الذين خبروها وسبروا أغورها ، بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية أن تختلها أو تجتاز جبالها الوعرة ومفاوزها الجرداء ، فضلاً عن أن حربها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتسكبدها من الخسائر والضحايا ما هي في غنى عنه

لم يجاهر اسماعيل بنيته في فتح الحبشة ، ولكن سياسته إزاءها كانت تتم عن هذه الغاية ، فقد تحرش بها ، وعمل على إثارة الحرب معها ، على غير جدوى ، ووقع القتال على غير استعداد من مصر ، خلت المهزيمة بالجيش المصري ، وأصابته الخسائر الفادحة ، وكبدت الحرب الخزانة المصرية الأموال الطائلة ، في وقت ارتبت فيه أحواها ، واشتد بها الضيق ، فكانت حرب الحبشة عقيماً من كل ناحية

اعتزم اسماعيل تحرير حملتين في وقت واحد على بلاد الحبشة ، الأولى تهاجمه شاه الامن طريق مصوع ، والأخرى جنوباً من طريق ميناء « تاجوره » الواقعة على خليج عدن ، وعهد بقيادة الأولى إلى السكونول أرندروب بك^(١) Arendrapp ، والثانية إلى منزنجر باشا

حملة أرندروب بك سنة ١٨٧٥

زحفت الحملة الأولى من مصوع ، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل^(٢) مزودين بطاريتين من المدفع ، واقتحمت حدود الحبشة ، واستولت على « الحماسين » الواقعة جنوب سنهيت ، دون أن تلقى مقاومة تذكر ، وتقدمت قاصدة « جونديت » ، ولما علم الملك يوحننا بزحفها حشد جموعه ، وأعد جيشه من ثلاثين ألف مقاتل ، سار به قاصداً مصادمة الجيش المصري ، وأرسل أرندروب بك رسالة إلى الملك يوحننا يطلب إليه فيها

(١) هو من ضباط أركان الحرب ، أصله دانمركي ، ثم جاء مصر وتعرف إلى الجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، فرغبه إليه الخدمة في الجيش المصري فقبل . ثم تولى قيادة الحملة كما ترى في سعيق السلاط

(٢) احصاء المسيو سوتزارا Suzzara فنصل النمسا العام في مصر على عهد اسماعيل في تقريره المسهب عن حرب الحبشة ، وقد نشر هذا التقرير في مجلة مصر Revue d'Egypte لل المسيو جلياردو بعض عدد مارس وابريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٦ و ٦٧٣ و ٧٣٧

جعل نهر الجاش حدا فاصلاً بين الحبشة ومصر ، فلم يعبأ بالرسالة ، وسجن الرسولين
اللذين أوفرهما إليه أرندروب بك ، فتقىدم الجيش المصري ليسبق الأحباش إلى الهجوم

هزيمة جونديت (نوفمبر سنة ١٨٧٥)

فاستبiki الجيشان في جونديت يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكان جيش الحبشة أكثر
عداً وأشد حماسة من الجيش المصري ، فعلى طasis القتال ، وانتهت المعركة
بهزيمة للجيش المصري ، وقتل معظم رجاله ، ولم ينج منهم إلا النزر اليسير ، وكان من
بين القتلى أرندروب بك وإراسكيل بك نوبار محافظ مصوع ، وارتدى فنول الحملة
منزمه إلى مصوع

حملة منزنجر باشا

أما الحملة الأخرى فقد تولاها منزنجر باشا ، فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة
بلوكتات من الجنود المصرية والسودانية ، ونزل في « تاجوره » ليستكمل منها معدات
الحملة من الإبل ، وترك معظم الجنود في تاجوره حتى يتم إعداد الحملة ، وأقلع هو في قوة
صغريرة من الجنود يصحبه الرأس « بورو » الذي كان على خلاف مع الملك يوحنا ، ونزل
في رأس « جيلا جيفو » الذي يبعد عن تاجوره غرباً بخمسة عشر ميلاً ، وقصد إلى بحيرة
« أوسا » Aoussa الواقعة في الجنوب الشرقي من الحبشة ، ووصل إليها يوم ١٤ نوفمبر
سنة ١٨٧٥ ، بعد مسيرة سبعة أيام

مقتل منزنجر باشا - نوفمبر سنة ١٨٧٥

قابل منزنجر باشا في طريقه إلى بحيرة « أوسا » ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الإقليم ،
فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية ، ولكنه كان يضمّر له السوء ، فاطمأن إليه منزنجر ،
واتخذه مرشدًا ونصيرًا ، وسارت الحملة إلى أن عسكرت بالقرب من شاطئ البحيرة ،
ففيما كان الجنود نيااما (ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥) هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة
الشيخ محمد الحدة ، وأعملوا فيهم السيف ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، وشبت الواقعة في
جنح الظلام دون أن يأخذ المصريون عذرهم لها ، فأوقع بهم الأحباش ، وقتلوا منزنجر

وزوجته ومعظم رجاله . وارتدى فلول الجملة في أسوأ حال إلى « زيلع » بقيادة البكباشى محمد افندي عزت ، وكان عدد الباقيين منهم ١٥٠ مقاتل

الجملة السكبة بقيادة راتب باشا

(سنة ١٨٧٦)

وصلت أنباء هذه المهزائم إلى مصر ، فقوبلت بالجزع والدهشة ، وتزلزلت لها هيبة الجيش المصرى ، وغضب اسماعيل لهذه المهزائم ، وخشي عواقبها المعنوية والسياسية ، فأراد أن يزيل تأثيرها بتجريد جيش جرار على الحبسنة بغسل الإهانة التي لحقت مصر ، وفي الحق أن الموقف كان عصيًّا ، لأن هزيمة مصر أمام الحبسنة تسقط هيمنتها في وقت كانت تكتنفها المطامع الأوروبية ، لكن الخديو لم يأخذ في أمره منذ البداية بالأناة وحسن الاستعداد وتقدير الموقف من كل وجوهه ، فلما جاءته أخبار المهزائم الأولى ، تعجل بإعداد حملة مبتسرة ، مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، دلت مقدماتها على أنها سائرة حتى إلى الهزيمة والخسنان ، وأهم عيب في تأليفها افتقارها إلى كفاءة القيادة وحسن النظام

فقد عقد الخديو لواءها للسردار راتب ، وهو ضابط خلو من الكفاءة وحسن التدريب

وجعل على رأسه أركان الحرب الجنرال لورنج باشا Lorinog من القواد الأمريكيين في الجيش المصرى ، ولم يكن التفاهم سائداً بين القائد العام وهيئة أركان الحرب ، فقد الجيش أهم عوامل النجاح ، وهي وحدة القيادة وكفايتها

وصحب الجملة الأمير حسن باشا أحد أئم الذهاب ، وكان قد عاد من ألمانيا بعد أن درس بها قليلاً من الفنون الحربية ، ولم يكن له من الكفاءة والخبرة ما يجعل منه قائداً يعتمد عليه في مثل هذه الحرب

وقد تطوع في القسم الطبي للحملة بعض كبار أطباء مصر في ذلك العصر ، كالدكتور محمد علي باشا البقلى ، الذي لقي مصرعه فيها (١) ، والدكتور محمد بك يدر

(١) راجع ترجمته في « عصر محمد على » ص ٥١٢ (من الطبعة الأولى)

أبحرت الحملة من السويس تقلها بوآخر الشركة الخديوية والسفن الحربية المصرية ، وزلت في ميناء (مصوع) ، وأخذ الجيش يزحف على الحبشة

هزيمة « قورع » (٧ مارس سنة ١٨٧٦)

أوغل المصريون في مفاوز الحبشة ، دون أن يستطاعوا أحواها ويعرفوا قوات الأعداء ومواقعهم ، فوصل الجيش في زحفه إلى بلدة « قورع »^(١) التي تبعد عن مصوع نحو ٥٥ ميلاً ، فعسكر فيها ، وأخذ يقيم فيها الاستحكامات . فبني حصنًا بها ثم حصنين في أول السهل الواصل إليها من (قياخور)

وقد أخذ الملك يوحنا جيشاً كبيراً بلغ نحو أربعين ألف مقاتل ، وسار لمحاجمة المصريين في « قياخور » ، وكانت تحتملها قوة من الجيش المصري ، وتحميها استحكامات منيعة لم يقو الأحباش على مهاجمتها

فقصدوا مهاجمة مركز الجيش المصري في (قورع) ، ونشبت بها يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة الجيش المصري ، وتشتت شمله ، وقتل معظم رجاله ، ولم يتمكن القائد العام والأمير حسن باشا وأركان حربهما من النجاة إلا بعد أن عاينوا الموت ، وكاد الأحباش يفتكون بهم ، وأسروا من المصريين نحو ٢٥٠ أسير

وقد خسر الأحباش في هذه الواقعة خسائر فادحة لا تقل في عددها عن خسائر المصريين ، ولذلك فازوا بالنصر المبين

عقد الصلح

وكان ضمن الأسرى المصريين محمد بك رفعت رئيس القلم التركي بديوان الجهادية ، وقد رافق الحملة صحبة السردار ، فأخذ يسعى في عقد الصلح مع الملك يوحنا ، على أن تنسحب الجنود المصرية من أرض الحبشة ، ويرد الملك الأسرى إلى مصر ، ويفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة

(١) جاء اسمها هـ كـذا في الواقع المصرية عدد ٦٤٩ وإن كان معظم المؤلفين يكتتبها « قرع » ، وهذا الوضع « قورع » يوافق النطق الفرنسي Goura

فأسفرت مساعي رفعت بك عن عقد الصلح وبقيت سنهيت في أملاك مصر^(١)، وعاد هو وباقى الأسرى إلى مصوع، وأبحرت فلول الجملة إلى السويس، وبلغت خسائر مصر من الرجال في الجملات الثلاث التي جردها على الجبهة ٨٥٠٠ قتيل

نتائج حرب الجبهة

تكميدت مصر في هذه الحرب العقيم خسائر فادحة في الرجال والمال، وتصدعت هيكلتها لما أصابها من المزائم المتواترة، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات^(٢)، في وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة، وتعانى أشد ضروب الارتباك المالي

وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت في الوقت الذى تحفظت فيه الدول الاستعمارية، وخاصة إنجلترا، للتدخل في شؤون مصر المالية والسياسية، فانهزم الجيش المصرى، في تلك الحرب، قد ضاعف آمال إنجلترا في التطلع إلى الاحتلال مصر، ذلك أنها كانت تخسب حساباً كبيراً لقوة الجيش المصرى، منذ تبيين مكانته وبسالته في المعارك التي خاض غمارها تحت لواء إبراهيم باشا، ولكن هزيمته في الحرب الجبهية كشفت عن ضعفه، وعن الفوضى الضاربة أطناها في نظامه، فقد المهاية التي كانت له من قبل

فالحرب الجبهية كانت تجربة مؤلمة، أظهرت ضعف قوة مصر الحربية، ولم يكن من سبيل إلى تجديد هذه القوة في وقت أشرفت فيه الحكومة على العجز والعسر المالي، في أو آخر عهد اسماعيل، وليس ثمة شك في أن هذه النتيجة كان من شأنها أن تغير انجلترا بتحقيق أطماعها في مصر، فلا جرم أن تضاعفت مساعيها في وضع يدها على البلاد، وما زالت تتأبى على تلك الخطة مدى خمس سنوات حتى وقعت الحوادث العرابية التي انتهت بالاحتلال الانجليزي

(١) أخذتها إيطاليا بعد اخلاء مصر للسودان وجعلتها جزءاً من مستعمرة أريتر يا

(٢) إحصاء الميسيو سوتزارا فنصل النمسا في مصر على عهد اسماعيل في تقريره المسمى

المؤرخ يوليه سنة ١٨٧٧ السابق ذكره

حكمدارو السودان في عهد اسماعيل

انتهينا من بيان الحوادث المهمة في السودان على عهد الخديو اسماعيل ، والآن
نذكر نبذة عامة عن حكمداري السودان على النحو الذي اتبناه في كلامنا عن عهد محمد
علي باشا (عصر محمد على ص ١٧٧ من الطبعة الأولى)

موسى باشا حمدي

كان على السودان حين تولى اسماعيل الحكم (موسى باشا حمدي) ذو الأعمال الجمة
والمازير الحسنة ، وقد سر الخديو من أعماله ، وأنعم عليه برتبة الفريق ، فذهب إلى مصر
في يوليه سنة ١٨٦٣ ليؤدي واجب الشكر ، وأطلع الخديو على أحوال البلاد التي
يحكمها ، فلقي من اسماعيل باشا عطفاً كبيراً ، ثم عاد إلى مقر عمله بالخرطوم

وعنى بزيادة عدد الجنود فوصل عددهم في عهده إلى ثلاثين ألفاً من الجنود النظاميين
والباшибوزق ، وسار في حكمه بهمة ودرأية ، وبقي حكماراً للسودان إلى أن توفي سنة
١٨٦٥ بالخرطوم ، ودفن بها

جعفر صادق باشا ١٨٦٥ - ١٨٦٦

ثم خلفه جعفر صادق باشا ، وفي عهده فتح الجنود المصريون فاشوده سنة ١٨٦٥ كا
تقدماً للبيان

إخماد ثورة كسلا

وفي عهده أيضاً أخمدت ثورة شبّت بين الجنود السودانيين المرابطين في (كسلا)
وعدتهم نحو أربعة آلاف جندي

ظهرت هذه الثورة في أواخر عهد موسى باشا حمدي ، وترجع أسبابها إلى سوء إدارة
الحكام ، وتأخير دفع رواتب الجنود ثمانية عشر شهرآ ، فشاروا وعصوا الأوامر وتمردوا
على رؤسائهم ، وقتلوا بعض الضباط ، ونهبوا أموال الأهلين ، وخربوا بعض القرى ،
فأخذتهم الحكومة بالحيلة تارة ، وبالعنف والقسوة تارة أخرى ، ولما بلغ الخديو

اسماويل نباً هذه الثورة اهتم بأمرها اهتماماً كبيراً، وبعث بجعفر صادق باشا حكمداراً على السودان ، وأرسل أوامره إلى السلطات المحلية بإمداد قوات الحكومة في كسلا لإنماد الفتنة

وقد كان الفضل في إنمادها لضباط سوداني كبير يسمى (آدم بك) ، وهو من خيرة ضباط الجيش المصري ، تلقى التعليم الحربي في مصر على عنده محمد على باشا ، ورافق إبراهيم باشا في حربه بسوريا ، وانتشر بالبسالة والإقدام ، إلى المهارة والكفاءة ، وقد أرسل إليه الخديو خطاباً يدل على تقديره لشجاعته استحشه فيه على العمل لإنماد الفتنة وختمه بقوله :

« وإنى أعلم بمسئلك وحسن سياستك ، منذ كنت مع المرحوم والدنا في سوريا ،
حققت آمالنا بك ، وعند انتهاء الثورة احضر إلى مصر والسلام » سبتمبر سنة ١٨٦٥ ^(١)

أدى آدم بك مهمته خيراً أداء ، وأخذ الشاريين بالحسنى ، ووعدهم بأن يحصل لهم على عفو من الخديو ، فأخلدوا إلى الطاعة ، ثم جاء حسن باشا القائد العام للجند ، وعقد مجلساً عسكرياً للنظر في أمر العصاة ، فقرر تجريدهم من السلاح ، واعتقالهم جميعاً حتى يرد أمر الخديو في شأنهم ، فشارت شائرتهم من جديد ، بسبب غطرسة بعض ضباط الإنشابوزق فأطلق الجنديون الرصاص على الشاريين فقتل كثير منهم ، واعتقل الباقون

جعفر مظهر باشا ١٨٦٦ — ١٨٧١

ثم حضر جعفر مظهر باشا وكيل الحكمدار ، فحقق أسباب الثورة ، وأوقع العقاب بمن اشتراكوا فيها ، وانتهى على يده إنمادها
وأنعم الخديو على آدم بك برتبة اللواء مكافأة له على ما بذله من الهمة في
إنماد الثورة

وفي غضون ذلك مرض جعفر صادق باشا وعاد إلى مصر ، فعيين جعفر مظهر باشا حكمداراً للسودان ، فسار سيره عدل وإصلاح ، وكان من خيرة حكام السودان ،

(١) عن كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص ٤٢

ونظم الإدارة ، وأصلاح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وفتح عدة محاكم
للفصل في منازعات الناس

وفي عهده عين آدم بك الضابط السوداني المتقدم ذكره قائدًا عاماً للجيش المصري
بالسودان ، وأنعم عليه بالباشوية ، فصار يعرف بآدم باشا ، وقد أظهر ولاء صادقاً
لصر والحكم المصري

وفي عهده أيضاً نشطت الحكومة المصرية في مطاردة تجار الرقيق ، وزحف
ضمويل يذكر باشا بقوة من الجيش المصري على إقليم خط الاستواء وضمه إلى أملاك
مصر كـ أسلفنا ، وكان مظهر باشا يعاونه في مهمته

واشتهر مظهر باشا بالعدل والنزاهة ، ولا غرو فهو أعظم ولاة السودان شأنًا ،
وأحسنهم سيرة ، وكان يقرب إليه علماء السودان ويكرمه ، ذكر عنه إبراهيم باشا
فوزى أنه فارق الخرطوم وعليه دين يربى على ألف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل
على نزاهته ، وقال إن راتبه لم يكن يغنى بحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء
والمعوزين ، وما كان يقيمه من المآدب للعلماء وذوى الفضل ، قال ولا يزال السودانيون
يذكرون له هذه الميزات ، وهم يجمعون على أن أيام ولايته كانت غرة في
جبين السودان (١)

وقد عين في سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام بمصر (٢) ، فانفصل عن
منصبه في السودان ، وعيّن في مكانه ممتاز باشا

ممتاز باشا ١٨٧٣ - ١٨٧١

هو من ضباط الفرسان في الجيش المصري ، وكان سيء السيرة ، مرتکباً للرشوة
فسكاه الأهلون إلى الخديو ، فأمر بالتحقيق معه ، وسجن بالخرطوم رهن التحقيق ،
ومات بالسجن ، والأثر الوحيد الذي تركه انه عالم الأهلين زراعة القطن

(١) السودان بين يدي غردون وكتشنر ، ج ١ ص ٦٧

(٢) الواقع المصرية العدد ٤٢٦ الصادر في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧١

اسماويل باشا أیوب ١٨٧٣ - ١٨٧٧

في عهده اتسعت فتوح مصر اتساعاً عظيماً، ففتحت سلطنة دارفور على يد الزبير باشا رحمت، وضمت زيلع وبربره، وفتحت سلطنة هرر كا بيناه في موضعه، وله فضل كبير في بسط رواق العمران في السودان، فقد أمن السبل، ووطد دعائم الأمان في نواحيه، ونشط الزراعة والتجارة والصناعة، وعلى يده أنشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود وأدai، وبين ببر على النيل وسوakin على البحر الأحمر، لتأمين سبل المواصلات، مما كان له أثره في تنشيط التجارة، وعنى بتوسيع زراعة القطن وأنشأ معملين لخياج الأقطان ونسجها، وفي عهده أنشئت عدة مكاتب للبريد في أهم العواصم، وقد بقى في منصبه إلى أن تدخلت السياسة الانجليزية، وأوُعزت إلى الخديو اسماعيل بتعيين غردون مكانه، فنقل اسماعيل باشا أیوب عضواً بالمجلس الخصوصي العالي (مجلس الوزراء)، وهذا التعيين وان كان دليلاً على الرضا عنه، لكنه أدى إلى اقصائه عن السودان، ثم ترقى في المناصب، إلى أن صار وزير الداخلية عقب الاحتلال الانجليزي، وإليه ينسب امتناع الحكومة عن إرسال النجدة التي طلبها عبد القادر باشا حلى حكمدار السودان لإخماد الفتنة المهدية، ثم استدعاؤه من السودان سنة ١٨٨٣، مما كان سبباً في استفحال الثورة، وخدمة المطامع الانجليزية، كما سنبئنه في موضعه، وتوفي سنة ١٨٨٤

غردون باشا

١٨٧٩ ١٨٧٧

لم ينقطع الكواونيل غردون عن السودان طويلاً، فبعد أن استعفى سنة ١٨٧٦ من منصبه الأول وعاد إلى إنجلترا. سمعت الحكومة الانجليزية الذي الخديو كى يعينه حكمداراً عاماً للسودان، وهكذا تدرجت السياسة الانجليزية في تدخلها في شؤون السودان، وبعد أن كان غردون حاكماً خط الاستواء، صار الحاكم العام للأقاليم السودانية جميعها، وهذه أول مرة ول فيها هذا المنصب الخطير حاكماً أجني؛ وهو ليس حاكماً أجنياً خسبي؟ بل ينتهي إلى دولة لها في مصر مآرب استعمارية لاتخفي، إذ كانت

تطلع الى مصر؛ وتعمل على إنشاء أمبراطورية افريقية انجلزية تبنيها على أنقاض
الإمبراطورية المصرية

فتعين غردون حاكماً عاماً على السودان هو فوز كبير للسياسة الانجليزية ، ودليل على مبلغ ما أدركته من النفوذ السياسي في بلاط اسماعيل ، ولا يخفى أن هذا التعيين وقع سنة ١٨٧٧ ، أي بعد أن خطت انجلترا الخطوات الأولى للتدخل في شؤون مصر ، إذ بدأ تدخلها الفعلى بشرائها أسهم مصر في قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وأعقب ذلك تدخلها والدول في شؤون مصر المالية بإنشاء صندوق الدين ، ثم فرض الرقابة الثانية على مالية الحكومة سنة ١٨٧٦ ، فتعين غردون هو من آثار ارتباك مصر المالى ، ومن نتائج سياسة اسماعيل المالية ، فقد كان يظن أنه يستطيع بمثل هذا التعيين كسب عطف انجلترا ، لتعاونه في محنته ، لكنه لم ينل أى مقابل لهذه الملحمة العظيمة ، وعلى العكس ، كانت انجلترا أشد عليه وطأة من الدول الأخرى ، وكذلك شأن السياسة الانجليزية في مصر ، تأخذ كل ما تستطيع أخذه ، دون أن تعطى شيئاً

(١) رسائل غردون إلى أخيه ص ١٩٥

(٢) كما وردت في «الواقع المصري»، بالعددان ٦٩٨ و ٦٩٩ الصادران في ٢٥ فبراير و ٤

سرع التأثير ، سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب في آرائه ، ولم يقترن اسمه إلا بمحاربة الاتجار بالرقيق ، واحتكار العاج ، لكنه أسرف في عمله ، ولم يأخذ الأمور بالحكمة وبعد النظر

قال شابي لونج بك : «إن أمر غردون باحتكار الحكومة مخصوص العاج قد أثار تجارة السودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين . فكان هذا العمل المنطوى على الظلم النواة الأولى للثورة المهدية ، وكانت إدارته فوضى ، وبالجملة فقد تولى حكم السودان ، والأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان ينوه تحت أعباء الديون ، والثورة تتم شخص في أحشائه » (٢)

وقد جعل غردون اعتماده على الموظفين الأجانب في تلك الأصقاع النائية ، فعين مسدياليا بك Messedaglia مديرًا للفاشر (دارفور) ، وكأن إيطاليًا ، وجيسى باشا Gessi pach الإيطالي مديرًا لبحر الغزال ، وفرديك روسي Rosse قنصل ألمانيا في الخرطوم مديرًا لدارفور ، وشارل ريجولي Rigolei الفرنسي مديرًا لداره ، واميليانى Emilianي مديرًا لكبكبيه ، والدكتور زوربخين مفتشاً للصحة ، والضابط (سلاطين) أحد ضباط الجيش النمساوي مفتشاً للمالية ، وهو الذي صار فيما بعد سلطان باشا صاحب المواقف المشهورة أثناء الثورة المهدية ، وجيكيل باشا النمساوي ، مديرًا عاماً لمنع تجارة الرقيق ، وهم جرا

وكان السكولونيل (بروت) الامريكي يتولى الحكم في مديرية خط الاستواء ، فعين بدله ابراهيم فوزى (باشا) ، ثم مالبث أن أقاله وعين في مكانه الدكتور شنتر الألماني الذي عرف بعد ذلك بأمين باشا

وأهمل غردون شأن المقاطعات الاستوائية ، ولم يعن بتوطيد سلطة الحكومة المصرية فيها ، فكان يعني إقصاءها عن الحكم المصرى ، تمهدًا لإدخالها في منطقة التفوذ الانجليزى

وأقفل المدارس التي فتحها الولاية من قبل ، وتذرع إلى ذلك بقلة المال ، ومنع إرسال

(١) « مصر ومدير ياتها المفقودة » للسكولونيل شابي لونج بك ص ١٨٦

الطلبة الناجحين بمدرسة الخرطوم إلى مصر ، وعزل الموظفين منهم
وشغلت الفتن والثورات معظم مدته ، وكان عهده نذيرًا لشبوب الثورة المهدية ،
وساعد على شبوب الفتنة تشدده في إبطال الرقيق ، ونقص قوة الجيش المصري في السودان ،
بما أخذته الحكومة من صفوفه من الأداد التي أرسلتها إلى تركيا في حرب البلقان
(سنة ١٨٧٧)

ثار سليمان بن الزبير باشا سنة ١٨٧٧ انتقاماً لأبيه . إذ كان منشوعاً من الرجوع إلى
السودان ، وطبع في الاستقلال ببحر الغزال ، فأنفذ إليه غردون باشا حملة طاردة
وأوقعت به

ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ إليه غردون حملة بقيادة جيسي باشا ، انتهت بهزيمة
سليمان ومقتله (يوليه سنة ١٨٧٩) ، وقد حزن عليه أبوه الزبير باشا حزناً شديداً ،
لકنه بقي مواليًّا للحكومة المصرية

وثار قائد من قواد جيش الزبير يدعى (الصباحي) ، فطاردته الجنود المصرية حتى
ادركته ، وحكم أمام مجلس عسكري وحكم عليه بالاعدام (مارس سنة ١٨٧٩)

وثار في دارفور أمير من سلالة سلاطينها يدعى هارون ولقب نفسه بالرشيد ، وبابيعه
الأهلون سلطاناً عليهم في أوائل سنة ١٨٧٧ ، فحاربه الجنود المصرية حر بطاولة ، انتهت
بمقتله في أوائل سنة ١٨٨٠ ^(١) ، وسعى غردون في الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على
تحديد التحول بينه وبين مصر ، فلم يوفق إلى ذلك ، وفي آخر سنة ١٨٧٩ جاء إلى مصر ،
وكان ذلك في أوائل حكم الخديو توفيق باشا ، وقد استعفاه من منصبه ، فعيّن
الحكومة محمد رءوف باشا حكماً داراً للسودان خلفاً له ، وهو آخر الولاية المشؤومة التي قضت
السودان قبل الثورة المهدية ، وفي عهده ظهرت بوادر تلك الثورة المشؤومة التي قضت
على نفوذ مصر في السودان : ومهدت للحكم الانجليزي في أرجائه

(١) دارفور في عهد غردون باشا لمسداليا بك ، مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٣ عدد ١
ص ٦٧ (مايو سنة ١٨٨٨)

ال التقسيم الإداري

دخل على التقسيم الإداري في عهد اسماعيل تعدادات أفضى إليها في الغالب التوسيع
في الفتح وضم بلاد جديدة إلى السودان
فصار مؤلفاً من المديريات والمحافظات الآتية (١) :

العاصمة	المديريات والمحافظات
الخرطوم	مديريه الخرطوم
سنار	» سنار وفاوزوغلى
بربر	» ببر
دنقله	» دنقله
كسلا	» كسلا أو التاكه
فاسوده	» فاسوده
الأبيض	» كردفان
الفاسير	» الفاسير
داره	» داره
كبكبيه	» كبكبيه
ديم الزير	» بحر الغزال
الاسماعيلية(غندکرو)	» خط الاستواء
شم اللادوشم ودلای	
	مديريات دارفور (٢)

(١) انظر إحصاء شيلو بك Chelu bey كبير مفتشي الري بالسودان في كتابه (النيل والسودان ومصر) ص ٩٧ ، وننوه بك شقير في كتابه السودان ج ١ ص ٦٧

(٢) كما ذكرها مسداليا بك مدير دارفور في عهد غردون باشا في بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية بجموعه ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) ص ٤٦ مع تسمية مديرية كبكبيه باسم كلكل ويوافق التقسيم الوارد في خريطة مسداليا بك ذاته عن السودان الملحقة بالكتاب الأزرق الانجليزي Blue Book سنة ١٨٨٣ ج ص ٣٨

وكان مقسمة الى مأموريات لاتوكا ،
وبور ، ومكركه ، ومنبتو وودلاي ، وفويره

سوakin

محافظة سواكن

مصور

« مصور

هرر

حكمدارية هرر

زيلع

محافظة زيلع

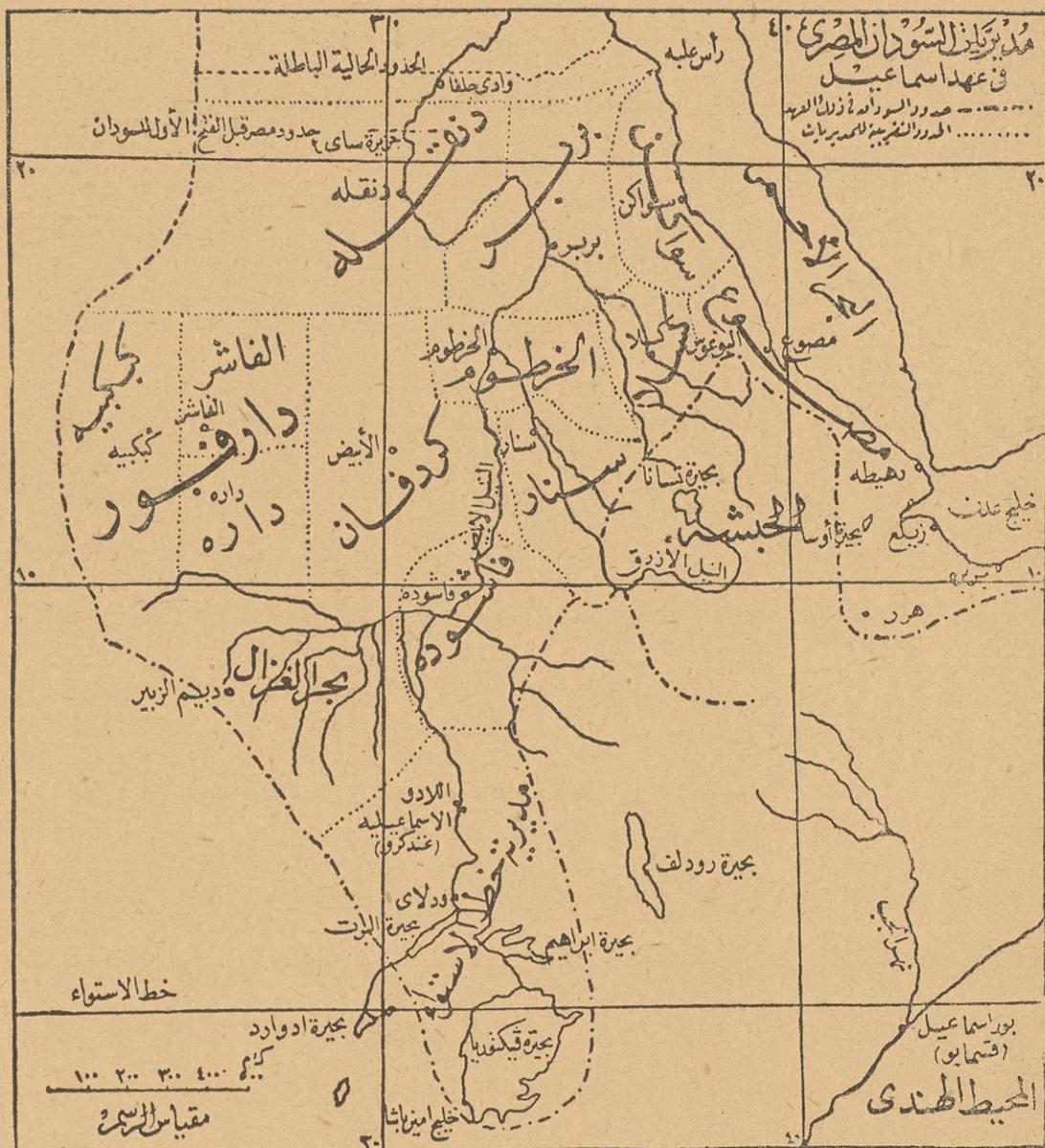
بربره

محافظة ببره

الجيش المصرى في السودان

بلغ الجيش المصرى في السودان على عهد اسماعيل نحو ٣٠ الف مقاتل موزعين على المراكز الآتية :

دنقله . ببره . الخرطوم . سنار . القلايات . الجيرة . (بالقرب من حدود الحبشة)
الضارف . كسلة . أميديب . سنهيت . سواكن . كردفان . دارفور . بحر الغزال
خط الاستواء . مصور . هرر . زيلع . ببره



أعمال العمران

يَسِّنَا فِي «عَصْرِ مُحَمَّدٍ عَلَى» (ص ١٨٠ وَمَا بَعْدَهَا طبعة أولى) عمران السوдан في عهد محمد على، ثم ذكرنا في الفصل الثاني من كتابنا الحالى ماتم على يد سعيد باشا من الإصلاح، والآن نذكر أعمال العمران التي تمت في عهد اسماعيل، عدماً ما ذكرناه فيما تقدم من البيان

استباب الأمن

كان من أول ماعنى به الحكم المصرى في السودان بسط رواق الأمن، وهو قوام العمران وأساس تقدم الزراعة والتجارة، ويكفى دليلاً على فضل الحكم المصرى من هذه الناحية كلمة السير صمويل بيكر في هذا الصدد، قال: «إن السائح الأوروبي يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة، دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشى من يتزه بعد غروب الشمس في حديقة هايد بارك بلندن»

الزراعة

وانتشرت الزراعات الحديثة في أنحاء السودان وخاصة في عهد اسماعيل باشا أبوب، فقد عمل على توسيع مناطق زراعة القطن، واستقدم لهذا الغرض كثيراً من آلات الرى لتوفير المياه الازمة للقطن، وأنفق في هذا السبيل أموالاً طائلة لشراء الآلات ونقلها عن طريق سواكن، وأنشأ معملين لخليج القطن في كسلة والخرطوم^(١)، وكان في نيته إنشاء معمل آخر في (بربر) لكنه فصل عن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٦، وعيّن بدله غردون باشا

وانتشرت زراعة القطن في السودان الشرقي، وأنشئت أسواق لبيع محصوله

(١) ذُكرت الواقع المصرية عدد ٥٤٨ الصادر في ١٠ مارس سنة ١٨٧٤ وابور خليج الأقطان بـكسلة، وجاء ذكر وابور الخرطوم في كتاب شيلو بك «الغيل والسودان

في كسلا والقضارف (ابوسن) والقلابات ، وصار لكسلا أهمية تجارية كبيرة لـ كثرة مزارع القطن حولها ، فضلاً عن موقعها الحربي

وزرع الدخان في القضارف . وأنتج صنفاً لا يقل جودة عن دخان الأذانول ، واستعمله المدخنون في جميع نواحي السودان ^(١) وأنشأ أمين بك (باشا) حقولاً للتجارب الزراعية بجوار (الرجاف) ^(٢)

وكثير التخييل في دنقلا ، وزاد محصول التمر كل سنة ، وكان ينقل إلى ببر والخرطوم ومن هناك يرسل إلى أفارقة السودان حتى خط الاستواء والحبشة

طرق المواصلات

نشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان في عهد الحكم المصري ، وإليك أهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل أو السفن ^(٣)

- ١ - من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان - ١٢ مرحلة بسيير القوافل
- ٢ - « الفاشر عاصمة درافور - ٣٢ مرحلة بسيير القوافل
- ٣ - « غندكرو (الاسماعيلية) بطريق النيل والمسافة بينهما بالبواخر في ثمانية عشر يوماً
- ٤ - « قوز رجب على نهر عطبرة - ست مراحل
- ٥ - « دنقلا - ٨ مراحل
- ٦ - « أبو حراز فالقضارف وقطع المسافة بينهما في ثلاثة أيام بالبواخر ثم خمسة أخرى على ظهور الجمال
- ٧ - « قوز رجب في كسلا في ثمانية أيام بالجمال

(١) النيل والسودان ومصر لل المسيو شيلو بك ص ١٠٥

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢

(٣) كما ذكرها الكولونل ستوارت في تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الانجليزي عن مصر

- ٨ - من القضارف إلى القلابات في أربعة أيام على ظهور الجمال
- ٩ - « « « (الجيرة) في يوم ونصف على الجمال
- ١٠ - « « « كسلا في خمسة أيام بالجمال
- ١١ - من قوز رجب إلى سواكن في أحد عشر يوماً على ظهور الجمال
- ١٢ - من مصوع إلى سنديت (عاصمة البوغوس) في خمسة أيام على الجمال
- ١٣ - من سنديت إلى كسلا في سبعة أيام بالجمال
- ١٤ - من غندكرو إلى الدفلاء سيراً على الأقدام في تسعه أيام
- ١٥ - « « « منبورو في ٣٤ يوماً سيراً على الأقدام
- ١٦ - « « « فويره في ١٨ يوماً سيراً على الأقدام
- ١٧ - « « « لاتوكا في سبعة أيام سيراً على الأقدام
- ١٨ - « « « مكركا في سبعة أيام سيراً على الأقدام
- ١٩ - من الفاشر إلى أسيوط في أربعين يوماً على ظهور الإبل

المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم

وأصلح مجرى النيل في شلال (عقبه) جنوبي وادى حلفاً ، ونسفت الصخور والعقبات التي كانت تعترض السفن فيه ، فصار صالح الملاحة النيلية ومرور السفن الشراوية والبواخر ، فسهلت المواصلات بين مصر والسودان ^(١) وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى ^(٢)

وأصلحت ترسانة الخرطوم التي كان إنشاؤها في عهد محمد علي ، وكثرت بها البواخر النيلية ، وبلغ عددها ١٥ باخرة وعدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب ، وقد أرسلت هذه البواخر من مصر إلى الخرطوم بطريق النيل عدا البآخرة (الاسماعيلية) التي اتخذها الحكمدارون لركوبهم فإنها ناقات قطعاً مفككة وركبت في ترسانة الخرطوم ، وأنشئت في هذه الترسانة أربع بواخر جديدة ^(٣)

(١) الواقع المصرية العدد ٣٦٧

(٢) الواقع المصرية العدد ٥٥٢ (٧ ابريل سنة ١٨٧٤)

(٣) شيلو بـ ١٧١ ص

الملاحة البحرية والفنارات

وأنشئ فنار في ميناء (بربره) على خليج عدن لمداية السفن وتسهيل الملاحة ، وبني بها أيضاً رصيف لإيواء السفن بمرفقها

وعهد الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٨ إلى الكولونل جريفز Graives والقائممقام محمد مختار بك (باشا) ارتياش شواطئ السومال التابعة لمصر والواقعة على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيه فنار يرشد السفن في طريقها بين المحيط وخليج عدن ، وقد اضطلاع بهذه المهمة ، وخطط القائممقام مختار بك خريطة هذه الجهة ومكان الفنار ، وهو يقع على بعد ثمانية أميال جنوب رأس جردون (جردوفى)^(١) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيه الماء العذب بواد يعرف بوادي التخوم ولكن الفنار لم ينشأ ،
لانتهاء حكم اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩

وتتجدد بالصفحة الآتية خريطة رأس جردون وموقع الفنار الذي كان مزمعاً إنشاؤه
كما خططها القائممقام محمد مختار بك

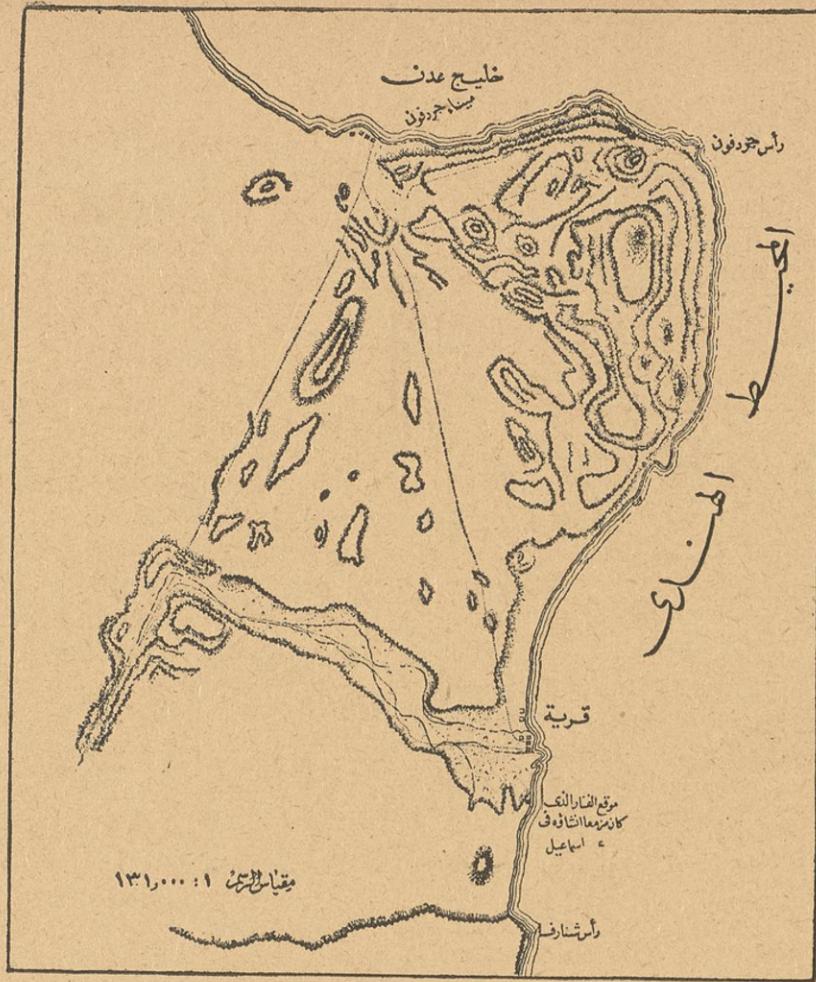
مشروع السكة الحديدية

وعهد الخديو اسماعيل إلى جماعة من المهندسين تخطيط السكة الحديدية التي تصل السودان بمصر

وشروع في مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا إلى (حنك) ، وأنفق في ذلك نحو ٤٠٠ ألف جنيه ، ومدّ من الخط نحو ٥٧ كيلو متراً فقط من وادى حلفا ، ومهى الطريق على بعد ٤٧ كيلو متراً أخرى ، ثم وقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب ارتياك الحكومة المالى

(١) انظر مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٩ (أغسطس — نوفمبر سنة

١٨٨٠ ص ٢٩)



رأس جردفون « جردفوي »

وكان من أملاك مصر على المحيط الهندي في عهد الخديو اسماعيل ، وترى موقع القنار الذى اعزم اسماعيل باشا لإنشاءه سنة ١٨٧٧

وهذه الخريطة مصغرة عن خريطة وضعها بالفرنسية اللواء محمد متخار باشا ونشرت في مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٨٠

المدارس

وأنشئت بعض المدارس لتهذيب الأهلين وتنقيفهم ، وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التي أنشئت في عهد عباس الأول وقد رأينا في (الواقع المصرية)^(١) وصف احتفال نجم أقامته مدرسة (ببر)

(١) العدد ٦١١ — ٢٠ يونيو سنة ١٨٧٥

الابتدائية ، لمناسبة امتحانها النهائي ، أنشد فيه نجباء التلاميذ القصائد المنظومة ، وثم
الاحتفال على نظام الحفلات المدرسية في عهد اسماعيل
وأنشاً أمين بك (باشا) في اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء
الأهلين ومستشفى ومسجداً^(١)

التجارة

بسط الحكم المصرى رواق الأمن فى السودان ، فنشطت حركة التجارة فى بلاده ،
واتسع نطاق المواصلات التجارية بينه وبين مصر ، وانشئت فيه بيوت تجارية كبيرة
تتولى إصدار متاجر السودان إلى مصر وأوروبا وتحلب إلى السودان واردات أوروبا
ومصر ، وقد أثرت هذه البيوت ، وصار لها شأن يذكر ، وأكبرها بيت السيد احمد
العقاد ، وبيت على أبي عموري ، وفرج الله الموصلى ، والخواجه غطاس ، وجيليو ،
وامبرواز وغيرهم ، وقد مد هؤلاء تجارتهم إلى أقصى السودان ، وصار لكل منهم قوة
مسلحة من السودانيين ، وأماكن للتجارة في مختلف الجهات تسمى « مشارع » ، يقيمونها
على شكل مربع من عروق الأشجار ، ويقيم التجار أو وكيله فيها بحراسة رجاله
المسلحين ، ولهؤلاء الحراس مهمة أخرى ، وهى اقتناص الرقيق للاتجار بهم في أسواق
مصر ، وقد دررت عليهم تجارة الرقيق ثروات كبيرة لما فيها من الأرباح الطائلة ، ونما يدل
على اتساع نفوذ هذه البيوت التجارية أن (الزيير باشا) الذى صار له شأن كبير في
السودان كان في بداية أمره وكيلًا لبيت على أبي عموري

ولما اعتزم الخديو اسماعيل منع تجارة الرقيق عهد إلى ولاة السودان الاتفاق مع
 أصحاب « المشارع » على أن يتخلوا عنها للحكومة مقابل تعويضات تدفع إليهم

وكانت هذه البيوت تتولى إصدار متاجر السودان ، كالعاج ، وريش النعام ، والتبر ،
والصمغ ، والجلود ، والغنم ، والمواشي ، والتمر الهندي ، والبن ، والكحل ، وقرن
الخرتيت وما إلى ذلك

(١) مجلة الجمعية الجغرافية — عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢

وظلت التجارة مزدهرة في ظل الحكم المصري ، وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين في السودان ثلاثة آلاف بيت ، والمملوكة للأوروبيين الف بيت ، وبلغت واردات السودان في السنة مليونين من الجنيهات وصادراته تعادل هذا القدر (١)

البريد

عهد الخديو إسماعيل إلى موتشى بك مدير مصلحة البريد المصرية إنشاء مكاتب منتظمة للبريد في عواصم السودان ، فصدر بالأمر وأنشأ بها عدة مكاتب ، وأنشئت إدارة للبريد في الخرطوم سنة ١٨٧٣ احتفالاً بافتتاحها (٢)

وأنشئت مكاتب منتظمة للبريد في الخرطوم ، ودنقلة ، وبربر ، وكسلا ، وفتحت أيضاً مكتب آخر في سنار ، والمسمية ، والقضارف ، وفاوز على ، وكرجوع ، وفاسوده ، والأبيض ، والفاشر ، وبقيت هذه المكاتب تؤدي مهمتها ، إلى أن تعطلت بعد شباب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣ ، وظل مكتب الخرطوم مفتوحاً إلى أن سقطت المدينة في أيدي الشوار سنة ١٨٨٥

التلغرافات

بلغت الخطوط التلغرافية التي أنشئت في السودان لغاية سنة ١٨٧٠ ، ٢١١٠ كيلو متر ، وبلغ عدد مكاتب التلغراف في مدن السودان ٢١ مكتباً ، وذلك سنة ١٨٧٧

(١) عن بيان قدمه التجار الوطنيون والأجانب في مصر احتجاجاً على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وضحوا فيه أن إخلاءه يؤدي إلى بوار متاجرهم فيه (كوشري - المركز الدولي لمصر والسودان ص ٢٨٦)

(٢) الواقع المصرية العدد ٥٤٨ (١٠ مارس سنة ١٨٧٤)

وهالك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التي وصلت إليها^(١)

(١) مصر .. دنق勒 .. ببر .. الخرطوم

(٢) الخرطوم .. أبو قراد .. الأبيض .. فوجه

(٣) الخرطوم .. أبو حراز .. المسلمين .. سنار ، فازو على

(٤) المسلمين .. السکوہ

(٥) أبو حراز .. القضارف .. كسله .. سنهيت .. مصوع

(٦) كسله .. قوز رجب (على نهر عطبره) .. ببر

(٧) سواكن .. كسله

(٨) القضارف .. دوكه .. جنوب القضارف .. القلابات

(٩) القضارف .. الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة)

وكان مركز هذه الخطوط في الخرطوم وقد ظلت قائمة إلى أن عطلت في عهد

الثورة المهدية

ميزانية السودان

ذكر غردون باشا في رسائله «ص ٢٨١» أن ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ . تتألف من الأرقام الآتية :

٣٢٧٠٠٠ جنية دين السودان

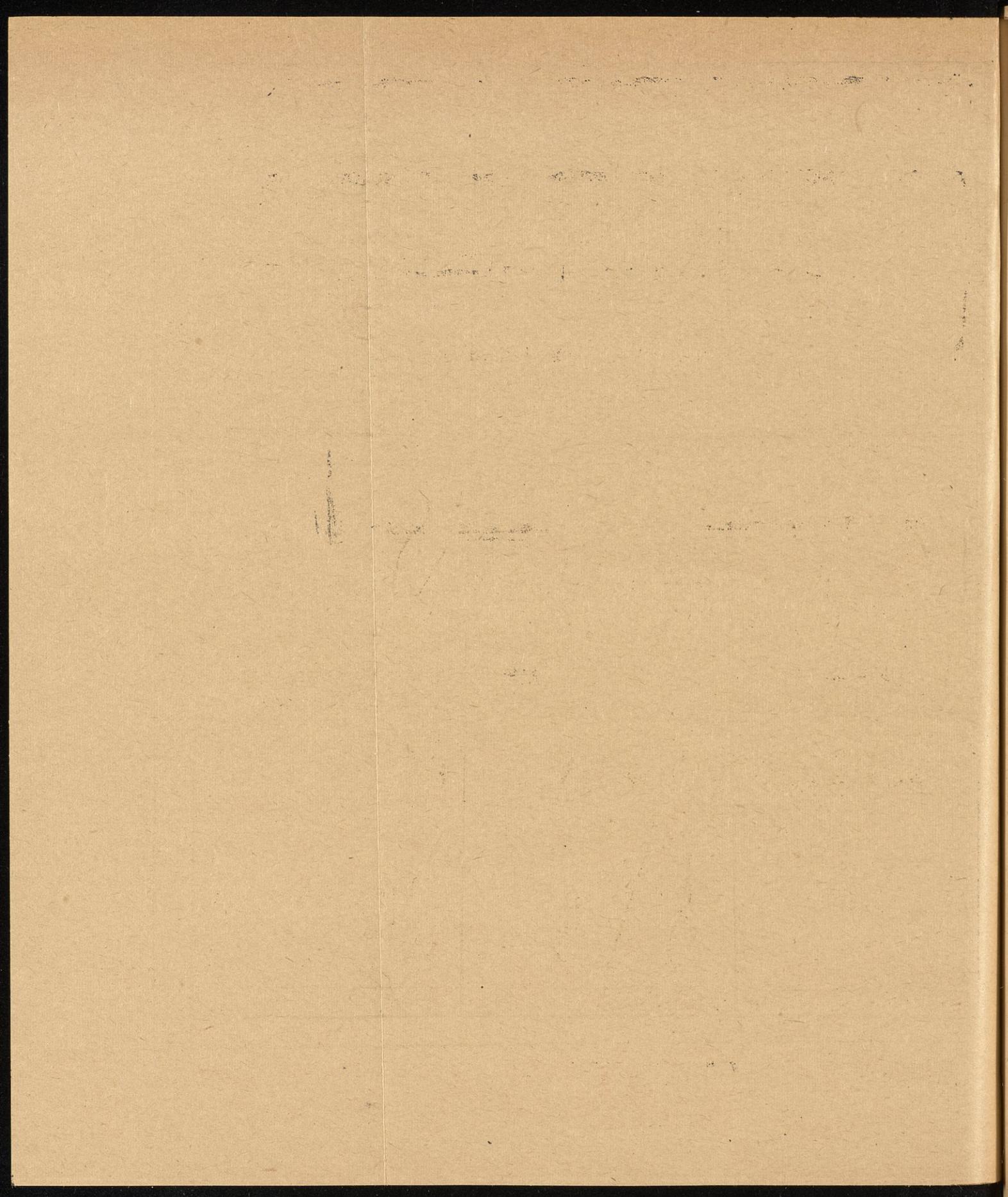
٥٧٩٠٠ د ايرادات الحكومة

٦٥١٠٠ د مصر وفاتها

٠٧٢٠٠ د العجز

(١) تقرير الكولونل ستوارت عن السودان المشور في الكتاب الأزرق الأنجلوسي

عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٨ Blue Book



**الرحلات الاستكشافية
والرحلات والبعثات الجغرافية
في عصر إسماعيل**

خط سير المردودات والمردودات
صدرت الدولة العبرية في عهد إسماعيل

١٠٠ ٣٠٠ ٣٠٠ ٣٠٠ ٣٠٠

مقياس المسافة



الرحلات والبعثات الجغرافية

إن بسط سيادة مصر وسلطانها على وادي النيل قد مهد الطريق للاكتشافات والتحقيقات الجغرافية والعلمية في أرجاء السودان، فخلف عصر اسماعيل بالبعثات والحملات التي أنقذها الحديو لهذا الغرض على نفقة الحكومة المصرية، وقوامها ضباط أركان حرب الجيش المصري، فكان لهم الفضل الكبير في مد رواق الحكم المصري، ونشر لواء الحضارة في السودان، ولهم فضل لا ينكر في تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات، بما أضافوا إليها من الحقائق الهامة، والبيانات المبتكرة، والخرائط والرسوم الدقيقة، وانا ذاكرون بالفخر والإعجاب موجزًا، هذه البعثات والحملات المصرية، وما وصلت إليه من الاكتشافات الجغرافية

فأول هذه البعثات حملة صمويل بيكر باشا إلى منابع النيل وقد أسلفنا الكلام عنها وفي سنة ١٨٧٣ قامت بعثة برأس الأمير الای (بوردي بك) Purdy أحد ضباط أركان حرب الامريكان في الجيش المصري ومعه طائفة من الضباط المصريين، خابوا الجهات الواقعة بين النيل والبحر الاحمر، من القاهرة والسويس شمالاً، إلى قنا والقصير جنوباً، واكتشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر في تلك الجهات

وفي سنة ١٨٧٣ سار الأمير الای بوردي بك بحراً إلى موقع برنيس (برنيقه) القديمة على البحر الاحمر (غربي رأس بناس) ولحقه بها الأمير الای كولستون Colston أحد الضباط الامريكان في الجيش المصري من طريق قنا برأ، وخططوا الجهات المقدرة الواقعة بين برنيس و (بربر) على النيل وقضيا في هذه المهمة نيفا وسبعين شهر^(١)

وفي سنة ١٨٧٤ اكتشف الأمير الای شاني لونج بك Chaille Long بحيرة ابراهيم كما ي بيانه في موضعه، واكتشف معظم مجاري النيل المعروف بنيل فيكتوري،

(١) راجع تقرير الأمير الای بوردي عن هذه الرحلة في مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة نمرة ٢ عدد ٨ ص ٤٣١، وتقرير الأمير الای كولستون بالمجلة المذكورة بمجموعة نمرة ٢ عدد ٩ (اغسطس سنة ١٨٨٦) ص ٤٨٩، وبحث الأستاذ كورا عن رحلة كولستون من قنا إلى برنيس وخرائط الرحلة في مجلة الجمعية بمجموعة ٣ عدد ٧ (سبتمبر سنة ١٨٩١) ص ٥٣٣

وحققت نقطة كانت غامضة وهي أن نيل فكتوريا يصب في بحيرة ألبرت ، ورسم الطريق
بين اللادو ومكركه جنوب بحر الغزال

وبعد أن تم فتح دارفور سنة ١٨٧٤ انفذ الخديو ثلاث بعثات كبرى مؤلفة من
ضباط أركان الحرب لاكتشاف الجهات كردان ودارفور

الأولى برأسة الأمير الای بوردى باك ، ومن أعضائها القائم مقام ميزون بك Maison من
الضباط الأميركيان في الجيش المصري ، واللازمون محمود افندي صبرى (باشا) ، ومحمد
افندي سامي ، وسعيد افندي نصر (باشا) ، وخليل افندي حلى ، والدكتور محمد افندي
امين ، ومهما اكتشاف الجهات دارفور ، فكشفت الواقع وطرق المواصلات بين
النيل و (حفرة النحاس) بأقصى حدود دارفور جنوباً بغرب (١) ، وجابت أرجاء
هذا الإقليم العظيم ، وكشفت من الطرق ما طوله ٦٥٠٠ ميل ، وحققت ٢٢ موقعها من
الموقع الفلكية ، ورسمت خريطة دقيقة لهذه البلاد

والبعثة الثانية برأسة الأمير الای كلستون ، ومن أعضائها الصاغ احمد افندي حمدى (باشا)
والأمير الای بروت Prout من الضباط الأميركيان في الجيش المصري ، واللازمون عمر
افندي رشدى (باشا) ، ومحمد افندي ماهر (باشا) ، ويوسف افندي حلى ، وخليل
افندي فوزى ، والدكتور بفوند Pfund العالم الطبيعي ، وقد اكتشفت الجهات كردان ،
وحققت مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ، ورسمت خريطة دقيقة عنها ، ومرض
رئيس هذه البعثة خلال الرحلة فتولى الرأسية بدلـه الأمير الای بروت

وقعنى أعضاء البعثتين ثلاث سنوات يقطعون المراحل ويطوفون الفدادن ويستهدفون
لابتاعب المرضية في سبيل الاطفال عـبـد الفتـاح

والبعثة الثالثة برأسة المهندس الأميركي متشل Miche (٢) يصحبـه الضابـط عبد الفتـاح

(١) راجع بحث الأمير الای (اللواء) بوردى باشا عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية
بجموعة ١ عدد ٨ (مايو سنة ١٨٨٠) ص ٥ والخريطة الملحوظة بهذا العدد

(٢) عالم في طبقات الأرض ومهندـس منـاجـم وـكانـ مـلحـقاً بـقـسـمـ أـركـانـ حـربـ الجـيشـ المـصـرىـ
وـتـجـيدـ تـقـرـيرـهـ عـنـ هـذـهـ بـعـثـةـ فـيـ مـجـلـةـ جـعـمـيـةـ جـغـرـافـيـةـ الخـدـيـوـيـةـ بـجـمـوعـهـ ١ـ عـدـدـ ٦ـ (ـ اـكـتوـبرـ
سـنـةـ ١٨٧٩ـ)ـ صـ ١٥ـ وـ ٧ـ

افندى فتحى لا كنشار المعادن بين النيل والبحر الاحمر ، وقد كشفت هذهبعثة مناجم للذهب فى (الحمامه) شمال قنا ، ثم عرجت بشغور البحر الاحمر وخليج عدن ، كالقصير ، ومصوع ، و تاجرها ، وزيلع ، وأوغلت فى الداخل ، ثم عادت الى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

ورسم ارنست لينان دى بلوفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غندکرو و دو باجا عاصمة أوغنده ، وقد قتل وهو عائد من مهمته ، ومن بياناته وضع العلامه جورج شونفرت خريطة عن تلك الجهات

ورسم البكباشى محمد افندى عزت أحد ضباط حملة منزنجرا باشا خريطة الجهات الواقعة بين تاجرها وبحيرة « او سا » بالحبشة

ورسم محمد مختار باك (باشا) وعبد الله باك فوزى (باشا) خريطة بلاد هرز ، ورسم الأول خريطة المدينة ، ووضع خريطة أخرى لرأس جردون^(١) (جردفو) وموقع الفشار الذى أزمع اسماعيل انشاءه في تلك الجهة كما تقدم بيانه

ورسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع
ووضع القائم مقام عبد الرزاق باك نظمى خريطة بربه وملحقاتها

وكشفت حملة السومال التى أنفذها اسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على الحيط الهندي وجهات قسمابو (بور اسماعيل) ونهر الجوبا ، وهى الجهات التى قصدت إليها الحملة كما فصلناه في موضعه

وفي سنة ١٨٧٧ جاب الأمير الای ميزون باك Maison بحيرة (أوبرت) وأتم الاكتشاف الذى بدأ فيها السير صمويل بيكر وضع لها خريطة دقيقة^(٢)

وأنفذ الخديو سنة ١٨٧٧ بعثة برأسة المستر برتون لاكتشاف المعادن التى بجهات (مدن) بجزيرة العرب

وحقق ضباط أركان الحرب برأسة البكباشى عبد الله باك فوزى (باشا) حدود

(١) الاسم الصحيح (جردون) كما حقيقه العلامه أحمد زكي باشا

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ١٨٧٧ عدد ٥ (مايو سنة ١٨٧٧ -- فبراير سنة ١٨٧٨) ص ٥

الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ورسموا خريطةها
وحقق جيسي باشا موقعاً بحر الغزال

وجاب الأمير لاي محمد مختار بك (باشا) نواحي السودان الشرقي حين كان رئيساً
لأركان حرب السودان سنة ١٨٨٠ يصحبه من ضباط أركان الحرب خليل بك فوزي
واللازمان محمد خير الله وعلى خيري، وله مبحث مسمى في تحطيط أبو حراز، والقضارف
(ابوسن)، والقلابات، وطومات، وأميديب وغيرها من مدن السودان الشرقي (١)
واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السилиكي الوacial بين بحيرة إدوارد
وبحيرة ألبرت

ورسم ضباط أركان حرب الجيش المصري سنة ١٨٧٧ خريطة مفصلة لأفريقية،
وهي أدق خريطة عرفت إلى ذلك الحين، اشتراك في رسمها كل من الأمير لاي لوكت
Lochett، والقائم مقام محمد مختار بك (باشا)، والصاغ عبدالله بك فوزي، وعبد الرزاق
بك ذئبى، والضباط محمود صبرى (باشا)، وأحمد فائق (باشا)، ومصطفى كامل، وأحمد
فهمى، وحسن حارس (باشا)، وحسن صفت، وابراهيم حلبي، ومحمد جودت،
ومحمد خير الله، ويونس ضيما (باشا)، وعلى حيدر (باشا)، وأحمد رشيد
وهذه الخريطة موعدة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية

ذكر الجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصري في عهد اسماعيل أن
الجهات التي جابها ضباط أركان الحرب وحققوها، ورسموا مواقعها، تبلغ في اتساع
مداها بمجموع مساحة فرنسا والمانيا والنمسا وال مجر (٢) بحدودها القديمة، وهذا يدل على عظيم
الاكتشافات والتحقيقات التي تمت على أيديهم

وقد ضاع كثير من مباحث هذهبعثات، لأن الاحتلال الانجليزي تعمد أن يبدد
أعمالها وخرانطها ومجاميعها النفيضة، وذلك لكي يقطع الصلة بين جيشنا القديم الجيد

(١) مجلة الجمعية الجغرافية بجموعة ١ عدد ١١ (فبراير سنة ١٨٨١) ص ٥

(٢) الرحلات المصرية في افريقية للجنرال استون باشا — مجلة الجمعية الجغرافية بجموعة

والجيش الذى أله الانجلز بعد الاحتلال ، على أن المباحث الباقية لأعضاء هذه البعثات تسجل لضباط الجيش المصرى أجل " الخدمات للعلم والحضارة وال عمران ، فإن الاكتشافات والحملات البعيدة المدى التى اضطلاعوا بها جديرة بأن تعداد من مفاخر تاريخنا القومى ، ومن الصفحات المشرفة فى تاريخ الجيش المصرى والضباط المصرىين

الحكم المصري في السودان

وشهادة الثقات من الأجانب

ذكرنا في كتاب «عصر محمد على» (ص ١٨٣ من الطبعة الأولى) أقوال الثقات من الأجانب فيما بلغه السودان من العمران على عهد محمد على والآن نذكر ما شهدوا به عن عمران السودان على عهد خلفائه وخاصة في عصر اسماعيل

قال السير صمويل بيكر سنة ١٨٧٣ في كتابه (الاسماعيلية) : «أن مصر وحدها هي التي تستطيع تمدّن أفريقيا النيلية بإنشاء حكومة نظامية ، وحسناً أن تمدد حدودها إلى خط الاستواء ، وبذلك تضمن حياة السائحين في تلك الأقطار ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبيّة إلى خط الاستواء أمراً واقعاً ، فانفتحت أفريقيا الوسطى للحضارة والعمaran»^(١)

وقال الميسيو سوتزارا Suzzara قنصل المنسا في مصر على عهد اسماعيل : «إذا علمينا ما كانت عليه الشعوب في تلك الأقطار من الهمجية ، وجب علينا أن نعدّ خضوعها لسلطة الخديو تدرجاً نحو التقدم ، فإن هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام ، ومن جهة أخرى فإن الأقطار السودانية التي كانت مغلقة قد فتحت للتجارة والرحلات ، مما مهدّ السبيل لدخول الحضارة إليها»^(٢)

وقال روبلف سلاطين (باشا) في كتابه (النار والسيف في السودان) الذي وضعه سنة ١٨٩٥ عقب خلاصه من أسر التعايشي^(٣) :

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٤١٢

(٢) تقرير سوتزارا المنشور في مجلة مصر Revue d'Egypte للميسيو جالياردو بك عدد مارس سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٩

(٣) النار والسيف في السودان . النسخة الفرنسية ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها

« ان السودان المصرى يحکمه الآن (سنة ١٨٩٥) الخليفة عبدالله التعايشى ، الرئيس المستبد لدعاة المهدى ، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية في نواحيه ، ومن الحق أن نقول إن السودان ظل سبعين سنة ونيف ، منذ عهد محمد على مستظلا بالحكم المصرى ، مفتواحا للحضارة والمدنية ، والمتاجر المصرية والأوروبية تزدهر في عواصمها ، والدول الأجنبية توقد قناصلها إلى الخرطوم ، والساخون على اختلاف أجناسهم يجوبون خلال البلاد ، دون أن يلقوا عما نعنة ، بل كانوا يلقون عطفا ورعاية من ولاة الأمور ، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد ، فتمهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاسية ، وأدى الناس الشعائر الدينية بملء الحرية سواء في المساجد أو السكنايس ، وقامت مدارس العرشات إلى جانب مدارس الحكومة ، وعلى الرغم من تعدد القبائل التي تسكن السودان وما كان بينها من العداء ، وتحفظها للاقتتال ، فإن حزم الحكومة وسلطتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام في مختلف أصقاعه »

وقال في موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية :

« لقد شهدنا في السودان منظرا مخزنا ، إذ رأينا الحضارة الجديدة التي دخلته مع الحكم المصرى تتداعى أركانها ويندك ” صرحتها بأيدي أقوام جهلاء يكادون ي تكونون من الهمج ، فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاما يشبه في بعض أشكاله نظم الحكم المصرى ، ولكنهم قضوا على ما زдан به من العدل والتهذيب ، فأقاموا في السودان صرح الظلم والانحطاط ، ولا يكاد المرء يشهد في التاريخ الحديث بلادا أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ، ثم انقلبت إلى حالة أقرب ماتكون إلى الهمجية ، فإن الخليفة والقبائل التي تناصره ، بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدي المصريين ، يحكون الآن الأهلين التعباس حكما جائزا ، ويسوقونهم بعضا من حديد ، ويسمونهم من الخسف والنكل ما جعلهم يتوقفون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يجدون في ظلها الراحة والسلام ، وليس أدلة على مبلغ ماعناناه السودان في عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أربع أهلة ، من اجتاحتهم الحرروب والجماعات ، والأمراض المختلفة ، والقتل والتقطيل والتنة كيل »

وقال في موضع آخر : « لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم اسماعيل ، إذ كانت الحكومة المصرية تحمل في ربوعه لواء الحضارة والمدنية ، على حين كانت البقاع الخارجية عن منطقة النفوذ المصرى في حالة الانحطاط والتآخر ، فالسودان بعد أن دخلته الحضارة في ظل الحكم المصرى قد تطرق إلى المهمجية على عهد المهدىين »

وقال ما يأتى عن ارتباط السودان بمصر ، مما يحدى بنا أن نذكره « على الدوام ونتخذه عبرة وعظة لنا وقاعدة لا تتبدل لسياستنا في السودان :

« أرى واجباً على أن أبين وجهة نظرى في أهمية السودان وقيمة مصر ، وأبدى الرأى الذى ثبت فى قراره نفسي فأقول ، إن الأسباب التي دعت محمد على منفذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لاتزال قائمة إلى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أية غارة أجنبية ، فان كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر إليها بعين الفزع من كل من يقدر خطراً السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحيات سعادة مصر وتقديمها وتعرضاً لأعظم المضار »

حدود السودان المصرى

أمس واليوم

اكتفى الفتح المصرى في السودان وببلغت الدولة المصرية حدودها الطبيعية على عهد اسماعيل ، فشملت جنوبياً بحيرة البرت وبحيرة فيكتوريا والبلاد التي بينهما ، إذ ضمت مملكة أونيون ووسيطت حمايتها على مملكة أوغندا ، وبلغت شرقاً سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدودها الجنوبيّة الشرقيّة إلى المحيط الهندي ، وضمت، إليها في هذه النواحي سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر وسواحل السومال الشماليّة ، وصارت جميع شواطئ البحر الأحمر الغربيّة من السويس شمالاً إلى بوغاز باب المندب إلى جنوبياً ملكاً لمصر وامتدت سلطتها إلى شواطئ خaim عدن ، من بوغاز باب المندب إلى رأس جرفون (جردفون) ثم إلى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندي ، وبلغت حدود الدولة المصرية غرباً إلى مملكة وادى الواقع غربى درافور

واليك ما ذكره السكولونيل ستوارت Stewart عن حدود السودان المصرى سنة

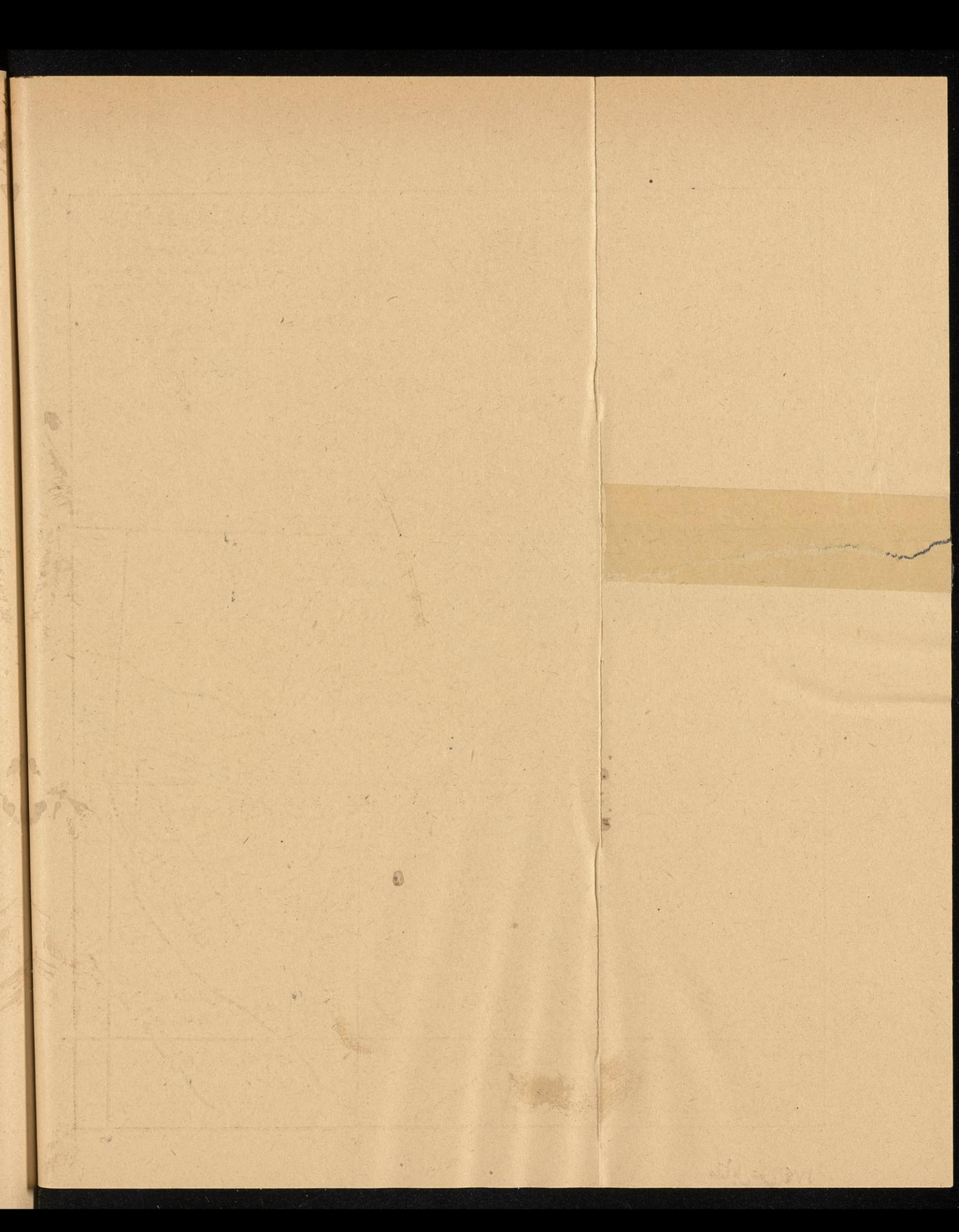
حدود الدولة المصرية في عهد سعيد

حدودها الحالية
حدودها في عهد سعيد وهي ما قبل الاحتلال الإنجليزي
(سنة ١٩٣٤) حدودها الحالية (سنة ١٩٦٣)

٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠

مقياس الرسم





١٨٨٢ ؛ في تقريره الذي قدمه إلى البرلمان البريطاني سنة ١٨٨٣ (بعد الاحتلال الانجليزي) وهو يقرب من التحديد الذي ذكرناه ، قال :

« تبدأ حدود السودان المصري من ضواحي برنيس على البحر الأحمر (صح من رأس علبه) ، وتتبع الخط ٢٤ من خطوط العرض الشمالي إلى نقطة غير معينة في جوف الصحراء اللوبيية ، بالقرب من الخط ٢٨ من خطوط الطول ، ومن هناك يتوجه الحد جنوباً بغرب ، حتى يلتقي بالركن الشمالي الغربي من دارفور حيث الخط ٢٣ من خطوط الطول ، ثم يتوجه جنوباً حتى يصل إلى ما بين الخط ١١ - ١٢ من خطوط العرض ، ثم جنوباً بشرق ماراً بمونبوتو وبحيرة ألبرت إلى أن يتصل ببحيرة فيكتوريا ، ومن هناك يصعد شمالاً بشرق ويشمل أقليم هرر ، ثم يصل إلى شواطئ المحيط الهندي عند رأس جرفون (جردفون) ، ومن ثم يعود محاذياً الشاطئ حتى يصل إلى برنيس »^(١)

ومعنى ذلك أن جميع سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن كانت من أملاك مصر ، وقد ألحق الكولونيل ستوارت بتقريره، خربطة مسداليا بك (مدير دارفور) عن السودان بهذه الحدود ، وهي منشورة في الكتاب الأزرق المتقدم ذكره ص ٣٨

وغير خاف أن هذه الحدود قد تراجعت بعد الثورة المهدية والاحتلال الانجليزي ، إذ توأطت إنجلترا مع الدول الأخرى على انتهاص مصر من أطرافها ، فاحتلت إنجلترا أوغنده وأוניورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبي كله من مديرية خط الاستواء وصار الحد الجنوبي للسودان ينتهي الآن عند نيمولي (الابهيمية) بعد أن كان يشمل بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت ، واغتصبت إنجلترا أيضاً حافظي زيلع وبربره ، وأخذت إيطاليا مصوع والاريترية ورأس جرفون (جردفون) ، وفرنسا تاجوره وجيبوتي ، والحبشة بلاد هرر وبني شنقول من أعمال فازوغلى

ولم تكشف إنجلترا بالتأمر على اقتسام أسلاب الامبراطورية الأفريقية العظيمة التي أسستها مصر بدمائها وأموالها وجهودها ، بل شاركت مصر في سيادتها على السودان

(١) الكتاب الأزرق الانجليزي عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٦

اتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، ذلك الاتفاق الباطل الذي جعل السودان شركة بين مصر وإنجلترا ، واتخذته هذه سبيلاً إلى الانفراد بحكم السودان ، وإقصاء نفوذ مصر الشرعي عن بلاد فتحتها مذمأة سنة ونيف ونشرت فيها لواء الأمن والحضارة والعمان ، وبذلت فيها من الجهد والأرواح والضحايا والأموال

وتراجع الحد بين مصر والسودان ، فصار ينتهي عند الخط ٢٢ من خطوط العرض ، وأصبح حد السودان الشمالي يبدأ عند (فرص) شمالي وادي حلفاً ، بعد أن كان الحد الجنوبي لمصر قبل الفتح الأول للسودان (في عهد محمد علي) يصل إلى جزيرة (ساى) جنوبى وادي حلفاً ، وكان ينتهي قبل الاحتلال الانجليزى عند « سرس » جنوبى وادي حلفاً أيضاً

وصارت سواكن ، ووادي حلفاً وما إليها جنوباً ، تابعة لإدارة السودان المشتركة

بمقتضى اتفاق الباطل المبرم في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الفصل السادس

الجيش

خلاصة تاريخ الجيش في عهد اسماعيل انه عنى بترقيته وتنظيمه ومضاعفة قوته ، والوصول به الى مستوى الجيوش الكبيرة للامم الحديثة ، وعنى أيضاً بنهاية التعليم الحربي ، فأنشأ المدارس الحربية على أرق طراز حديث ، واختار لها اكفاء المدرسين والضباط ، وأحسن المناهج الدراسية ، فكان التقدم في نظام الجيش يسير مطرداً مع تجديد التعليم في المدارس الحربية

ولكنه في السنوات الأخيرة من حكمه اهمل شؤون الجيش جملة واحدة ، فاختل نظامه ، ثم أغلق معظم المدارس الحربية التي أنشأها ، وذلك لنضوب معين المال ، وارتباك أحوال الحكومة بسبب فداحة الديون التي اقترضها من غير حساب ، بحيث لم ينته عهده حتى كان الجيش المصري قد وصل الى درجة مخزنة من الضعف والارتباك

تلك الكلمة اجمالية عن حالة الجيش والمدارس الحربية في عصر اسماعيل ، فالشطر الأول من ذلك العصر هو دور التقدم ، والشطر الثاني يمثل عهد التأخر والاضمحلال في الشطر الأول بذل الحديو جهوداً كبرى في تنظيم الجيش ، وأرسل الى فرنسا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطاً من خيرة ضباط الجيش ^(١) ليقضوا زمناً في مشاهدة نظام الجيش الفرنسي ، واقتباس خبرة قواده وضباطه ، فأبحرت هذه البعثة على ظهر السفينة الحربية المصرية « شير جهاد » وأقلتهم الى فرنسا ، فاستقبلتهم

(١) ذكرهم اسماعيل باشاسه هناك في كتابه ج ٢ ص ٣٠٨ وهم : شاهين باشا . ابراهيم باشا انسواري . علي بك رضا الطوبجي . علي بك وهي . يوسف بك صديق . محمد بك رضا . محمود بك سامي . اسماعيل بك ايوب . عبد القادر بك حلبي . مصطفى بك فهمي . عثمان بك غالب . احمد افندي حمدى ، حسين افندي مظفر . محمد افندي

الحكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسو النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال ، وجمعوا اطائفه من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسي ونظماته ، وعادوا بها ليطبقوها في مصر ، وأخذ الخديو إسماعيل في تنظيم الجيش على نظام الجيش الفرنسي الحديث

ولم يكترث بذلك بل أحضر من فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية ، فجاءت هذه البعثة إلى مصر سنة ١٨٦٤ برأسة السكولونل مرشر (بك) Mircher ومعه ثلاثة ضباط آخرون وهم رباتيل RebateI ولارمي (باشا) Larmee ، وبولار Polard ، وألحق بهم الضباط دوبرناردي بك الذي كان يخدم الحكومة من عهد سعيد باشا ، فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية ونظموا شؤونها

ولما شرع إسماعيل في تنظيم التعليم الحربي نقل المدرسة الحربية التي كانت بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية ، وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس التي أنشئت في عهد محمد على وعفاؤثرها ، واختار جهة العباسية لقربها من الصحراء حيث يسهل على التلاميذ القيام بالتمرينات الحربية وضرب النار ، ولأنه كان بها السراي الفخم الذي أنشأها عباس باشا الأول ، وتقدم الكلام عنها ، والمباني الملحقة بها ، وكانت تصلح مقراً للمدارس والمعاهد والشكبات

وجعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى «ادارة المدارس الحربية»

وفيها يلى بيان المدارس الحربية التي أنشأها الخديو بالعباسية في أوائل حكمه :

١ — مدرسة البيادة (المشاة) أنشأها سنة ١٨٦٤ ، وكان عدد تلاميذها حين تأسيسها ٤٩٠ تلميذ ، وتولى نظارتها محمد أمين بك ، ثم دى بن نارى بك ، ثم منصور افندي حسن ، ثم محمد رعنا افندي ، ثم جعل لها مديرى ادارة وهم على التعاقب : محمد كامل افندي ، ثم ابراهيم عاصم افندي ، ثم محمد صالح افندي

٢ — مدرسة السوارى (الفرسان) ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ١٦١ تلميذ ، وتولى نظارتها الضابط الفرنسي بولار ثم ياور بك

٣ — مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد

٢٨٠ تلاميذها ، وتولى نظارتها المكولونل لارمى (باشا) ، وكان تلاميذها ينتخبون من بين طلبة مدرسة المهندسخانة ، وهذا يدلّ على رقى المستوى العلمي لتلاميذها وخربيّتها ، فلاغر وأنبغ فيها في مدرسة أركان الحرب طائفه من أكفاء الضباط المصريين

٤ -- مدرسة أركان الحرب بالعباسية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ ، وتولى نظارتها المكولونل مرشير بك ، ثم شحاته عيسى بك أحد خريجي بعثات محمد على ، ثم رباعيل بك ، ثم عاد إلى نظارتها مرشير بك ، ثم لارمى باشا ، ويختار تلاميذها من نوابع طلبة المدارس الحربية أو الهندسخانة ، وتعد هي ومدرسة الطوبجية من أرقى المدارس العالية التي أسسها الخديو اسماعيل

٥ -- مدرسة الخطرية بالقلعة ، أنشئت سنة ١٨٧٤ ، وهي أقل شأناً من المدارس المتقدمة ، والغرض منها تخريج صف الضباط ، وتولى نظارتها القائم خليل عفت بك ولم تمكث هذه المدرسة طويلاً

٦ -- مدرسة صف الضباط أنشئت سنة ١٨٧٤

وقد خرجت هاتان المدرستان عدداً من صف الضباط الذين استخدمتهم الحكومة في الاستكشافات الجغرافية بالسودان

٧ -- مدرسة الطب البيطري ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها المسيوليونار ، ووكالاتها اسماعيل راضى افندي ، وأحييلت نظارتها منذ سنة ١٨٧٠ على ناظر مدرسة الفرسان (السوارى)

٨ و ٩ -- مدرسة قلفاوات الشيش ، ومدرسة الجبانجية

وقد أغلقت هذه المدارس في أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) لارتفاع شؤون الحكومة المالية ، واضطراب أحوالها الادارية والسياسية ، وأنشئت بدلاً منها المدرسة الحربية المستجدة في ابريل سنة ١٨٧٩ ، وعيّن لارمى باشا ناظراً لها ، وهي المدرسة الباقية إلى اليوم (١٩٣٢)

هيئة أركان حرب الحيدن

عهد الخديو اسماعيل إلى طائفة من الضباط الامريكيين تأسس هيئة أركان حرب

للجيش المصرى ، فـألفت هذه الهيئة من الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا ، ومن الضباط الأمريكيين ، وجعل على رأسهم السـكولونيل (استون) Stone وهو ضابط أمريكي على جانب كبير من الكفاءة والخبرة ، غادر الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الأهلية ، وجاء مصر وعرض خدماته على الخديو اسماعيل فألحقه بالجيش ، وعهد إليه سنة ١٨٧٠ برئاسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، لما آنسه فيه من الكفاءة ، وأنعم عليه برتبة اللواء ، فصار يعرف بالجنـال استون باشا ، واضطلع بالمهامـة التي اسندت إليه ، واستعان على إحياء هذه الهيئة وتنظيمها بطاقة من الضباط الوطنيين وبطائفة أخرى من الضباط الأمريكيـان ومن الميكانيكيـين والمهندسين والخبراء في علم طبقات الأرض ، وانشـء في هذه الهيئة قسم للجغرافية مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان ، وتولـى تخطيط هذه الخرائط ضباط أركان الحرب المصريـون والضباط الأمريكيـان من قاموا بالرحلـات الاكتشافية التي تـسلـلـنا عنها في موضعـها ، بـنـاءـتـهمـاـ عمـلاـهمـ غـاـيـةـ في الدقةـ والـاحـكامـ

وانـشـئتـ مـطبـعةـ خـاصـةـ لـهـذـهـ الـهـيـةـ ، لـطـبعـ رسـومـهاـ وـخـرـائـطـهاـ ، وـمـكـتبـةـ نـفـيسـةـ تـحـوىـ كـتـبـاـ قـيـمةـ فـيـ الفـنـونـ الـحـرـيـةـ وـماـ الـيـهاـ ، وـأـلـقـ بـهاـ مـتـحـفـ حـرـبـ لـلـاسـلـحةـ وـالـتـحـفـ وـالـتـذـكـارـاتـ الـخـاصـةـ بـالـجـيـشـ ؛ وـتـقـدـمـتـ هـيـةـ أـرـكـانـ الـحـرـبـ تـقـدـمـاـ مـطـرـدـاـ لمـ يـوـقـفـهـ سـوىـ اـرـتـبـاكـ الـاحـوالـ فـيـ أـوـاـخـرـ عـهـدـ اـسـمـاعـيلـ . وـقـيـامـ الشـورـةـ الـعـراـيـةـ ، ثـمـ الـاحتـلالـ الـانـجـليـزـىـ (١)

ولـكـنـ مـنـ الـحـقـ أـنـ نـقـولـ أـنـ هـيـةـ أـرـكـانـ الـحـرـبـ فـيـ عـهـدـ اـسـمـاعـيلـ كـانـ يـنـقصـهاـ الـاتـصالـ الـمـتـيـنـ بـالـقـيـادـةـ الـعـامـةـ لـلـجـيـشـ ، فـلـمـ يـتمـ التـعاـونـ بـيـنـ الـهـبـتـيـنـ ، بلـ دـبـ النـفـورـ بـيـنـهـمـ ، وـأـدـىـ إـلـيـهـ فـيـ الغـالـبـ صـلـفـ ضـبـاطـ الـقـيـادـةـ الـعـامـةـ وـمـعـظـمـهـمـ مـنـ الشـرـاـكـسـةـ الـذـينـ كـانـ مـنـ أـخـصـ صـفـاتـهـمـ الزـهـوـ وـالـخـيـلـاءـ ، وـقـدـ كـانـ هـذـاـ التـنـافـرـ مـنـ أـهـمـ أـسـبـابـ إـخـفـاقـ الـحـلـةـ الـمـصـرـيـةـ فـيـ حـرـبـ الـحـشـةـ ، كـاـ تـقـدـمـ بـيـانـهـ ، وـكـانـ انـفـصالـ هـيـئـةـ أـرـكـانـ الـحـرـبـ وـالـقـيـادـةـ الـعـامـةـ مـنـ الـعـوـاـمـلـ الـتـيـ حـالـتـ دـوـنـ وـحدـةـ الـجـيـشـ ، وـأـفـضـتـ إـلـىـ ضـعـفـهـ وـاضـمـحـالـهـ

(١) غادر استون باشا مصر نهائياً سنة ١٨٨٢ حين اعتزم الانجليز وضع أيديهم على الجيش المصري ، وتوفي في نيويورك سنة ١٨٨٧

الصحافة الحربية

وأنشئت صحيفتان حربيتان لتشريف عقول التلاميذ والضباط، إحداهما تدعى (جريدة أركان حرب الجيش المصري)، والأخرى (الجريدة العسكرية المصرية)، تولى تحريرهما ضباط الجيش المصري، وقد اطلعنا في دار السكتب الملكية على مجموعة من جريدة أركان الحرب، وهي مجلة شهرية، صدر العدد الأول منها في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٣)، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات، ورأينا بجموعتها كاملة لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٨، وفيها مباحث قيمة للجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب، ولمحمد مختار افندى (باشا)، وحماد بك عبد العاطى المدرس بالمدارس الحربية، وعبد الرزاق نظمى (بك)، وأحمد بك عزى، وعبد الله بك فوزى، من ضباط أركان الحرب وغيرهم، وكان الشيخ حسن الطويل العالم المشهور يصحح المجلة ورأيت في العدد الصادر في ١٥ شوال سنة ١٢٩١ (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٤) نبذة تاريخية عن الملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وهزيمتها، استخلص كاتبها وجه العبرة منها بقوله :

«إذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى، فليذكر ضباط الجيش المصري غزوة سنة ١٨٠٧^(١)، ول يكن كل ضابط مصمماً على المدافعة والذب عن وطنه، ولا يرتكب العار في التسلیم كما ارتكبه أمين أغا، بل يدافع بنفسه وبعساكره عن كل نقطة يتوجه الهجوم إليها، كما فعل على بك السلاوي كلّى الذي اكتسب الفخر والشرف ومنع العدو وصدّه عن الوطن في غزو بندر رسيد رحمة الله عليه «أمين»^(٢)، فهو العبارية تدلّك على الروح التي كانت تتماشى في مباحث المجلة، وكيف كانت تبث في نفوس الضباط روح الواجب والقومية، ومن المؤلم أن البلاد قد رزئت سنة ١٨٨٢ بغزوة انجليزية

(١) راجع وقائع هذه الغزوة في (عصر محمد علي) ص ٤٠ وما بعدها (من الطبعة الأولى)

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصري العدد ٦ من المجلد الأول لسنة الثانية

آخرى كغزوة سنة ١٨٠٧ ، ولكن ضباط الجيش وجنوده لم يقوموا بالواجب الذى ذكرتهم به جريدة أركان الحرب سنة ١٨٧٤ ، فكان ما كان من المهزيمة والاحتلال

تجديد السلاح والمصانع الحربية

أوصى الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٧ معامل الأسلحة الفرنسية بصنع عدة آلاف من البنادق الحديثة ذات الإبر المعروفة ببنادق (شاسبو) نسبة إلى مخترعها ، وسلح بها الجيش المصرى

ورمم حصنون الاسكندرية ، وجدّد أسلحتها ومدافعتها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمستنج ، وركبها في طوابي الشغور ، وخاصة الاسكندرية ، وهي المدفع الذى كان لها عمل ضئيل أثناء ضرب الأسطول البريطانى مدينة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ولم تؤثر في سفن الأسطول لعدم تمرن رماتها على استعمالها بسبب سوء تدريب الحكومة والعرابين

وعنى اسماعيل بشأن المصانع الحربية ، التي كانت منشأة من عهد محمد على ، فنظم معمل الحوض المرصود ، وأصلاح من شأنه ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتُصنع فيه الأدوات والآلات الحربية للجيش

وشيد بطره معملاً لصنع الأسلحة المسدسة ، وأخر لاصب المدافع وأخر للبنادق ، عدا معامل الخرطوش والقنابل ، وأصلاح مصانع البارود التي كانت موجودة بمصر حتى اشتهر ذكرها في الآفاق ، وأرسل سلطان مراكش بعثة من المغاربة ليتعلموا في مصر صناعة البارود والطباخة

وأصلاح معمل الأسلحة بالاسكندرية ووسع نطاقه

إنشاء ميدان للرمادية والتمريضات العسكرية

(البوليفيون)

وفي عهد وزارة الأمير حسين باشا كامل (السلطان حسين كامل) للحرية وضع

لارمى بك تصميم انشاء البو ليجون للتمرن على ضرب النار ، وأخذت أورطة المهندسين في بنائه بإشراف لارمى بك وخفاجى بك أحد أساتذة مدرسة أركان الحرب ، وجعل به عدة أقسام للتمرن ، منها قسم تمرن ضباط المدفعية على الرمى بالمدافع ، وقسم تمرن الضباط المشاة على الرمى بالبنادق ، وقسم لصف الضباط ، وقسم لتعليم التلغيرات العسكرية وقسم للإشارة

إدخال النظام الألماني

كان النظام الفرنسي هو المتبوع في الجيش المصري ، ولكن الخديو اسماعيل اعتزم تدريسه على أساليب الجيش الألماني ، لما ذاعت شهرته بعد انتصاره على الفرنسيين في الحرب السبعينية ، فأمر بترجمة القوانين والنظمات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة ، ولكن ارتباك شؤون الحكومة المالية في أواخر عهده حال دون الانفاق على الجيش وتجديده

إحصاء الجيش

ذكر اسماعيل باشا سرهنوك في كتابه (ج ٢ ص ٣١١) إحصاء الجيش سنة ١٨٧٣ ، ومنه يتبيّن أن عدده بلغ نحو ٩٠٠٠٠ مقاتل من جند وضباط وتلاميذ المدارس الحربية كالبيان الآتي :

٨٤٥٣٠ جنود وصف ضباط

٠٢٦٦٨ ضباط وقواد

١٨٩٠ تلاميذ المدارس الحربية

٨٩٠٨٨

وهذا عدا الجيش المرابط في السودان ، وقد بينا أنه بلغ ثلاثين ألفاً ، أى أن تعداد الجيش المصري في مصر والسودان بلغ على عهد اسماعيل نحو ١٢٠٠٠٠ مقاتل

افتقار الجيش إلى قائد عظيم

رأيت مما تقدم تطور حالة الجيش في عهد اسماعيل وعلمت ما أصابه من الضعف في

السنوات الأخيرة من حكمه ، وترجع أسباب هذا الضعف إلى ارتباك شؤون الحكومة المالية الذي كان نتيجة لقروض الخديو ، وإلى عدم التعاون بين قيادة الجيش وهيئة أركان الحرب ، وثمة سبب جوهري لهذا الضعف ، يتراوح في عصر اسماعيل عامه ، وهو عجز القيادة العامة ، فقد كان الجيش يعوزه قائد كبير يضارع ابراهيم باشا في كفاءته وعبقريته ، ويبعث في نفوس الجنود روح البطولة والمجده والبسالة ، ولم يكن اسماعيل على غرار أبيه في النبوغ والعبرية ، ولا ورث عنه صفاتة الحربية ، ولم يألف خوض غمار القتال ، ولا وجد بين قواه من يسد الفراغ الذي كان يملؤه البطل ابراهيم ، وغنى عن البيان أن حرم الجيش مثل القائد العظيم ، ومثل سليمان باشا الفرنسياوي أو القواد الذين ازدان بهم تاريخ مصر الحربي في معارك مصر واليونان وسوريا والاناضول ، كان العامل الأول يها أصابه من الضعف

وقد ظهر هذا الضعف في حرب الجبهة سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ، كما يتبين في الفصل السابق ، وتبيّن أن أهم أسباب الهزيمة في تلك الحرب عجز القيادة وسوء النظام ، وكانت هذه الهزيمة موسم دهشة المصريين والأجانب على السواء ، فقد كانوا يعتقدون أن الجيش المصري لم يزل محتفظاً بالمكانة التي نالها في حروب محمد علي أو في حرب القرم ، ولكن حرب الجبهة زلزلت هذه المكانة وكشفت عن أعراض الضعف الذي أصاب الجيش على مر السنين في عهد خلفاء محمد على

وقد زاد في ضعفه ارتباك الحكومة المالي ، وتدخل الدول في شؤونها ، فان هذا الارتباك أفضى إلى نقص مخصصات الجيش ، وكان من أعمال وزارة نوبار باشا الأولى تخفيض عدد الجيش ، توفيرًا في النفقات وسدًا لعجز الميزانية ، فقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع ، وتسريح عدد كبير من الجنود ، واستمرت أسباب الضعف تزداد وتنتفاع ، إلى أن ظهرت نتائجها مرة أخرى في وقائع الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢ ، تلك الواقعة التي تعد صفحة مخزنة في تاريخ مصر الحربي

الفصل الرابع

البحرية

تولى الخديو اسماعيل الحكم والبحرية المصرية في حالة سيئة من التأخر والضعف ، فقد بدأ اضيحا لها كما قدمنا في عهد عباس ، ولم ي عمل سعيد باشا على إحياءها ؛ لما لقيه من العقبات من ناحية تركيا

فأخذ اسماعيل في أوائل حكمه يعني بتجديد الأسطول ، فبعث النشاط في ترسانة الاسكندرية (دار الصناعة) ، « وأحيا معاملها ومصانعها ، وجلب لها العمال من الاسكندرية ومن داخل البلاد ، واستحضر لها الآلات والعتاد ، فعاد إليها نشاطها الذي كان لها في عهد محمد على

وأنشئ بها بعض السفن البحرية في عهد ولاية عبد اللطيف باشا ، ثم شاهين باشا ، لوزارة البحرية ، وباسم الأول منها سميت البارجة « لطيف » وتم في عهد الثاني بناء البارجة (الصاعقة)

وأوصى الخديو بصنع عددة سفن حربية مدرعة في ترسانات أوروبا وجَدَّ المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة ، أحضر لها المدرسون الأكفاء من مصر وأوروبا ، وعهد ببناؤها إلى ضابط من ضباط البحرية الانجليزية ، يدعى مكيلوب (باشا) ، ووكيله ضابط مصرى كفاء وهو عبد الرزاق بك درويش ، ثم تولى هو نظارتها من بعده (١) . ومن كبار أساتذتها ساين قيدان حلاوه (٢) من مشاهير ضباط البحرية ، وانتخب تلاميذ هذه المدرسة من نهراء طلبة المدارس الأميرية والابتدائية ، وكانت تدرس فيها الفنون والعلوم البحرية التي تدرس في المدارس البحرية الأوروبية ، ومدة الدراسة فيها ثلاثة سنوات ، واختارت

(١) الواقع المصرية العدد ٥٩٨ — ٢١ مارس سنة ١٨٧٥

(٢) الواقع المصرية العدد ٤٤١ — ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢

الحكومة طائفة من خريجيها وأوفدتهم إلى إنجلترا لإتمام العلوم البحرية ، منهم اثنان لتعلم فن إنشاء السفن ، وهما حسن فريد افندي وحشمت افندي ، وأثنان لتعلم الميكانيكا البحرية ، وهما محمد أنيس افندي ، ومحمد عارف افندي ، ولما عادوا إلى مصر التحقوا بدار الصناعة بالاسكندرية ، ومن هذه المدرسة تخرج اسماعيل باشا سرهنوك ، مؤلف كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار ، وناظر المدرسة البحرية المستجدة

بذل الخديو اسماعيل كاتری جهوداً مدوحة في إحياء البحرية المصرية ، ولكن عقبات جمة اعترضته في سبيله ، ذلك أن الحكومة التركية رأت البحرية المصرية آخذة بأسباب النشاط والقوة ، وعلمت بأن اسماعيل أوصى على ثلاث مدرعات في فرنسا ، ومدرعتين آخرين في النمسا ، وأن هذه المدرعات قد تم صنعها ، وأرسل الخديو سنة ١٨٦٨ طوابقها من الضباط والبحارة ليتسلموها ، فاعتراضت على تسليمها ، وتذرعت بأن الفرمانات لا تبيح لمصر إنشاء السفن الحربية المدرعة ، فانتهت الخلاف بأن ابتعتها تركياً لنفسها

وكان هذا الاعتراض يأيعاز من إنجلترا التي يسوءها أن تجده مصر قوتها البحرية ، فاستخدمت نفوذها لدى الاستانة لتحول دون هذا التجديد ، وقد وقفت إنجلترا لهذا الموقف ذاته في عهد عباس ثم في عهد سعيد . وكانت بذلك تعمل على خطوة رسمتها لنفسها منذ انشأ محمد على المكابر الأسطول المصري ، وهي إضعاف قوة مصر البحرية ، لكي تأمن على سلطانها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر

خدمات الأسطول

ورغم ما اعرض الأسطول من العقبات ، فإنه أدى خدمات لا تُنكر ، فقد اشتراك في عدة حملات حربية على ظهر البحار ، كحملة كريت . وحرب البلقان ، فكانت سفينه تقل الجنود المصرية إلى الجهات التي تقصدها ، وكان صلة الاتصال بين مصر وثغورها وأماكنها المترامية على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي ، وقد أقامت سفينه القوات العسكرية التي أرسلتها مصر إلى تلك الشعور البعيدة ، كمصوع ، وزيلع ، وببره ورأس جرفون (جردفون) ، كما أقامت الحملة التي أنفذتها إلى بلاد السومال ، ووصلت إلى ثغر قسماي (بور اسماعيل) شمالي زنجبار على شاطئ المحيط الهندي

وطافت بعض سفنها حول القارة الأفريقية ، متنقلة من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق الأقيانوس الأعظم ورأس الرجاء الصالح ، قبل أن تشق قناة السويس

إحصاء الأسطول

أحصى العلامة على باشا مبارك (١) الأسطول المصري في عهد الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدده ١٤ سفينة حربية ، وهي : المروسة . مصر . الغربية . محمد على . شير جهاد . لطيف . دنقلا . الطور . سيناء . الخرطوم . أسيوط . وثلاثة مراكب أخرى صغيرة ولاسماعيل باشا سرهنك إحصاء آخر ، فقد قال (ج ٢ ص ٥٥) إن عدد سفن الأسطول ١٨ سفينة حربية ، وذكر (ص ٢٨٧) أسماءها مع ثلاثة بواخر حربية أخرى مخصصة لر Cobb الخديو ، وهذا يليها :

اسم البارجة	محل انشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ - محمد على (فرقاطة)	أمريكا	حديد و خشب	٢٨
٢ - شير جهاد	ترستا	خشب	٢٨
٣ - لطيف (كورفت)	الاسكندرية	خشب	٦
٤ - الخرطوم (مدفعية)	انجلترا	خشب	٥
٥ - دنقلا (مدفعية)	انجلترا	مدرع	٨
٦ - الصاعقة (كورفت)	الاسكندرية	خشب	٨
٧ - سنار (مدفعية)	انجلترا	خشب	٧
٨ - زرخ نمرة ١	فرنسا	مدرع	٢
٩ -	«	«	٢

ثلاث بواخر حربية لـ Cobb الخديو

٨	حديد	لندن	١٠ - المروسة
٦	«	طولون (فرنسا)	١١ - مصر

(١) في الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٢

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدتها	عدد مدافعتها
١٢ - الغربية	طولون (فرنسا)	حديد	٤
طرادات وسفن للنقل			
١ - الطور	انجلترا	حديد	٢
١٤ - اسوان	"	خشب	٤
١٥ - شندى	"	"	٤
١٦ - أسيوط	الاسكندرية	"	٢
١٧ - الجعفرية	انجلترا	حديد	٣
١٨ - سمنود	"	خشب	٢
١٩ - نور المدى	"	حديد	٢
٢٠ - مخبر	"	"	٢
٢١ - عجمى	"	"	٢

فمن هذا الإحصاء ومن مقارنته بإحصاء الأسطول الضخم الذي كان لمصر في عهد محمد علي (عصر محمد على ص ٤٣٢) يتبيّن ذلك مبلغ ما أصاب البحرية المصرية من الضعف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثم إذا قارنت هذين الإحصاءين بحالة أسطول مصر الآن - ١٩٣٢ - (أى بعد الاحتلال الانجليزى) وبخشت عبئاً أين هو الأسطول ومم يتألف ؟ وماذا يعملا ؟ يعروك الدهش والأسى والألم ، لأنعدام قوّة مصر البحرية في عهد الاحتلال

الأسطول التجارى

لما وجد اسماعيل ما يعترضه من العقبات في سبيل تجديد الأسطول الحربي ، وجه عنایته إلى الأسطول التجارى ، فأنشأ شركة للملاحة التجارية ، سميت الشركة العزيزية ، نسبة إلى السلطان عبد العزيز ، أعد بها خبرها لنقل المسافرين ونقل المتساجر إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، بعد أن أبطل الشركة المجيدية التي أنشئت في عهد سعيد باشا ، وجعل رأس مال الشركة الجديدة موزعا على أسمهم ليشتراك الأفراد فيها

فاكتتب جماعة من سراة المصريين في رأس ماها ، وخصص لها الخديو سبع بواخر كانت موجودة من قبل ، وأوصى بإنشاء بواخر جديدة في إنجلترا ، وجعل على قيادة هذه الباخر ضباط البحرية القدماء الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله ، وكذلك بحاته ، وابتاع وزارة البحرية عدا ذلك عدة سفن شراعية كبيرة لنقل الأخشاب الازمة لوزارتي البحريه والحربيه من بلاد الأنضول ، فكان الأسطول التجارى المصرى بنوعيه من الباخر والسفن الشراعية بالغا درجة كبرى من التقدم .

وكان لبواخر (الشركة العزيزية) فضل كبير في نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر ، وتسهيل مواصالتها البحرية مع الأقطار الأخرى ، وزاحت شركات الملاحة الأجنبية في هذا الصدد ، ونجحت في عملها ، ونمط إبراداتها ، وربحت الأرباح الوفيرة ، ثم ابتاع الخديو اسماعيل أسمها ، احتكاراً لأرباحها ، وحوّلها إلى إدارة من إدارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابورات البوستة الخديوية) ، فاستمرت مطردة النجاح واتسع نطاق أعمالها ، وصار لها من الباخر الكبيرة ست وعشرون باخرة^(١) تجوب البحار رافعة العلم المصرى ، وتنقل الناس والمتأجر والبريد بين ثغور مصر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط في سوريا والأناضول وبلاد اليونان ، وشواطئ الدردنيل والبوسفور ، وثغور البحر الأحمر كسواءكن ومصوع وينبع وجدة والخديدة ، وتحتاز بوغاز باب المندب إلى زيلع وبربرة

وقد أحق بهذه المصلحة الحوض العائم الذى أنشأه بيتناه الاسكندرية ، وخصص لبواخرها معمل (قابرية) في ترسانة الاسكندرية للقيام بما تحتاجه من الإصلاح وبقيت هذه الادارة الكبيرة بباخرها وملحقاتها كالحوض وفابرية الترسانة ملكاً للحكومة ، إلى أن باعتها في عهد الاحتلال ، إلى شركة انجليزية ، بأبخس الأثمان ، فانتقلت تلك المنشآت البحرية العظيمة ، وهذه الثروة القومية الضخمة ، إلى أيدي

(١) هي : الرحمانية . التاكا . الفيوم . البحيرة ، الشرقية . الدقهلية . طنطا . شندى . شبين . دسوق . كوفيت . سمنود . المنيا . الجعفرية . مسيير . المنصورة . المحلة . النجيلة . دمنهور . الرقازيق . الحجاز . الجديدة . ينبع . القصير . سواكن . مصوع (كتاب إحصاء

الإنجليز ، وأنزل العلم المصرى عن بواخرها ، واستبدل به العلم البريطانى ، فكانت نكبة ، وكان خسران

إتمام ميناء السويس

إن إتمام أعمال الإصلاح في ميناء السويس ، وإصلاح ميناء الإسكندرية ، وإنشاء الفنارات البحريه ، هي من أعمال العمران التي تتصل بالبحرية ، ولذلك نتكلم عنها في سياق الحديث عن البحرية في عهد اسماعيل

شرع سعيد باشا سنة ١٨٥٦ في إنشاء ميناء جديد بالسويس لسهولة إيواء السفن ، بفعل من الشغف فأين ، أحدهما يسمى ميناء ابراهيم ، جعل للبواخر الحربية ، وجعل الثاني للسفن التجارية ، وأقيم حاجز من الأحجار لصد الأمواج عن الميناءين ، وبه البوغاز لدخول السفن وخروجها

وشرع في إقامة حوض لعمارة السفن ، وقد استمر العمل في إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت في عهد اسماعيل ، وبلغت نفقات الحوض والجسر الذي يصله بميناء السويس ٤٠٠٠ جنيه ، وقد تنازلت عنه الحكومة المصرية في عهد الاحتلال إلى الشركة الانجليزية التي اشتراطت وابورات البرستة الخديوية

إصلاح ميناء الإسكندرية

لما اتسعت حركة العمران وازدادت المواصلات البحريه في الإسكندرية شرع اسماعيل في توسيع ميناءها وإصلاحه ، واعتمد إنجاز هذا الإصلاح بعدما أنشأ بور سعيد وقارب مشروع قناة السويس تمام ، فقد خشي أن تزاحم بور سعيد الإسكندرية ، وتتحول إليها حركة التجارة الخارجية ، فاعتمد توسيع ميناء الإسكندرية لتجذب إليها السفن في غدوها ورواحها

فأول مابدأ به إقامة حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن ، بدل الحوض المبني بالحجر من عهد محمد على . والذى صار مع الزمن لا يفي بإصلاح السفن ؛ وخاصة كبيرة الحجم ، وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨ م)

ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذي يقفل الميناء طغيان الأمواج ، ويجعل السفن الرئيسية به في مأمن من العواصف ، ولا يزال قائماً إلى اليوم ، وهو جسر من الدبس والأحجار الضخمة والصخور ، متند من طرف شبه جزيرة رأس التين إلى جهة العجمي ، وفيه البوغاز لمروor السفن منه ، وأنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفریغ وأرصفة أخرى متعددة في داخل الميناء ، وكانت هذه المشروعات من أعمال العمران الضخمة التي اقتضت جهوداً كبيرة ، وكلفت الخزانة نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقد عهد بها الخديو إلى شركة إنجليزية تدعى شركة جرنفلد ، وبدئء في العمل سنة ١٨٧١ ، ولم يتم إلا بعد تسع سنوات سنة ١٨٧٩

الفنارات

وأنشأ عدة فنارات في ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لإرشاد السفن ولتسهيل الملاحة البحرية

وهذا بيانها :

(في البحر الأبيض المتوسط)

فنار البرلس ، أنشئ سنة ١٨٦٨ ، وفنار رشيد سنة ١٨٦٨ ، وفنار دمياط (تجاه رأس البر) سنة ١٨٦٩ ، وفنار بور سعيد سنة ١٨٦٩ ، وفنار العجمي سنة ١٨٧٣ ، وفنار حاجز الميناء سنة ١٨٧٦ ، وفنار القبارى سنة ١٨٧٧ ، أما فنار رأس التين الكبير فهو منشأ من عهد محمد على

(في البحر الأحمر)

وكان بالبحر الأحمر من الفنارات قبل عصر اسماعيل فنار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبى السويس ، وفنار الأشرفى ، وفنار أبي كيزان ، فرأى الخديو اسماعيل أن هذه الفنارات لاتكفى لإرشاد السفن في البحر الأحمر ، لـكثرة صخوره ومخاطرها ، فأنشأ فنارات أخرى وهى :

فنار السويس . وفنار رأس الغريب جنوبى رأس الزعفران ، وفنار صخور الأخوين

الشمالية ، وفنار جزيرة شدوان الذي تم سنة ١٨٨٩ ، وفنار (الوجه) من ثغور الحجاز^(١)

وأنشاً في خليج عدن بالأقيانوس الهندي فنار ببره السابق الكلام عنه ، وأمر بإقامة فنار في جر دفون (جردفون) سنة ١٨٧٨ ، ولكنه لم ينشأ كما تقدم بيانه (ص ١٦٢)

(١) كانت متصرفة (الوجه) تابعة لحكومة مصر

الفصل التاسع

حروب مصر في عهد اسماعيل

خاضت مصر في عهد اسماعيل عدة حروب ، تختلف في أهميتها ونتائجها ، ومعظمها مما دعته تركيا إلى خوض غمارها لنجدة جيشها ، ماخلاً حروب السودان ، فقد كانت ابتكاراً من الخديو اسماعيل ، لبسط نفوذ مصر في باطن إفريقيا وشرقيها ، والوصول إلى الحدود الطبيعية لوادي النيل ، وحرب الحبشة التي كانت حرباً عقيماً من كل الوجوه ولم يكن للحروب التي خاضتها مصر تلبية لطلب تركيا من نتائج عملية لمصلحة مصر سوى أن اسماعيل كان يستخدمها في الجملة ، ذريعة لاستصدار مزايا وحقوق جديدة تقرب مصر من استقلالها التام ، ومن جهة أخرى فإنها كانت ميادين لمران الجيش المصري وجنوده وضباطه على ممارسة القتال والإفادة من تجاريه ووقائعه

(١) إخماد ثورة العسير

في أوائل عهد اسماعيل نار الأمير محمد بن عاصم أمير العسير على الدولة العثمانية ، وقد الاستيلاء على تهامة اليمن ، فخاربه متصرف الجديدة ، وصده في بعض الواقع ، ولكن الأمير استفحى أمره واستولى على بعض المدن ، فاستنجد السلطان عبد العزيز بالخديو اسماعيل ، وطلب إليه أن ينفذ جيشاً مصرياً لإخماد الثورة

فابى اسماعيل طلبه ، وأنفذ إلى عسير قوة من ثلاثة ، أورط من المشاة ، زودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للأمير الإبراهيم صادق بك ، فلما وصل إلى نجر جدة ، اتفق وواليها على تجريد الحملة المصرية صحبة الجنود العثمانيين على الثوار من جهة (قندذة) ، فتمكن من إخماد الثورة ، وقدم الأمير محمد بن عاصم طاعته ، ثم عادت الفرقة المصرية ظافرة مشكورة على ما أبلته في القتال ، وأنعم الخديو على قائدتها برتبة اللواء مكافأة له على ما أبدى من الشجاعة والكفاءة في القيادة ، وأرسل السلطان إلى

الخديو كتب شكر وثناء على مابذله من الجمية والولاء ، وتوسط اسماعيل لدى السلطان عبد العزيز في العفو عن الأمير الشاير ، فقبل شفاعته وعفا عنه وأقره في امارته

(٢) حرب كريت

فامض سنة ١٨٦١ ثورة في ولاية الهرسك إحدى ولايات البلقان بتحريض أمير الجبل الأسود ، فجردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار ، ولما تولى اسماعيل عرش مصر طلبت إليه الحكومة العثمانية أن يعزز جيوشها في الروملي بجيش مصر حتى لا يقوى ساعد الثوار ولا تزداد اضطراباتهم في تلك الجهات ، فأنفذ اسماعيل باشا فرقه تولى فيادتها اللواء على غالب باشا ، فوصلت الحملة المصرية إلى الاستانة ، وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق (سلامنیك) إلى (مناستر) ورابطت هناك

ثم نشب ثورة عامة في جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦ ، وعجزت تركيا عن إخمادها إذ كان جنودها موزعين في ولايات البلقان ، ولم تقو الحامية التركية في الجزيرة على مقاومة الثورة ، فاستنجدت مصر ، وأرسل السلطان عبد العزيز إلى الخديو يطلب إليه إنفاذ بعض فرق الجيش المصري إلى الجزيرة لمقاتلة الثوار ، فلبي الطلب ، وأنفذ جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل ونيف ، عقد لواه للفريق شاهين باشا ، أحد قواد الجيش المصري المشهورين ، يعاونه اللواء اسماعيل صادق باشا ، وكان من ضباط الجيش المصري في هذه الحرب راشد بك حسني (باشا) الذي عظم شأنه في حوادث الثورة العرائية ، وأبلى بلاء الحسن في واقعة التل الكبير ، ومحمود سامي بك الباوردي (باشا) الذي صار من كبار زعماء الحركة العرائية ، وفي هذه الحرب كانت نشأة البارودي الحرية

أقلعت الحملة إلى جزيرة كريت ، تقلها عمارة من الأسطول المصري مؤلفة من عشر سفن ، معقوداً لواوها للأمير ال قاسم باشا ، وتولت هذه العمارة نقل القوة المصرية التي كانت مرابطة في (مناستر) ، وجاءت بها إلى الجزيرة

نزلت الحملة في كريت ، فاشتبكت والثور في جهة تسمى (أبو قرون) ، جرح فيها اللواء اسماعيل صادق باشا جراً بليغاً نقل على أثره إلى مصر ، وتبدللت القيادة العامة

للجيش المصري ، إذ استدعى شاهين باشا إلى مصر وعين بدله الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ كما تقدم بيانه (ص ٧٧)

والتحق الجثمان في واقعة « ارقاذى » ، وكانت من أعظم الوقائع الحربية ، هزم فيها الشوار هزيمة كبيرة ، وخسروا خسائر عظيمة ، وأبلى فيها الجنود المصريون بلاء حسناً في القتال ، وأبدوا من الشجاعة والإقدام مالا يذكر لهم ، وكان راشد بك حسني وأليه أكثرهم إقداماً ، فأنعم عليه الخديو برتبة اللواء ، وأرسل الجيش المصري كتاباً بليغاً من إنشاء المرحوم عبد الله باشا فكري ، يثنى فيه على حسن بلاء الجنود وضباطهم وقادتهم ، ويسجل لهم ما أبدوه من ضروب الشجاعة والكفاءة

واستمرت الحرب سجالاً حتى أخمدت الثورة ، فعاد الجيش المصري إلى مصر ، وقبيل بظهور الحفاوة البالغة ، وأقام الخديو لأفراده الولائم تكريماً لهم على حسن بلائهم في القتال

(٣) حرب البلقان

١٨٧٦ - ١٨٧٧

كانت الروسيا لافتةً تحرض امارات البلقان على الانتهاك على تركيا ، لكي تهدد نفسها الدخول في حومة الوغى بعد أن توزع تركيا قواتها في إخماد الثورات المحلية ، فن ذلك أنها بذرت بذور الثورة في تلك البلاد حتى شب أوارها في الهرسك سنة ١٨٧٥ ، وامتدت إلى البوسنة ، وقامت الصرب تشيد أزر الثوار

فطلبت تركيا من الخديو اسماعيل إمدادها بنجدة من الجيش المصري ، فأعد الخديو قوة من نحو سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسني ، ومن ضباطها محمود بك فهمي (باشا) الذي صار فيما بعد من زعماء الثورة العرابية وزرائها ، وصاحب كتاب البحر الآخر في تاريخ الأوائل والأواخر

أقفلت الجنة إلى الاستانة ، ثم قصدت إلى حدود الصرب ، فاشتركت الجيش العثماني في قتال الصربين ، وفازت عليهم ، وأظهرت شجاعة وبسالة في الواقف التي خاضتها ،

ما دعا الخديو إلى الإنعام على طائفة من قوادها وضباطها بالرتب العالية
وفي غضون ذلك تولى عرش تركيا السلطان عبد الحميد الثاني (٣١ أغسطس سنة
١٨٧٦) ، بعد أن قتل السلطان عبد العزيز ، وخلع السلطان مراد ، ورجع الجنود
المصريون إلى الاستئانة إذ وقفت الحرب بين تركيا والصربيا

ثم تجدد النزاع بين تركيا والروسيا ، وأعلنت الحرب بين الدولتين ، وهي الحرب
المعروفة بحرب البلقان (أبريل سنة ١٨٧٧) ، فطلبت تركيا من الخديو إنجادها في هذه
الحرب ، ولكن اسماعيل اعتبر بدأه ذي بدء بارتباطه شؤون الحكومة المالية ، وعجزها
عن الإنفاق على المدد . فأعاد السلطان عبد الحميد الكرة ولم يقبل عذرًا

وكانت المشاكل المالية قد جعلت اسماعيل هدفًا لغضب الدائنين الأجانب ، فأخذوا
يرهقونه بطالبهم الشديدة ، والدول الأوروبية من ورائهم تشدهم ، وتهدد الخديو ،
خشى عاقبة مغاضبة تركيا في تلك الظروف التصبية ، فاعترض إجابة طلبها

وكانت خزانة الحكومة في حالة سيئة ، فاستدعى مجلس شورى النواب ، وعرض
عليه ربط ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » ، قدرها عشرة في المائة من مجموع
الضرائب ، لسد نفقات الحملة ، فوافق المجلس عليها ، وأعد الخديو جيشاً مؤلفاً من نحو
اثني عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، وبعد أن تمت معدات الحملة
أقلعت بهم السفن المصرية إلى الاستئانة ومنها إلى (وارنه) أحد ثغور البحر الأسود

وقد أبلـ الجنود المصريون في هذه الحرب بلاء حسناً واشتركوا في القتال إلى أن
وضعت الحرب أوزارها في مارس سنة ١٨٧٨ ، ثم عادوا إلى مصر

(٤) و (٥) حروب السودان والحبشة

كانت الحالات التي جردها الخديو اسماعيل لإتمام فتح السودان خير حروب مصر في
عهده ، وأكثرها نفعاً وبركة ، وهي تعد تكملة لحروب مصر في عهد محمد علي ، وقد وفيينا
الكلام عنها في الفصل الخامس ، كما بسطنا الكلام فيه عن حرب الحبشة

الفصل التاسع

التعليم والنهضة العلمية والأدبية

نال التعليم والنهضة العلمية نصيحةً عظيمًا من جهود إسماعيل، فقد تولى الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها محمد على مففلة، ولم يكن باقياً منها سوى مدرسة الطب والصيدلة، ومدرسة الولادة (القابلات)، ومدرسة حربية، ومدرسة ثانوية، وأخرى ابتدائية، ومدرسة البحريّة بالاسكندرية، فبعث النهضة العلمية من مرقدها، ونفع فيها روح الحياة والنشاط، وأعاد تأليف ديوان المدارس (وزارة المعارف)، وعهد برأسه إلى إبراهيم أدهم باشا الذي تولّها في عهد محمد على، ووجه همته إلى إنشاء المدارس على اختلاف مراتبها وفنونها^(١))

المدارس الحربية

فأسس المدارس الحربية التي تكلمنا عنها في الفصل السادس

المدارس العالية

وأسس عدة مدارس عاليّة، ازدان بها تاريخه، وكان لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكريّة التي ظهرت في عصره، وفي العصور التي تلته، واليک بيان هذه المدارس

مدرسة المهندسخانة

هي مدرسة (الرّى والعمارة) وسميت المهندسخانة، أُنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦

(١) أهم مراجع هذا الفصل عن معاهد التعليم: الواقع المصرية . الخطط التوفيقية لعمل باشا مبارك . التعليم في مصر لأمين سامي باشا . التعليم العام في مصر ليعقوب أرتين باشا . التعليم العام في مصر للمسيو دور برك

بسراي الزعفران ، ثم نقلت سنة ١٨٦٨ إلى سراي درب الجاميز ، (ثم إلى الجيزة) ، وكان أول ناظر لها اسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلکي ، ثم محمود بك (باشا) الفلکي ، ثم عاد إليها اسماعيل بك الفلکي

مدرسة الحقوق

هي أعظم المعاهد العلمية التي أسسها اسماعيل ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها مدرسة «الإدارة والآلسن» ، وقد حل محل مدرسة الآلسن التي أقفلت في عهد عباس ، وسميت «مدرسة الحقوق» منذ سنة ١٨٨٦ ، وكان أول ناظر لها المسيو فيدال Vidal (باشا) أحد علماء فرنسا المشترين ، وبقي يتولى نظارتها أربعاً وعشرين سنة إلى عام ١٨٩١

وفي هذه المدرسة تخرج معظم رجال التأnoon الذين نبغوا في عصر اسماعيل وما يليه من العصور ، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء ، وعلى النهضة الأدبية والسياسية في البلاد

مدرسة دار العلوم

أسست سنة ١٨٧٢ ، والغرض منها تخريج أسانذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، انتخب طلبتها من نجباء تلاميذ الأزهر ، وتولى نظارتها على التعاقب في عهد اسماعيل : حامداً فندى نيازى ، ثم محمود افندى فوزى ، ثم على بك فهمى رفاعى ، ثم حامد افندى نيازى ، وقد أدت المهمة التي أنشئت من أجلها ، وكان لها الفضل الكبير على نهضة اللغة والأدب العربية في مصر ، وسنعود إليها في ترجمة مؤسسها على مبارك باشا

مدرسة الطب والولادة

وارتققت مدرسة الطب في عهد اسماعيل ، واتسع نطاقها ، وخرجت جماعة من أعلام الطب في مصر ، وتولى نظارتها على التعاقب : برجيير بك Burguiere bey ، ثم حافظ افندى محمد ، ثم محمد على بك (باشا) البقلى ، ثم محمد الشافعى بك ، ثم محمد على باشا البقلى ، ثم جليماردو بك

مدارس البناء

بدأ إنشاء مدارس البناء في مصر على عهد اسماعيل ، وهي ميزة تشهد له بالفضل في نهضة الأمة ، فقد كان التعليم النسوى يعتبر من قبل في حكم العدم ، إذ لم تكن في البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة ، ولم يكن يتعلم فيها في الغالب سوى البنات الحشبيات ، أما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن هن مدارس لتعليمهن ، وكان الجهل مخيماً عليهم ، اللهم الا من كن يتعلمن في بيوت آباءهن واهلهن ، وقليل أو لئك

ففي سنة ١٨٧٣ أُسست مدرسة السيو فيه للبنات ، انشأتها السيدة جسم آفت هام ثالث زوجات الخديو اسماعيل ، وكان بها حين افتتاحها نحو مائة تلميذة ^(١) ، وبلغ عددهن سنة ١٨٧٤ أربعين تلميذة ، يتعلمن مجاناً ، فضلاً عن الإنفاق على ما كلنه ملبيسهن ويتعلمن القراءة ، والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، والحساب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والتطريز والنسيج ، وغير ذلك من الصناعات ^(٢) وتولى نظارتها حسن افندي صالح ، ثم مدام روزه

وأُسست مدرسة أخرى للبنات في القرية بالقاهرة سنة ١٨٧٤ ، وألغيت سنة ١٨٧٨

المدارس الصناعية

وأسس اسماعيل من المدارس الصناعية :

مدرسة الفنون والصناعات ، وكانت تعرف بمدرسة (العمليات) ، أُسست سنة ١٨٦٨ لتخریج الصناع الفنيين ، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية وساواقوها ، والموظفين الفنيين في مصلحة السكك الحديدية ، وتخرج منها منهندسون لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية

وتولى نظارتها المسيو جيجون بك Guigon bey ، ثم عيسى شاهين افندي ، ثم عاد

(١) الخطاط التوفيقية ج ٢، ص ٤٦ ، وجاء في الواقع المصرية العدد ٥١٩ (٥ أغسطس سنة ١٨٧٣) أن عددهن حين افتتاح المدرسة ١٨٠ تلميذة

(٢) الواقع المصرية العدد ٥٧٦ - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤

لنظارتها جيرون بك ، ومن كبار أساتذتها اسماعيل بوشناق بك ~~كبير~~ مهندسى
العنابر بالسكلك الحديدية

ويشتمل برناجها على العلوم الصناعية والهندسية ثم التمرينات العلمية
ففي السنة الاولى يدرس الحساب ، والجبر ، والهندسة الوصفية ، والرسم ، وفن
العمارة ، واللغات العربية والفرنسية والإنجليزية
وفي السنة الثانية تدرس أنواع الرسم ، واللغات ، والطبيعة وتطبيقاتها على الصناعات ،
والميكانيكا ، والجغرافية ، والمحاسبة
وفي السنة الثالثة ، تدرس المواد المذكورة مع التاريخ وتطبيق الكيمياء على الصناعات ،
ورسم الآلات البخارية وتركيبها

وكان الطلبة يمارسون بعد الظهور التمرينات العملية في خمسة معامل ، أولها معامل
تركيب الآلات وتصليحها ، والثانى معامل الحداقة ، والثالث المعسك الذى كان يعرف
بالدوكمخانة ، والرابع معامل الخراطين والنجارين والعينات التى يطلب عملها ، والخامس
معامل قدور القرانات الحديد والنحاس ، وفي المدرسة قسم لتعليم التلوين بالألوان
المختلفة (١)

(١) مدرسة التلغراف أُسست سنة ١٨٦٨ ، وألغيت سنة ١٨٦٩ ، ثم الحقت بمدرسة
الفنون والصناع

(٢) فرقه النقاشين أُسست سنة ١٨٦٩ ، وألغيت سنة ١٨٧١

(٣) فرقه عمليات المرور أُسست سنة ١٨٧٠ وألغيت سنة ١٨٧٢ ، وفرقه أخرى
أُسست سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢

المدارس الخصوصية

وأنشأ من المدارس الخصوصية :

(١) عن (الواقع المصرية) العدد ٣٤١ (١٩ يناير سنة ١٨٧٠)

(١) مدرسة المساحة والمحاسبة ، أُسست سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها نظار مدرسة
المهندسخانة

(٢) مدرسة اللسان المصري القديم (اللغة الهيروغليفية) أُسست سنة ١٨٦٩ وتولى
نظارتها المسيو بروكش (باشا) Brngcs معلم ألماني في الآثار المصرية وألغيت
سنة ١٨٧٦

وأشهر من نبغ من خريجي هذه المدرسة العالم الأثري الكبير احمد كمال باشا

(٣) فرقه الرسم بالمدارس الملكية أُسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩

(٤) مدرسة الزراعة أُسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥

(٥) مدرسة العميان والخرس ، للبنين والبنات ، أُسست سنة ١٨٧٥ ، وتولى نظارتها
محمد أنسى بك نجل عبد الله أبو السعود افندي

المدارس الثانوية

وانشأ من المدارس الثانوية

(١) المدرسة التجهيزية بالعباسية أُسست سنة ١٨٦٣ ، ثم نقلت إلى درب الجماميز
سنة ١٨٦٨ ، وعرفت بالخديوية

(٢) مدرسة رأس التين بالاسكندرية ، أُسست سنة ١٨٦٣

المدارس الابتدائية

قلنا إن معظم المدارس الابتدائية التي أنشأها محمد علي قد ألغيت في أواخر عهده ،
ولم يحدد بدتها في عهد عباس وسعيد ، فبذل اسماعيل جهوداً كبيرة في إنشاء المدارس
الابتدائية في القاهرة وفي مختلف العواصم

ويرجع الفضل في إنشاء هذه المدارس إلى شريف باشا ، ثم إلى على باشا مبارك ، الذي
فكَر في تحويل التعليم في الكتاتيب إلى التعليم الابتدائي النظامي ، وكان عدد الكتاتيب
وقيـد نحو خمسة آلاف كتاب

وهكذا بيان ما أنشأه اسماعيل من المدارس الابتدائية :

مدرسة المبتديان بالعباسية	أنشئت سنة ١٨٦٣	ثم نقلت إلى الناصرية ثم إلى المنيرة
مدرسة رأس التين الابتدائية بالاسكندرية	سنة ١٨٦٣	
مدرسة طنطا (بنيها)	أسست سنة ١٨٦٨	
مدرسة أسيوط	١٨٦٨	"
مدرسة بنى سويف	١٨٧٢	"
مدرسة المنيا	١٨٧٣	"
مدرسة القرية	١٨٧٢	"
مدرسة الجمالية	١٨٧٣	"
مدرسة الحسينية	١٨٧٩	"
مدرسة باب الشعرية	١٨٧٤	"
مدرسة عابدين	١٨٧٩	"
مدرسة مصر القديمة	١٨٧٩	"
مدرسة أبو العلا ييولاق (عباس)	١٨٧٢	"
مدرسة السيدة زينب (محمد على)	١٨٧٢	"
مدرسة شيخون	١٨٧٣	"
مدرسة العقادين	١٨٧٢	"
مدرسة النحاسين	١٨٧٢	"
مدرسة الإمام الشافعى	١٨٧٩	"
مدرسة الحبانية	١٨٧٢	"
مدرسة رشيد	١٨٧٦	"
مدرسة الفشن	١٨٧٩	"

ويضاف إلى هذه المدارس مدرسة (الصلوية) ، وقد كانت مكتبةً أنشأته والدة عباس باشا الأول ، وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ ، ومدرسة قلاوون ،

والشيخ صالح للبنين ، ومدرسة محمد بك سعيد احمد ، ومدرسة حافظ باشا بالاسكندرية ،
ومدرسة البوصيري ، ومدرسة راتب باشا بالاسكندرية أيضاً
ومدرسة (خليل اغا) ، أنشأها كبير أغوات والدة اسماعيل ، قرب المسجد الحسيني
بالقاهرة ، ثم انتقلتأخيراً إلى شارع الأمير فاروق
ومدرسة القبة التي أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولـى العهد على نفقته الخاصة

الحفلات المدرسية

كان الخديو اسماعيل شديد الميل إلى إقامة الحفلات المدرسية التي تختتم بها الامتحانات
العامة في المدارس على اختلاف درجاتها ، وكان لهذه الحفلات مظاهر تغافل في ذلك العصر ،
إذ كان يحضرها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والكافيات على المتقدمين من
الناجحين ، ويلقي فيها الأساتذة ونوابهم الطلبة الخطيب والقصائد ، فكانت هذه الحفلات
من عوامل النهضة العلمية ، ويدل ذلك على مبلغ عناية الحكومة بها أن (الواقع المصرية)
وهي الجريدة الرسمية للحكومة كانت تعنى بوصف كل حفلة مدرسية وتنشر كل ما
يلقي بها من الخطيب والقصائد ، تسجيلاً لها ، وتعظيمها لقائليها ، ونجده في (الواقع المصرية)
بيانات مستفيضة عن هذه الحفلات وأسماء من يحضر ونها من رجال الدولة وأعلام
الأدب والعلم في ذلك العصر ، وأسماء الأساتذة والطلبة الذين يخطبون فيها

الأزهر

ظل الأزهر الجامعة الإسلامية التي تدرس فيها علوم الدين والفقه واللغة ، وكان
التعليم فيه يتبع الأساليب القدية التي درج عليها من سالف العصور
وقد بدأت روح الإصلاح والتقدم تتمشى فيه من عهد ولاية الشيخ محمد العباسى

المهدى مشيخته سنة ١٨٧١

وباكورة الإصلاح فيه إنشاء نظام الامتحان لتخریج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ ،
فقد كان التدريس في الأزهر خلوا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظاماً لامتحان
العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برأسه مؤلفة من ستة من كبار العلماء ، اثنان من
الشافعية وهما الشيخ خليفه الصفتى . والشيخ احمد شرف الدين المرصفى . واثنان من
المالكية وهما الشيخ احمد الرفاعى والشيخ احمد الجيزاوي . واثنان من الحنفية . وهما
الشيخ عبد الرحمن البحراوى . والشيخ عبد القادر الرفاعى

و مهمه هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالية في مختلف العلوم وإعطاء الناجحين منهم اجازة العالمية ، وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد في الأزهر وجاء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفع في الأزهر روح النهضة ، وغرس بذور التقدم الفكري والعلمي ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التي حمل لوادها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الأزهر وخارج الأزهر

البعثات

أعاد اسماعيل عهد البعثات التي ازدان بها عصر محمد على من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة إلى مدارس أوروبا منذ سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم مدة حكمه ١٧٢ طالب ، وهو كاتری أقل من عدد البعثات في عصر محمد على وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة في باريس بدل المدرسة التي أنشأها محمد على لهذا الغرض وأقفلت في أواخر عهده كما ي بيانه « عصر محمد على » ص ٤٥٢ ، لكن المدرسة التي أنشأها اسماعيل أقفلت بعد نشوب الحرب السبعينية

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، ويرجع معظم الفضل في هذه النهضة إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس فصار لهم في عهد اسماعيل نحو ١٢ مدرسة بالقاهرة ، أهمها المدرسة البطيريركية الكبرى ، ومدرسة مصر القديمة . وأخرى بالجيزة . ومدرستان بالاسكندرية . ومدرسة اكيركية لتعليم اللاهوت واللغة القبطية والطقوس الدينية ، ونشطوا إلى تعلم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين . واحدة بحارة السقاين . وأخرى بالأزبكية

وقد منح اسماعيل مدارس الأقباط مساعدات جمة ، أهمها انه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطياف القطر ، ليخصص ريعها على التعليم فيها ، فكان هذا الريع يفي بمعظم ما ينفق على هذه المدارس

المدرس الأوروبي

كثير عدد المدارس الأوروبية التي فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات ، فيبلغ عددها في عهد اسماعيل ٧٠ مدرسة^(١) ، ولم تنشر في أى عهد بمثل ما كثرة في عهده وقد خرجت عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن وموظفي الحكومة ، وخاصة موظفي البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وترجمة القنصليات والمحاكم المختلفة ، ونال كثير منهم الجنسيات الأجنبية بواسطة القنصل ، فصاروا في حكم الأجانب في اتهامهم للدول الأجنبية ، وموتهم إليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية

وزارة المعارف

قلنا إن اسماعيل أعاد ديوان المدارس (وزارة المعارف) بعد أن ألغى في عهد سعيد ولما تقدمت هيئة التعليم خصص لوزارة المعارف سرای الأمير فاضل بدر بـ الجمامين ، وهي سرای خفمة وساخت ديوان المدارس وبعض المعاهد العلمية ، كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق . ومدرسة المساحة والمحاسبة . ومدرسة التجهيزية . ودار الكتب ، ومعمل الطبيعة والكيمياء . ومدرج المحاضرات (الافتخاري) ، فصارت بنزلة الجامعة المصرية ، وكان اختيار هذه السرای إجابة لاقتراح العلامة على باشا مبارك حينما ولى وزارة المعارف

وتعاقب على وزارة المعارف في عهد اسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

ابراهيم أدهم باشا (يناير - يوليه سنة ١٨٦٣) . شريف باشا (يوليه سنة ١٨٦٣ - ابريل سنة ١٨٦٨) . على مبارك باشا (ابريل سنة ١٨٦٨ - سبتمبر ١٨٧٠) . مصطفى بهجت باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٠ - مايو سنة ١٨٧١) . على مبارك باشا (مايو سنة ١٨٧١ - أغسطس سنة ١٨٧٢) . الأمير حسين كامل باشا (أغسطس سنة ١٨٧٢ - - أغسطس سنة ١٨٧٣) . مصطفى رياض باشا (أغسطس سنة ١٨٧٣ - - مايو سنة ١٨٧٤) . محمد ثابت باشا (مايو سنة ١٨٧٤ - سبتمبر سنة ١٨٧٤) . الأمير طوسون باشا (سبتمبر

سنة ١٨٧٤ -- أغسطس سنة ١٨٧٥) . يحيى منصور باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٥ -- يونيو
سنة ١٨٧٦) . مصطفى رياض باشا (يونيو سنة ١٨٧٦ -- أكتوبر سنة ١٨٧٧) . اسماعيل
باشا أبوب (أكتوبر سنة ١٨٧٧ -- أغسطس سنة ١٨٧٨) . على باشا مبارك (أغسطس
سنة ١٨٧٨ -- ابريل سنة ١٨٧٩) . محمد ثابت باشا (ابريل سنة ١٨٧٩ -- يوليه سنة
(١٨٧٩)

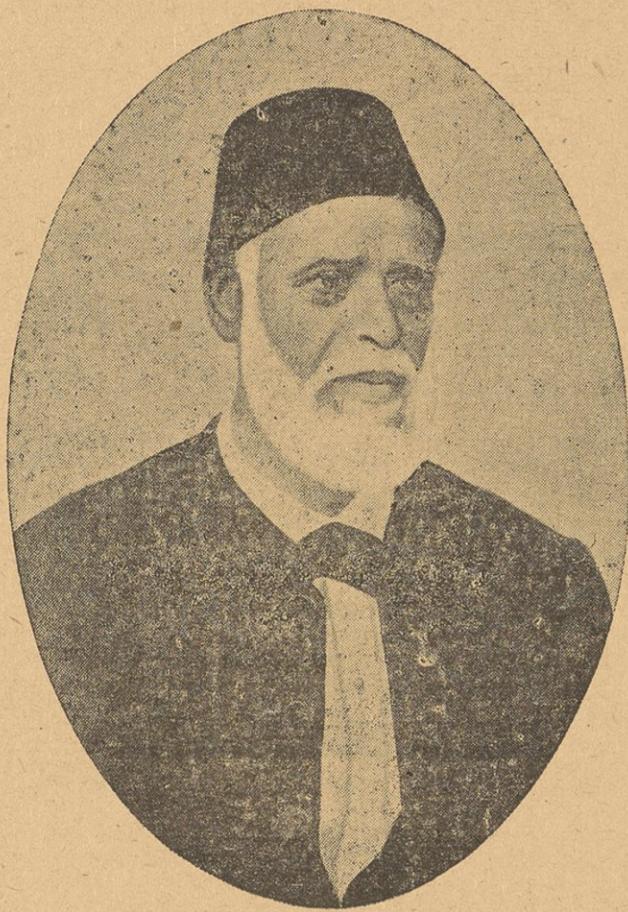
ميزانية التعليم

كان اسماعيل ينفق بسخاء على التعليم ، فقدم كانت ميزانية المعارف في عهد سعيد
لاتتجاوز ستة آلاف جنيه (١) ، فزادها اسماعيل إلى أربعين ألفاً ، ثم بلغت كذا ذكر على
باشامبارك (٢) ٧٥٠٠٠ جنيه ، منها ٤٨٠٠٠ من وزارة المالية (الميزانية العامة) و٢٠٠٠ ر.
من إيراد تفتيش الودي ، و٧٠٠٠ من ديوان الأوقاف ، وكان التعليم في معظم
المدارس مجاني

ثم نقصت ميزانية وزارة المعارف في أواخر عهد اسماعيل بسبب الارتفاعات المالية
التي سببها قروضه ، فهبطت إلى ٣٠٠٠ جنيه

(١) إدرين دي ليون . مصر الخديو ص ١٦٢

(٢) الخطط التوثيقية ج ١ ص ٨٩



علي باشا مبارك

(١٨٩٣ — ١٨٢٤)

زعيم نهضة العلم والتعليم في عصر اسماعيل

على باشا مبارك

(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

زعيم نهضة العلم والتعليم في عصر اسماعيل

ان الحديث عن تقدم التعليم في عهد اسماعيل يستتبع الكلام عن العلامة على باشا مبارك ، فان اسمه مقررون بهذه النهضة المباركة

في تاريخنا القومى شخصيات مجيدة ، تعد أركاناً للنهضة القومية ، لما لها من الأثر البالغ في تطورها ، وتجيئها إلى المثل العليا في شتى مظاهرها ، من الناحية الأخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها دائمًا بالخير ، ونخصص لها ما هي جديرة به من البحث والدرس ، ولاغررو فالشخصيات المجيدة في تاريخ مصر هي كالكواكب النيرفة في سماء النهضة القومية

وقد بذلنا ما استطعنا من جهد لدارسة تلك الشخصيات في الأجزاء الثلاثة السابقة من تاريخ الحركة القومية ، كلما عرضت المناسبة للكلام عنها ، وهنا ، لمناسبة التعليم والنهضة العلمية في عصر اسماعيل ، نرى حقا علينا أن نفي ببعض هذا الواجب نحو العلامة على باشا مبارك ، فهو عماد هذه النهضة ، وقلبه النابض ، ورأسها المدبر ، وهو من الشخصيات الفذة التي سطعت سطوعاً قوياً في عهد اسماعيل ، ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التي تلتة ، إلى عصرنا الحاضر ، وإلى ماشاء الله

نشأته الأولى (١)

ولد المترجم في بنىال الجديدة ، من أعمال مركز دكتور نس بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤ م

(١) اعتمدنا في بيان معظم « الواقع » على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك

(١٣٣٩هـ)، وأبواه الشیخ مبارک بن مبارک بن سلیمان بن ابراهیم الروجی من أهالی هذه الناحیة، وجدہ الأعلی من ناحیة کوم بنی مراس والخلیج علی بحر طناح، من أعمال مرکز المنصورة، «ولفشل کبیر حصل في هذا البلد تشتت عائلته، فأقام جده الأکبر ابراهیم الروجی في بربال الجديدة، ونال فيها مكانة عالیة، فكان إمامها وخطيبها وقاضیها، وبقیت هذه المكانة في نسله، حتی عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ

ولا ضطھاد وقع باهل بربال وإرهاقهم بالضرائب الثقيلة هاجرت عائلة مبارک، وتفرقت في البلاد، فنزل والد المترجم بعزمۃ الحمادین من بلاد الشرقیة (مرکز فاقوس الآن)، وكان ابنه لم يبلغ بعد السادسة من عمره، ولم تطب لهم الإقامة في هذه البلدة، اذ لم يلقوا فيها إکراما، فارتحلوا منها إلى عرب السماعنة بالشرقیة، فأحسنوا وفادة والد المترجم، وأكرموا مشواه، ولم يكن في بلدتهم فقهاء، فجعلوه مرجحهم في الأحكام الدينیة، وبنوا مسجدا جعلوه إمامه، ولما بدأ يستريح من الشدائید التي عانها قبل أن يهبط هذا البلد، أخذ يعني به تهذیب ابنه وتعليمه، وكان المترجم قبل رحیله من بربال، قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة على رجل ضریر من أهلهما، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب السماعنة، أخذ يعلمه بنفسه، ثم أسلمه إلى فقيه اسمه الشیخ احمد أبو خضر، أصله من ناحیة السکردى (وهي بلدة قریبة من بربال)، ثم ارتحل إلى قریة صغیرة على مقربة من مساکن أولئک العرب، وهناك حفظ المترجم على يده القرآن في سنتین

وكان الشیخ يقسّو في معاملته وينصربه، كما هي عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم في ذلك العصر، فامتنع عن متابعة القراءة عليه، وأبى أن يذهب إليه، وجعل يقرر أ عند أبيه، لكن أباه كان لا يستطيع التفرغ لتعليمه، لكثرة مشاغله، فترافق المترجم في الحفظ والدرس، وكاد ينسى ما حفظه، فهم أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه، لكنه أبى أن يعود إليه، وحدثته نفسه بالهرب، لما كان يجده من سوء المعاملة، فتدخل أخوته في الأمر، فأبدى لهم نفوره من الحفظ، وأعرض عن أن يكون «فقیها» ورغب أن يكون «کاتبا»، لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقرب من الحكم

وكان لأبيه صدیق کاتب بناحیة (الاخیوة)، فأسلمه إليه ليتعلم الكتابة على يديه، فلازمه في داره يتعلم عنه، ولكن رأى منه قسوة وغلظة، وناله منه أذى شدید، إذ

سأله يوماً عن الواحد في الواحد فأجابه باثنين ، فضر به بمقلاة بن ، فشج رأسه ، وكان ذلك على ملأ من الناس ، فشكاه إلى أبيه ، فلم يكفل بشكايته ، فهرب ، وانتهى به المطاف إلى العودة وحيداً إلى برنبال ، وهناك وفاته أخوه الذي كان يبحث عنه ، فأعاده إلى أبيه ، وقد حار في معاجلته وتعلمه ، وأبدى المترجم نفوراً من الرجوع إلى الكاتب أو الفقيه ، لما رأى منها من الإيذاء والضرب

فارتلى أبوه أن يعهد به إلى صديق له من كتبة المساحين ، فرضى بذلك ، ولازمة ثلاثة أشهر ، ثم انفصل عنه ، وبقى في بيته إلى يقتله عليه ، وبعد سنة جعله مساعدأ لكاتب في مأمورية أبي كبير . بمترتب قدره خمسون قرشاً . ولكن الكاتب لم ينقده أجره ، إلى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من أبي كبير ، فأخذ منه راتبه المتأخر ، فنقم منه الكاتب وأغرى به مأمور أبي كبير ، واتفق وإيه على تجنيده ، فاستدعاه المأمور واعتقله ، ووضع الغل في عنقه ولبث في السجن بضعة وعشرون يوماً ، قاسى فيها من الشدائـد والآلام ، ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته إلى محمد على باشا عزيز مصر ، وكان إذ ذاك في منيا القمح ، فكتب بالخلاف سبيله ، وإطلاق سراحه ، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه ، وقبل أن يحضر جاء السجين صديق للسجان ، وأفضى إليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبي كبير في حاجة إلى كاتب ، فدلـه السجان على المترجم ووصفـه له بالنجابة ، وحسن الخط ، وبعد قليل جاء أمر الإفراج ، وذهب إلى مأمور الزراعة ، وكان أسود حبسياً يدعى (عنبر افندي) ، فاتخذـه كاتباً عنه مقابل جرـاة يومية من الخبز ، وخمسة وسبعين قرشاً في الشهر ، فارتـضى هذا العمل ، وكانت سـاحة أخلاق عنبر افندي وطيبة مما رغب إليه البقاء في هذه الوظيفة

ما يؤخذ من نشأته الأولى

إلى هنا ليس في نشأة المترجم الأولى شيء مما يلفت النظر ، لكنها تصلاح أن تكون صورة مصغرـة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر

فانتقال عائلة المترجم من بلد إلى بلد ، من كوم بني مراس على بحر طناح ، إلى برنبال بأقصى الدقهلية شمالاً ، ثم إلى السماعنة بالشرقية ، كان نتيجة سوء معاملة الحكام للأهلين

في ذلك العصر ، وإرهاقهم بالضرائب الجائرة ، مما اضطر تلك العائلة ، وكثيراً مثلكما ، إلى الرحيل فراراً من المطالب التي لم يستطعوا أداءها ، بعد أن تجردوا من ما شيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكم في استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصاً من هذه المظالم سوى الهجرة من موطنهم ، وهذا يعطينا صورة من مظالم الحكم في ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوى عن الضعيف ، ويحول دون اعتداء الحكم على المحكوم ، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار ، يعرف كل إنسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لأهواء الحكم والرؤساء ، فلا جرم أن استهدف آل المترجم للتجبرد من متاعهم وما شيتهم ، ثم إلى السجن والضرب ، ثم إلى الهجرة والتسلق من بلد إلى بلد ، فراراً من المظالم

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة لما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فإن فكرة تعليم الأبناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظاً من العلم ، بذلك ميل والد المترجم إلى تعليم ابنه قدر ما يستطيع ، لكن طريقة التعليم كانت رديئة ، لا تشعر في تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيقه القرية ، وكاتب الإخيوه ، وأمثالهما من الفمام والعرفاء ، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لا ينتفع التعليم على أيديهم سوى الجهالة ، وبث روح الخوف والجبن في أخلاق الشباب ، لأن القسوة والضرب يقتلان في نفس التلميذ روح الشجاعة والأخلاق الفاضلة

وليس في نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجال مختلف عن معاصريه ، ولكن أمراً واحداً يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل ، ومجافاته قسوة المعلم ، فقيها كان أو كاتباً ، أفلأ تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ثم ألا تراه كما ينما يتقدم عصره ويمثل معاصريه ، فيبتليع إلى أسلوب في التعليم أرقى من الأسلوب العتيق الذي كان مألوفاً في عصره ؟

إن هذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى الصغير تأبى الذل ولا تقيم على الضيم ، وذلك ينبيء عن سمو الأخلاق ، لأن إباء الذل يدل على نفس عزيزة ، وعزيمة النفس تجمع حولها سلطاناً من الأخلاق السكرمية ، ولا مراء في أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم ، فهو هو رضي بالذل والهوان ، لا مستمر في طريقه ، ولم يتتجاوز أن يصير

كانبا صغيراً، من عوasa لما شل عنبر افندي، ولكن انظر إلى ما حدثته به نفسه - وهو يشغل هذه الوظيفة - تجد نفساً متوجهاً كانت تختليج بين جوانح المترجم

فقد روی عن نفسه انه لما اشتعل كتاباً لعنبر افندى رأى منه رأفة وشفقة وحسن معاملة ، تختلف عما لقيه من كاتب اى كبير ، لكنه شعر بأن لو كان عنبر افندى على غرار ذلك الكاتب ، لما وجد من ينقدر من قسوته وسوء معاملاته ، ومن ثم اتجهت نفسه إلى أن يكون « بحالة لاذل فيها ولا تخشى غوايelaها » كما يقول المترجم

فهذا الشعور ، هو فيض النفس العزيزة التي تأبى الهوان ، وتطمح إلى المعالي ، وهو
شعور كريم ، كان له أثره في حياة علي مبارك

وإن سمو هذا الشعور ليدعونا في إعجاب ، أن نتساءل من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به دون أقرانه في القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لأنجذبه تعليلًا دقيقا ، فإذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة ، اعترضك في هذا أن النابغة قد ينشأوا وغيره من الناس في بيئه واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك يتفرد بالنبوغ دون أقرانه وآخوه

قد يكون السر في النبوغ هو الاستعداد الفطري للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الإلهام الذي يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعنایة الإلهية ، لكن أن تفسره بمعنى من هذه المعانى ، أو بها كلها مجتمعة ، ولكن علينا أن نحسب حساباً لتأثير الوسط والوراثة ، فلا شك أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الأكبر رجلاً «معظماً مكرماً» ، نزل بلدة برنباي ، ولم يكن من أهلها ، فصار أمامها وخطيبها وقائمهما ، وبعد وفاته بقيت هذه الوظيفة في نسله ، طبقة بعد طبقة ، فلو لم يكونوا على أخلاق فاغلة ، ونفوس طيبة ، لما احتفظوا بهذه المنزلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة «المشائخ»

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحية برنال ، وورد قرية السجاعنة ، احتفظ بعزة النفس ، ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدر كها بعله وفضله ، وإنك لتسعد عزة نفسه مز ، كونه لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيا القمح ، حيث كان عزيز محرر « محمد على باشا » ، ورفع إليه ظلامته ، وشكى إليه ما حاق بابنه من السجن ،

فالشکوی من الظلم ، واستصراخ ولیّ الامر ، من الأمور التي تحتاج (في ذلك العصر) إلى شيء من الجرأة والشجاعة ، فكم من المظالم كانت ترتكب . ويستسلم لها المظلومون ، وإذا حدثتهم أنفسهم بالشکوی منها ، فقليلها تحفظهم الشجاعة إلى إبلاغها لأكبر رأس في الحكومة

فأغاب الظن أن المترجم اقتبس عن أبيه تلك النفس العزيزة ، وهذا فضل يجب أن نسجله لوالد المترجم ، الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجي

نشأته الثانية في المدارس النظامية

إن طموح نفس على مبارك إلى المعالي هو الذي سلك به سبيلاً المدارس النظامية ، ذلك أنه حينما اشتغل كاتباً عند عنبر افندي ، أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده وأسباب بلوغه هذا المركز الممتاز في الحكومة ، وكان يدهشه أن عنبر افندي ، وهو أسود جبشي ، يصل إلى هذا المنصب ، حين كان يعتقد «أن الحكم لا يكونون إلا من الأتراء على حسب ماجرت به العادة في تلك الأزمان» ، فعلم من الفراش عن سبب ارتقاءه ، انه كان مشترياً سيدة من ذوات المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة «قصر العيني» إحدى المدارس النظامية التي أنشأها محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها ، وصار أهلاً للمركز الذي يشغله ، وعلم أن الحكم يؤخذون من خريجي هذه المدارس

فلما استمع المترجم لهذا الحديث ، مالت نفسه إلى دخول تلك المدارس ، ليصل إلى ماوصل إليه عنبر افندي ، وأخذ من تلقاء نفسه يسأل عن السبيل إلى دخول المدارس النظامية ، وسأل الفراش : هل يدخلها أحد من «الفلاحين» ؟ فقال يدخلها «صاحب الواسطة» ، فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها ، واعترض ترك العمل الذي كان يشتغل به ، والذهاب إلى مصر ليتحقق بمدرسة قصر العيني

دخوله مدرسة ميت العز

وما خالجه هذا العزم حتى أصر على إنفاذها ، دون أن يكاشف أحداً ، فطلب الإذن من رئيسه بجازة يقضيها في زيارة أهله ، فأذن له بخمسة عشر يوماً ، وسافر إلى وجهته

وفيها هو يسير في طريقه من بقريه بنى عياض^(١) ، والتقي بجماعة من الأطفال ، يتبعون رجلا خياطا ، وكل منهم يحمل دواة وقلما ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعرف حالتهم ، فإذا هم تلاميذ مكتب ميت العز ، أحد المكاتب التي أسسها محمد على باشا ، وكان ذلك فألا حسنة للمترجم ، كما يقول عن نفسه ، إذ أنه حين اجتمع بالأطفال ورأى الخياط خطه أجود من خطوطهم ، رغب إليه أن يدخل مكتب ميت العز ، وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس دون واسطة ، فابتهج المترجم لهذه الفكرة ، إذ وجد فيها بعديته التي ينشدتها ، ولم يكن أحب إلى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول إلى المدارس ، ويحتاز تلك العقبة التي أشار إليها فراش المأمور في حدشه له ، وهي «الو اسطة لدخول المدارس ، ورأى أن الاجتهد في المكتب سيعينيه عن تلك الواسطة التي قد لا يجدها

دخل المترجم مكتب ميت العز ، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ، ولكنه رأى منه إصرارا على عزمه ، فبقي بالمكتب خمسة عشر يوما ، وأرسل الناظر إلى أبيه ، جاءه يسعى لإرجاعه عن عزمه ، فأبى ، فلجا إلى حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن ينتهز الفرصة في خروج ابنه إلى الفسحة وقت الظهر ، فاختطفه وعاد به قسرا إلى بلده ، وحبسه في البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكي وتستعطشه ليرجع عن عزمه ، كي يبقى بينهم ولا يفارقهم ، فوعدها بالبقاء ، ولكنه أسر في نفسه أن يغتنم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه ، والرحيل في طلب العلم ، وانتظر حتى اطمأنوا إلى عدوله عن فكرته ، ولما كانت إحدى الليالي ترقص حتى ناموا جميعا ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه تلقاه ميت العز ، وكان ذلك — كما يقول المترجم — آخر عهده بسكناه بين أبويه . وكانت ليلة مقرمة ، فنسى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ، ولم يشعر الناظر إلا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ ، وكأنما خشي أن يجيء أبوه ويحتال عليه لاختطافه ثانية ، فلزم المكتب ، لا يخرج منه ليل ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرّة ليقنعه

(١) بمركز هبها الآن : قبل أن يُـ كـ بـير بـشـرق

بالعدول عن عزمه ، ويأخذ بالحسنى ، فلم ينجح في مسعاه ، واستمر الغلام ملازما
المكتب . مكتباً على الدرس والتحصيل

انتقاله إلى مدرسة (قصر العيني)

بق المترجم في مكتب ميت العز إلى أن جاء ناظر مدرسة الحانك (عصمت افندى)
لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليتحققوا بمدرسة قصر العيني ، فكان التلبية
على مبارك من وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب إلى
المدرسة ، وشكأ أمره إلى عصمت افندى ، فأحالة على ابنه ، وقال إن الخيار له ، خفيروه
بين العودة مع أبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختار المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً ،
وأغرى به جماعة من المعلمين ليس لهم ميلوه ، فلم يصح لهم ، ودخل مدرسة قصر العيني سنة
١٨٣٦ ، وكان لا يتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره

وهنا تبدو ظاهرة جديدة في شخصية المترجم ، إلى جانب ما ذكرناه عن عزة نفسه ،
وطموحه إلى المعالي ، وهي ميله الفطري إلى العلم ، وشغفه بالارتفاع من منزله العذب ، وما
فطر عليه من قوة الإرادة ، ومضاء العزمية

فانظر إلى مبلغ حبه للعلم ، والتعلم ، تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس ، رغم
إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوافع من
أنفسهم ، بل آباءهم هم الذين يدفعونهم إلى دخول المدارس ويرغبونهم ب مختلف الوسائل
في متابعة الدرس ، وكثيراً ما يتبع الآباء في إيلاف أبنائهم المدرسة والإقبال عليها

فالغلام الذي يتعلّق بدخول المدارس رغم إرادة أبيه ، ويستهدف لغضبهما في هذا
السبيل ، لابد أن يكون قد رسم في نفسه شغف شديد بالعلم والتعلم

وتتجلى أيضاً قوة عزم المترجم ، في إصراره على دخول المدارس ، رغم تلك العقبات
التي اعترضته ، فمن إعصاب والديه ، إلى بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ،
إلى صغر سنه ، إلى المعاشرة بنفسه في حياة يجهلها ولا يعرف مصادرها ، كل ذلك يدل على
حظ عظيم من صدق العزمية وقوه الإرادة

فعزّة النفس ، والطموح إلى المعالى ، وحب العلم ، وقوّة الإرادة ، هذه هي الصفات
التي تطالعنا بها شخصية على مبارك وهو بعد في سن الطفولة والمرأفة
وسنرى كيف لازمته هذه الصفات في كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر
العظيم في أعماله

التعليم في مدرسة قصر العيني

لم تكن مدرسة الطب قد نُقلت بعد إلى قصر العيني ، حينما جاء مصر على مبارك ،
بل كانت لم تزل بأبي زعبل ، أما المدرسة التي كانت بقصر العيني وقتئذ (سنة ١٨٣٦) فهى
مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية

وصف المترجم التعليم في تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه أنه لم يسكن على درجة
حسنة من التقدم ، لا من جهة مستوى التعليم في ذاته ، ولا من جهة معاملة التلاميذ ،
فقد ذكر أنه وجد المدارس على خلاف ما كان يظن ، وأن مدرسيها ورؤسائها كانوا
لا يحسنون فهم وظائفهم ، ولا يعنون بالتلמיד ، وكان التعليم العسكري موضع العناية
فيها ، فيتمرن الطلبة على الحركات الحربية في معظم الأوقات ، في الصباح ، والظهر ، وبعد
الأكل ، وفي أماكن النوم ، وكان الضرب وأنواع الإيذاء من الأمور المألوفة في التعليم ،
وكذلك فلة العناية بما كل التلاميذ ومسكنتهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء ،
وأحرمة الصوف الغايط من صنع معمل بولاق ، ولم يسكن الأكل الجارى للتلاميذ
سائعاً ، فاستعراض عنده على مبارك بالجبن والزيتون

وقد اعتبراه في المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهموم وتغيير الطقس ،
فنقل إلى مستشفى المدرسة ، ولقي في مرضه الشدائـد والآلام ، ولحقه الجوع بالمستشفى ،
وفيما كان على فراش المرض ، جاء أبوه إلى قصر العيني ، واتصل به بواسطة أحد
الممرضين ، ورحب إليه أن يعود معه إلى بلده ، فمالت نفسه لإجابته ، وهم بترك المدارس ،
لما لقيه فيها من التعب والنصب ، ولعدم وجداـنه التعليم الذى ينشده ، ولكنـه خشى
عواقب الهرب من المدرسة ، إذ كانت الحكومة تتبعـق الـهارـبين من التلامـيد ، وتعتـقل
أهـلـيـهم ، وتسـيءـ معـاملـيـهم ، فخـشـىـ أنـ يـنـالـ أـبـاهـ منـ عـزـتـ الحـكـوـمـةـ مـاـ لـيـ رـضـاهـهـ ، فـامـتنـعـ

عن المُهرب ، فعاود أبوه الـكـرـة يـسـتـمـيـلـه ويـهـوـنـ عـلـيـهـ الـأـمـرـ ، فـأـبـيـ وـاعـتـزـمـ «ـ الصـبـرـ عـلـىـ قـضـاءـ اللـهـ ، وـلـمـ شـفـيـ اـنـتـقـلـ مـنـ الـمـسـتـشـفـيـ إـلـىـ الـمـدـرـسـةـ ، وـاسـتـأـنـفـ الـدـرـسـ وـلـمـ يـصـبـ بـمـرـضـ بـعـدـ ذـلـكـ أـشـاءـ دـرـاسـتـهـ

انتقاله الى مدرسة أبي زعبل

رـلـمـاـ نـقـلـتـ مـدـرـسـةـ الطـبـ إـلـىـ قـصـرـ العـيـنـ سـنـةـ ١٨٣٧ـ تـحـولـ تـلـامـيـذـ الـقـصـرـ إـلـىـ أـبـيـ زـعـبـلـ
فـانـتـقـلـ إـلـيـهـ الـمـتـرـجـمـ كـسـائـرـ تـلـامـيـذـ الـمـدـرـسـةـ

وـقـدـ شـعـرـ بـتـقـدـمـ مـسـتـوـيـ التـعـلـيمـ فـيـ مـدـرـسـةـ أـبـيـ زـعـبـلـ ، وـيـنـسـبـ الـمـتـرـجـمـ هـذـاـ التـقـدـمـ
إـلـىـ كـفـاءـةـ نـاظـرـ الـمـدـرـسـةـ ، وـهـوـ الـمـرـحـومـ اـبـرـاهـيمـ بـكـ رـأـفـتـ ، وـحـسـنـ عـنـيـتـهـ بـتـعـلـيمـ النـشـءـ ،
وـمـاـ ذـكـرـهـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ ، أـنـهـ كـانـ فـيـ بـدـاءـةـ عـهـدـهـ يـجـدـ صـعـوبـةـ كـبـيرـةـ فـيـ تـفـهـمـ فـنـونـ
الـهـنـدـسـةـ وـالـخـاصـابـ وـالـشـحـوـ ، وـيـرـاـهـاـ كـالـطـلـاسـمـ ، وـكـلامـ الـمـدـرـسـينـ فـيـهـاـ كـالـسـحـرـ ، وـلـكـنـ
ابـرـاهـيمـ بـكـ رـأـفـتـ أـوـضـحـ لـلـتـلـامـيـذـ مـعـانـيـ الـهـنـدـسـةـ وـقـوـاعـدـهـاـ بـأـسـلـوبـ تـقـبـلـهـ عـقـولـهـ ،
فـانـفـتـحـ لـهـ حـسـنـ بـيـانـهـ ذـهـنـ الـمـتـرـجـمـ ، وـبـدـأـ يـعـيـ مـاـيـسـمـعـ فـيـ الـدـرـوـسـ

وـلـفـتـ نـجـاحـ التـلـيمـيـذـ عـلـىـ مـبـارـكـ نـظـرـ رـأـفـتـ بـكـ ، فـصـارـ يـضـرـبـ بـهـ اـثـلـ ، وـيـجـعـلـ نـجـاحـهـ
عـلـىـ يـدـيـهـ دـلـيـلاـ عـلـىـ تـأـثـيرـ أـسـلـوبـ الـمـدـرـسـ فـيـ تـشـيـفـ أـذـهـانـ التـلـيمـيـذـ

وـفـيـ سـنـةـ ١٨٣٩ـ اـخـتـارـ وـلـةـ الـأـمـورـ نـجـباءـ مـدـرـسـةـ أـبـيـ زـعـبـلـ إـلـاـخـاقـهـ بـمـدـرـسـةـ
الـهـنـدـسـخـانـةـ بـيـوـلـاـقـ ، فـكـانـ عـلـىـ مـبـارـكـ ضـمـنـ هـؤـلـاءـ

دخوله مدرسة الهندسخانة

دخل مـدـرـسـةـ الـهـنـدـسـخـانـةـ ، وـكـانـ حـيـنـذـ يـافـعـاـ ، إـذـ بـلـغـ السـادـسـةـ عـشـرـةـ مـنـ عـمـرـهـ ،
فـأـخـذـ نـضـوـجـهـ الـعـلـمـيـ يـزـدـادـ وـيـنـمـوـ ، وـمـسـكـتـ خـمـسـ سـنـوـاتـ يـتـابـعـ الـدـرـسـ ، حـتـىـ اـسـتـكـمـلـ
جـمـيـعـ عـلـوـمـ الـمـدـرـسـةـ ، وـظـهـرـتـ عـلـيـهـ مـخـاـيلـ الـذـكـاءـ وـالتـقـدـمـ مـنـذـ دـخـلـهـ ، فـكـانـ دـائـماـ أـوـلـ
فـرـقـتـهـ ، وـأـسـاتـذـتـهـ فـيـهـ طـائـفـةـ مـنـ عـلـمـاءـ الـرـيـاضـيـاتـ ، مـنـ عـلـاـ ذـكـرـهـ فـيـ بـجـرـ النـهـضـةـ الـعـلـمـيـةـ ،
أـمـشـالـ : مـحـمـودـ باـشاـ الـفـلـكـيـ . وـطـائـلـ اـفـنـدـيـ . وـمـحـمـودـ بـكـ أـبـوـ سـنـ . وـدـقـلـهـ اـفـنـدـيـ . وـابـرـاهـيمـ
بـكـ زـمـضـانـ . وـاحـمـدـ بـكـ فـاـيدـ . وـسـلـامـهـ باـشاـ اـبـرـاهـيمـ . وـنـاظـرـ الـمـدـرـسـةـ الـمـسـيـوـ لـامـبـيرـ بـكـ

أحد علماء الفرنسيين . ولهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تسكن ثمة كتب مؤلفة في الفنون التي تولوا تدریسها ، بل كان المعلمون يملون ، والتلاميذ يكتبون ما يسمونه في كراريس . كل قدر اجتهاده ، وكان المعلمون كما شهد لهم بذلك المترجم « يذلون غاية جدهم في التعليم » ، وفي آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون الكتب في مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ ، إلى أن تكاثر طبع الكتب المطولة في العلوم والفنون الرياضية

انتظامه في سلك البعثات سنة ٤٨٤

تعددت البعثات العلمية المدرسية في عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلاً في كتاب « عصر محمد على » (ص ٤٥١ طبعة أولى)

وخرج من البعثات طائفة من النوابغ في عصر محمد على ، واسعيل ، ومن حسن توفيق المترجم وحسن استعداده أن انتظم في سلك البعثة الخامسة ، وهي أكبر البعثات شأنها ، وفيها بعض أنجال محمد على وأحفاده ، ولذلك يسمىها على باشا مبارك (بعثة الأنجال)

تولى القائد سليمان باشا الفرنسي اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمي مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم في مبدئها ٧٠ تلميذاً ، منهم الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير اسماعيل (الخديو) من أنجال ابراهيم باشا ، وضمت طائفة من شغلو المراكز الكبيرة في الحكومة بعد عودتهم ، أمثال شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وعلى ابراهيم باشا ، وحمد عبد العاطي باشا ، وسلامان نجاشي بك وغيرهم^(١)

وقد بدا من المترجم لمناسبة التحاقه بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى

(١) ذكرنا أسماءهم وترجمنا لنوابغهم في كتاب « عصر محمد على » ص ٤٦٥ وما بعدها

العلم ، فان الميسو لامبير يك ناظر مدرسة المهنـدـسـخـانـة رغـبـ اليـهـ الـبـقـاءـ ليـجـعـلـهـ مـدـرـسـاـ بـهـ ،
وأـفـهـمـهـ أـنـ بـقـاءـ يـعـجـلـ بـتـرـيـبـ وـظـيـفـةـ لـهـ ، عـلـىـ حـيـنـ أـنـ التـحـاقـ بـالـبـعـثـةـ يـجـعـلـهـ باـقـيـاـ فـيـ سـلـكـ
الـتـلـاـمـيـذـ ، وـيـفـوـتـ عـلـيـهـ تـلـكـ المـزـيـدـ ، لـكـنـهـ آـثـرـ الـالـتـحـاقـ بـالـبـعـثـةـ ، لـيـزـدـادـ اـكـتسـابـاـ بـالـلـعـومـ ،
وـلـأـنـ سـفـرـهـ مـعـ الـأـنـجـالـ يـزـيدـهـ شـرـفـاـ وـرـفـعةـ »

سـافـرـتـ الـبـعـثـةـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ سـنـةـ ١٨٤٤ـ ، وـوـجـهـتـهـ تـعـلـمـ الـفـنـونـ الـحـرـيـةـ ، وـأـقـامـ أـعـضـاؤـهـ
سـنـتـيـنـ بـيـارـيـسـ ، وـلـأـجـلـهـ أـنـشـئـتـ بـهـ الـمـدـرـسـةـ الـمـصـرـيـةـ لـتـعـلـيمـ الـطـلـبـةـ الـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ ،
وـإـعـدـادـهـ لـدـخـولـ الـمـدـارـسـ الـعـلـيـاـ بـفـرـنـسـاـ ، وـخـصـصـهـ بـهـ الـمـعـلـمـونـ وـالـضـبـاطـ الـفـرـنـسـيـونـ ،
وـكـانـ تـلـاـمـيـذـ الـبـعـثـةـ يـتـعـلـمـونـ الـتـعـلـيمـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ كـلـ يـوـمـ ، وـلـقـىـ الـمـتـرـجـمـ فـيـ درـاسـةـ الـلـغـةـ
الـفـرـنـسـيـةـ مـصـاعـبـ جـمـيـعـةـ ، ذـلـكـ بـقـوـةـ العـزـيـمةـ ، فـقـدـ كـانـ إـلـىـ عـهـدـ اـنـتـظـامـهـ فـيـ الـبـعـثـةـ غـيرـ عـارـفـ
بـتـلـكـ الـلـغـةـ ، شـائـنـهـ فـيـ ذـلـكـ كـشـأـنـ الـعـلـمـةـ رـفـاعـةـ يـكـ رـافـعـ الـطـهـطاـوـيـ حـيـنـاـ اـنـتـظـمـ فـيـ الـبـعـثـةـ
الـأـوـلـىـ ، وـأـقـضـىـ نـظـامـ الـتـعـلـيمـ فـيـ الـبـعـثـةـ أـنـ يـجـعـلـ مـنـ الـمـتـقـدـمـينـ فـيـ الـرـيـاضـيـاتـ (ـوـمـنـهـ الـمـتـرـجـمـ)
وـالـعـارـفـيـنـ بـالـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ فـرـقةـ وـاحـدـةـ ، وـكـلـ الـمـعـلـمـونـ أـنـ يـلـقـواـ الـدـرـوـسـ بـالـفـرـنـسـيـةـ
لـلـجـمـيـعـ ، لـأـفـرـقـ بـيـنـ مـنـ يـفـهـمـ تـلـكـ الـلـغـةـ وـمـنـ لـاـ يـفـهـمـهـ ، فـفـعـلـوـاـ ، وـأـحـالـوـاـ غـيرـ الـعـارـفـيـنـ
بـهـاـ عـلـىـ الـعـارـفـيـنـ لـيـتـعـلـمـوـاـ مـنـهـمـ بـعـدـ اـنـتـهـاءـ الـدـرـوـسـ ، وـلـكـنـ الـعـارـفـيـنـ بـالـفـرـنـسـيـةـ كـانـوـاـ
يـخـلـوـنـ عـلـىـ مـشـلـ عـلـىـ مـيـارـكـ بـالـتـعـلـيمـ ، لـيـنـفـرـدـوـاـ بـالـتـقـدـمـ

فـكـثـ المـتـرـجـمـ مـدـةـ لـاـ يـقـهـمـ الـدـرـوـسـ الـتـىـ يـسـمـعـهـ ، وـخـشـىـ الـعـاقـبـةـ ، فـعـالـجـ هـذـهـ
الـصـعـوبـةـ بـالـصـبـرـ وـالـمـاشـبـةـ ، وـقـوـةـ الـعـزـيـمةـ ، ذـلـكـ أـنـهـ أـخـذـ يـدـرـسـ الـفـرـنـسـيـةـ بـنـفـسـهـ ، وـاـشـتـرـىـ
هـذـاـ الـغـرـضـ الـسـكـتبـ الـأـوـلـيـةـ فـيـ الـهـجـاءـ وـالـلـغـةـ ، وـأـكـبـ عـلـىـ مـطـالـعـتـهـ وـتـفـهـمـهـ وـحـفـظـهـ ،
وـبـذـلـ فـيـ هـذـاـ السـسـيـلـ جـهـآـ لـاـ يـنـقـطـعـ ثـلـاثـةـ أـشـهـرـ مـتـوـالـيـةـ ، مـعـ مـتـابـعـةـ الـدـرـوـسـ الـتـىـ تـلـقـىـ
بـالـفـرـنـسـيـةـ ، فـأـمـرـ الـحـفـظـ وـالـجـهـدـ ثـمـرـةـ كـبـيـرـةـ ، وـصـارـ أـوـلـ الـبـعـثـةـ كـلـهاـ ، وـكـانـ يـتـبـادـلـ الـأـوـلـيـةـ
مـعـ زـمـيلـيـهـ عـلـىـ اـبـرـاهـيمـ وـحـمـادـ عـبـدـ الـعـاطـيـ

وـلـمـ جـاءـ اـبـرـاهـيمـ يـاـشـاـ قـائـدـ الـجـيـوشـ الـمـصـرـيـةـ الـمـظـفـرـةـ إـلـىـ بـارـيـسـ ، أـقـيمـ لـهـ اـحتـفالـ
حـافـلـ ، وـحـضـرـ اـمـتـحـانـ أـعـضـاءـ الـبـعـثـةـ ، فـسـمـعـ ثـنـاءـ مـسـتـطـابـاـ عـلـىـ حـسـنـ اـجـتـهـادـهـ ، وـوـزـعـ
الـجـوـائزـ بـنـفـسـهـ عـلـىـ النـاجـيـنـ مـنـهـمـ ، وـنـاوـلـ عـلـىـ مـيـارـكـ الـجـائزـةـ الـثـانـيـةـ بـيـدـهـ ، وـكـانـ نـسـخـةـ
مـنـ كـتـابـ فـيـ الجـغـرـافـيـةـ ، لـؤـلـفـهـ الـمـيـسـوـ مـاـلـطـبـرـوـنـ ، مـعـ جـمـوعـةـ خـرـائـطـهـ ، وـدـعـاـ الـطـلـبـةـ

إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً ، وحشا لهم على متابعة
الدرس والتحصيل

يتجلّى ذلك في هذه الصفحة من حياة المترجم بياريس ، مبلغ قوّة ارادته ، ومثابرته
على الدرس والتعلم ، وثمة ظاهرة أخرى ، تزيّن هذه الصفحة ، وهي بره بواليه ، وحنوه
عليّها ، فقد أجرت عليه الحكومة من تباه شهر يا قيمة خمسون وما تزال قرش ، بجعل نصفها
لأهلها ، يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنة
معهم منذ دخول المدارس

وهذا البرّ بالأبوين يدلّك على ما تحملت به نفس على مبارك من الوفاء ، وإنكار
الأخلاق ، وإنكار الذات ، ولاشك أن هذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها
سطوعاً وبهاء

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق ثلاثة الأول من أعضائها ، وهم
على مبارك ، وحماد عبد العاطي ، وعلى ابراهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيره
بمتز Metz ، ونالوا رتبة الملازم الثاني في الجيش الفرنسي ، فأقاموا سنتين آخرتين يتعلّمو
الفنون الحربية

وبعد أن أدوا الامتحان النهائي ألحقو بالجيش الفرنسي ، فكان على مبارك في
الألاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ، وبديهى انه اكتسب
باتظامه في هذه الفرقه خبرة كبيرة ، في الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التي
ناهيا في مدرسة المهندسخانة بيولاق . ومدرسة باريس ، ومدرسة متز الحربية والهندسية ،
فلا غرو أن صار من نوابع المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه في إدارته وصلاحه السكك
الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال في عصر اسماعيل

وكان ابراهيم باشا يرغب في أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلما ، وأن يطبلوا مكتسبهم في
الخدمة العسكرية بفرنسا ، حتى يستوفوا تجربتها ، ثم يتنقلون في الديار الأوروبيه الأخرى
ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا ما فيها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن

المنية حالت دون إنجاز هذا البرنامج ، إذ توفي ابراهيم وخليفه عباس الأول ، فطلب الى نوابع البعثة العودة فوراً الى مصر ، فرجعوا اليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة ، الى دور العمل والإنتاج

عمل المترجم في عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الاطلاع ، صادق العزم ، مقبلاً على العمل بكل مافية من نشاط وهمة ، ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءاته في النهوض باعمال التقدم وال عمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته الى مصر ، لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءاته ، فانقضى نحو أربعة عشر عاماً ، والبلاد تكاد تحرم من أعماله المنتجة ، وخاصة في عهد سعيد الذي كان يبخشه حقه ، ولا يعرف قدره ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا في عصر اسماعيل الذي عرف كيف يوجه هذه القوة الى إحياء النهضة العلمية في البلاد

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ، ولكن التعليم في عهد عباس باشا الاول كان مصاباً بالجحود والإهمال ، فتناقص عدد التلاميذ في هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة المفروزة ، واختار لها الطلبة من جميع المدارس ، بعد إلغاء معظمها ، فلم يبق بمدرسة طره الا عدد قليل من الطلبة المتقدمين في السن ، وأمعننت المدرسة في التأخر حتى لم يبق في الفرقه التي يلقي فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد

صار المترجم إذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل اليه نفسه ، لأنه اعتاد الجد والدأب على العمل ، ولقد حدثته نفسه ان يتختلف عن المدرسة في اجازة ليزور أهلها بعد غيابه الطويلة عنهم ، فرحب اليه ناظر المدرسة في البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه اذا هو غاب عنها

مصاحبيه سليمان باشا الفرنسي

وسعى له الناظر عند الجنرال سليمان باشا الفرنسي القائد العام للجيش المصري ،

ليصطحبه في مهمته حرية وهي اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشهالية ، فتم له
ماؤراد ، وصاحب المترجم سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوبًا منه ، وهو
ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسمًا مفصلاً لمواقعها ، وكتب تقريرًا عنها ثم ذهب إلى بلده
برنسبال ، وكان أهله قد رجعوا إليها منذ مدة واستقروا بها

زيارة لأهله

فدخل البلدة ليلاً على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق
الباب ، وكان أبوه غائبًا بمصر ، ولم يكن بالدار سوى والدته وبعض إخوته ، وكان قد
فارق أمه منذ أربع عشر سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره تلك الليلة ، فلما طرق الباب ،
قيل من أنت؟ فقال : ابنكم على مبارك ، فقامت مدهوشة ، وقصدت إلى ماوراء الباب ،
وجاءت تنظر وتمنع النظر ، لتتحقق الخبر ، وكان هو برداه العسكري ، متقلدًّا آسيفيه وحاملاً
شعار الضباط ، فلم تصدق أنه هو ، حتى أعادت سؤاله وتحقق أنّه هو ، ففتحت الباب ، وما أن
رأته حتى ارتمت عليه تعانقه ، ووقعت مغشياً عليهما من الدهشة والفرح والتأثر ، ثم أفاقت ،
وجعلت تبكي ، وتضحك ، وتزغرد ، فأقبل أهل البيت ، وجاء الأقارب والجيران يهرعون ،
وامتناعتهم الدار ، وانقضى الليل حتى الصباح ، والناس بين راح وغاد ، يحيّون لتهنئته ، وأقامت
أمه الأفراح ابتهاجاً بعودته إليها العزيز ، وبلغه هذه الرتبة العالية ، وبعد يومين قضاهما
بين أهله وعشيرته ، عاد إلى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنسي نتائجه
تجواله في بحيرة المنزلة ، فوّقعت عنده موقعاً للإحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب

التحاقه بمعية عباس باشا

وفي أثناء صحبته سليمان باشا الفرنسي سعى له في منصب آخر بدلاً من التدريس
في مدرسة طره ، فنجح في إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان
مقره الاسكندرية

فذهب إليها المترجم ليتسلّم منصبه الجديد ، ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته
هو وحماد بك ، وعلى بك إبراهيم ، وكلفهم امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمي المدارس ،
 وأنعم عليهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة ، واستبدل بالمهندسين القدماء المهندسين

اكفاء من خريجي مدرسة المهندسخانة ، وأتم في خلال ذلك مهامات أخرى هندسية ،
إذ أحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تمهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً
وأفيأً بهذا المشروع

ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك Mougel كبير
مهندسي القناطر الخيرية وضع نظام لمرور السفن من القناطر التي كان بناؤها قد قارب
النهاية ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميليه على إبراهيم وحمداد عبدالعاطى كل
الأعمال الهندسية التي تطلبها دواوين الحكومة

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس في وضع نظام جديد للمدارس ، بعد أن الغي معظمها ، في أواخر
سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لا مبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس
المملوكية والرصدخانة تبلغ ٢٠٠٠٠ كيس (١٠٠٠ جنية) ، فاستكثر عباس هذا
المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس المملوكية ميزانية تبلغ خمسة
آلاف جنيه ، على أن تكون في مكان واحد ، وبإدارة ناظر واحد ، واستبعد الرصدخانة
من المشروع ، لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولــكثرة نفقاتها

ناظرته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه ، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء
الدواوين ، فبحثوه وأقروه ، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة أمير الای ، وعهد إليه
بتقديمه ، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس المملوكية ، وكلفه
اختيار مدرسي مدرسة المفروزة ، ووضع نظام للتعليم فيها ، و اختيار ما يلزم لها من
الكتب ، فاضطلاع بهذه المهمة ، وعظمت منزلته عند عباس باشا

وبذل جهداً عظيماً في ترقية شأن المدارس التي تولى إدارتها ، فكان يرشد المعلمين
إلى خير الطرق للتدريس ، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها ، ويقوم بتأليف الكتب
المدرسية بنفسه ، يعاونه بعض المعلمين ، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها
المدارس الحربية والأيات الجيش نحو ستين الف نسخة ، من كتب متعددة ، غير مطبع

في كل فن بطبعه الحجر للمهندسةخانة ، من الكتب ذات الأطالس والرسوم ، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس ، كالطبيعة والعمارة ، ويُعنى مُشديد العناية بتوفير حاجات الطلبة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، ويُسهر على حسن معاملتهم ، فارتفقت حالتهم الفكرية والمعنوية ، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس

في عهد سعيد باشا

اشتراكه في حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مَرْضِياً عنه من سعيد باشا ، فقد ذكر عنه أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة ووصفوها بـ المليس له نصيب من الصحة ، واختلفوا عليهما عما يكتبـ ، حتى أوغرـوا صدر سعيد على المترجم فأمرـه بالاشـراك في سـرـب القرـم سنة ١٨٥٤ ، صحـبة الجـلة المـصرـية التي كان يقوـدهـا
أحمد باشا المنـكـلي

وليس من ضير على الحكومة اذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشتـركـ في حـرب القرـم ، فقدـنـالـ حـظـاـكـبـيرـ أـمـنـ التـعلـيمـ الـحـربـيـ ، وـتـخـرـجـ فـيـ أـرـقـ المـدارـسـ الـحـربـيـةـ الـفـرـنـسـيـةـ ، ولـكـنـ مـلـابـسـاتـ هـذـاـ إـعـلـمـ تـدلـ عـلـىـ أـنـ الغـرـضـ مـنـهـ لـمـ يـكـنـ الـاستـفـادـةـ مـنـ خـبـرـةـ المـتـرـجمـ ، إـذـ لـمـ يـعـهـدـ إـلـيـهـ فـيـ حـربـ القرـمـ بـعـملـ حـربـيـ ذـيـ شـأنـ ، تـحرـمـ مـنـ أـجـلـهـ مـدـرـسـةـ المـهـنـدـسـخـانـةـ كـفـاءـةـ نـاظـرـهـاـ الـقـدـيرـ ، وـمـنـ جـهـةـ أـخـرىـ فـقـدـ اـقـتـرـنـ تـكـلـيفـهـ مـرـفـقـةـ الجـلةـ بـإـلـغـاءـ مـدـرـسـةـ المـهـنـدـسـخـانـةـ ، فـالـغـرـضـ الـحـقـيقـيـ كـانـ إـذـنـ اـبـعادـ المـتـرـجمـ ، وـإـقـفالـ هـذـاـ المـعـهـدـ الـعـلـمـيـ الـعـظـيمـ الـذـيـ أـخـذـ عـلـىـ عـاتـقـهـ تـرقـيـتـهـ وـإـنـهـاضـهـ ، فـالـعـلـمـ كـاـتـرـىـ ضـرـرـهـ أـكـثـرـ مـنـ نـفـعـهـ ، وـشـرـهـ أـكـثـرـ مـنـ خـيـرـهـ ، ولـكـنـ أـهـوـاءـ سـعـيدـ باـشاـ (ـوـقـدـ كـانـ دـائـماـ كـثـيرـ التـقلـبـ فـيـ الـآـراءـ) جـعـلـتـهـ يـصـفـيـ لـوـشـاـيـةـ الـدـسـاسـيـنـ ، وـيـوـصـدـ أـبـوابـ تـلـكـ المـدـرـسـةـ ، ثـمـ يـحـرـمـ الـبـلـادـ خـدـمـاتـ عـلـىـ بـلـكـ مـبـارـكـ الـعـلـمـيـ ، ذـلـكـ آـنـ عـلـىـ مـبـارـكـ ، وـإـنـ كـانـتـ درـاسـتـهـ الـعـلـيـاـ عـسـكـرـيـةـ ، لـكـنـ نـفـسـهـ اـتـجـهـتـ إـلـىـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ غـيرـ الـحـيـاةـ الـحـربـيـةـ ، وـهـيـ نـاحـيـةـ التـعلـيمـ وـتـنـظـيمـهـ وـالـنـهـوضـ بـأـعـبـائـهـ ، فـكـانـ وـاجـباـ عـلـىـ سـعـيدـ باـشاـ أـنـ يـسـتـخـدـمـ مـوـاهـبـ المـتـرـجمـ فـيـ هـذـاـ الـمـيدـانـ ، وـأـنـ يـعـملـ عـلـىـ الـأـقـلـ لـلـمـحـافظـةـ عـلـىـ نـهـضـةـ الـعـلـمـ وـالـتـعلـيمـ الـتـيـ اـزـدـهـرـتـ فـيـ عـهـدـ أـيـهـ ، ولـكـنـ الـمـعـرـوفـ

أن هذه النهضة قد اضمحلت وترجعت في عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها الشاط
والحياة إلا في عصر إسماعيل

ويستفاد مما ذكره المترجم انه شعر يأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان
مقصوداً به إبعاده ، والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله : « أقمت بهذه السفرة قريباً
من سنتين ونصفاً ، وقد لطف الله بي وأحسن إلى » ، ورد كيد الحاسدين في نحورهم ، فانى
وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار ، وما يلحق المجاهدين من الإرتجاف والاضطرابات ،
والحرمان من المأowفات ، لكنني رأيت بلاداً وعواائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت
لأعترفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » ، فيؤخذ من ذلك ان همة حاسدين
كانوا يكيدون له ، ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم ، وإرساله إلى
ميادين الحرب المحفوفة بالمخاطر والأخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم ، وعاد
من الحرب سالماً وقد نال مزايا جمة

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحلة ، فان الاشتراك في الحرب من شأنه أن
يقوى في النفس روح الشجاعة والإقدام ، ولو اشترك المترجم في اقتحام المخاطر ،
والبقاء في خط النار ، لكن أثر هذه الحلة في نفسه أقوى وأعظم ، ولزداد حظه من
الشجاعة والجرأة ، ولو قف من الحكومات المتعاقبة التي تولت الحكم في مصر موافق
أعظم شأنها من خطة الain والمسالمة التي اختطها لنفسه ، ومهما يكن من الأمر ، فلانزع
في أن مداركه قد اتسعت وخبرته قد اكتملت في تلك الحرب

أقام المترجم عشرة أشهر في بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المفاوضات والمخابرات
بين الروس والترك ، وأقام مئانية أشهر أخرى في بلاد الأناضول ، وأغلبها في مدينة
(كومشخانه) ، وكان منوطاً به تسهيل نقل الجندي من مدينة طرابزون الواقعة على البحر
الأسود ، إلى مدينة أرض روم بأرمينيا ، وعلى أن هذه المهمة ليست من ضروب القتال
الفعالية ، فقد لاق فيها الشدائـd والأهوال ، لشدة البرد ، وكثرة الثلوج في تلك الجهات
ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز ما فيها من العقبات ، بين جبال شاهقة وأودية سحيقة
وقد مرض كثير من الجنديـd لما أصابهم من البرد القارس ، وأنشا لهم المترجم

مستشفى بکو مشخانة ، نظمه تنظيم حسناً ، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤسها
الجيش

عودته الى مصر والوظائف التي تولاهَا

ولما عاد المترجم الى مصر اعترضته في الحياة عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيد
باشا أمر بخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم الى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ،
ومنهم على بك مبارك ، فسكن في بيت صغير ، وعاني غضاضة العسر والضيق ، وصارت
حاليه بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا ، كحالاته عند ما عاد منها ، وفقد ما كان
يملكه ويؤمله من المناصب ، وفقد ماله ، وشعر ببرارة اليأس تنفسه عليه حياته ، ودخله
المهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم
يجد من ولاة الأمور إنصافاً ولا تقديرأ ، واعتمد الرجوع الى بلده والاشتغال بالزراعة
وقال لنفسه : « عوضنا الله خيراً في نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا
ما فارقنا البلد ، ولاخر جنا منها »

وبينما كان يتأنب للرجوع الى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى
القلعة ، فكان هو من أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول

وبعد قليل عين معاوناً بوزارة الحربية ، وأحال عليه النظر في التحقيقات الخاصة
بالمصانع الحربية والمخابرات (مخازن البارود) ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ،
لتفاهته وعمقه ، ولكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ،
وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية وقتئذ (إسماعيل باشا الفريق)
في وضع رسم لبعض المنشآت الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار في إتمامه ، فاستدعي
على بك مبارك لما كان يعهده فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى
عليه الفريق ، ووعده يأن يذكره بالخير عند سعيد باشا

وقد وفي إسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا يلتحق
المترجم بمستودع الداخلية ، وكان يحال عليه النظر في بعض القضايا ، ثم عهدت اليه
وكالة المحكمة التجارية ، فاضطلاع باعبيتها بأمانة ونزاهة ، ولكن سلفه فيها وشي به لدى

سعید باشا ، فرفت منها ، وعاد كابدا ، عاطلا من المنصب ، واعتكف في بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لمنصبه نصف الوجه القبلي ، ثم استدعاه سعید باشا ، وعهد اليه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع الحماد (جنوبى رشيد) ، بين فرع رشيد وبحيرة أدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات وأدى المهمة على خير مایرام ، ولكنـه عند ما أراد أن يعرض الرسم على سعید باشا لم يستطع تقديمـه إليه ، وتردد عليه آنا في طره ، وآونة في قصر النيل ، فلم يتيسر له مقاباته ، واضطـر للازمـة معـيته في السـفر من بلدـ إلى بلدـ ، مـدة ثلاثة أشهر ، بلا راتـب ، ولا عمل ، دونـ أن يظـفـر بتـقـديـمـ الرـسـمـ المـطلـوبـ ، إلـىـ أنـ رـأـهـ سـعـیدـ يـوـمـاـ فيـ الجـيـزةـ ، فـذـكـرـ الرـسـمـ الـذـىـ كـفـهـ بـهـ ، وـسـأـلـهـ عـنـهـ ، فـقـدـمـهـ إلـيـهـ ، فـنـظـرـ فـيـهـ قـلـيلاـ وـلـمـ يـزـدـ عـزـ قولـهـ : «ـ أـبـقـهـ حـتـىـ نـجـدـ وـقـتـاـ لـإـعـانـ النـظـرـ فـيـهـ »ـ ، وـكـانـ هـذـهـ الـاجـابـةـ نـتـيـجـةـ الـانتـظـارـ مـدـدـةـ ثـلـاثـةـ أـشـهـرـ ، ثـمـ لـمـ يـلـفـتـ إـلـيـهـ بـعـدـ ذـلـكـ ، وـلـكـنـهـ أـمـرـ بـرـبـطـ مـرـتبـ مـرـتـجـمـ ، وـبـقـيـ فـيـ مـعـيـتـهـ زـمـنـاـ طـوـيـلاـ بلاـ عـملـ إـلـىـ أـنـ أـصـدـرـ سـعـیدـ أـمـرـهـ بـاختـيـارـ بـعـضـ الـعـلـمـيـنـ لـتـعـلـيمـ الضـيـاطـ وـضـفـ الضـيـاطـ الـخـارـجـينـ مـنـ تـحـتـ السـلـاحـ الـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ وـالـحـاسـبـ ، فـتـقـدـمـ عـلـىـ بـكـ مـبـارـكـ لـلـقـيـامـ بـهـذـهـ الـمـهـمـةـ ، ليـشـغـلـ نـفـسـهـ بـعـملـ مـاـ ، مـهـماـ كـانـ ضـئـيلاـ ، لـأـنـ نـفـسـهـ كـانـتـ تـعـافـ الـكـسلـ وـالـبـطـالةـ ، فـصـارـ يـدـرـسـ لـهـ حـرـوفـ الـهـجـاءـ ، وـالـخـطـ وـالـمـبـادـيـ الـأـوـلـيـةـ فـيـ الـرـيـاضـيـاتـ وـالـقـوـاعـدـ الـهـنـدـسـيـةـ ، وـعـاـونـهـ فـيـ التـدـرـيـسـ اـثـنـانـ مـنـ الـمـدـرـسـيـنـ ، وـوـضـعـ فـيـ ذـلـكـ كـتـابـاـ مـخـتـصـراـ فـيـ الـحـاسـبـ وـالـهـنـدـسـةـ وـطـرـقـ الـاـكـتـشـافـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ سـمـاهـ (ـ تـقـرـيبـ الـهـنـدـسـةـ)ـ .

وـكـانـ يـشـغـلـ أـوـقـاتـ فـرـاغـهـ بـالـمـطـالـعـةـ وـتـدوـنـ بـعـضـ الـمـلـاحـظـاتـ عـلـىـ مـاـيـقـرـؤـهـ ، جـمـعـهـاـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ كـتـابـ سـمـاهـ (ـ تـذـكـرـةـ الـهـنـدـسـيـنـ)ـ ، يـحـتـوىـ عـلـىـ فـنـونـ شـتـىـ مـاـيـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـمـشـتـغلـونـ بـالـهـنـدـسـةـ ، وـلـهـ اـعـتـزـمـ سـعـیدـ باـشـاـ السـفـرـ إـلـىـ أـورـوـبـاـ أـمـرـ بـرـفـتـ أـغـلـبـ مـنـ كـانـ بـعـيـتـهـ ، فـكـانـ الـمـتـرـجـمـ ضـمـنـ الـمـرـفـوـتـينـ ...

وـأـمـرـ قـبـلـ ذـلـكـ بـيـعـ مـهـمـاتـ مـدـرـسـةـ الـهـنـدـسـخـانـةـ وـأـدـوـاتـهـ وـكـتـبـهاـ ضـمـنـ كـثـيرـ مـنـ تـعـلـقـاتـ الـحـكـومـةـ الـتـىـ اـعـتـبـرـتـ «ـ زـائـدـ عـنـ الـحـاجـةـ »ـ ، فـدـهـشـ الـمـتـرـجـمـ ، إـذـرأـيـ هـذـهـ الـنـفـائـسـ تـبـاعـ بـالـمـزـادـ بـأـنـسـ الـأـمـانـ ، وـفـيـ جـمـلـتـهاـ الـكـتـبـ الـتـىـ طـبـعـهـاـ أـثـنـاءـ نـظـارـتـهـ هـذـهـ الـمـدـرـسـةـ ، فـدـخـلـ الـمـزـادـ وـاشـتـرـىـ مـنـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ مـاـمـكـنـهـ اـبـتـيـاعـهـ

ولما اشتغل الضيق بالمتجم فــكر في الاشتغال بالتجارة ، فاتجر فيها اشتراكه ، وعامل التجار ، وــكر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الإنفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر يتاجر مدة شهرين ، ثم فــكر في التفرغ للتجارة والإعراض عن مناصب الحكومة . إنما رأه من اضطراب الأحوال وتقلب الأمور ، مما كاد يفقده ثرات العلوم ، وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثير بنوه . نفذ ماجمعه من الســد والتعب ، فــثر الاحتراف بالتجارة وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة . فيبحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية . فلم يجد من يوافقه على مشروعه . فــكر في القيام به بنفسه ، وفيما كان يــكر في مخرج من الضيق الذي اشتغل به طرق سعيد باشا طارق المنون في أوائل سنة ١٨٦٣ . فكان لوفاته أثر كبير في حياة المتجم . ذلك أن اسماعيل لم يــكــد يعتلي العرش حتى فــكر في استخدام مواهب زميله القديم في البعثة ، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمامه على بك مبارك

أعماله في عهد اسماعيل

لما تولى اسماعيل الحكم ألحق المتجم بمعينه ، ثم جعله ناظرآ على القناطر الخيرية ، وكانت إلى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لإغفال عيونها ، والمانع من إيقافها ما قرره المهندسون من أن القناطر لا تتحمل ضغط المياه قبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت إلى فرع رشيد ، وحرم فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض على المتجم ارتأى إغفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل الحديو برأسه وأمر بإيقافها . فانحدرت المياه إلى فرع دمياط ، ونالت البلاد التي تزوي منه منافع الري وخيراته ، وأما الخلل الذي كان متوقعاً حصوله في بعض العيون بقنطرة فرع رشيد فقد تلاقه المتجم ، إذ أقام حاجزاً من الخشب أحاط بالقناطر ، فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه ، وهكذا تبين صواب الرأي الذي ارتأه على بك مبارك ولما حفر رياح المنوفية ^(١) أحيل على المتجم إنشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على

(١) حفر رياح المنوفية لأول مرة في عهد سعيد باشا وأعيد حفره وتعقيمه في عهد اسماعيل

أحسن نظام؛ وفي سنة ١٨٦٥ ندبته الحكومة المصرية عضواً عنها في اللجنة التي ألغت
لتقدير الأراضي التي صارت حقاً لشركة القناة طبقاً لحكم الامبراطور نابليون الثالث،
فأدى هذه المهمة خير الأداء

وكالة وزارة المعارف

وفي سنة ١٨٦٧ جعل وكيلًا لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس)، وكان
يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع بقاء
ناظرة القنطر الخيرية في عهده، ويبداً من ذلك الحين عهد جديد للمترجم، إذ صار له
بِحُكْمِ مَنْصِبِهِ النفوذُ الْكَبِيرُ الَّذِي يُسْمِحُ لَهُ بِإِنْفَادِ إِصْلَاحَاتِهِ فِي دَائِرَةِ التَّعْلِيمِ الْعَامِ

كان من مزايا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه، ويبذل كل ما في وسعه ليقوم به على
الوجه الأكمل، فانتهز ندب الخديو اسماعيل أيام رحلة مالية إلى باريس عقب تعيينه وكيلًا
لوزارة المعارف، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس في فرنسا،
ليقتبس ما يراه صالحاً لمصر، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يوماً بما فيها
الذهاب والإياب. فقد اطلع على مناهج التعليم في المدارس الفرنسية، والكتب المقررة
فيها، ودرس أيضاً نظام المدارس العامة المبنية تحت الأرض في باريس

توليه وزارة المعارف والأشغال

وبعد عودته إلى مصر أُنْعم عليه الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرميران، فصار
يعرف من ذلك العهد بعلي باشا مبارك، وأُسنِدَ إِلَيْهِ إِدَارَةَ مَصْلَحةِ السَّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ، ووزارة
المعارف والأشغال، وبعد قليل ضمت إليه ناظرة ديوان الأوقاف، فجمعت بين هذه
المناصب الرفيعة، مع بقائه ناظراً للقنطر الخيرية والتتحافه بالمعية

العصر الذهبي في حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبي في حياة المترجم، وهو العصر الذي حفل بالأعمال العظيمة،
التي خلدت اسمه في تاريخ مصر الحديث، وخاصة في نهضتها العلمية

وأول ما يلفت النظر في هذا الدور من حياته ، كفامةه الممتازة في اضطلاعه بأعباء وزارات المختلفة ، فقد كان في وقت واحد وزيراً للمعارف ، والأشغال . والأوقاف ، ومديراً عاماً للسكنك الحديدي ، وناظراً للقنطر الخيرية ، وهى مهام جسام ، تنوع بالعصبية من الرجال ، ولكن على باشا مبارك قام بها جميعاً ، وأظهر من السفارة وقوة الإرادة والجلد على العمل ما يدعوه حقاً للإعجاب ، وصدق كلّمة المتواضعه التي قالها في هذا الصدد عن نفسه : « فبدلت جهدي ، وشررت عن ساعده جدي ، في مباشرة تملك المصالح فقمت بواجهها »

وهنا تتجلی ميزة كبيرة للمترجم ، تطـالعـنا بنـاحـيـة من نـوـاـحـيـ شـخـصـيـةـ ، وـهـيـ مـقـدـرـتـهـ علىـ الـاضـطـلـاعـ بـالـمـهـامـ الـعـظـامـ ، فـقـدـ يـكـونـ لـعـلـىـ باـشـاـ مـيـارـكـ أـنـدـادـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـذـكـاءـ بـيـنـ زـمـلـائـهـ الـذـينـ تـولـواـ مـخـتـلـفـ الـوزـارـاتـ وـالـمـنـاصـبـ الـعـالـيـةـ ، وـلـكـنـاـ نـعـتـقـدـ أـنـهـ بـذـ "ـأـقـرـانـهـ فـيـ الجـمـعـ بـيـنـ مـزـايـاـ مـتـعـدـدـةـ ، وـهـيـ الـكـفـاءـةـ وـالـجـلـدـ عـلـىـ الـعـمـلـ ، وـالـإـخـلـاـصـ ، وـالـنـزـاهـةـ فـيـ أـدـاءـ وـاجـبهـ ، وـإـتـفـانـ الـأـعـالـىـ الـكـبـيرـةـ الـتـىـ تـعـهـدـ إـلـيـهـ ، عـلـىـ مـاـنـقـتـهـ ضـنـيـهـ مـنـ جـهـودـ وـمـتـابـعـ ، فـالـأـرـسـ الـذـىـ يـسـعـ وزـارـاتـ الـمـعـارـفـ ، وـالـأـشـغالـ وـالـأـوقـافـ ، مـعـ اـدـارـةـ مـصـلـحةـ مـتـشـبـعـةـ الـأـعـالـىـ كـالـسـكـكـ الـحـدـيدـيـةـ ، وـالـكـفـاءـةـ الـتـىـ تـضـطـلـعـ بـكـلـ هـاـتـيكـ الـمـصـالـحـ ، وـالـهـمـةـ الـتـىـ تـصـرـفـ شـؤـونـهـاـ الـمـخـلـفـةـ ، وـتـبـتـكـرـ لـهـاـ الـمـشـارـيعـ الـجـمـةـ ، كـلـ ذـلـكـ لـاـ يـصـدرـ الـأـعـنـ نـبـوغـ فـذـ ، وـهـذـاـ وـحـدـهـ يـعـطـنـاـ فـيـ كـرـبةـ صـادـقـةـ عـنـ شـخـصـيـةـ الـمـتـرـجمـ

وزع على باشا مبارك او قاته بين هذه الوزارات المختلفة ، خصص نصف النهار من الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف ، ومن بعد الظهر إلى الغروب لادارة المسكك الجديدة

في وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة إلى ترقية شؤون التعليم في البلاد

نقله المدارس الى درب الجماميز

وأول أعماله نقل المدارس من العباسية الى درب الجامعات ، ذلك انه رأى مآية كبد له

التلاميذ وأهلوهم والأساتذة من المتابع والمشاق والنفقات ، في ذهابهم الى العباسية ، ولإيابهم منها ، فاستصدر من الخديو إسماعيل إذنا بنقل المدارس الى درب الجماميز ، وخصص لها سراي الأمير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك وجعلها على استعداد لزيادة المدارس والمعاهد وخصص سلاملك السراي لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة في ناحية من السراي ، فصارت أشبه ما تكون بالجامعة وجعل بها أيضا وزارة الأشغال ، وديوان الاوقاف ، فسهل عليه القيام بأعباء الوزارات المختلفة ومع اضطلاعه بأعباء هذه الوزارات ، كان لا ينفك يعني يتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين في المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها . وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم

لائحة التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنایته منذ تولی وكالة الوزارة إلى إصلاح التعليم في المكاتب ، وتحويل ما يمكن تحويله من السكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية ، فوضع لذلك لاخته المشهورة بلاشقة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التي نظمت المدارس ، ودعا طائفة من المشغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويفحشوه ، ويدوا آرائهم فيه ، فدرسوا اللائحة وأقروها ، وصدر أمر الخديو بإجراه العمل بمقتضاها في مايو سنة ١٨٦٨

وانشئ في عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية في القاهرة وعواصم المديريات وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الاوقاف في يده أثر كبير في نهضة التعليم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الاوقاف الخيرية استطاع إعداد كثير من الامكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد اصلاحها ، ولو لم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المباني معطلة لا ينفع بها ، ولعجزت الحكومة عن النفقات التي يقتضيها إنشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الإشراف على معاهد العلم الموقوفة أن ينظمها ويحوطها الى مدارس نظامية ، فأحياناً هذه المعاهد بعد ما درست في أيدي نظار الوقف الخامelin ، وكذلك أحسن إدارة أموال الاوقاف الخيرية ، واستخدم جانباً منها في الإنفاق على التعليم بعد أن كانت تبدد وتضيع هباء

وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرین مصروفات قليلة توخذ منهم برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك الباقيين مجانا ، واستوفى باقى نفقات المدارس من إيراد الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديو اسماعيل إيراد أطيان تفتیش الوادى بالشرقية ، كما منحها بعض الأملالك الذى آلت إلى بيت المال من بعض الترکات ، فكانت هذه الموارد هي التى ينفق منها على تلك المدارس عدا ما يخصص لها في الميزانية السنوية والمصروفات الضئيلة التي يدفعها أهالى التلاميذ ذوى الاقتدار واليسار

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفاء ، وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوتى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمه ماضية ، فأنشأ « دار العلوم » كاسيسجيء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم ، كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين من أتموا دروسهم في المدارس العالية ، كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الادارة (الحقوق) ، بأن يجعلوا أولاً معيدين لدورس المعلمين زمانا ، ثم يصيرون معلمين استقلالا ، ولم تكن مدرسة المعلمين العليا قد أنشئت بعد

دار العلوم

هي من أجل منشآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة الغريبة والأدب للمدارس الابتدائية ، ثم للمدارس كافة

ومرجع الفكرة في تأسيسها ، انه لما أنشئت المدارس الابتدائية ، واتجه العزم إلى الإكثار منها ، مسست الحاجة إلى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة وآدابها في المدارس الحديثة ، فارتى المترجم إنشاء مدرسة عالية دعاها « دار العــلوم » لتخريج أولئك الأساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر ، من حفظوا القرآن الشريف وتقوا دروس اللغة والفقه ، واختيروا لهذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعليم فيها

على العلوم التي لا تدرس في الأزهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع إتقان علوم الأزهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه واختيار المترجم للتدرис في دار العلوم جماعة من جلة العلماء الاكفاء في العلوم الأزهرية والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجانياً ، مع دفع مرتب شهري للتلמיד وقد أئمرت المدرسة ، وتخرج منها أساتذة اللغة والأداب العربية للمدارس الابتدائية في القاهرة والأقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ، ويعد إنشاء دار العلوم أعظم خدمة أسدتها المترجم لإحياء اللغة العربية وأدابها في مصر

دار الكتب

أسست سنة ١٨٧٠

أنشئت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع إلى عهد محمد علي ، فقد أنشأ مستودعاً لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسيني ، ولما ول إسماعيل الحكم أضاف إليها نحو الفي مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ، ابتعثها من تركة حسن باشا المناسيري ، ثم تطورت الفكرة إلى إنشاء دار عامة للكتب

ويستفاد مما ذكره على باشا مبارك في الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع إلى الخديو إسماعيل ، فإنه رغب في إنشاء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة في مخازن الحكومة ، ومكاتب الأوقاف وفي المساجد ونحوها ، وأمر المترجم بالنظر في ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب في سرائي درب الجماميز بجوار المدارس

ولكن يؤخذ مما جاء في الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) أن صاحب الفكرة في هذا المشروع الجليل هو على باشا مبارك ذاته ، فقد قال في هذا الصدد:

«ثم ظهر لي أن أجعل كتبخانة خديوية ، داخل الديار المصرية ، أضاهى بها كتبخانة باريس ، فأستأذنت الخديوي إسماعيل باشا في ذلك ، فاذن لي ، فشرعت في بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضاً (بدرب الجماميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ما تشتت من

من السكتب التي كانت بجهات الأوقاف ، زيادة على ماصار مشتراه من المكتب العربية والفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظرآ ورتبت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها ، وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أفعى التجديفات التي حدثت في عهد الخديوي اسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام ، للخاص والعام»

وقد ابتعاد اسماعيل باشا بمجموعة السكتب القيمة التي تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته ، وأهداها إلى دار السكتب

وأنفق على الدار من ميزانية المدارس ، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات وخطوطات ما كان يمكنهم الوصول إليها لولا إنشاء هذه الدار ، فأدت ولا تزال تؤدي خدمات جليلة للنهاية العلمية والأدبية

مجلة (روضة المدارس)

ومن أجل منشأته العلمية إنشاء مجلة «روضة المدارس» على نفقة وزارة المعارف وبإشرافها ، وستتكلّم عنها فيما يلي :

مدرج المحاضرات (الافتياز)

ورتب دروساً عامة أو محاضرات دوزية بالافتياز (المدرج) بسرای درب الجمامين سنة ١٨٧١ ، فعهد إلى النابحين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتشريف أذهان الطلبة

وكان يشجع هذه الحركة فيحضر المحاضرات بنفسه ، وهذا حذوه كبار الموظفين في مختلف الوزارات ، وخاصة وزارة المعارف ، وكان يحضرها أيضاً عدداً طلبة المدارس العالية . فريق من طلبة الأزهر ، وهم الذين صاروا أنواة دار العلوم التي أنشئت سنة ١٨٧٢ وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار إليهم بالبيان ، فكان الشيخ حسين المرصفي يدرس الآداب العربية ، واسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكي ناظر المهندسخانة يدرس علوم الفلك باللغة العربية ، ومنصور افتدي أحمد أحد أساتذة المهندسخانة ، يلقى محاضرات في الطبيعتيات ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسي الأوقاف في المپاني ،

وجيجهيون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع في الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصري القديم في التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى في فقه الإمام أى حنيفه ، والشيخ أحمد المرصفي في التفسير والحديث ، والمسيو بكتيت في الطبيعيات ، وأحمد بك ندا في علم النبات وغيرهم الخ الخ^(١)

معمل الكيمياء والطبيعة

وأنشأ بدر ب الجاميز أيضاً معيناً للكيمياء والطبيعة لتوسيع مدارك التلاميذ في العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاربها ومشاهداتها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية

أعماله الهندسية

ان شهرة على باشا مبارك تقوم في الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له آثر آخر في أعمال العمارة التي تمت في عهد اسماعيل ، منها ما يختص بالرى ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخرى

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الاشتغال سنة ١٨٦٨ ، قد عهد إليه الخديو بمعظم الأعمال الهندسية التي استحدثت في ذلك العهد

فاشترك في تنظيم القاهرة ، وتوسيع شوارعها وحاراتها ، وإنشاء أحياها الجديدة ، ومعظم الأعمال التي تمت من هذا القبيل نفذت في عهده ، مثل شارع محمد على ، وميدانه ، وشوارع الأزبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة ببابدين ، وباب اللوق وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها

قال في هذا الصدد : « وجرى العمل على ذلك ، فظهرت كل هذه المباني الحسنة ، والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضراء النضرة ، المستوى جبة للقادمين على المدينة ان شراح الصدور ، والفرح والسرور ، وأزيل ما كان بجهتها البحريه من التلال التي كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح ، ثم تبرع الخديو اسماعيل

(١) من كتاب (التعليم العام في مصر) لأمين سامي باشا ص ٢٤

للراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المباني المشيدة ، والبساتين العديدة ، وناهيك بتصور
الإسماعيلية دورها وبساتينها وشوارعها ، التي يكل الوصف عن محاسن بمحاجتها «
واشترك في استحداث الإنارة بغاز الاستصحاب ، واقامة وابور المياه لتجهيز القاهرة
بماء الشرب الصالح بواسطة شركة النور والمياه ، وإقامة (كوبرى) قصر النيل البديع ،
وغير ذلك من الأعمال النافعة

وساهم أيضاً في أعمال العمران بمدينة الإسكندرية والسويس ، وما أقيم في المديريات
من الدواوين ، والجسور ، والقنطر ، والترع ، قال في هذا الصدد : « وهذه الأعمال جمجمها
أو أكثرها كانت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك ،
لتعلقها بديوان الأشغال ، فكانت في مدة إحالة هذه الدواوين على مشغول بالمصالح
الاميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلاً ونهاراً ، حتى لأرى وقتاً التفت فيه لاحوالى
الخاصة بي ، ولا أدخل بيتي إلا ليلاً ، بل كنت أفكرا في الليل فيما يفعل بالنهار »

وكان متولياً وزارة الأشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعمد إليه الخديو اسماعيل
إعداد معدات حفلات الفخمة

ومن أعماله في ديوان الأوقاف أنه حكمَ كثيراً من أراضي القاهرة للراغبين في
بنائها ، مقابل حكم ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خراباً بلقعاً ،
وأقيمت المباني والعمائر في أخطاط عديدة من المدينة

وإدارته مصلحة السكك الحديدية اشتراك في مدّ كثير من الخطوط الحديدية
وإنشاء محطاتها

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية ، ثم عن وزارة المعارف (في سبتمبر
سنة ١٨٧٠) ، وعن الأشغال ثم عن الأوقاف ، خلاف وقع بينه وبين اسماعيل صديق
باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوظه عند الخديو اسماعيل ، ذلك أن المفتش
رغب في أن يضم إيراد السكك الحديدية إلى ورارة المالية ، فلم يقبل على باشا مبارك هذا
الضم إلا إذا تعهدت المالية بجمع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى

اسماويل صديق بالترجم عند الخديو ، فأدى ذلك إلى انفصاله عن الوزارات التي كان يقوم بأعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم طويلا ، ولعل الخديو شعر بالفراغ الذي ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم يجد من بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ، فعهد إليه ثانياً بوزارة المعارف (١٣ مايو سنة ١٨٧١) ثم بالنظر على ديوان الاوقاف ، وبعد قليل أعيد إلى ديوان الأشغال ، وبقي يتولى وزارة المعارف إلى أغسطس سنة ١٨٧٢

ثم عَنْ^٢ للخديو أن يعين ابنه الامير حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظراً لهذه الدواوين في أغسطس سنة ١٨٧٢ ، وبقي المترجم يتولى شؤونها ، وصار منصبه «مستشاراً» لها ، وبعد قليل انفصل ديوان الأشغال برأسة الامير حسين كامل وجعل المترجم وكيل له

وفي أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضواً بالمجلس الخصوصي الذي كان بمنزلة مجلس الوزراء ، وبعد قليل انفصل عنه لما ألقي في حقه الواشون كاسماويل باشا صديق وأضرابه وما أرجفوا به من أن كتابه (نخبة الفكر) الذي كلفه الخديو تأليفه عن النيل مشتمل على نقد الحكومة الخديوية وتقييم سياستها ، فلزم بيته ثانياً

وفي مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيساً لقسم الهندسة بديوان الأشغال ، ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية التي تولاها الامير محمد توفيق ولـى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ جعل المترجم مستشاراً له ، ثم استقال ديوان الأشغال ، فبقي المترجم مستشاراً للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥)

ولاشك أن تعين على باشا مبارك في هذه المناصب الشانية كان نتيجة الوشایة التي ألقاها اسماعيل صديق في حقه عند الخديو

في وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الأحداث المالية ، وحدث التدخل الأجنبي ، وعيّنت لجنة التحقيق الدولية ، كان من مطالب اللجنة تنزيل الخديو عن سلطنته المطلقة لمجلس النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الأولى في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وهي الوزارة التي دخلها الوزيران الأول بيان كما تراه مفصلاً فيما يلي ، واشتراك فيها المترجم إذ تولى وزارة المعارف وديوان

الاوقاف ، فاستأنف عمله في إحياء هبة التعليم ، فشرع في بناء بعض المدارس الابتدائية وظل قائماً بعمله في جو ملوك بالاضطرابات والارتباطات ، إلى أن استهدفت وزارة نوبار باشا لسخط الأمة ، وثار عليها الضباط ثورتهم الأولى فاستقالت في فبراير سنة ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى ، وكان المترجم ضمن أعضائها متولياً المعارف والأوقاف

ثم دُعى شريف باشا الوزير المشهور إلى تأليف الوزارة الجديدة استجابة لمطالب الأحرار فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية

وكان طبيعياً لا يكون المترجم من أعضائها ، لأن الوزارة النوبارية سقطت مغضوباً عليها من الشعب ، إذا كانت متهمة بـ『ملاحة الدول الأجنبية』 ، ووزارة توفيق باشالم تكن مرضياً عنها من الرأي العام

وفي عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسية ، بين الخديو اسماعيل والدول الأوروبية ، وانتهت بخلعه نزولاً على إرادة الدول

في عهد الخديو توفيق

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية وعهد إلى مصطفى رياض باشا تأليف الوزارة ، كان على باشا مبارك عضواً فيها ، متقدلاًً وزارة الأشغال ، فبذل جهداً مدوحاً في تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الرى والعمaran

الثورة العرابية

وفي عهد هذه الوزارة هبت عواصف الثورة العرابية ، ولم يكن على باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة ، ونصح العرابيين بالرواية فلم يسمعوا له نصجاً ، وقد تبين أنه كان أبعد نظراً منهم ، لأنَّه لا يخفى أنَّ التطرف والشطط في مسلك الثورة العرابية ، كانا من الأسباب التي أدت إلى كارثة الاحتلال

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضواً في وزارة رياض باشا التي تحركت الثورة لمناوئتها وإسقاطها ، وقد سقطت فعلاً في سبتمبر سنة ١٨٨١ نزولاً على إرادة الشوار ، وألف شريف الوزارة الجديدة

ومع أن شريف باشا كان يقدر كفاءة على باشا مبارك واستقامته وإخلاصه ، إلا إنه لم يشركه في الوزارة ، لأنه كان عضواً في وزارة رياض المغضوب عليهما من الشعب ، وهكذا قدر على المترجم أن يكون عضواً في الوزارتين هبت عليهما عواصف الثورة واستقالتا نزولاً على إرادة الشوار فالأولى وزارة نوبار ، التي سقطت بتأثير ثورة الضباط في عهد اسماعيل ، والثانية وزارة رياض ، التي سقطت نزولاً على إرادة العرابيين ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة محمود سامي باشا البارودي ، ظل على مبارك بعيداً عن الوزارة ، وفي عهد وزارة البارودي جاء الاسطول البريطاني إلى تصر الاسكندرية ، ثم تلاحت الأحداث إلى أن رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزي ولما قامت الحرب بين العرابيين والإنجليز ، وانحاز الخديو توفيق باشا إلى الاحتلال ، انعقدت جمعية عمومية في القاهرة تضم أعيان البلاد وذوى المكانة فيها ، وحضر على باشا مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر إلى الاسكندرية ، ومقابلة الخديو توفيق باشا ، لإبلاغه قرارات الجمعية ، فلما وصل إلى الاسكندرية سعى في طريقه لتهيئة الحالة ، فلم ينجح ، فانحاز إلى الخديو

في وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٣ عقب الاحتلال كان المترجم ضمن أعضائها ، وتقلد وزارة الاشغال ، فعنى بأعمال الرى والعمران ، كما كان شأنه كلما تولى هذه الوزارة

وزارة شريف باشا هي التي استقالت احتجاجاً على إخلاء السودان ، فالمترجم له نصيب في موقف المشرف الذى وقفه شريف باشا بتقديم استقالته التاريخية في يناير سنة ١٨٨٤

في وزارة رياض باشا

ظهور الخطط التوفيقية

وبعد إقالة وزارة نوبار الثانية تولى رياض باشا الوزارة في يونيو سنة ١٨٨٨ ،

فكان على باشا مبارك ضمن أعضائها ، وزير آلمعارات العمومية ، وهى الفترة التي ظهر فيها كتابه الخالد (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة) وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها في عصورها القديمة والحديثة ، ويعد تكميلاً وتحديداً لخطط المقرنزي ، والكتاب تخطيط مصر الذي وضعه علماء الجملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمدن مصر ، وقرابها ، ونيلها ، وترعها ، وبحيراتها وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة وشوارعها ، ودورها ، ومبانيها ، وما احتوت عليه من المباني ، والمساجد ، والزوايا ، والأضرحة ، والربط ، والتكايا ، والأسبلة ، والقصور ، والوكائل ، والحمامات ، والكنائس والأديرة ، والمدارس ، والكاتب مع تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وحكامها وأمرائها ، وكان مرجع المترجم في هذه الموسوعة الكبيرى ، كتب التاريخ والخطط ، قديمها وحديثها ، وحجج الاوقاف والأملاك ، ومباحثه ومشاهداته ، وما وجده مسطوراً على الاحجار والجدران ، ولأنه قيل إن العلامة على باشا مبارك استعان في وضع الخطط بطاقة من المهندسين من تلاميذه ومرءوسيه في وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذي اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته في البحث والتنقيب ، وروحه تتماشى في جميع أبواب الكتاب ومباحثه

وتقع الخطط التوفيقية في عشرين مجلداً ، ظهرت ستى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ (١٨٨٧ - ١٨٨٩) . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقرابه ، وخصص الجزء الثامن عشر لقياس النيل ، والتاسع عشر لترع مصر ورياحاتها ومنشآت الرى فيها ، والعشرين لعنقودها القديمة والحديثة ، وبالجملة فهذا الكتاب غرة في تاريخ مصر العلمي ، وتأثيره خالدة للمترجم ، وهو مرجع لكل باحث في شؤون مصر العلمية والهندسية والتاريخية ، وله أيضاً في عالم التأليف كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية قيمة ، وكتاب (تنوير الافهام في تغذى الأجسام) طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) و (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر)

ويقول الدكتور محمد درى باشا في ترجمته لعلى باشا مبارك (ص ٦١) انه وضع

كتاباً سماه (آثار الإسلام في المدينة وال عمران) فكان هذا الكتاب آخر مؤلفاته
شرح فيه ما أدخله الإسلام من العمران في الملك ، وما ترتب عليه من المدينة والنظام ،
قال : « والذى نعرفه من أمره أنه لما أكله تأليفه وتبين لنا أعطاه لأحد أفضل العلماء
الأزهر بين لييعيد نظره فيه ويدقق في مراجعته ، وهو باق فيها نعلم في خزانة مؤلفه رحمه الله »
وقد استأنف المترجم جهوده في عهد وزارة رياض باشا لنشر التعليم وإنشاء
المدارس ، ومن أجله في هذا العهد تقريره طبع كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة
أحوال الإنسان) تأليف العلامة (محمد قدرى باشا)

كان هذا الكتاب الجليل مخطوطاً ، فرأى العلامة على باشا مباركاً أن يخرجه للناس
منشوراً ، لتعلم فائدته ، فاشتراه من ورثة المرحوم قدرى باشا ، وطبعه سنة ١٨٩٠ على
نفقه الوزارة ، وقررت تدريسه في مدرسة الحقوق ، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة
عظمى للعلوم الشرعية ، والقانونية ، وللنهاية العلمية ، والتاريخية
ولما استقالت وزارة رياض باشا سنة ١٨٩١ ، لزم المترجم بيته ثم سافر إلى بلده
لتتفقد أملاكه وإصلاحها ، بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين ، لاشتغاله بالصالح
العام ، وهناك مرض بداء المشانة ، فعاد إلى مصر

وفاته

وألح عليه المرض ، إلى أن وافته المنية بمصر في منزله بالحلمية الجديدة ، في ١٤
نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فانطفأ المصباح الذي أضاء البلاد بأنوار العلم والعرفان ، أربعين سنة
ونيفاً ، وأقفلت المدارس حداداً على أبيها ، وارتजت البلاد حزناً على فقيدها ، وانتقل
المترجم إلى عالم الخلود ، تاركاً ذكرى بجيدة ، حافلة بما أسداه لمصر من جلائل الأعمال

الجمعيات العلمية

الجمعيات العلمية هي من الوسائل الفعالة الى نشر العلوم والمعارف ، ومن مظاهر قدم الأفكار والثقافة في المجتمع ، وقد ازدان عصر اسماعيل بظهور الجمعيات العلمية ذات الأغراض السامية والمقاصد الجليلة

المجمع العلمي

المجمع العلمي هو الهيئة العلمية التي أنشأها نابليون في مصر سنة ١٧٩٨ وسبق لنا الكلام عنها (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨ - طبعة أولى -) ، وقد ألغى هذا المجمع عند جلاء الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية في عهد سعيد باشا ، واستمر قائماً في عهد اسماعيل يؤدي مهمته في نشر المباحث العلمية ، وهو قائم إلى اليوم باسمه (مجلس ل المعارف المصري) ، ومقره بوزارة الأشغال العمومية ، وله مجلة تنشر مباحثه

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

هي أول جمعية علمية ظهرت في مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسسها سنة ١٨٦٨ محمد عارف باشا ، أحد أفاضل العلماء في ذلك العصر والعضو بمجلس الأحكام ، والغرض من هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها وتلخيصها ، وقد جعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولـى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ ، وتولى وكياتها ورآسها الفعلية محمد عارف باشا ، وتألفت برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام ، قيمة السهم ثلاثون قرشاً (١) ، وافتتحت مطبعة لطبع الكتب التي تولت نشرها ، عدا ما كانت تطبعه في دار الطباعة الأميرية ، والمطبعة الوهبية . وتولت الجمعية طبع طائفة من أهمـاتـ الكـتبـ فيـ التـارـيخـ وـالـفـقـهـ وـالـأـدـبـ . منها أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير في خمسة مجلدات . و تاج العروس من شرح جواهر

(١) عن لائحة الجمعية المنصورة في الواقع المصرية العدد ٣٠١ - ٧ يونيو سنة ١٨٦٩

القاموس . والفتح الوهي في شرح العتبى في مجلدين . و تاريخ ابن الوردى . و شرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبي العلاء المعرى) . و ديوان ابن خفاجه . والبيان والتبيين للجاحظ . و ديوان ابن المعتن . و شرح الشيخ خالد على البردة . وعنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبي الحسن . والمحتصر في أخبار البشر . و محاضرات الراغب الأصفهانى ، و رسائل بدائع الزمان الممدانى . وغير ذلك من السكتب القيمة ولقيت الجمعية إقبالاً عظيماً و تعظيداً كبيراً من الطبقات الممتازة في المجتمع ، إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ھ (١٨٦٠ م - ١٨٦٩ م) ٦٦٠ و نيفاً ، و وردت أسماؤهم في ذيل كتاب « الفتح الوهي » ، نذكر هنا طائفة منهم ، نموذجاً للطبقات التي اشتراك في الجمعية ، وللتكى تتبين مبلغ تعظيد المجتمع في ذلك العصر للمشروعات العلمية :

ابراهيم بك حليم من قضاة محكمة الاستئناف . ابراهيم أدهم بك وكيل محافظة الاسكندرية . السيد ابراهيم جيعى من أعيان الاسكندرية . السيد ابراهيم بك المويلى حى من أعضاء المجلس الابتدائى . أبو زيد افندي ابراهيم باشمهندس القليوبية . اتربي بك أبو العز من أعضاء مجلس شورى النواب . احمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى . الشیخ احمد شرف الدين المرصفي من علماء الأزهر . احمد رشید باشا من أعضاء المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) . احمد خيري بك مهردار الخديوى . احمد بك عبيد ناظر قلم ترجمة السكتبحرية . الشیخ احمد البنتونی قاضی طنطا . الشیخ احمد الانصاری قاضی طهطا الشیخ احمد فارس الشدیاق صاحب الجوائب ووكيل الجمعية بالاستانة . احمد بك فتحى ناظر مدرسة الاسكندرية . أمین بك فکرى . جعفر مظہر باشا حكمدار السودان . جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى . حسن بك الشریعی . الشیخ حسونه النواوى . حسين خرى بك (باشا) . حسين شرين باشا . خليل باشا يكن . الفريق راشد باشا حسنى . الدكتور سالم بك سالم . الشیخ عبد الرحمن الابياری . الشیخ عبد الرحمن الرافعی . و بيد اللطیف باشا من أعضاء المجلس الخصوصى . محروم افندي على عمدة السنبلالوين ومن أعضاء مجلس شورى النواب . محسن بك . محمد عرفان باشا . السيد محمد بيومى مكرم . السيد محمد المويلى . الدكتور محمد شافعى بك . مصطفى رياض باشا . يوسف صالح عمدة كفر بيهىده . احمد رسم العلايلي من أعيان الاسكندرية . الشیخ بدر اوی عاشر عمدة بھوت . الدكتور حسين بك عوف . الشیخ حسنين حمزه من أعضاء مجلس شورى

النواب . حماد بك عبد العاطى . على ذو الفقار باشا وزبر الخارجية . محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام . ابراهيم افندى هلال مأمور ضبطية ميت غمر . احمد صادق باشا ناظر الدائرة السنية . احمد فريد بك ناظر قلم المحاسبة . السيد احمد مشرفه . احمد ذهنى بك ناظر الجيختانات . الشیخ احمد باشا من علماء الاسكندرية ، اسماعيل افندى عبد الخالق وكيل ديوان الرزنامة . اسماعيل بك زهدى ناظر مدرسة المبتديان . أمين بك سيد احمد . السيد حسن موسى العقاد . السيد حسن المرقبي ، شفيق بك منصور . الخ الخ

وقد ظلت الجمعية قائمة تؤدى مهمتها الى أن اشتد النزاع السياسي بين الخديو اسماعيل والأمير عبد الحليم باشا ، لتنافسها على عرش الخديوية ، وكان عارف باشامن أنصار حليم باشا ، فهاجر الى الاستانة خوفا من بطش اسماعيل ، وانحلت الجمعية

الجمعية الجغرافية الخديوية

أسست سنة ١٨٧٥

هي من أهم المنشآت العلمية في مصر ، أسسها اسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، والغرض منها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، وأول رئيس لها هو العالم الألماني الدكتور جورج شونفرت Schweinfurth ، ووكيله العلامة محمود باشا الفلكي ، والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصري ، ولها مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات . وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافية ، وقد رجعنا في كثير من المواطن الى المباحث القيمة والخرائط الدقيقة المنشورة في مجلتها

الجمعية الخيرية الإسلامية

أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦) بمسعى السيد عبد الله نديم ومساعدة سعد الله بك حلبى من سرارة التغز ، والباعث على إنشائها شعور الخاصة بطغيان النفوذ الاجنبى في البلاد ، وتدخل الأجانب في شؤونها ، واستئثارهم برأفتها

فأسست هذه الجمعية لفتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق وإعانت الفقراء ، وقد انشأت مدرسة بالاسكندرية لتعليم البنين والبنات ، وعقد فيها

محفل للخطابة ، كانت تلقى فيه الخطب والمحاضرات مرّة في الأسبوع ، ووضع لها قانون ، وأجرت عليها الحكومة سنويًا على سبيل الإعانته ، فاتسع نطاقها ، وذكرت جريدة «التجارة» (١) لأديب اسحق نباً لإنشاء هذه الجمعية بالاسكندرية ، وجمعية أخرى بالقاهرة وأخرى بدمياط

وهي غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التي أُسست سنة ١٨٩٢

الصحافة

لم تظهر في مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى «الواقع المصرية» التي أنشأها محمد على باشا ، وكانت الحكومة تتولى إصدارها ، ولم يظهر غيرها من الصحف العربية ، وهذا من مظاهر الجمود الذي أصاب النهضة العالمية في ذلك العهد ثم نشطت الحياة العلمية والأدبية في عصر اسماعيل ، فكان من مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية ، وقد نهض بالصحافة في ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين ، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين ، وثمة عامل آخر كان له الأثر البالغ في نهضة الصحافة ، والنهضة العلمية والأدبية عامة ، وهو تعزيز الدخليو اسماعيل لها ، ومساعداته الأدبية والمالية لقاومين عليها وإنما ذاكرهن هنا الصحف والمجلات التي ظهرت في عصره :

(١) يجب أولاً أن نذكر «الواقع المصرية» ، فقد استمرت تصدر بانتظام في عهد اسماعيل ، وارتقي أسلوبها الإنساني ، وخدمت النهضة الصحفية خدمة تذكر ، بما كانت تنشره من الفصول العلمية والأدبية ، وكانت تعنى بذكر أخبار الحكومة والأخبار الخارجية ، وتنشر مضابط مجلس شورى النواب . وتسهب في وصف الحفلات العامة ، وخاصة الحفلات العلمية والمدرسية ، ثم حفلات سباق الخيل ، التي كان لها شأن كبير في ذلك العصر ، وتعد «الواقع» سجلاً يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية في عصر اسماعيل ، وهي من أهم المراجع الرسمية التي لا ينفك عنها من يكتب عن تاريخ مصر الحديث

(١) بالعدد ٢٢ من السنة الأولى - أبريل سنة ١٨٧٨

ونشأ إلى جانب الواقع صحيف آخرى علمية ثم سياسية

الصحف العلمية والأدبية والحرية

(٢) أسبقها مجلة (اليعسوب) ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وهى مجلة شهرية طبیة ، أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وابراهيم الدسوقي ، ولم تعمم طويلا

(٣) مجلة (روضة المدارس) أنشأها العلامة علي مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف العمومية ، وهى من أجل أعماله ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإإنفاق عليها ، والغرض منها إحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، أُسندت رأستها إلى العلامة رفاعي بك رافع الطهطاوى ، وتولى تحريرها ابنه علي بك فهمى رفاعي (باشا) ، مدرس الانشاء بمدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) وقتئذ ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الأدب والعلوم في ذلك العصر ، أمثال علي مبارك باشا ، وعبد الله بك فكري (باشا) ، والشيخ حسين المرصفي ، ورفاعي بك رافع ، وابنه علي بك فهمى رفاعي ، والميسو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، ومحمد باشا الفلكى ، وسماعيل بك مصطفى الفلكى (باشا) ، محمد قدرى بك (باشا) والدكتور محمد بك بدر ، وأحمد بك ندا العالم النبات الشهير ، والشيخ عبد الهاوى نجا الإبارى ، والسيد بك صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود افندي ، محرر صحيفه وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية ، والشيخ حسونه النواوى ، والشيخ حمزه فتح الله ، فكانت المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب في ذلك العصر ، وفيها المباحث العلمية في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، وكانت تصدر مرتبة كل شهر ، وقد صدر العدد الأول منها في ١٥ الحرم سنة ١٢٨٧ (سنة ١٨٧٠) ، واستمرت تصدر ثماني سنوات ، فأفادت الثقافة فائدة كبيرة ، قال عنها الميسو دور بك مفتش التعليم العام على عهد اسماعيل في كتابه (١) : « وهذه المجلة كانت توزع مجاناً على التلاميذ ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف . لأنها عودت الطلبة ملحة المطالعة والبحث ، وفتحت صحفتها للناهرين منهم لنشر إنجازاتهم القيمة . فكان ذلك مما يشجعهم ويستhortهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم »

(١) التعليم العام في مصر ص ٢٥٣ للسيو دور بك

وقد أصاب المعمي دور في قوله ، فإن المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نهاء التلاميذ ، وقد رأيتُ فيما قصائد رقيقة من نظم المرحوم اسماعيل باشا صبّري ، تتجلّى فيها روح الشعر الحديث ، وكان وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندي صبّري أحد تلاميذه مدرسة الإِدَارَة »

فمنها قصيدة في مدح الخديو اسماعيل بالعدد ٣٠ من السنة الأولى (١) قال في مطلعها :

سَفَرَتْ فَلَاح لَنَا هَلَال سَعْوَد وَنَمِي الْغَرَام بِقَلْبِي الْمُعْمُود
وَقَصِيدَةُ أَخْرَى بِالْتَّدَدِ ٥ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ قَالَ فِي مِنْطَلَعِهَا (٢) :

أَغْرَّتْكَ الْغَرَاءُ أُمَّ طَلْعَةِ الْبَدْرِ
وَقَاتَكَ الْهَيْفَاءُ أُمَّ عَادِلِ السَّمَرِ
وَشَعْرَكَ أُمَّ لَيْلِ تَرَاجِي سَدْوَلَهِ
وَثَغْرَكَ أُمَّ عَقْدِ تَنْظِيمِ مَنْ دَرِ
وآخرى بالعدد ٣٣ من السنة الثانية (٣) استهلها بقوله :

لَا وَالْمَوْى الْعَذْرَى وَالْوَجْدِ عَذْلُ عَذْلَى فِيكَ لَا يَجْدِي
إِنِّي مَعَ الصَّدِّ وَطُولِ الْجَفَافِ باقٌ عَلَى الْمَيْشَاقِ وَالْعَهْدِ

ويتّين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديث قد بدأت باكتورتها تظهر في مجلة روضة المدارس (٤)

(٤٥) جريدة (أركان حرب الجيش المصري) و (الجريدة العسكرية المصرية)، وقد سبق الكلام عنها ص (١٨١)

الصحف السياسية

وظهر من الصحف السياسية :

(٦) صحيفة (وادي النيل) ، أنشأها الشاعر الناشر عبدالله أبو السعدون افندي سنة ١٨٦٧

(١) ١٥ دِيْنَجِ الْأَوَّلِ سَنَةُ ١٢٨٨

(٢) غَايَةُ شَوَّالِ سَنَةُ ١٢٨٧

(٣) ١٥ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةُ ١٢٨٨

(٤) عن « عصر محمد علي » ص ٤٩٧

وهي أقدم صحيفه سياسية ظهرت في مصر ، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع في شكل المجلات ، وظلت تصدر الى ان الغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م)

(٧) جريدة (نرفة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئها ابراهيم بك الموليني و محمد بك عمان جلال ، وكانت أسبوعية ، ولم يصدر منها إلا عددان ، ثم عطلها اسماعيل بنصيحة

شاهين باشا وزير الحرية ، إذ حذر عواقب لهجتها وما تؤدي اليه من إثارة الخواطر (٨) وأنشأ ميخائيل افندي عبد السيد سنة ١٨٧٧ جريدة (الوطن) ، وكانت

سياستها وطنية ، ولهجتها حرة ، وقد استمرت تصدر الى ما بعد الاحتلال ، ووقفت حيناً ثم عادت الى الظهور سنة ١٩٠٠

(٩) وظهرت سنة ١٨٧٧ جريدة أسبوعية ، تحررها أديب اسحق ، ومديرها سليم النقاش ، وأنشأ أيضاً سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالاسكندرية باسم جريدة (التجارة) ، وسياسة الصحفتين وطنية حماسية ، تجلست فيها تعاليم جمال الدين الأفغاني وروحه ، وكانت له في الجريدين بعض الرسائل ، يكتبه هو أو يملئها على تلاميذه وقد ألغاهما رياض باشا سنة ١٨٨٠

(١١) جريدة روضة (الأخبار) لصاحبها محمد بك أنسى نجل عبدالله أبو السعود افندي ، أنشأها بدل صحيفة (وادي النيل) التي عطالتها الحكومة كما أسلفنا ، وكان عبدالله أبو السعود افندي تحرر قسمها السياسي الى آخر أيامه

وقد ذكرها على باشا مبارك في الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٩ ، وذكرها أيضاً أديب اسحق في جريدة (التجارة) بالعدد الصادر في ٢٩ مايو سنة ١٨٧٨ ، لمناسبة اعتزام صاحبها تغيير اسمها باسم (النيل) ، وصدرت بهذا الاسم سنة ١٨٧٨

(١٢) جريدة (الكوكب الشرقي) لصاحبها سليم (باشا) الحموي ، صدرت بالاسكندرية سنة ١٨٧٣ ، ولم تعم طويلاً ، وذكرت «الواقع المصرية» بالعدد ٤٢٩ الصادر في ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧١ أن سليم حموي أنشأ مكتبة بالاسكندرية وقاعة للمطالعة بها

(١٣) جريدة (الأهرام) لسلام (بك) وبشاره (باشا) تقلا ، صدرت سنة ١٨٧٥ بالاسكندرية ، (والآن بالقاهرة) ، وقد لاقت في مبدأ صدورها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت في مبدأ ظهورها أسبوعية ، ثم صدرت بجانبها جريدة (صدى الأهرام) يومية حتى عطلت ، ثم انفردت (الأهرام) بالظهور وصارت يومية ،

واستمرت تصدر إلى اليوم ، فهي أقدم الصحف المصرية السياسية
(١٤) جريدة (الاسكندرية) جاء ذكرها في جريدة (التجارة) بالعدد ٥ يونيو
سنة ١٨٧٨ إذ قالت إن سليم افندي حموى عزم على إصدار جريدة أسبوعية تسمى
(الاسكندرية) ، وقد صدرت فعلاً في يوليه سنة ١٨٧٨

(١٥) جريدة (السكون المجرى) للشيخ محمد وفاء ، ذكرتها جريدة التجارة بالعدد ٣
من السنة الثانية (١٩ مايو سنة ١٨٧٩)

(١٦) (مرآة الشرق) ، وهي جريدة سياسية أنشأها سليم عنحورى ، ثم تناهى عنها
في أبريل سنة ١٨٧٩ ، وتولاهما ابراهيم افندي اللقانى (بك) بيايعاز من السيد جمال الدين الأفغاني
(١٧) وأنشأ الشيخ يعقوب صنوع صحيفتين سياسيتين ، وهما (مرآة الأحوال)
صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نصار) صدرت سنة ١٨٧٧ بالقاهرة ، وهي
صحيفة عمارضة ل اسماعيل ، وكان الشيخ يعقوب صنوع مصر يا إسرائيليا ، متعلقاً
بالصحافة ، يميل إلى الدعاية في كتابته ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني ، وقيل إنه
هو الذي أزعز إليه إصدار جريدة لانتقاد سياسة اسماعيل (١) فأصدرها ، وكانت أول
جريدة هزلية سياسية صدرت في مصر ، وقد نفاه اسماعيل من مصر ، فرحل إلى باريس
واستأنف إصدار جريدة باسماء مختلفة معارضًا الخديو منتقداً أعماله ، ولم يكن
يخلو عدد منها من صور هزلية تتطوى على التعریض الشديد بالخديو اسماعيل ، فلقيت
رواجاً عظيم ، واستمر الشيخ أبو نصار يصدر جرائه إلى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً
لسياسة الانجليز ، وتوفي سنة ١٩١٣

وأغلب الصحف السياسية التي كانت تصدر في مصر ظهر كاترى في أواخر عصر
اسماعيل ، وقد أطلق لها حرية الكتابة ، وكان يميل إلى هذه الحرية في أواخر عهده ، حين
اصطدم بالمطامع الأوروبية ، وشعر بوطأة التدخل الأجنبي ، فكانت الصحافة تحمل
بحق على هذا التدخل حملات صادقة ، وراقت هذه الخطوة ل اسماعيل ، فلا غرو أن أطلق
لصحف حرية الكتابة ، لكنه لم يكن يرضى منها أن تتعرض لشخصه أو تنقد أعماله

(١) عن ترجمة يعقوب صنوع المسمى بالشيخ (أبو نصار) في تاريخ الصحافة للفيكتور

وكان لهذه الصحف عامة فضل كبير في إثارة البصائر والأفكار ، وتوجيه الأنماط إلى العناية بشؤون البلاد العامة ، وانتقاد الأعمال الضارة التي تصدر عن الحكومة ، فكانت أدلة لظهور حرية الآراء السياسية ، ولها الفضل أيضاً في نشر العلوم والمعارف ، وتهذيب لغة الكتابة ، وترقية أساليب الإنشاء ، فكانت من هذه الناحية من عوامل نهضة الأدب في العصر الحديث

الصحف الافرنجية

وظهر في هذا العصر عدة صحف أوروبية ، منها جريدة (الفارد السكيندرى) أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة البروجرية أجيسان Le Progrès Egyptien وهي صحيفة معارضة ل اسماعيل ، وجريدة La Réforme (الريفورم)

الطباعة

تقدمت الطباعة وأدركت شأواً كبيراً في عهد اسماعيل ، فقد وجه عنایته إلى مطبعة بولاق ، ونهض بها حتى ضارعت المطبع الكبير ، وكان يتولى نظارتها حسين بك حسني (باشا) ، الذي كان له الفضل الكبير في نهضتها ، وظل يتولى نظارتها إلى ما بعد الاحتلال ، وأسس اسماعيل مصنعاً للورق ، تولى إدارته كذلك حسين بك حسني مدير دار الطباعة ، وأخذ هذا المصنع منذ سنة ١٨٧١ يورد الأوراق اللازمة لمصالح الحكومة ولطبع المؤلفات العلمية ، وكذلك الأوراق والدفاتر اللازمة للتجار (١)

حسين حسني باشا

ويعد حسين حسني باشا هذا من أركان النهضة العلمية والأدبية ، إذ كان له فضل كبير في إحياء العلوم بواسطة الطباعة والنشر

وهو من خريجي مدرسة المهندسخاللة ، أتم دراسته فيها ثم تولى تدريس العلوم الرياضية بها ، وانتقل إلى مطبعة بولاق سنة ١٢٦٨ هـ بوظيفة كاتب ومصحح بالواقع

(١) الواقع المصرية العدد ٤٠ (أول يونيو سنة ١٨٧١)

المصرية، وارتقي حتى صار ناظرً لها ، وهو من نوابع علماء الرياضيات والماكينات في مصره . وقد زار كثيرا من دور الطباعة ومصانع الورق في أوروبا ، باحثاً منقباً ، وجلب منها عدة ماكينات مستحدثة ، ركبتها في مطبعة بولاق ، وفي سنة ١٢٨٤ جلب من لندن الماكينات اللازمة لتأسيس مصنع الورق ، فأنشأه بجوار مطبعة بولاق ، وجاء من أحسن معامل الورق إتقاناً وإحكاماً ، وأنتج من الورق ما كاد يغطى مائدة من أوروبا ، وكانت جميع تكاليفه وثمن آلاته تستوفى من ربح المطبعة والمصنع ، وذلك بفضل مهارة حسين بك حسني وزناحته ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك « أنه أحيا روح المطبعة الاميرية ونشر صيتها في جميع الأقطار ^(١) » ، وتوفي سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م).

وأنشئت عدة مطابع أخرى لطبع الصحف والمؤلفات كان لها الفضل الكبير في إحياء نفائس الكتب القيمة في الأدب والعلم ، وتولت طبعها وطبع المؤلفات الحديثة

فن هذه المطابع مطبعة جمعية الممارف المتقدم ذكرها

والمطبعة الأهلية القبطية التي جلبتها من أوروبا الأنبا كرسالس الرابع سنة ١٨٦٠ في عهد سعيد باشا ، وهي أول مطبعة أنشئت في مصر بعد مطبعة بولاق

ومطبعة (وادي النيل) أنشأها عبد الله أبو السعود افندي ، وكان يطبع فيها صحفة (وادي النيل) ، ومجلة روضة المدارس ، وجريدة (أركان حرب الجيش المصري)

و(المطبعة الوطنية) بالاسكندرية

والمطبعة الوهبية ، أنشئت سنة ١٢٨٠ هـ لمؤسسها مصطفى افندي وهي (بك) ، ومطبعة أركان حرب الجيش المصري التي سبق الكلام عنها

ومن أمثلات الكتب التي طبعت في ذلك العصر وكان لها الفضل الكبير في النهضة العلمية والأدبية : كتاب المثل السائر ، لأبي الفتح الموصلي ، والأغانى لأبي الفرج الأصفهانى . و تاريخ ابن خلدون ومقدمة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للشاعلى . ووفيات الاعيان لابن خلkan ، وفوات الوفيات ، وإحياء العلوم للغزالى ، وتفسير الفخر الرازى ، والبخارى (شرح القسطلاني) ، وسفينة الراغب ، وحياة الحيوان ، وفتح الطيب من

(١) عن ترجمة في الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢١

غضن الاندلس الرطيب ، وقانون ابن سينا في الطب ، وتنزكرة داود ، وغير ذلك من
نفائس السكتب

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

أقتنى عصر اسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية التي ظهرت في إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولهذه النهضة عوامل متعددة ، أولها انتشار التعليم في المدارس والمعاهد ، وظهور طائفة من العلماء والأدباء من تخرجو في مدارس والبعثات أوفي الازهر على عهد محمد علي وخلفائه ، وقد ظهرت ثمار قرائحهم على توالى السنين ، وخاصة في عهد اسماعيل ، إذ كان يشجع اكثراً منهم ويعضدهم ، ويستند إليهم المراكز الممتازة في الحكومة ويمدهم بالمنح السخية ، فكانت هبات اسماعيل أكبر عضد للنهضة العلمية والأدبية ، وكان لانتشار التعليم في المدارس عامه أثر كبير في نموها وتقديرها ، اذ تألفت يئية صالحة من المتعلمين تؤيدوها وتناصرها بالإقبال على ما تنتجه قرائح العلماء والأدباء ، ولو لا هذا الإقبال لخدمت القرائح ، وكانت سوق العلم والأدب ، وثمة عامل آخر ، وهو مجيء السيد جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٧١ إلى مصر وإقامته بها ، فقد نفع في الحياة العلمية والأدبية ثم السياسية روحًا من اليقظة خطط بها خطوات واسعة إلى الإمام ومن عوامل هذه النهضة ظهور الجمعيات العلمية ، وتقدير الطباعة ، وظهور الصحافة ، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر ، في عصر اسماعيل ازدهرت الحركة العلمية والأدبية التي هي أساس النهضة الحاضرة ، ونشط الأدب والشعر ، وظهرت طبقة من الشعراء بدأ على شعرهم أسلوب العصر الحديث ، من حسن الديباجة ، وصفاء القرىحة ، وبلاعة العبارة ، وتهذب أسلوب المكتبة والإنشاء ، وأخذ يتخلص من شوائب التعقيد والركاكة ، والسباحة المتکلف ، وهبّت عليه نسمة الترسل البليخ والمعنى الطريقة وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين توفروا على إخراج السكتب القيمة في الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع وما إلى ذلك

وارتفق مستوى المناصب الحكومية ، إذ تو لاها المتخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات ، فظهرت ثمار النهضة في فروع الحكومة ، كالتعليم والرى والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والاسطول

وكان للنهاية العلمية والأدبية أثرها في تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية ، مما سمعه في موضعه

والآن يسوقنا الحديث إلى الكلام عن أعلام هذه النهاية ، وسنقتصر القول على خلاصة وجيبة لترجمة أولئك الأعلام الذين اكتملت شخصياتهم في هذا العصر ؛ فن هذه الخلاصة تجتمع لنا صورة عامة للحياة الأدبية والعلمية في عصر اسماعيل

أعلام الأدب في عصر اسماعيل

رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك

أدرك رفاعة بك عصر اسماعيل ، وله الفضل الكبير على العلم والأدب كأسلافنا في ترجمته (عصر محمد على) ص ٤٧٠ من الطبعة الأولى و ٣٨٢ من الطبعة الثانية)
وعلى باشا مبارك ، هو صاحب الأيدي البيضاء على الأدب والعلم والتعليم في مصر
كما يبين ذلك في ترجمته

السيد جمال الدين الأفغاني

هو باعث روح الحياة في النهاية العلمية والأدبية والسياسية ، فواجب أن نعده في مقدمة أعلام الأدب في عصر اسماعيل ، وستترجم له في الفصل الثاني عشر

الشيخ حسين المرصفي

توفي سنة ١٨٨٩

شيخ الأدباء في ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ، نشأ في (مرصفي) بالقليوبية ، وهي بلدة أنجاحت طائفة من أعلام الأدب والفقه واللغة ، كان والده الشيخ احمد حسين المرصفي من أممـةـ الـعـلـمـ فيـ عـصـرـهـ ، وانقطع للتدريس بالازهر ، ونشأ المترجم ميلاً للعلم والأدب ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك في الخطط التوفيقية (ج ١٥ ص ٤٠) انه « من أجلاء العلماء وأفاضلهم ، له ائيد الطولى في كل فن ، وقل أن يسمع شيئاً الا ويحفظه ، مع رقة المزاج ، ووحدة الذهن ، وشدة الحذق » ، وتصدر للتدريس

فقرأ بالازهر كبار الكتب ، ثم تولى تدريس اللغة والآداب في دار العلوم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، وله مؤلفات قيمة منها :

- (١) الوسيلة الأدية الى العلوم العربية طبع بمصر سنة ١٢٨٩ هـ في جزأين
(٢) وله كتاب في الأدب والمجتمع سماه (الكلم الشان) في الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية

مُحَمَّد باشا سامي البارودي

(١٨٤٠ - ١٩٠٤)

باكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى في نظمه فنون الشعراء المتقدمين ، كانت نشأته الأدية والحرية في عصر اسماعيل ، وسطع نجمه في سماء الأدب على ذلك العهد ، ثم اقترب اسمه بعصر الثورة العرابية ، وكان له فيها الدور الكبير ، وسنترحم له في موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى)

عبد الله أبو السعود افندي

(٨٢٠ - ١٨٧٨)

أول صحفي سياسي ظهر في تاريخ مصر الحديث ، ولد في دهشور قرب الجيزه ، وأصله من برقة ، تلقى العلم في مدرسة المدرسين ثم انتقل إلى مدرسة الألسن ، وتخرج منها على يد رفاعة بك ، فهو من تلاميذه الأفذاذ ، وكان يحضر دروس الأزهر ، وأتقن اللغات العربية والفرنسية والإيطالية . ونبغ في فنون الأدب والشعر . وارتقى في المناصب حتى صار في عهد اسماعيل ناظر قلم الترجمة المستجد وأستاذ التاريخ بدار العلوم ، وأنشأ سنة ١٢٨٤ (١٨٦٧ م) صحيفه (وادي النيل) كما تقدم بيانه

ونظم حوادث مصر في كتاب سماه (منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر) ، ووضع كتاب (الدرس العام في التاريخ العام) طبع قسم منه سنة ١٢٨٩ ، وعرب كتاب (تاريخ مصر القديمة) لمرييت باشا ، الخ ، وله ديوان شعر مطبوع ، وله أرجوزة نظم فيها سيرة

محمد على . وشارك رفاعة بك وتلاميذه في ترجمة السكود (قانون نابليون) ، وتولى هو
وحسن أفندي فهمى المصرى تعيير قانون المراقبات
وجعل سنة ١٨٧٦ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وتوفي في فبراير سنة ١٨٧٨ ، وهو من
نوابع الأدباء والعلماء في عصر اسماعيل

الشيخ محمد عبده

توفي سنة ١٩٠٥

الاستاذ الإمام ، وفيلسوف الإسلام ، «أكتب العلماء وأعلم الكتاب»^(١) ، كانت
نشأته العلمية والأدبية في عصر اسماعيل ، وانضوى إلى لواء السيد جمال الدين الأفغاني ،
وصار من خاصة تلاميذه منذ قدم السيد إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فكان لهذه الفترة من
الزمن الأثر الأكبر في اتجاهه العلى والروحي ، وكتب بعض الرسائل في صحيفتي
(التجارة) و(مصر) لأديب اسحق ، ثم عظمت شخصيته في عصر الثورة العرابية
كسيجيء بيانه في كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي)

ابراهيم بك الموily

(١٨٤٦ - ١٩٠٦)

زعيم الكتاب في عصره ، وأستاذ المدرسة الحديثة في الأدب والإنشاء ، من أسرة
المولين الشهيرة ، وهي أسرة عربية ، أصلها من «المولين» من ثغور الحجاز التي كانت
تابعة لمصر ، وكان جده السيد ابراهيم الموily من كبار موظفي الحكومة في عهد محمد
علي ، يميل للأدب والأدباء ، فورث عنه المترجم هذا الميل ، وكان أبوه من سرة مصر ،
وله بيت تجاري كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته

ولد المترجم في أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) وترعرع في حجر والده ، في مهاد
العز والنعمة ، إلى أن توفي أبوه سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥) وهو لا يتجاوز العشرين بكتير ،
فتولى تجارة أبيه مشاركاً أخيه عبد السلام الموily (باشا) ، ولسكنهما لم يوفقاً في التجارة

(١) تعبير «المفلوطي» في «مختاراته»

وآل بيت الموياحي من الناحية المالية إلى الخسران ، لو لا مروءة الخديو اسماعيل ، فقد نظر إلى هذا البيت نظرة عطف وسخاء ، فوهب المترجم وأخاه من المال ما وفى ديوانهما ثم انعم على ابراهيم بالرتبة الثانية ، وجعله قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وهو في الشامنة والعشرين من عمره وانعم على عبد السلام بهذه الرتبة أيضاً ، وابقاءه يزاول التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم

وظهر ميل المترجم إلى الأدب من مشاركته محمد عارف باشا في تأسيس جمعية المعارف التي عنيدت بإحياء السكتب العربية ، وقد سبق الكلام عنها ، ثم اشتراك مع محمد بك عثمان جلال في إصدار جريدة سياسية اسمها (نزهة الأفكار) ولكن لم يصدر منها إلا عددان وصدر أمر اسماعيل بالغاءها

وكان المترجم من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني ، وقد اتصل من طريقه بالحركة السياسية التي ظهرت في عصر اسماعيل ، والتي انتهت بوضع اللائحة الوطنية وتأليف وزارة شريف باشا الأولى كاسبيجي بيانه في موضعه ، وعين سكرتيراً لاسماعيل راغب باشا وزير المالية في الوزارة الوطنية ، وكان المترجم من رجال اسماعيل الخلصين لشخصه ، المغمورين بكرمه ، ولازمه في منفاه عدة سنوات ، اشتغل خلاطها بالصحافة حيناً . ثم ذهب إلى الاستانة سنة ١٨٨٥ ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته ، وعيشه عضواً في مجلس المعارف . وظل في هذا المنصب نحو تسع سنوات ، ثم عاد إلى مصر ، وكتب في الصحف مقالات جامعة في الأدب والسياسة والاجتماع ، جمع بعضها في كتاب سماه (ماهنا لك) ، ثم أنشأ صحيفة (مصباح الشرق) وهي صحيفة أسبوعية نالت في عالم الأدب والكتابية مكانة لم تبلغها صحيفة أخرى ، وله فيها المقالات الرائعة التي كادت تبلغ علياً مراتب البلاغة والإنشاء لو لا مأشاها من الإقطاع في الهجو ، والتقلب مع الأهواء « و توفى في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦

محمد بك عثمان جلال

(١٨٩٨ - ١٨٢٨)

واضع أساس القصة الحديثة في الأدب المصري ، ولد في (ونالقس) بمديرية بنى سويف

وتلقى العلم في مدرسة قصر العيني (وكانت لم تزل مدرسة اعدادية) ، ثم في مدرسة أبي زعبل . ثم في مدرسة الألسن ، فهو من تلاميذ رفاعة بك رافع الطهطاوى ونبغ في العلوم وبدأ عليه الميل إلى الشعر والأدب والتعريب ، وكان ميالاً إلى الفن الروائي بجيده التعريب فيه مع تصوير ما يعبر به أحياناً . وله كتاب (العيون اليواظ) وهو تعريب شعري لروايات لافونتين ومواعظه . ويعد هذا الكتاب أعظم آثاره الأدبية وأشهرها ، وعرب رواية (بول فوجيني) عن الفرنسيه . ووضع كتاب (التحفة السننية في لغت العرب والفرنسية) منظومة ، وعرب بعض الروايات الفرنسية ، منها (ترثوف) لمؤلف . عربها بتصرف وأسماها (الشیخ متلوف) بعد أن أسبغ عليها مسحة مصرية ، وقد مثلت هذه الرواية على المسارح في مصر ، وله أرجوزة في رحلة الخديو سنة ١٨٨٠ .

أدرك المترجم عصر محمد علي وخلفائه إلى أوائل عهد عباس الثاني ، وشغل مناصب عده في الحكومة ، وآخر ما تولاه منها منصب القضاء في المحاكم المختلفة سنة ١٨٨١ ، وأحيل إلى المعاش سنة ١٨٩٣ ، وتوفي سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة

عاشرة عصمت تيمور

(١٨٤٠ - ١٩٠٢)

« طليعة اليقظة النسوية ^(١) » في تاريخ مصر الحديث ، وأول من نبغ من المصريات في الشعر والأدب ، نشأت من بيت كريم ; إذ كان أبوها اسماعيل باشا تيمور ، أحد كبار الحكام في مصر عباس الأول وسعيد واسماعيل ، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور ، بدت عليها ملائكة الأدب والشعر وهي بين السابعة والثانية عشرة ، ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعنى بتنقيتها ، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم ، وقالت الشعر وهي في الثانية عشرة ، فأعجب بها والدها وحبيبها إجادته ، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية وال العربية والتركية ، وتزوجت وهي في الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامي ، فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب

(١) تعبير الساكتة الأدبية (الآنسة مى) في ترجمتها لعاشرة عصمت تيمور

حينما ، فلما شبّت ابنتها (توحيدة) عهّدت إليها شؤون المنزل ، وبعدها وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرّغت للشعر والأدب ، وأتقنّت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم في هذا العصر ، هما فاطمة الأزهريّة ، وستيّة الطبلاويّة ، وعادت إلى نظم الشعر ، ثم توفّيت ابنتها توحيدة فاشتّد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عدداً ، ثم عادت إلى السّكتابه والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢

ولها من الآثار الأدبية « حلية الطراز » وهو ديوان شعرها العربي؛ و« شكوفة » وهو ديوانها التركي والفارسي ، و« نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال » وهي قصة أدبية كتبتها بأسلوب المقامات

عبد الله باشا فكري

(١٨٣٤ - ١٨٨٩)

من أعلام الأدب في عصر اسماعيل ، ولد بمكّة المشرفة ، وكان أبوه محمد افندي بلين قد تخرج في المدارس الملكية التي أنشأها محمد على . ومهر في العلوم الرياضية ، إلى أن صار من المهندسين . والتحق بخدمة الحكومة وحضر موقع حرية ، أهمها في حرب الموره . فعقد في الموره على والدة المترجم ، رعاد بها إلى الحجاز ، فوضعت بمكّة غلاماً هو صاحب الترجمة ، وسمى باسم جده الشيخ عبد الله أحد علماء الأزهر ، ثم عاد بلين افندي إلى مصر ، وما زال في خدمة الحكومة ، حتى تقلّد منصب باشمهندس الشرقيّة ، ثم مفتّش هندسة الجيزة والبحيرة ، وتوفي سنة ١٢٦١ھ . والمترجم لم يتّجاوز الحادية عشرة ، فأخذ يطلب العلم بالأزهر وأتقن اللغة العربية وعلومها ، والحديث والتفسير والمنطق . وتعلم اللغة التركية أيضاً ، والتحق بالمناصب مع استمراره حينما على تلق العلوم بالأزهر ، وانتظم في عهد سعيد باشا بالمعية السنّية ؛ وتولى كتابة الأنشئات الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر بالمعية إلى عهد اسماعيل ؛ ورافقه في رحلته إلى الاستانة ، وظل متصلاً به ، مشمولاً برعايته ، وعهد إليه سنة ١٢٨٤ ملاحظة تعليم أنجحه الأمراء فاضطّلّع بهذه المهمة وكان يلاحظ الدروس التي تلقى عليهم وأحياناً يدرس لهم بنفسه وكان يتولى كتابة رسائل الخديو اسماعيل في مهام الدولة . فنهض بأسلوب السّكتابه

الرسمية ، ومعظم هذه الرسائل منشور في (الفوائد الفكرية) ، وتدرج في المناصب على
عهد اسماعيل وتوفيق ، ولما أنشئت إدارة المكاتب الأهلية بوزارة المعارف جُعل وكيلًا
لها سنة ١٨٧١ ، وصار وكيلًا لوزارة المعارف في يوليه سنة ١٨٧٩ ، واستمر يشغل
هذا المنصب إلى ديسمبر سنة ١٨٨١ ، إذ تألف مجلس النواب على عهد الثورة العرابية ،
فعجل كبير كتاب المجلس ، ولما استقالت وزارة شريف باشا وألف محمود باشا سامي
البارودى الوزارة في فبراير سنة ١٨٨٢ ، اشترك المترجم فيها متولياً وزارة المعارف
العمومية ، فكان عضواً في «وزارة الثورة» التي عارضت الخديو توفيق باشا واستقالت
احتاجاً على مسلكه في مايو سنة ١٨٨٢ ، ومن هنا سخط الخديو على المترجم ، فلما
أخفقت الثورة كان من المقيوض عليهم بتهمة الاشتراك في الفتنة ، ثم أطلق سراحه بعد
أن ثبتت براءته منها ، ولكن معاشه كان موقوفاً من يوم اعتقاله ، فالتمس من توفيق باشا
العفو عنه في قصيدة طويلة أبان فيها عن إخلاصه وولائه لسلطنه ، فأمر بإعادته معاشه ،
وفي سنة ١٣٠٦ هـ ندبته الحكومة لرأسة الوفد المصرى في المؤتمر الذى انعقد بمدينة
استوكholm عاصمة السويد والنرويج ، وخرج على بعض بلاد أوروبا ، يصحبها نجله أمين باشا
فيكرى ، ولما عاد اشتد به مرض أصابه أثناء رحلته ، حتى وافاه الأجل يوم ١٠ المحرم
سنة ١٣٠٧ ، وكان كاتباً أدبياً ، وشاعراً بليغاً

الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى (١٨٢١ - ١٨٨٨)

من كبار الأدباء والكتاب في ذلك العصر ، وصفه على باشا مبارك في الخطط
التوفيقية (ج ٨ ص ٢٩) بالحبر الهمام ونهر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب ، واللوذعى
الأديب ، الشاعر الناشر ، الحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبد الهادى نجا ابن العلامة
الشيخ رضوان الابيارى ، ولد في ابیار غربية ، وتلقى العلم في الأزهر على يد شيوخه ،
ونبغ في علوم اللغة والفقه والأدب ، فذاعت شهرته ، وعهد إليه الخديو اسماعيل تشريف
أبنائه وتعليمهم ، ومنهم الأمير توفيق باشا ، وكان وهو يتولى هذا المنصب يتصدر
لlecturer في الأزهر وفي بيته ، وأخذ عنه كثيرون من جلة العلماء ، كالشيخ حسن الطويل ،
والشيخ محمد البسيوني ، ولما تولى توفيق باشا الأريكة الخديوية قربه إليه وجعله إماماً للمعية
ومفتتها ، وشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وكان كاتباً أدبياً ، راسل أعلام الأدب فيسائر

الاقطار كأحمد فارس الشدياق والشيخ ناصف اليازجي والشيخ ابراهيم الأحباب ، وله
مؤلفات قيمة في الأدب واللغة بلغت أربعين كتابا

السيد عبد الله نديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦)

الكاتب الشاعر الأديب ، والخطيب الوطني المفوّه ، أحد تلاميذ السيد جمال الدين
الأفغاني ، ومن الذين استهمسوا بتعاليمه ومبادئه طول حياته ، ولد بالاسكندرية ، ونشأ
محباً للأدب ، ميلاً للخطابة والشعر ، جريئاً مقداماً ، مولعاً بالحرية ، بدأ شخصيته
الأدبية والسياسية تظهر في أواخر عهد امبايل ، وبدأ ينشر رسائله في جريدة (مصر)
و (التجارة) ، وأسس سنة ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الإسلامية بالاسكندرية ، التي ضمت
أعيان النصر وجهاه ، وكانت باكورة أعمالها إنشاء مدرسة أهلية لتعليم البنين والبنات ،
وهو أكبر خطباء الثورة ، وله فيها دور كبير سالف ذكره في موضوعه من كتاب (الثورة
العربية والاحتلال الانجليزي)

أديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥)

الشاعر الناشر ، والصحف السياسي الحر ، ولد في دمشق ، وبدأ منه منذ صباه الميل إلى
إلى الشعر والأدب ، والتعلق بالحرية ، فما أن جاء مصر حتى اتصل بجمال الدين وصار من
أخلص تلاميذه ، وأصدر جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) وامتازتا بالأسلوب
البلغ وروح الوطنية ، وكان السيد جمال الدين يكتب فيها أحياناً ، وكذلك الشيخ محمد
عبدة ، ولقيت الصحفتان إقبالاً عظيماً ، ثم ألغيتا بأمر رياض باشا ، وهجر أديب اسحق
مصر سنة ١٨٨٠ ، ورحل إلى باريس حيث أصدر فيها جريدة باسم (القاهرة) ، وهناك
أصيب بعلة الصدر ، وعاد إلى بيروت ، ثم رجع إلى مصر في عهد الثورة العربية ، وأعاد
إصدار جريدة (مصر) ، وعين رئيساً لقلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كاتباً ثانياً ل مجلس النواب ،
ولما أخفقت الثورة هاجر من مصر ضمن من هاجروا إلى سوريا ، واستندت به علة الصدر ،
فباء مصر لاستشفاء ، فلم تقدم صحته ، فعاد إلى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوماً حتى
عاد إلى مصر في ريعان الشباب ، وقد جمعت أقواله وأشعاره في كتاب
يسمى « الدرر »

الشيخ على اللثي — توفي سنة ١٨٩٦

شاعر الخديو اسماعيل ، وشيخ النداماء في عصره ، كان أدبياً ذكي الفؤاد ، حاضر البدية ، لطيف العشرة ، حلو الحديث ، خفيف الروح ، محباً للخير ، محبو بأمن معاصريه ، قربه إليه الخديو ، وجعله «منشئاً بالمعية» ، وكان يستصحبه في غدواته وروحاته ، ويختزنه ويأنس لسمره وأحاديثه ، وله ديوان شعر لم يطبع

على أبو النصر المنفلوطى — توفي سنة ١٨٨٠

من شعراء ذلك العصر المجيدين ، ولد في منفلوط ، وتعلق منذ صباه بالشعر والإنشاء ، فقربه اسماعيل إليه وجعله «منشئاً بالمعية» ونال جوائزه وهباته ، ورافقه في سفره إلى الاستاذة على عهد السلطان عبد العزيز ، وله ديوان شعر ببولاقي سنة ١٣٠٥ هـ

الشيخ حسن الطويل — توفي سنة ١٨٩٩

هو أبغ من درس المنطق في مصر قبل حضور السيد جمال الدين الأفغاني ، ومن كبار علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم ، وجهاً بذة المنطق والعلوم الرياضية ، أخذ عنه العلوم الشرعية والرياضية والفلسفية نخبة من علماء مصر وأدبائها ، توفي في ٤ يوليه سنة ١٨٩٩

السيد صالح مجدى بك (١٨٢٧ - ١٨٨١)

كاتب شاعر ، ومغرب ومؤلف ، ولد بقرية أبي رجوان القبلية سنة ١٢٤٣ هـ وتلقى العلم في مكتب حلوان من المكاتب النظامية التي أنشأها محمد علي باشا ، ثم في مدرسة الألسن ، فأتقن علوم اللغة العربية ، ودرس الفرنسية ، ومهر في التعرير على يد استاذه رفاعه بك رافع الطهطاوى ، وبعد أن تخرج في مدرسة الألسن التحق بقلم الترجمة ، وتخصص في تعرير كتب الرياضيات ، ثم انتقل إلى مدرسة الهندسخانة ، وتولى بها تدريس العربية والفرنسية والترجمة ، وعرب كثيراً من الكتب الرياضية وكانت كلها تدرس في المدارس ، «وله غير ذلك من الكتب التي تحمل عن الحصر» كما يقول عنه العلامة

على باشا مبارك (الخطط ج ٨ ص ٢٢) ، وبعد أن قضى عشر سنوات يتولى التدريس في مدرسة المهندسخانة انتقل إلى الألائى المهنديين والكبورجية ، وتولى ترجمة وتصحيح ما يعرب من الفنون الحرية ، وانتقل في عهد اسماعيل إلى قلم الترجمة المستجد ، واشترك في ترجمة (السكود) قانون نابليون ، وتولى هو تعریب قانون تحقيق الجنایات ، واستمر يرقى في المناصب حتى جعل سنة ١٢٨٧ هـ مأموراً لإدارة المدارس ، ولما أنشئت المحاكم المختلطة عين قاضياً بمحكمة مصر المختلطة ، وشغل هذا المنصب حتى توفي سنة ١٨٨١ ، وكان شاعراً أدبياً ، وله ديوان شعر كبير طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وله مقالات أدبية في مجلة (روضة المدارس) ، ووضع كتاباً لم يطبع في ترجمة حياة رفاعة بك رافع اسمه (حلبة الزمن) بمناقب خادم الوطن ، وقد أحصى العلام على باشا مبارك مؤلفاته وترجمته فبلغت خمسة وستين كتاباً ورسالة ، وكتيب بيده من الكراريس مالا يدخل تحت حصر

ابراهيم بك مرزوق ١٨١٧ - ١٨٦٦

شاعر أديب، أدرك أوائل عهد اسماعيل ، وهو من تلاميذ رفاعة بك ، توفي بالخرطوم سنة ١٨٦٦ ، وله ديوان شعر جمعه محمد بك سعيد ابن جعفر مظہر باشا حكمدار السودان وسماه « الدر البھی المنسوق »، بدیوان ابراهيم بك مرزوق » طبع بیوالق سنة ١٢٩٤ هـ

أبو الوفاء نصر المورینی - توفي سنة ١٨٧٤

من خريجي بعثات محمد على ، وكان يجيد الفرنسيّة، وله كتاب «المطالع النصرية للطبع المصريّة في الأصول الخطية» وكتاب «تسليمة المصاص على فراق الأحباب»

محمود صفوت الساعاتی - توفي سنة ١٨٨٠

شاعر أديب ، توجه إلى الحجاز ، فأكرم أمير مكة مشواه ، وأبقاء عنده مدة ثم عاد إلى مصر والتحق بالمعية ، وعرف بالساعاتي لبراعته في فن الساعات ، وان لم يحترفه ، وله دیوان مطبوع سنة ١٩١٢

محمد عارف باشا

من أفالصل علماء ذلك العصر وأدبائه في اللغتين العربية والتركية ، وقد تجلى ميله إلى
العلم والأدب في إنشائه جمعية المعارف التي سبق الكلام عنها

احمد بك عبيد — توفي سنة ١٨٨٠

من نوابع خريجي مدرسة الألسن ، ورئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ، وله ترجم
في الفنون الحربية والرياضية ، وترجم عن الفرنسيّة تاريخ بطرس الأكبر ، وكان وكيلًا
للحكم التجاري بالقاهرة ، ثم قاضياً بمحكمة الإسكندرية المختلطة سنة ١٨٧٥

خليفة افندي محمود

من خريجي مدرسة الألسن ، ومن أبغ تلاميذ رفاعة بك ، التحق بقلم الترجمة
وصار رئيس القسم الخاص بترجمة التواريخ والأديات في هذا القلم ، وله ترجم كثيرة
في التواريخ ، منها (إتحاف الملوك الألبان بتقدیم الجمعيات في بلاد أوروبا) وهو مقدمة لتاريخ
الأمبراطور شارل كان الذي عربه بعنوان (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور
شارل كان) ، لروبرتسون وليم المؤرخ الانجليزي في ثلاثة أجزاء طبعت سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٦٤)^(١)
وأدرك أوائل عصر اسماعيل وتوفي سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤)

بقية أعلام الأدب

وئمه أدباء آخرون ، مثل الشيخ محمد قطه العدوى أحد كبار الأساتذة في مدرسة
الآلسن ، وقد أدرك أوائل عصر اسماعيل ، والشيخ احمد عبد الرحيم الأستاذ بمدرسة
الآلسن ، والشيخ مصطفى سلامة ، وكلاهما من محررى الواقع المصرية ، والشيخ ابراهيم
عبد الغفار الدسوقي كبير مصححى النكتب العلمية وأستاذ المستشرق (لين) والمتوفى
سنة ١٨٨٣ ، وابراهيم بك اللقانى أحد تلاميذ السيد جمال الدين الافغاني ، وكان يسكتب

(١) كما جاء في الخلصات التوفيقية ج ٨ ص ٢٣

في جريدة (مصر) و(التجارة) ثم في (مرآة الشرق) وغيرها من الصحف . والزرقاني
الشاعر الأديب . ومحمد افندى عبد الرزاق المتوفى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) معرب كتاب
(غاية الأرب في خلاصة تاريخ العرب) للسيسيو سديليو طبع سنة ١٢٨٩ هـ . والشيخ حمزة
فتح الله وقد بدأت كفایته اللغوية تظهر في ذلك العهد ، وأمين بك فكري نجل عبد الله
باشا فكري ، وعلى بك فهمي رفاعة نجل رفاعة بك ، واحمد بك فتحى ناظر مدرسة
رأس التين . وتدرس افندى وهي (بك) . ومحمد افندى فنى . وعبد السلام افندى سليمى .
والشيخ عثمان مدوخ ، وهو لاء ظهرت باكوره آثارهم الأدبية في مجلة (روضة المدارس)
.. الخ . الخ

علماء الهندسة والرياضيات

على باشا مبارك . مصطفى بيجت باشا . محمد مظہر باشا . احمد فايد باشا . حسين باشا
فهمي المعمار . احمد بك السبكي . حسن بك نور الدين . وهو لاء قد ترجمنا لهم في « عصر
محمد على » ص ٥١٥ وما بعدها (من الطبعة الأولى)

حسين حسني باشا وقد ترجمنا له في الكتاب الحالى ص ٢٥٠

محمود باشا الفلكي

(١٨١٥ - ١٨٨٥)

هو محمود باشا حمدى الفلكي ، أُنبغ من أنجبيتهم مصر الحديثة في الفلك والرياضيات ،
ولد سنة ١٢٣٠ هـ - ١٨١٥ م ببلدة الحصة بمديرية الغربية ، وعن أخيه بتربيته وأدخله
مدرسة الاسكندرية التي أُنشئت سنة ١٨٢٤ في عهد محمد على ، فارتقا إلى رتبة بلوك أمين ،
وكان أخيه قد سبقه إلى دخول هذه المدرسة وتخريج منها ضابطاً في الأسطول ، ثم انتقل
المترجم إلى مدرسة المهندسخانة بمصر ، فبدأ أقرانه من التلاميذ في العلم والذكاء وحسن
الاستعداد ، وخرج من المدرسة سنة ١٢٥٥ هـ وكان من أوائل الناجحين ، فعين أستاذًا مساعدًا
لعلوم الرياضيات بها ، ونال رتبة ملازم ثان ، وكان من تلاميذه وقتئذ على مبارك (باشا) ،
وبقي يتولى التدريس بالمهندسخانة ، وتعلم اللغة الفرنسية واستطاع أن يعرب بعض
الكتب الفرنسية في الرياضيات ، وأخذ يتقن من ذلك الحين دراسة العلوم الفلكية في

المؤلفات التي وضعها كبار علماء الفلك بفرنسا ، ويدرس هذه العلوم لتلاميذ المندسخانة ومن تلاميذه فيها اسماعيل (باشا) الفلكي ، وابتكر وضع التقاويم السنوية ، فوضع تقويمًا لسنة ١٢٦٤ هـ قارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، وبين موقع الشمس والقمر لتلك السنة ، وعُرف بين الناس من ذلك الحين بلقب (الفلكي) ، الذي لازمه طول حياته

وفي سنة ١٢٦٦ هـ (منتصف سنة ١٨٥٠) اعتزم عباس باشا الأول إعادة تنظيم رصدخانة بولاق (دار الرصد) المنشأة في عهد محمد علي ، فأنفذ ثلاثة من نوابع المهندسين إلى باريس للتخصص في الفلك ، وهم المترجم وكان مدرسا بالمهندسيخانة وحسين افندي ابراهيم ، واسماعيل مصطفى الفلكي ، وكأن قد أتمادراستهما بالمدرسة ، فسافروا إلى أوروبا سنة ١٨٥١ ، ومسك المترجم نحو تسع سنوات مكتبا على استكمال العلوم حتى نسخ في الرياضيات والفلك

وكان يواصل الحضور بدار الرصد في باريس ، وزار دور الرصد في مختلف النواحي بأوروبا ، وظهر نبوغه هناك بإدخاله بعض إصلاحات في الآلة المسماة بـالتيو دوليد ، ونشر بعض مباحث فلكية في المجالات الأوروبية ، ووضع أنباء دراسته بباريس الرسائل الآتية :

- (١) رسالة عن التقاويم الإسلامية والآسرائيلية طبعت سنة ١٨٥٥ ببروكسل
- (٢) رسالة عن التقاويم العربية قبل الإسلام حقق فيها مولد النبي عليه الصلاة والسلام ونشرت في المجلة الآسيوية ثم عرّبها الأستاذ أحمد زكي (باشا) بعنوان (نتائج الافتراض في تقويم العرب قبل الإسلام) - (٣) رسالة عن فعل «كان» - (٤) رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ إلى الجمع العلمي بفرنسا

ونال المترجم أعظم الشهادات العلمية ، ثم عاد إلى مصر في عهد سعيد باشا سنة ١٨٥٩ ، فأُنْعم عليه برتبة أمير الای ، وعهد إليه وضع خريطة مفصلة للقطر المصري ، فاضطلع بهذه المهمة وشرع في تحطيط تلك الخريطة بمعاونة بعض المهندسين ، « ورتب

الرسوم وأبرز من جليل صنعته وجميل وضعه لما انبرت منه العقول ووقفت على
 مقدار براعته »^(١)

فأنجز خريطة جامعة للوجه البحري لم يسبقها إليها أحد من العلماء والمهندسين ، ووضع
 خريطة أخرى للوجه القبلي ، وأخرى عن مدينة الاسكندرية

وفي سنة ١٢٧٦ هـ عهد إليه سعيد باشا بالرحلة إلى دنقلا للاحظة كسوف الشمس
 الكلى ، فأدى هذه المهمة ، وانتهى هذه الفرصة لتحقق الواقع الفلكي على النيل ، ووضع
 رسالة مساعدة عن هذا الكسوف قدمها إلى سعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم بباريس
 فنالت استحسان العلماء

وخطط معالم الاسكندرية القديمة ، ونقب في حفائرها ، وهو أول عالم عصرى
 كشف عن آثار الاسكندرية وموقع سورها القديم ، وله في ذلك رسالة بديعة باللغة
 الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته
 وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها ،
 وشوارعها ، وأقنيتها ، وراسحها ، ومتاحفها ، ومكتبة الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ،
 وضواحيها ، ولم يسبقها إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من
 الأفرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يسكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر
 والتعميق^(٢) ، وقد بحث اثنان منهم في الواقع الاسكندرية ، أولهما المسيو سان جينيس
 Seinl Genis أحد مهندسى الحملة ، وله في الاسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور في
 الجزء الخامس من كتاب (تخطيط مصر) Descriprion de l'EgyPte ، ولكن المسيو
 سان جينيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى ، بل اكتفى بذكر نتائج
 مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبيير Gratien Lepere بحثا
 في وصف الاسكندرية نشر في الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما

(١) عن ترجمة حياته بقلم إسماعيل بك (باشا) الفلكى والأمير الای محمد مختار بك (باشا) في
 محاضرةقياها بجمعية الجغرافية بجلسة ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ونشرت في مجلة الجمعية بجموعة ٢ عدد ١٢٥

(٢) عن تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٦٦ (طبعة أولى)

نقله عن مؤرخي الأفرنج والعرب ، وللمسيو نوري Notry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسي الحملة الفرنسية بخنان أقل أهمية من أبحاث سان جنليس وجراطيان لو بير ، منشوران في الجزء الخامس عشر من كتاب (تخطيط مصر) ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتقطيب

فمحمد باشا الفلكي هو أول عالم عصرى خطط معالم الاسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهوداً كبيرة ، وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ، ونحو مائة عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، وما أفرد عمله وميّزه أنه استثار الأرض فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطى بالمباني الحديثة ، وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكي مقرونة بخريطة هي أبدع ما زسه العلماء والمهندسو عن الاسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا فى أبحاثهم

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم ، فعين لمدينة (كانوب) مكاناً غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة تابوزيريس (بوصير - غرب الاسكندرية) التي يسمى الفرنسيون برجها برج العرب

وله رسالة ممتعة فى التوضيح عن عمر الأهرام والغرض الأصلى من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعري ، وأخذ بنفسه مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكي

قال الأمير الای محمد مختار بك (باشا) فى هذا الصدد : « و كنت موجوداً معه عند شروعه فىأخذ مقاييس الأهرام و موقعها من التناسب الفلكي ، وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ، إذ وجدها مخكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعري عند طوعه ، فكان الذى بناها قصد أن يجعلها مزولة ليعرف منها يوم شم نسيم العلماء ، وكذلك لأجل تعريض جثت المدفونين فيها لموافقة صعود الكوكب المذكور ، فيسبغ عليهم من آياته رحمة وغفرانا ، لأن كوكب الشعري كان من معبدات المصريين القدماء »

وله رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وأخرى عن ضرورة إنشاء دار

الرصد بمصر ، وأخرى في توحيد موازين العملة في الديار المصرية ، ورسالة في المقايس والمقاييس في مصر ، وترجم كتاب (حساب التفاضل والتكامل)

وعين سنة ١٨٧١ ناظرًا لمدرسة المهندسخانة ، وتولى نظارة الرصدخانة ، وإذ كان وكيلًا للجمعية الجغرافية ، فقد ناب عن الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافي الذي عقد بباريس سنة ١٨٧٥ ، والمؤتمرات الجغرافية الآخر الذي عقد بمدينة البندقية سنة ١٨٨١ ومن أعماله إنشاء مدفع الظهر بالقلعة ، وأنشأ على سطح منزله (ميدان الفلكي) مزولة تبين ساعات النهار ، ورفعت من مكانها بعد وفاته

وقد تولى وزارة الأشغال سنة ١٨٨٢؛ في عهد وزارة اسماعيل راغب باشا ، وعين وكيلًا لوزارة المعارف في وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٣ - ١٨٨٤

ثم عهد إليه بوزارة المعارف في عهد وزارة نوبار باشا الثانية سنة ١٨٨٤ ، وتولى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية ، وبقي يتولاها مع الوزارة إلى أن توفي في ١٩ يوليه ١٨٨٥

وقد أبدته الجمعية الجغرافية الخديوية في اجتماعها يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ، وألقى كل من اسماعيل بك مصطفى الفلكي والأمير الای محمد مختار بك محاضرة في ترجمة حياته وما ثرث ، واقتراح الأمير الای محمد مختار بك اقتناء مكتبة المترجم ، وما فيها من نفائس الكتب ، وما خطه وما دونه من ملاحظاته ومعلوماته ، ونتائج اختباراته العلمية ، وكان المترجم يذكر في إعداد قاعة عامة للبطالعة بداره يعرض فيها لمن يرغب من محبي الاطلاع كل ما وصل إليه من نفائس الكتب والخرائط والخطوطات ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٢٩ ، إذ وُهبت كريمه مكتبة الفقيه إلى الحكومة

اسماعيل باشا الفلكي - توفي سنة ١٩٠١

هو اسماعيل باشا مصطفى الفلكي ، من تلاميذ محمود باشا الفلكي ، ومن نوابع علماء الرياضيات والفلك ، أتم دراسته في مدرسة المهندسخانة ببور لاك والتحق سنة ١٨٤٥ على عهد محمد علي بالرصدخانة القديمة التي كانت ببور لاك ، ثم أوفده عباس الأول سنة ١٨٥٠

ضمن البعثة التي خصصها لدراسة الفلك ، وكانت مؤلفة من محمود حمدي (باشا) الفلكي ، ومن المترجم وحسين افندي ابراهيم ، ومكث اسماعيل أربعة عشر عاما في فرنسا يدرس علوم الفلك ، ويتفقه فيها ، ويمارسها في دور الرصد ، خاز بحق هو ومحمود باشا لقب (الفلكي) ، ومارس أيضا صناعة الآلات الفلكية ، وأتقنها في باريس ، وعاد إلى مصر في أوائل عهد اسماعيل ، فقدر كفاءته وأنعم عليه بالرتبة الثانية ، ولما أنشأ الرصدخانة بالعباسية عهد إليه بنظارتها ، وقد عهد إليه دراسة مشروع سكة حديد سوakin - ببر بالسودان . فبحثه ووضع تصميما له ، ولذلك لم ينفذ ، وناب عن الحكومة سنة ١٨٧٣ في مؤتمر الإحصاء الدولي بموسكو ، فأعجب العلماء بكفاءته وسعة اطلاعه ، وتولى نظارة الرصدخانة وناظرة مدرسة المهندسخانة

ومن أعماله أنه أصلاح مقاييس النيل في أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات في الفلك والرياضيات أهمها (١) الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة ، طبع ذيلا لجلة روضة المدارس و (٢) الدرر التوفيقية و (٣) تقاويم فلكية كانت ينشرها كل عام بالعربية والقرنية (٤) والتحفة المرضية في المقاييس والموازين المترية معربة عن الفرنسية شاركه في تعريبها صادق بك ششن

سلامة باشا

هو سلامة باشا ابراهيم ، مفتش هندسة الوجه البحري ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلي ، ثم مفتش عموم ديوان (وزارة) الأشغال ، وهو من كبار المهندسين في ذلك العصر ، وأصله من الاسكندرية ، وأبوه السيد ابراهيم شرابيه بن صالح شرابيه من أهالى الشرف (١) ، وله آثار تشهد له بالشرفامة في الأعمال الهندسية ، منها أنه أنشأ ترعة الساحل ، وكان وقتئذ وكيلاً لمظهر باشا مفتش بحر الشرق (فرع دمياط) على عهد سعيد باشا ، واشترك مع مصطفى بهجت باشا في إنشاء الترعة البراهيمية ، وهي من أجل أعمال

(١) عن حجة شرعية حررها سلامة باشا في يوم الأحد ١٥ المحرم سنة ١٣٠٠ مسجلة

عَلَاءُ الْمُسْتَقْرٍ وَالنَّاضِئَاتِ فِي عَصْرٍ لَكِيْلَقْ



لَمَّا دَرَأَ مُظَاهِرَ بَاشْكَ



علی پاشا مبارک



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جامعة
الفنون
اللدنية



مُحَمَّدْ شَافِعْ بْنْ شَا
حْسَيْنْ بْنْ شَا
الْمَعْمَارْ



خَيْرُ خَيْرٍ بَاشْتَهِ



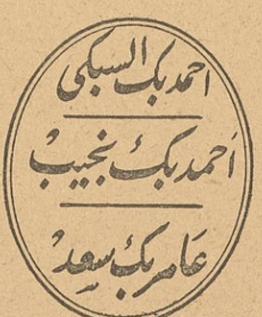
حسین نور الدین



علی احمدی عزت
الْبَیْدَعْمَارَه
حسین علی الدین



امانی عینک ماشا



احمد بک سبی
محمد بک نجیب
عاصم بک سعد

العمران التي أنشئت في ذلك العصر ، وفي إقامة قناطر التقسيم على الترعة المذكورة ، وهي من أعظم قناطر الري في العالم

محمد ثاقب باشا

من أهالي القرشية بمديرية الغربية ، ومن مشاهير المهندسين في عصر محمد علي واسمه عيال ، حضر بعض الواقع الحربي على عهد محمد علي ، وعاون مصطفى برجت باشا في بناء القناطر الخيرية ، وصار مفتاح هندسة الوجه القبلي ، توفي سنة ١٨٧٤

اسحاعيل باشا محمد

ناظر قلم الهندسة ورئيس إدارة دروس المدارس الملكية ، ثم مفتاح هندسة الوجه القبلي ، واشترك في إتمام ترعة الإبراهيمية وقناطرها ، وهو الذي صار رئيس مجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩

أحمد بك نجيب

أستاذ الرياضة بمدرستي أركان حرب والطوجية ، وله كتاب (التحفة البارية في الهندسة الوصفية) طبع سنة ١٢٩٠

حسين افندي على المديك

مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيّم في مسلك الدفاتر اسمه (عدة المحاسب وعمدة الكاتب) طبع سنة ١٢٨٦ (١٨٦٩) وله كتاب (عمل الدواوين المتواتر في بيان رسوم الدفاتر) طبع سنة ١٢٩١

على افندي عزت

أستاذ العلوم الرياضية بالمهندسينخانة ، توفي سنة ١٨٧٢ وله كتاب (حسن الصناعة في علم الطبيعة) طبع سنة ١٢٧٠ (١٨٥٥) ، و (النخبة العزية في تهذيب الأصول الهندسية) طبع سنة ١٢٧٤ و (الخلاصة العزية في تهذيب الأصول الحسابية) طبع سنة ١٢٨٥

عامر بك سعد

أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية ، وله (المنحة الزهرية في الأعمال الجبرية)
طبع سنة ١٢٦٩ هـ ، و (أحسن الوسائل لتصريف السوائل) طبع سنة ١٢٩١ ، وهو ملخص
القواعد النظرية في تصريف المياه من البحيرات والمجداول

السيد عمارة

من تلاميذ رفاعة بك ، وله كتاب (تهذيب العبارات في فنأخذ المساحات) عربه عن
الفرنسية بإرشاد رفاعة بك

علماء الطب والجراحة

محمد على البقل باشا . احمد حسن الرشيدى بك . محمد الشافعى بك . حسين عوف
باشا . وهؤلاء قد ترجمنا لهم في « عصر محمد على » ص ٥٢١ وما بعدها (طبعة أولى)

محمد درى باشا

(١٨٤١ - ١٩٠٠)

كثير الجراحين في عصره ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٥٧ هـ ، وأبوه السيد عبد الرحمن
احمد من محلة أبي علي القنطرة (غربية) ، تلقى التعليم الابتدائي والثانوى ، ثم التحق
بمدرسة المهندسخانة في عهد نظارة على باشا مبارك ، لكنه كان ميلاً إلى الطب ، فما زال
يسعى في الانتقال إلى مدرسة قصر العيني حتى وفق إلى غرضه سنة ١٢٦٩ هـ ، والتحق
بها ، وأكب على الدراسة ، ونجح في الامتحان السنوى ، ولكن سعيد باشا أمر بالغاء
مدرسة الطب وأخرج منها تلاميذها ، فكان المترجم ضمن من ألحقوه بأحدى الأورط
العسكرية في الجيش ، فلم يتسرّب اليأس إلى نفسه ، وأخذ يعني بالاطلاع على المعلومات
الطبية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، واشتغل بمرضى في الجيش ، وظل كذلك إلى أن أعاد
سعيد باشا فتح مدرسة الطب ، فعاد إليها المترجم ، وأتم دراسته بها ، وظهرت عليه علام
الذكاء والنبوغ ، فعين مساعدًا ومعيدًا للجراحة بالمدرسة

وفي سنة ١٢٧٩ هـ أوفد سعيد باشا بعثة من الأطباء لإتمام دراستهم في باريس مؤلفة من الأطباء محمد بك فوزى، ومحمد بك عامر، وقاسم بك فتحى، ومحمد بك القطاوى، وعلى بك رياض، ومحمد بك زهران، وعقباوي افندى، والمترجم، وكان أصغرهم سناً، وقد استدعت الحكومة هؤلاء الأطباء في أوائل عهد اسماعيل، قبل إتمام دراستهم، لاحتياج الحكومة إليهم، فرجعوا إلى مصر، عدا المترجم فقد استثنى منهم لصغر سنه، فأكمل معارفه الطبية وأتم دروسه على أشهر جراحى العالم وقتئذ، وبقى يوالي الدرس والتخصص في باريس نحو سبع سنوات، ونبغ في الجراحة نبوغاً عظيماً، شهد له به أساتذته، وفي خلال هذه المدة قابل الخديو اسماعيل في باريس، فشبله بعطشه ورعايته، إذ سمع من أستاذته الشناء المستطاب على كفاءته واجتهاده

وعاد المترجم إلى مصر، فتقلد المناصب الطبية، وأهم ما تقلده منصب كبير الجراحين بمستشفى قصر العيني، والاستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب، وأنعم عليه بالرتب إلى أن نال البلاشوية سنة ١٣١٥ هـ، وسطع نجمه في الجراحة، وذاعت شهرته فيها حتى عمت أرجاء البلاد، وبلغ ذروة شهرة بما عرف عنه من النبوغ في فنه، والمهارة في إجراء العمليات الجراحية الخطيرة، والدقة في تشخيص الداء والدواء، والتفانى في الإخلاص لعمله وفنه، وحب الإنسانية، والبر بالفقراء والمعوزين، هذا إلى تعلقه بالعلم والتأليف، فقد أقتنى مكتبة علمية من أنفس المكاتب، وألف مجموعة تشريحية من أعظم ماجمهه الأطباء، وأنشأ لنفسه مطبعة لطبع مؤلفاته ورسائله، سميت المطبعة الدرية، كان يطبع فيها المؤلفات الطبية التي ظهرت في عصره، وقد ظل مخلصاً لفننه وللعلم حتى وافته المنية ليلة ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٠، وأهم مؤلفاته الطبية «بلغ المرام في جراحة الأجسام» طبع بالمطبعة الدرية في أربعة مجلدات، وله «الإسعافات الصحية في الأمراض الوبائية» طبع

سنة ١٣٠٠ هـ

حسن بك عبد الرحمن

توفي سنة ١٨٧٥

تخرج من مدرسة الطب بقصر العيني ثم تولى تدريس التشريح فيها ونبغ في هذا الفن،

وترجم كتاب (القول الصحيح في علم التشريح) طبع سنة ١٢٨٣ هـ بارشاد محمد على باشا
البقل، إذ كان ناظرآ لمدرسة الطب

محمد بك حافظ

توفي سنة ١٨٨٧

تخرج في مدرسة قصر العيني ، وأتقن فن الرمد بأوروبا ، ثم تولى تدريسه بقصر العيني ، وله كتاب (مطمح الأنظار في تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار) طبع

سنة ١٢٩٩ هـ

سالم باشا سالم

توفي سنة ١٨٩٣

من القنایات بمديرية الشرقية ، تعلم في مدرسة الألسن ، ثم في مدرسة الطب ، وأوفدته الحكومة في عهد عباس باشا الأول لإتمام دراسة الطب في مونيخ بألمانيا ، فأكمل دراسته عملاً وعملاً ، وعاد إلى مصر ، وارتقى في المناصب الطبية وجعله الخديو توفيق باشا طبيبه الخاص ، وله من المؤلفات (١) وسائل الابتهاج إلى الطب الباطني والعلاج طبع سنة ١٢٩٨ هـ في أربعة مجلدات و (٢) دليل المحتاج في الطب والعلاج و (٣) الينابيع الشفائية والمياه المعدنية

جليلة تمرهان

توفيت سنة ١٨٩٩

من خريجات مدرسة القابلات (الولادة) ، ثم تولت التدريس فيها ، ولها في فن الولادة كتاب (محكم الدلالة في أعمال القبالة) طبع سنة ١٢٨٦ هـ

محمد بك بدر

توفي سنة ١٩٠٣

من زاوية البقل بمديرية المنوفية ، ومن خريجي مدرسة الطب بقصر العيني ، وأحد تلاميذ محمد علي باشا البقل ، أتم دراسته في إنجلترا وعاد منها في عهد سعيد ، فتولى مناصب عدة حتى صار أستاذًا في مدرسة الطب ، ونال منزلة رفيعة لدى إسماعيل ، وله من المؤلفات (١) الفرائد الدرية في علم الشفاء والمادة الطبية طبع سنة ١٣٠٧ هـ و (٢) الدرر البدريّة النضيّدة في شرح الأدوية الجديدة طبع سنة ١٣١٠ و (٣) الصحة التامة والمنحة العامة طبع سنة ١٢٩٦ هـ

أحمد حمدي باشا

توفي سنة ١٩٠٣

هو نجل الدكتور محمد علي باشا البقل ، ومن خريجي مدرسة قصر العيني ، ثم أتم دراسته في باريس وبعد عودته إلى مصر سنة ١٨٦٩ عين أستاذًا للعمليات الجراحية في حياة أبيه ، وحذا حذوه في التأليف

حسن باشا محمود

(١٩٠٦ - ١٨٤٧)

ولد بقرية الطالبية في طريق الأهرام ، وتلقى علومه بالمدرسة الحربية ، أوفردته الحكومة سنة ١٨٦٢ ضمن بعثة مدرسية إلى ألمانيا لدراسة الطب ، وعاد سنة ١٨٧٠ ، فعين أستاذًا للتشرح في مدرسة قصر العيني ، وتقلد مناصب عدة ، إلى أن صار ناظرًا لمدرسة الطب ، وله مؤلفات قيمة ومحاجث طبيّة كان ينشرها في المجالس العلمية كروضة المدارس ثم المقططف

(١٨)

ابراهیم باشا حسن و علیسی باشا حمدی

كلاعما من نوابغ الأطباء . وللأول كتاب (روضة الآسي في الطب السياسي) ، طبع سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) ، وتولى الثاني نظارة مدرسة الطب سنة ١٨٨٣ ، وله عدة مؤلفات طبية

عبد الرحمن بك الهراوي

توفي سنة ١٩٠٦

من خريجي مدرسة قصر العيني، أتم دراسته بأوروبا، وعيّن بعد عودته أستاذًا للفسيولوجيا وأمراض الجلد، ثم صار وكيلًا للمدرسة سنة ١٨٨٠، وله كتاب في الفسيولوجيا لم يطبع

علماء الطبعات

^{٥٣٤} أحمد بن حنبل، عبد الله بن إسحاق، وقد ترجمنا لهما في (عصر محمد عليه) ص ٥٣٤

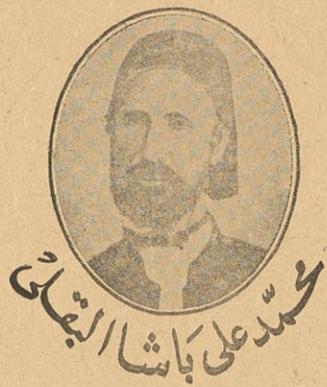
علي بك رياض ، توفي سنة ١٨٨٩

تلقى علم الصيدلة بمصر ، وأتم دراسته في أوربا ، وتولى تدريس الأقربادين والكيمياء
في مدرسة الطب ، وجعل كبير صيادلة مستشفى القصر العيني ، وله من المؤلفات : (١) النصفحة
الرياضية في الأعمال الأقربابادينية طبع سنة ١٢٨٩ هـ (٢) الأزهرار الرياضية في المادة
الطبية طبع سنة ١٢٩٨ هـ (٣) التوفيقات الإلهية في التاريخ الطبيعي ، طبع سنة ١٢٩٨ هـ

منصور افندی احمد

أستاذ الكيمياء بجامعة الهندسخانة مؤلف كتاب (عمدة المتطبيين في فن الصيدلة المعروف بالأقربادين) طبع سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٦)

علماء الطبلة والجرائم في عصر استقلال مصر



علماء الفقه والقانون



محمد قدرى باشا

(١٨٢١ - ١٨٨٦)

العالم المشتروع الكبير ، ولد بملوى حوالي سنة ١٨٢١ ، من أب أناضولي وأم مصرية ، وتلقى التعليم الأولى بمكتب ملوى ، ثم التحق بمدرسة الألسن على عهد رفاعة بك رافع الطهطاوى ، فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، وبعد أن تخرج فيها جُعل مترجماً مساعداً لها ، واتجه ميله إلى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوروبية ، فحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وأقبل على كتب الشرع يدرسها ويتفهمها ، وظل يشغل مناصب الترجمة في الحكومة إلى أن قربه الخديو اسماعيل واختاره مرسينا لولي عهده الأمير محمد توفيق ، ثم عين بالمعية ، فالمحكمة التجارية بالاسكندرية ، فرئيساً لقسم الترجمة بوزارة الخارجية ، ومشاركاً رفاعة بك في تعريب الـكود (قانون نابليون) ، واختص هو بتعريب قوانين المحاكم المختلطة تمهيداً لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة ، وجعل مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وله آثار علمية عدّة ، أهمّها كتبه الثلاثة الخالدة التي جمع فيها أحكام الشريعة الإسلامية ، وصاغها في مواد محكمة الوضع على أسلوب القوانين الأوروبية ، وهذه الكتب هي : (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان

في المعاملات المدنية الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف) ، وهذه الكتب هي مرجع رجال القضاء والقانون في المحاكم الأهلية والشرعية والمحترفة ، وعمدة كل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية

وله أيضاً كتاب لم يطبع في (تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقاً لذهب أبي حنيفة)

وتولى وزارة الحقانية في وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ على عهد الخديو توفيق باشا ، ووضع في هذا العهد مشروع النظام القضائي للمحاكم الأهلية الجديدة ، وفي سنة ١٨٨٣ افتتحت هذه المحاكم ، وصدرت قوانينها ، وهي القانون المدني وقوانين التجارة والمرافعات والعقود ، وكان المترجم وقائده وزيراً لل المعارف في عهد وزارة شريف باشا الرابعة ، وهي الوزارة التي استقالت احتجاجاً على إخلاء السودان

الشيخ محمد العباسى المهدى

(١٨٢٧ - ١٨٩٧)

شيخ الإسلام ، ومفتى الديار المصرية ، وصاحب الفتوى المهدية التي تعد مرجع العلماء في الفقه الإسلامي ، وهو ابن الشيخ محمد أمين المهدى مفتى الديار المصرية الأسبق ابن الشيخ محمد المهدى أحد كبار علماء مصر في عهد الحملة الفرنسية وأوائل عهد محمد على (ترجمنا له في الجزء الثاني من تاريخ الحركة القومية ص ٢٩٩)

تلقي العلم بالأزهر ، ونبغ في علوم الفقه ، وتولى منصب الفتيا وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره ، على عهد إبراهيم باشا ، وظهرت مزاياه التي رفعت مكانته ، وأهمها الذكاء ، وسعة العلم ، وقوة الحجة ، وقد وقف من الحكومات المتعاقبة موقف الكرامة والاستمساك بالحق ، حتى استهدف في بعض المواطن لغضب ولاة الأمور ، فلم يسكن يسأله غضبهم ، ولم يتحول عن الحق ، وتلك كبرى مزاياه وفضائله ، وقد زاد مقامه علوا في عهد اسماعيل ، إذ جمع بين الافتاء ومشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ، ونال احترام الخديو وثقته ، وكان يرجع إلى رأيه في كل ماله مساس بالشرعية الإسلامية ، وبدأ على يده

أَبْكِنْ تَلَامِيزُ الْأَدْبَرِ



الشّيخ عبدُ الْهادِي نجَا
الْأَبْبَارِي



جَمالُ الدِّين الزَّقَانِي



الشّيخ حُسَيْن المُصْرِنِي



الشّيخ مُحِبُ الدِّين الْخَاتِبِي



عليٌّ قاسمُ الْأَمْبَارِي



عُمَرُ اللَّه باشافِ كَزْرِي



إِبرَاهِيمُ بْنُ الْمُوتَوَالِي



خُودَبَاشَ سَاحِي الْبَارُوِي



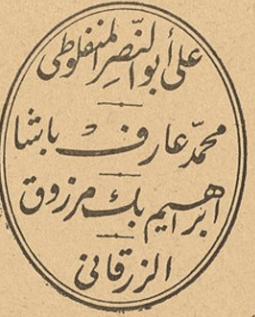
أَحْمَدُ بْنُ عُثْمَانَ كَبْرِي



إِبرَاهِيمُ بْنُ الْلِقَانِي
أَحْمَدُ بْنُ فَتْحِي
عُثْمَانُ مِدْرُوك



عَلِيٌّ بْنُ فَطْحِي زَقَانِي
إِيمَنُ بْنُ فَكْرِي
الشّيخ حُمَرَة فَتحُّي



مُحَمَّدُ عَارِفُ بْنُ باشَا
إِبرَاهِيمُ بْنُ مَزْدُوقٍ
الزَّقَانِي

في عصر استاذ العيلان



عبدالله نديم



الشيخ محبوب عبد



أبو الأسود



محمد سفي



رفاعي بن رافع الطحاوي



أبو السعد



الشيخ محمد الجازم



شريف الطويل



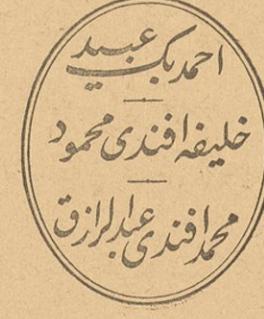
أبو القاسم الهرمي



توفيق كببي



أحمد باسر



خليفة افندي محمود

إصلاح نظام التعليم في الأزهر كا تقدم بيانه ص ٢٠٣ ، واستمر محتفظاً بمكانته في عهد الخديو توفيق ، ولما قامت الثورة العرابية لم يسكن من أنصارها ، فاستهدف لغضب العرابيين ، وعزل من مشيخة الأزهر ، ولما انتهت الثورة أعيد إلى مشيخة الأزهر واستمر متقلداً الافتاء والشيخة حتى عزل عنهم لمعارضته الحىكومة على عهد توفيق باشا فيما يخالف الشرعية ، ثم عاد إليه الافتاء وتقلده ، إلى أن وافته منيته ليلة ١٦ رجب سنة ١٣١٥ هـ

* * *

ومن علماء الفقه المعدودين في هذا العصر: الشيخ محمد عليش ، والشيخ ابراهيم السقا ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ حسونه النواوى الخ

علماء الفنون الحرية والبحرية

على باشا ابراهيم ، حماد عبد العاطى باشا ، وقد ترجمنا لها في (عصر محمد على)

ص ٥٣٠

محمود باشا فهمي

توفي سنة ١٨٩٤

أحد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ في الشسطور ببركان ببا من مديرية بنى سويف ، وتخرج في مدرسة الهندسخانة ببولاق ، ومهر في الفنون الهندسية والحرية وانتظم في سلك الجيش ، ثم جعل أستاذًا لعلم الاستحکامات والفنون العسكرية في المدارس الحرية ، على عهد سعيد واسحاعيل ، وعهد إليه الخديو اسماعيل تحصين شواطئ مصر الشمالية من أبو قير إلى البرلس ، فاضطلع بهذه المهمة ، وجدد الحصون القديمة ، وأقام حصوناً جديدة ، وارتقي في الرتب العسكرية ، واشترك في حرب البلقان سنة ١٨٧٦-١٨٧٧ ، وكان رئيس أركان حرب الفرقة المصرية بها



مُحَمَّد باشا فهْمِي

توفي سنة ١٨٩٤

ولما شبت الشورة العرابية كان من زعماءها كاسبيجيء بيانه في موضعه من كتاب (الشورة العرابية) ، وتولى وزارة الأشغال في وزارة محمود باشا سامي البارودي سنة ١٨٨٢ ، وأسر قبل واقعة التل الكبير ، فكان أسره من أسباب هزيمة الجيش المصري ، وبحكم ضمن زعماء الشورة ، ونفي إلى سيلان ، وهناك وضع كتابه (البحر الراخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر) ، وتوفي في منفاه سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤) ، وبعد وفاته طُبع كتابه سنة ١٣١٢ هـ في أربعة مجلدات



محمد مختار باشا

(١٨٣٥ - ١٨٩٧)

من رجال السيف والقلم ، ولد في بولاق سنة ١٨٣٥ ، وتلقى التعليم الابتدائي ، ثم تلقى الفنون الحربية ، وانتظم في خدمة الجيش وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وارتقي في المناصب العسكرية حتى نال رتبة لواء في سنة ١٨٨٦ ، واشتراك في حملة هرر كما تقدم بيانه ص ١٣٣ ، ثم جعل رئيس أركان حرب الجيش المصري بالسودان ، وعيّن مأموريًا للخاصة الخديوية في عهد الخديو عباس حلبي الثاني ، وبقي يتولى هذا المنصب إلى أن توفي في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٧

وقد أسبغت عليه حياته العلمية منزلة ممتازة ، ويحسب من المؤلفين والعلماء أكثر ما يعد من رجال الحرب ، وحسبيك أنه صاحب الكتاب القيم (التوفيقات الإلهامية في مقارنة التوارييخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية) من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هـ طبع سنة ١٣١١ هـ

وقد ذكر إزاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التي وقعت في مصر والعالم ، وله كتاب (المجموعة الشافية في علم الجغرافيا) ورسائل أخرى في الرياضيات والفلك ، ومقالات ممتحنة في مجلة الجمعية الجغرافية

شحاته عيسى بك

ناظر مدرسة أركان الحرب في عهد الخديو اسماعيل

محمد صادق باشا

توفي سنة ١٩٠٢

من تلاميذ مدرسة الخانكة الحربية المنشأة في عهد محمد علي ، ومن أعضاء البعثة الخامسة ، عاد من البعثة مهندساً وانتظم ضابطاً في سلك الجيش ، وهو الذي رافق سعيد باشا في رحلته بالحجاج ، وعين مفتشاً بمصلحة المساحة برأسة استون باشا ، وله مباحث قيمة في مجلة الجمعية الجغرافية

سليمان قبودان حلاوه

توفي سنة ١٨٨٥

من المنوفية ، ولد سنة ١٢٣٥ هـ وتخرج في مدرسة الطوبجية على عهد محمد علي ، وحقق الفنون الحربية والرياضية ، وجعل أستاذًا للهندسة والحساب بالمدرسة البحرية القديمة ، ومهر في الفنون البحرية وأتقنها ، وصار رباناً للباخرة سمنود ، فأظهر براءة في قيادتها ، وطاف بها حول القارة الأفريقية ، وجعل في عهد اسماعيل سنة ١٨٧٠ مدرساً للفنون البحرية والفلكلورية ، فأقاد التلاميذ فوائد جمة ، وألف في الملاحة كتاباً اسمه (الكوكب الراهن في فن البحر الآخر) وتوفي سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥ م

النَّهْضَةُ الْفَنِيَّةُ

ان النهضة الفنية تشتمل على الظواهر المعروفة بالفنون الجميلة ، وهي الفنون التي تستثير في النفس إحساس الجمال ، وتنمى فيها ملائكته ، ولا مراء في أنها من عوامل نهضة الأمة ، لما تنتجه من تهذيب النفوس ، ونشاط العقول ، وترقية العواطف ، وتوسيع المدارك ، وتفتح الأذهان إلى دقة الملاحظة ، وصواب النظر

والكلام عن الفنون الجميلة يتناول الموسيقى أو الغناء ، والتمثيل ، والرسم ، والتصوير ،
والنقوش والزخرفة والعمارة

أما الرسم فقد بدأت المدارس الهندسية والصناعية والبعثات تعنى به من عهد محمد
علي ، فتخرج فيها طائفة من الرسامين تولوا تدريس الرسم في المدارس العالية والثانوية ،
والابتدائية ، ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تخل حظاً من الازدهار في ذلك العهد

وتخرج في مدرسة الهندسخانة والبعثات مهرة المهندسين في النقوش والبناء ، وتقديم
فن العمارة مما أقامه أولئك المهندسون من القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة
التي تشهد لهم بحسن الذوق والخلق في هندسة البناء ، وظهر أيضاً حذقهم فيما شيدوه
من القناطر على النيل والرياحات والترع الكبرى ، فإن بعض هذه المنشآت تعد
قطعة من الفن

التمثيل والغناء

كان المجتمع في عصر اسماعيل ميالاً إلى المرح والحبور ، وكان اسماعيل ذاته طروباً ،
محباً للتمتع بالملاهي والمسرات ، وهذه الميول هي غذاء للنهضة الفنية وخاصة الغناء^(١)
(الموسيقى) ، والتمثيل

أما التمثيل فقد ساعد اسماعيل الناحية الأوروبية منه ، ثم بدت منه التفاتة قليلة
المجدوى إلى التمثيل العربي ، فأنشأ أول مأذناً بالقاهرة مسرح (الكوميدي) بالأزبكية ،
وكان الشروع في بنائه في نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه في ٤ يناير سنة ١٨٦٨^(٢)
ثم بني دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح قناته السويس ، وتم بناؤها في
خمسة أشهر ، وبلغت تكلفتها ١٦٠ ألف جنيه ، ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩
أول أوبرا واسمها (ريجوليتو) ، وكانت الأمبراطورة أوجيني عقيلاً نابليون الثالث في
مقدمة من شهدوا التمثيل في تلك الليلة ، وعهد اسماعيل إلى الموسيقى الإيطالي الشهير

(١) الغناء والموسيقى يعني

(٢) كتاب (باريسى في القاهرة) للمسيو بريير ص ١١٧

(فردى) أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا ، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسي مارييت باشا موضوع الرواية ، وهى رواية (عايدة) ، ومثلت بالقاهرة لأول مرة فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٧١ ، فنالت نجاحاً عظيماً ، وجلبت الحكومة من ذلك الحين الجوقة الأفرنجية وأغدقها عليها الأموال والهبات ، فبلغ ماتصرف على أفراد إحدى الجوقة فى شتاء سنة من سن إسماعيل ١٢٠ ألف جنيه ، ولا غرابة في ذلك فان الممثلة الواحدة كانت تأخذ أحياناً الف ومائة جنيه في الشهر !

وأنشئ في الإسكندرية مسرح (زيزانيا) ، ومسرح آخر اسمه ألفيري Allieri بشارع انسطناسى

وقد وفد على مصر حوالي سنة ١٨٧٦ جماعة من الأدباء والممثلين السوريين ، منهم يوسف خياط ، فشلوا على مسرح زيزانيا بعض الروايات ، ثم انتقل يوسف خياط بجوقه إلى القاهرة سنة ١٨٧٨ ، فلقى تعصيدها من الخديو إسماعيل ، وأذن له أن يمثل رواياته في دار الأوبرا ، ففشل رواية «الظلم» وحضرها الخديو ، فلم يرقه أسلوبها ، وغضب مما تخللها من ذكر الظلم والتعریض بالظلمتين ، إذ ظن أنه المقصود بهذا التعریض ، فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر فعادوا إلى سوريا ، ووقفت النهضة المثلية في عهد إسماعيل عند هذا الحد

المسيقى (الغناء)

سرت روح النهضة والتجدد إلى الموسيقى والغناء ، فقد كان المغنوون يتبعون إلى ذلك العهد الأساليب والتواشيح القديمة ، حتى ظهر (عبدة الحموي) ، المغني الشهير ، فألهمنته عبقريته الموسيقية إصلاح هذه الأساليب وإدخال روح العصر والتجدد فيها



عبدة الحموي

مجد الغناء في عصر اسماعيل

ولد عبدة الحموي في طنطا حوالي سنة ١٨٤٥ ، أى أنه استقبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عصر التجديد الاجتماعي ، فحمل فيه لواء النهضة الغنائية ، وهو ابن تاجرين في طنطا ، وكان له أخ أكبر منه سنا ، وكان أبوهما يقسو في معاملتهما ويسى اليهما بالضرب والاضطهاد ، فلم يطيقا صبرا على هذه الغلطة ، ففرا من عنده وسارا هائمين في الأرياف ، فساقتهما المصادقة إلى رجل يشتغل بالغناء ويعزف على القانون ، فسمع صوت عبدة ، فأطربه وأعجب به إعجابا كبيرا ، وعاد به إلى طنطا ، وهناك أخذ يغني معه ، ثم جاء به إلى مصر ، فما أن سمعه محبو الطرف حتى اجتذبوا بصوته الجميل ، وظهرت عليه علامات النبوغ الموسيقي ، فترك صاحبه وأستاذه القديم ، وانتقل إلى مغان مشهور اسمه (الشيخ المقدم) فاشتغل على تخته ، وأخذت شهرته تذيع في الأوساط الاجتماعية ، وبدأ يبتكر أساليب جديدة في الغناء نالت إعجاب أهل الفن وعشاق الطرف ، وبلغت شهرته الخديو اسماعيل فاجتذبه وألحقه بمعيته ، وكان ذلك فاتحة مجده ، إذ أحب فيه الخديو صوته الجميل ، فاتخذه نديمه في حفلاته وسهراته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، واصطحبه في رحلاته إلى الاستانة وهناك التقى عبدة بالموسيقيين الترك وسمع أحناهم ، فاقتبس منها ما يلائم

الروح المصرية ، وابتكر في الغناء أحاناً جديدة هي مزيج من الموسيقى العربية والتركية ، وصار زعيم المجددين في الموسيقى المصرية ، واستمر يمارس الغناء وينهض بالفن ويطرد الناس طول حياته ، ولا غرو فهو البليبل الصداح الذي كان يحرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البدعة ، وأنغامه الجميلة ، وقد ظل ثلاثة سنين ونيفًا مصدر السرور والطرب ، للأفراد والجماعات ، وكان رقيق المزاج ، دمت الأخلاق ، كريم الطباع ، عزيز النفس ، مخلصاً لفننه ، ولو لم يكتب ، وهذا هو سر نبوغه وعبقريته ، وكانت وفاته سنة ١٩٠١ واشتهر في عصره بعض السيدات في الغناء ، منهم (الماس) المغنية المشهورة ، وقد تزوج بها عبيده ، ومنعها عن الغناء في مجالس الناس ، وكانت له من أجل ذلك حادثة استهدف فيها لخضب اسماعيل ، إذ طلب يوماً أن تحضر (الماس) إلى قصره وتغني فيه ، فرفض عبيده أن تذهب ، فخضب الخديو ، وأمر بإحضارها قوة واقتداراً ، فاستعصم عبيده ، وأصر على الإباء ، ووسط الشفاعة على الليث شاعر الخديو في الأمر ، وانتهت الحادثة بعدول الخديو عن طلبه

وفي هذا العهد نشأ محمد العقاد ، الموسيقي المشهور ، أقدر من ضرب على « القانون » في العصر الحديث ، وقد أدرك عصر اسماعيل ، وإن كانت شهرته لم تكتمل إلا من بعد ، وصحاب عبيده الحموي ، وحاكاف في توقيعه وأنغامه وصفوة القول أن عصر اسماعيل كان للنهاية العصر الاحياء والتتجدد ، وظهر فيه عباقرة الفن ، الذين رفعوا شأنه ، وأحلوه من النفوس مكاناً علياً .

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني

(وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل)

فهرست الجزء الأول

ص
٥

مقدمة الطبعة الأولى

ص
٣

مقدمة الطبعة الثانية

الفصل الأول

١٠

الرجعية في عهد عباس الأول

	ص		ص
١٦	ضبط الأمن	٩	نشأة عباس
١٦	المدارس والمصانع	١١	ولايته الحكم
١٧	البعثات	١١	أخلاقه
١٧	السودان	١٢	أعماله
١٧	الجيش والبحرية	١٢	سياسة العامة
١٨	اشتراك مصر في حرب الترم	١٣	اصلاح الطريق بين مصر والسويس
١٩	مقتل عباس	١٤	السكة الحديدية بين الاسكندرية
٢٢	ميزنة عباس	١٤	والقاهرة

الفصل الثاني

٢٣

الرحلة الوطنية في عهد سعيد باشا

	ص		ص
٢٦	لائحة المعاشات للموظفين	٢٣	نظرة عامة
٢٦	أعمال العمران	٢٣	نشأة سعيد
٢٦	تطهير ترعة محمودية	٢٤	أخلاقه
٢٧	السكك الحديدية والتلغرافات	٢٥	إصلاحاته الزراعية
		٢٥	اللائحة السعيدية

ص		ص	
٤٧	قضاء الأجانب		إصلاحاته الحربية
٤٨	نغرات التدخل الأجنبي (١)	٢٨	وبشه روح القومية في الجيش
٤٨	امتياز قناة السويس	٣٢	البحرية
٤٨	نظرة عامة	٣٣	اضمحلال الأسطول
٥٢	نبذة في تاريخ المشروع في عهد الفراعنة والفتح الإسلامي	٣٤	شركة الملاحة النيلية
٥٣	في عهد الحملة الفرنسية	٣٥	شركة الملاحة البحرية
٥٤	في عهد محمد على	٣٥	إصلاح ميناء السويس
٥٤	لجنة سنة ١٨٤٦	٣٧	حروب مصر في عهد سعيد باشا
٥٥	في عهد سعيد باشا	٣٩	(١) حرب القرم
٥٧	منح امتياز القناة	٤١	(٢) حرب المكسيك
٥٨	حصص التأسيس	٤٢	السودان
٥٨	لجنة دولية للدرس المشروع		رحلة سعيد باشا إلى الحجاز
٥٨	شروط الامتياز		التعليم
٦١	مقاومة إنجلترا للمشروع	٤٤	نظام الحكم في عهد عباس
٦٢	معاونة سعيد للمشروع	٤٤	وسعيد
٦٢	تأليف الشركة	٤٤	النظام السياسي
٦٢	البلدة في حفر القناة	٤٥	المجلس الخصوصي
	(٢)	٤٥	الوزارات
٦٤	بدء القروض الأجنبية	٤٥	النظام القضائي
٦٥	قرض سنة ١٨٦٢	٤٥	مجلس الأحكام
٦٦	الدين السائر	٤٦	محاكم أو محاكم الأقاليم
٦٦	وفاة سعيد باشا	٤٦	ولاية القضاء
			لغاء مجلس الأحكام ثم إعادته

الفصل الثالث

ص	عصر اسماعيل	ص	نظرة عامة في عصر اسماعيل
٦٧		٦٧	نشأة اسماعيل
٧٧	فتور العلاقات ثم الجفاء بين مصر وتركيا	٦٩	ولايته الحكم
٧٩	فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وما فيه من القيود	٧٠	سياسة مصر الخارجية في عهد
٧٩	تحسين العلاقات	٧٠	اسماعيل
٧٩	فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢ الفرمان الجامع (٨ يونيو سنة ١٨٧٣)	٧٠	كلمة عامة
٨٠		٧٢	(١) سياسة اسماعيل حيال تركيا
٨١	عودة الجفاء	٧٢	العلاقات الودية
٨٢		٧٣	زيارة السلطان عبد العزيز لمصر
٨٣	سياسة اسماعيل حيال الدول الاوروبية	٧٣	تعيير نظام توارث العرش
٨٥	فرنسا	٧٣	وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ فرمان ٨ يونيو سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب (خديو)

الفصل الرابع

ص	قناة السويس	ص	تبعة اسماعيل في إتمام القناة
٩٠	تحكيم نابليون الثالث	٨٨	سعيه في تحفييف شروط الامتياز
٩١	الحكم في النزاع	٨٨	

ص		ص	
٩٥	انتهاء العمل وافتتاح القناة	٩١	وذاحة التعويضات
١٠٠	خسائر مصر المالية في القناة	٩٢	مناقشة الحكم
١٠١	بيع اسهم مصر في القناة	٩٤	اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦
١٠٢	خسائر فادحة	٩٥	تصديق السلطان
١٠٣	قناة السويس وتواريخها الهامة	١٨٦٩	واتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩

الفصل الخامس

السودان في عهد اسماعيل

١٠٤		١٠٤	توسيع نطاق السودان المصري
١١٨	مديرية خط الاستواء	١٠٤	كلمة اجمالية
١٢٠	بسط حماية مصر على مملكة اوغندا	١٠٥	فتح فاشوده
١٢٢	مذكرة شريف باشا الى الدول عن امتلاك مصر منطقة البحيرات	١٠٦	ضم سواكن ومصوع
١٢٣	موقف غردون	١٠٧	فتح اقليم خط الاستواء والوصول
١٢٤	اكتشاف بحيرة ابراهيم	١٠٧	الى منابع النيل
١٢٥	استعفاء غردون من منصبه	١٠٧	مهمة السير صمويل بيكر
١٢٦	مصیر مديرية خط الاستواء	١٠٧	رحلته في عهد سعيد
١٢٧	منع تجارة الرقيق	١٠٨	مهمته في عهد اسماعيل
١٢٩	ظهور الزبير باشار حمت	١١١	رفع العلم المصري على غندکرو
١٣٠	فتح سلطنة دارفور	١١٣	فتح مملكة اوينيورو
١٣٠	معركة منواشى	١١٤	ولاية ملك اوغندا لمصر
١٣١	ضم زيلع وبربره	١١٦	تعيين السكولونل غردون مدير ا
١٣٣	فتح هرر	١١٦	خط الاستواء
١٣٧	حملة السومال		توسيع نطاق الحكم المصري في

ص		ص	
١٥٢	اسماويل باشا أويوب	١٣٩	اعتراف انجلترا بسلطنة مصر في الصومال
١٥٢	غردون باشا	١٤٠	النزاع بين مصر والحبشة
١٥٦	التقسيم الإداري	١٤١	الحرب بين الانجليز والحبشة
١٥٧	الجيش المصري في السودان	١٤٢	منزنجور باشا
١٥٩	أعمال العمران	١٤٣	فتح سennيت وضم اقليم البوغوس
١٥٩	استتاباب الأمن	١٤٣	حرب الحبشة
١٥٩	الزراعة	١٤٤	حملة اندروب بك
١٦٠	طرق المواصلات	١٤٥	هزيمة جونديت
	المواصلات النيلية ودار الصناعة	١٤٥	حملة منزنجور باشا
١٦١	باخر طوم	١٤٥	مقتل منزنجور باشا
١٦٢	الملاحة البحرية والفنارات	١٤٦	الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا
١٦٢	مشروع السكة الحديدية	١٤٧	هزيمة قورع
١٦٣	المدارس	١٤٧	عقد الصلح مع الحبشة
١٦٤	التجارة	١٤٨	نتائج حرب الحبشة
١٦٥	البريد	١٤٩	حكمدارو السودان
١٦٥	التلغرافات	١٤٩	في عهد اسماعيل
١٦٦	ميزانية السودان	١٤٩	موسى باشا حمدى
١٦٧	الرحلات والبعثات الجغرافية	١٤٩	جعفر صادق باشا
	الحكم المصري في السودان	١٤٩	إسماعيل ثورة كسلا
١٧٢	شهادة الثقات من الأجانب	١٤٩	جعفر مظہر باشا
	حدود السودان المصري	١٥٠	ممتاز باشا
١٧٤	أمس واليوم	١٥١	

الفصل السادس

الجيش		
١٧٧		
١٧٩	هيئة اركان حرب الجيش	كلية إجمالية
١٨١	الصحافة الحربية	المدارس الحربية التي أنشأها
١٨٢	تجديد السلاح والمصنع الحربي	اسعاعيل
١٨٢	إنشاء ميدان للرماية	مدرسة المشاة
١٨٣	إدخال النظام الالماني	مدرسة الفرسان
١٨٣	احصاء الجيش	مدرسة المدفعية
١٨٣	افتقار الجيش الى قائد عظيم	مدرسة أركان الحرب
		المدارس الأخرى
١٧٧		

الفصل السابع

البحرية		
١٨٥		
ص		ص
١٩٠	إنعام ميناء السويس	الأسطول الحربي
١٩٠	إصلاح ميناء الاسكندرية	خدمات الأسطول
١٩١	الفنارات	إحصاء الأسطول
١٩١	في البحر الأبيض المتوسط	الأسطول التجارى
١٩١	في البحر الأحمر	الشركة العزيزية
		وابورات البوستة الخديوية
١٨٥		
١٨٦		
١٨٧		
١٨٨		
١٨٩		
١٨٩		

الفصل الثامن

١٩٣	حروب مصر في عهد اساعيل	
١٩٥	حرب البلقان	إخماد ثوره العسير
١٩٦	حروب السودان والحبشة	حرب الجبل الاسود وكريت
١٩٣		
١٩٤		

الفصل التاسع

التعليم والهبة العلمية والأدبية

ص		ص	
٢٤٢	جمعية المعارف	١٩٧	المدارس التي أنشئت في عهد
٢٤٤	الجمعية الجغرافية الخديوية	١٩٧	إسماعيل
٢٤٤	الجمعية الخيرية الإسلامية	١٩٧	المدارس الحربية
٢٤٥	الصحافة	١٩٧	المدارس العالية
٢٤٦	الصحف العلمية والأدبية والجريدة	١٩٧	مدرسة المهندسخانة
٢٤٦	اليعسوب	١٩٨	مدرسة الحقوق
٢٤٦	روضة المدارس	١٩٨	مدرسة دار العلوم
٢٤٧	جريدة أركان حرب الجيش	١٩٨	مدرسة الطب والولادة
٢٤٧	المصرى	١٩٩	مدارس البناء
٢٤٧	الجريدة العسكرية المصرية	١٩٩	المدارس الصناعية
٢٤٧	الصحف السياسية	٢٠٠	المدارس الخصوصية
٢٤٧	وادى النيل	٢٠١	المدارس الثانوية
٢٤٨	نرفة الأفكار	٢٠٣	المدارس الابتدائية
٢٤٨	الوطن	٢٠٣	الحفلات المدرسية
٢٤٨	مصر و (التجارة)	٢٠٤	الأزهر
٢٤٨	روضة الأخبار	٢٠٤	البعشات
٢٤٨	الكتوكب الشرقي	٢٠٥	مدارس الأقباط الأثوذكس
٢٤٨	الأهرام	٢٠٥	المدارس الأوروبية
٢٤٩	الاسكندرية	٢٠٦	وزارة المعارف
٢٤٩	الكتوكب المصرى	٢٠٨	ميزانية التعليم
٢٤٩	مرآة الشرق	٢٤٢	ترجمة حياة على باشا مبارك
٢٤٩	مرآة الأحوال	٢٤٢	الجمعيات العلمية
			المجمع العلمي

ص		ص	
٢٦١	علي ابوالنصر المنفلوطى	٢٤٩	أبو نضارة
٢٦١	الشيخ حسن الطويل	٢٥٠	الصحف الافرنجية
٢٦١	السيد صالح مجدى بك	٢٥٠	الطباعة
٢٦٢	ابراهيم بك مرزوق	٢٥٠	حسين حسني باشا
٢٦٢	ابوالوفاء نصر الموريني	٢٥١	مطبعة بولاق
٢٦٢	محمود صفوت الساعانى	٢٥١	معمل الورق
٢٦٣	محمد عارف باشا	٢٥١	المطابع الأخرى
٢٦٣	احمد بك عبيد	٢٥١	الكتب التي طبعت في ذلك العصر
٢٦٣	خليفة افندي محمود	٢٥٢	ظاهر النهضة العلمية والادبية
٢٦٣	بقية أعلام الادب	٢٥٣	أعلام الأدب في عصر اسماعيل
٢٦٤	علماء الهندسة والرياضيات	٢٥٣	رفاعة بك
	علي باشا مبارك . بهجت باشا .	٢٥٣	علي باشا مبارك
	مظہر باشا . فايد باشا . حسين باشا	٢٥٣	السيد جمال الدين الأفغاني
	فهی المعهار . احمد بك السبکی .	٢٥٣	الشيخ حسين المرصنی
	حسن بك نور الدين . حسين باشا	٢٥٤	محمود باشا سامي البارودي
٢٦٤	حسنى	٢٥٤	عبد الله ابوالسعود افندي
٢٦٤	محمود باشا الفلکي	٢٥٥	الشيخ محمد عبده
٢٦٨	اسماعيل باشا الفلکي	٢٥٥	ابراهيم بك المولى لحى
٢٦٩	سلامة باشا	٢٥٦	محمد بك عثمان جلال
٢٧١	محمد ثاقي باشا	٢٥٧	عاشرة عصمت تيمور
٢٧١	اسماعيل باشا محمد	٢٥٨	عبد الله باشا فيكري
٢٧١	أحمد بك نجيب	٢٥٩	الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى
٢٧١	حسين افندي على الديك	٢٦٠	السيد عبد الله نديم
٢٧١	على افندي عزت	٢٦٠	أديب اسحق
٢٧	عامر بك سعد	٢٦١	الشيخ علي الليثي

ص		ص	
٢٧٦	منصور افندى احمد	٢٧٢	السيد عمارة
٢٧٨	علماء الفقه والقانون	٢٧٢	علماء الطب والجراحة
٢٧٨	محمد قدرى باشا		محمد على باشا البقلى . احمد حسن
٢٧٩	الشيخ محمد العباسى المهدى		الرشيدى بك . محمد الشافعى بك
٢٨٢	علماء الفنون الحرية والبحرية	٢٧٢	حسين عوف باشا
٢٨٢	على باشا ابراهيم . حماد عبد العاطى	٢٧٢	محمد درى باشا
٢٨٢	محمود باشا فهمى	٢٧٣	حسن بك عبد الرحمن
٢٨٤	محمد مختار باشا	٢٧٤	محمد بك حافظ
٢٨٥	شحاته عيسى بك	٢٧٤	سالم باشا سالم
٢٨٥	محمد صادق باشا	٢٧٤	جليلة تمرهان
٢٨٥	سلیمان قبودان حلاوه	٢٧٥	محمد بك بدر
٢٨٥	النهاية الفنية	٢٧٥	أحمد حمدى باشا
٢٨٦	التمثيل والغناء	٢٧٥	حسن باشا محمود
٢٨٧	الموسيقى	٢٧٦	ابراهيم باشا حسن
٢٨٨	عبدة الجمولى	٢٧٦	عيسى باشا حمدى
٢٨٩	الماض	٢٧٦	عبد الرحمن بك الهراوي
٢٨٩	محمد العقاد	٢٧٦	علماء الطبيعيات
٢٩٠	فهرست الجزء الأول	٢٧٦	احمد بك ندا
٢٩٩	فهرست الخرائط والصور	٢٧٦	عبد الحادى اسماعيل
		٢٧٦	علي بك رياض

فهرست الخرائط والصور

ص	
١٥	عباس باشا الأول والى مصر
٤٣	سعيد باشا والى مصر
٦٣	ابتداء العمل في حفر القناة
٦٨	اسماويل باشا خديو مصر
٩٦	حفلة افتتاح قناة السويس ببور سعيد
٩٧	دخول البو اخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس
٩٨	ولمة العشاء التي أقامها الخديو اسماعيل ابتهاجا بافتتاح القناة
٩٩	حفلة الرقص ، ، ، ، « »
١٠٣	خريطة قناة السويس
	نقل أجزاء البو اخر النيلية على ظهور الإبل في ضحرا النوبة سنة ١٨٦٩
١١٠	استعداداً لفتح أقليم خط الاستواء
١١٠	الأسطول النيلي الذي تحرك من الخرطوم لفتح أقليم خط الاستواء
١١١	حفلة رفع العلم المصري على غندکرو (الاسماعيلية) سنة ١٨٧١
١١٢	المعسكر المصري في غندکرو (الاسماعيلية) سنة ١٨٧٢
١١٣	ريونجا ملك أونيونرو يصافح صمويل بيكر باشا سنة ١٨٧٢
١١٥	صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد اسماعيل وأركان حربه
١٢١	خريطة مديرية خط الاستواء
١٣٠	السودان المصري في عهد اسماعيل مقابل
١٣٥	مدينة هرر سنة ١٨٧٦ مقابل
١٥٨	مديريات السودان المصري في عهد اسماعيل
١٦٣	رأس جردفون (جردفوي)
١٦٧	الرحلات والبعثات الجغرافية في عصر اسماعيل مقابل
١٧٤	حدود الدوله المصريه أمس واليوم مقابل
٠٧	على باشا مبارك

ض

- | | |
|-----------|------------------------------------|
| ٢٨١ ، ٢٨٠ | أعلام الأدب في عصر اسماعيل |
| ٢٧٠ | علماء الهندسة في عصر اسماعيل |
| ٢٧٧ | علماء الطب والجراحة في عصر اسماعيل |
| ٢٧٨ | محمد قدرى باشا |
| ٢٨٣ | محمود فهمي باشا |
| ٢٨٤ | محمد مختار باشا |
| ٢٨٨ | عبدة الجولي |

فصول الجزء الثاني من الكتاب

- | | |
|------------------|------------------------------------|
| الفصل العاشر | - أعمال العمran |
| الفصل الحادى عشر | - مؤاساة الديون |
| الفصل الشانى عشر | - الحركة الوطنية والحياة النيابية |
| الفصل الثالث عشر | - ختام النزاع بين الخديو والدائنين |
| الفصل الرابع عشر | - نظام الحكم |
| الفصل الخامس عشر | - الحالة المالية والاقتصادية |
| الفصل السادس عشر | - الحالة الاجتماعية |
| الفصل السابع عشر | - شخصية اسماعيل والحكم على عصره |

تصحيح خطأ

صواب	خطأ	سطر	صفحة
عواقبها	عواقبها	١٦	١٠
وكان سعيد باشا ميلا	وكان لسعيد باشا ميلا	١	٣٠
من	أن	٦	٣٢
أن	من	٧	٣٢
سفنه	سفينة	١	٣٣
شنان بك	شنان بك	١٦	٣٧
١٨٥٨	١٨٥٩	٢٣	٤٠
فكانا	فكان	١٠	٤٦
هذه	هذا	٢١	٤٩
والفارق	الفارق	٢٥	٤٩
عن	عند	هامش ١	٥٦
بملء	بملء	٤	٥٧
كانت	كان	١٨	٦٥
٤ أغسطس	١٤ أغسطس	١٦	٨٦
Inauguration	Inauguisation	٤	٩٩
ومن هذه	ومن هذا	١١	١٠٠
١٨٧٧	١٦٧٧	هامش ٢	١٠٠
حافون	حفون	٣	١٠٥
١٨٤١	١٨٤٠	٧	١٠٨
١٢١	١٢٥	١٢	١١٢
١٢١	١٢٥	هامش ١	١١٧
١٢١	١٢٥	١٩	١١٩
الدفلائي	الدفلاوي	١١	١٢٢

صفحة	سـطر	خطـأ	صـواب
١٢٦	١٤	فـرادـلـاـي	وـدـلـاـي
١٣٢	١٢	بـوـلـهـا	بـوـلـهـا
١٣٨	١١	حـفـون	حـفـون
١٣٩	١٩	حـفـون	حـفـون
١٤٦	١٦	Lounog	Loring
١٦٦	١	سـنة جـص ١٨٨٣	سـنة ١٨٨٣
١٦٧	١١	١٨٧	١٨٧١
١٧٦	٤	فيـهاـمـاـبـذـلـتـمـنـ	فيـهاـمـاـبـذـلـتـمنـ
٢١١	١٤	الـفـقـاءـ	الـفـقـاءـ
٢١٨	٣	كـلـعـلـىـقـدـرـ	كـلـعـلـىـقـدـرـ
٢٢٨	١	وـتـعـمـيقـهـ	وـتـعـمـيقـهـ
٢٣٤	٢٢	احـمـدـأـسـاتـذـةـ	احـمـدـأـسـاتـذـةـ
٢٥٤	١٣	٨٢٠	١٨٢٠
٢٦٠	١	ناـصـيـفـ	ناـصـيـفـ
٢٦٢	٨	حلـبـةـ	حلـلـيـةـ
٢٦٧	١	Nofry	Norry
٢٨٨	٥	تـاجـرـيـنـ	تـاجـرـيـنـ

للمؤلف :

حقوق الشعب

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية
وحقوق الإنسان ، طبع سنة ١٩١٢

ذميات التعاون الزراعية

يتضمن تاريخ التعاون الزراعي ونشأته في أوروبا ، ونشأة
التعاون في مصر وتاريخه ونظامه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية
والاجتماعية ، طبع سنة ١٩١٤

الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضة القومية ، يتضمن تاريخ
الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان
مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها
طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ
مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر
المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، وتاريخ
مصر القومي في هذا العهد

الجزء الثاني : من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى

ولادة محمد على الكبير

عصر محمد على

يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد على

عصر إسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل

عهد إسماعيل

الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل

الثورة العرابية

والاحتلال الانجليزي

مصر والسودان

في أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

مصطفى كامل

باعت الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

محمد فريد

رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ثورة سنة ١٩١٩

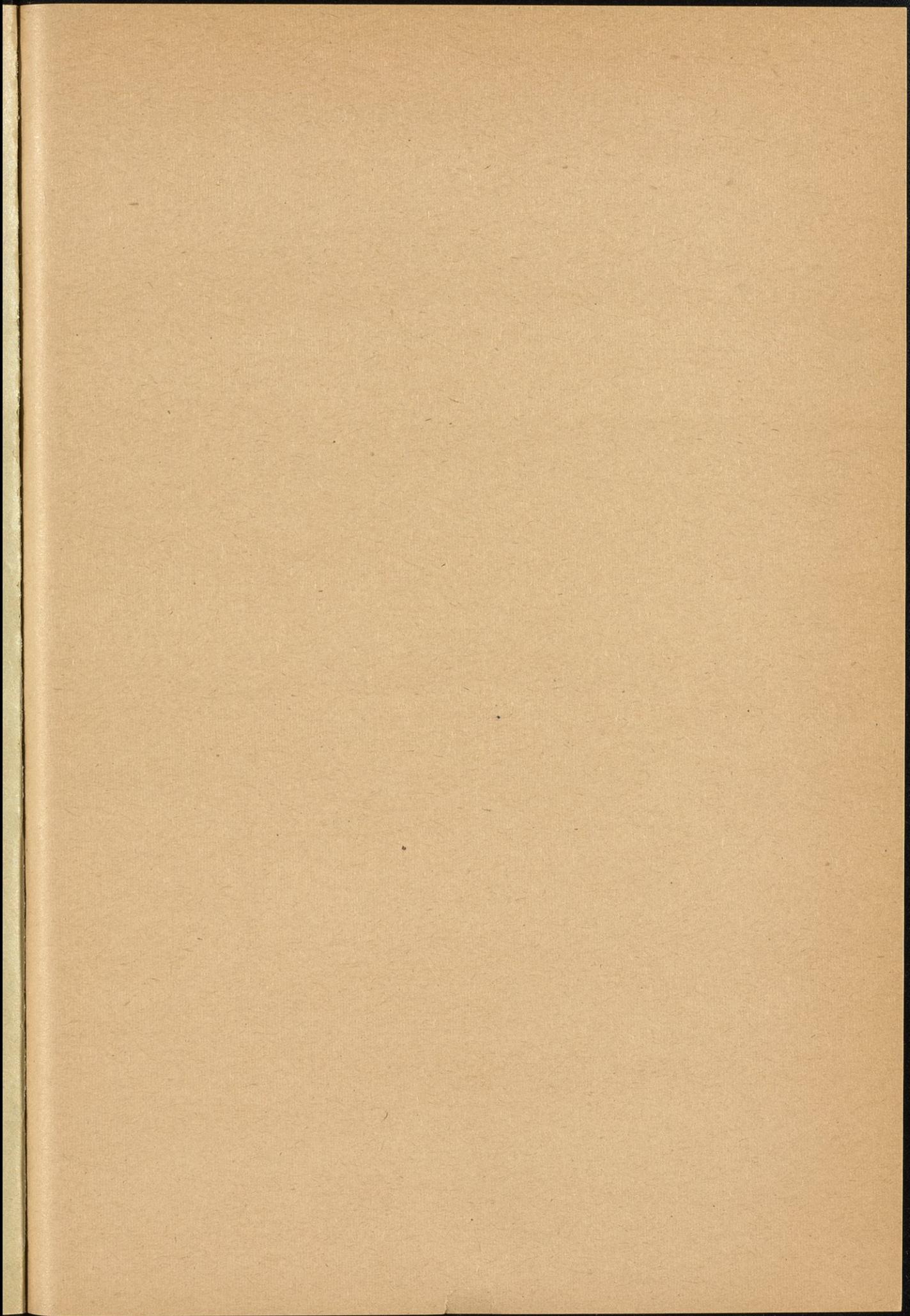
تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١

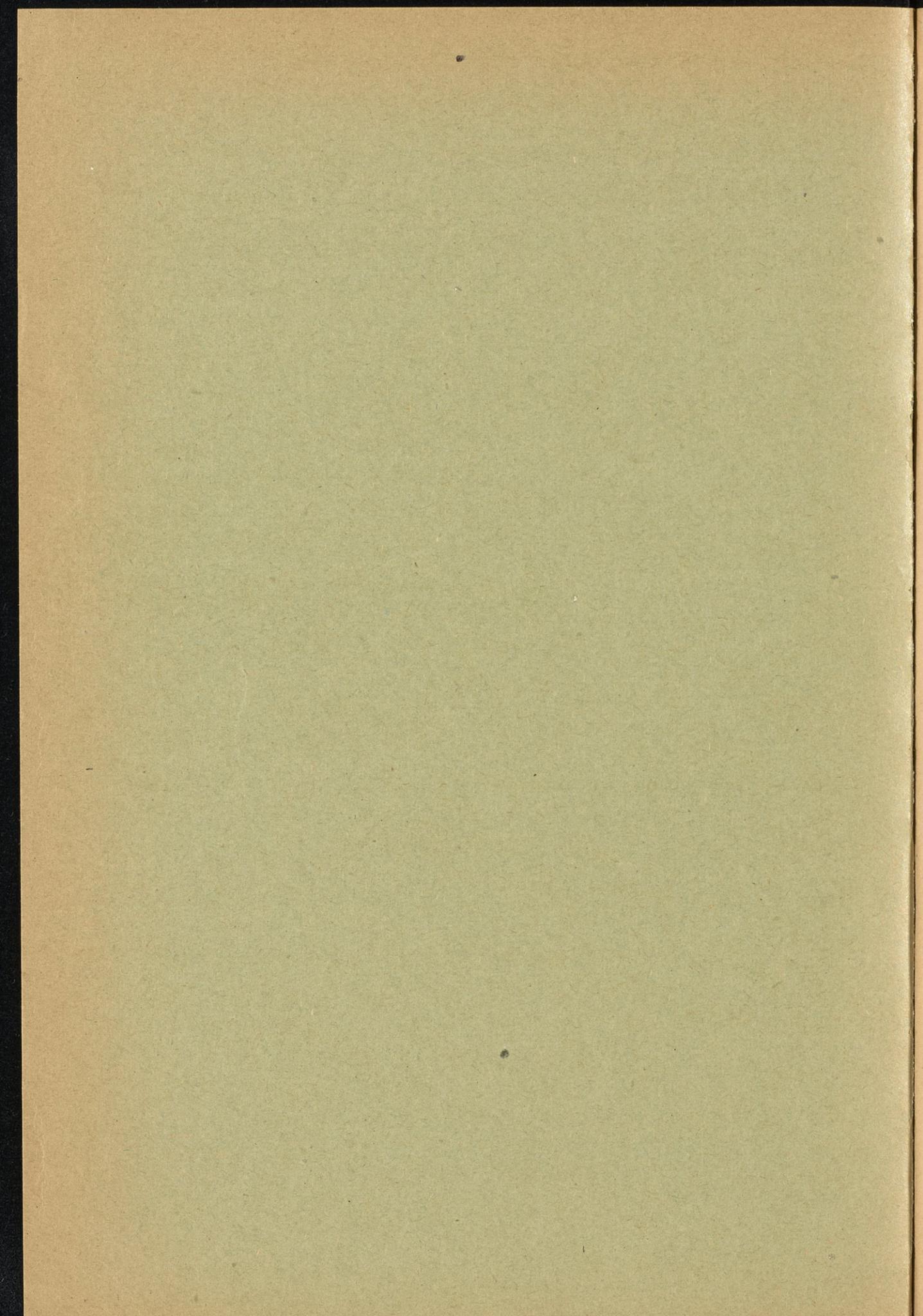
الجزء الأول : يتضمن على شرح حالة مصر وحوادثها
التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، ويبيان
الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور
الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شباب الثورة في مارس
سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم

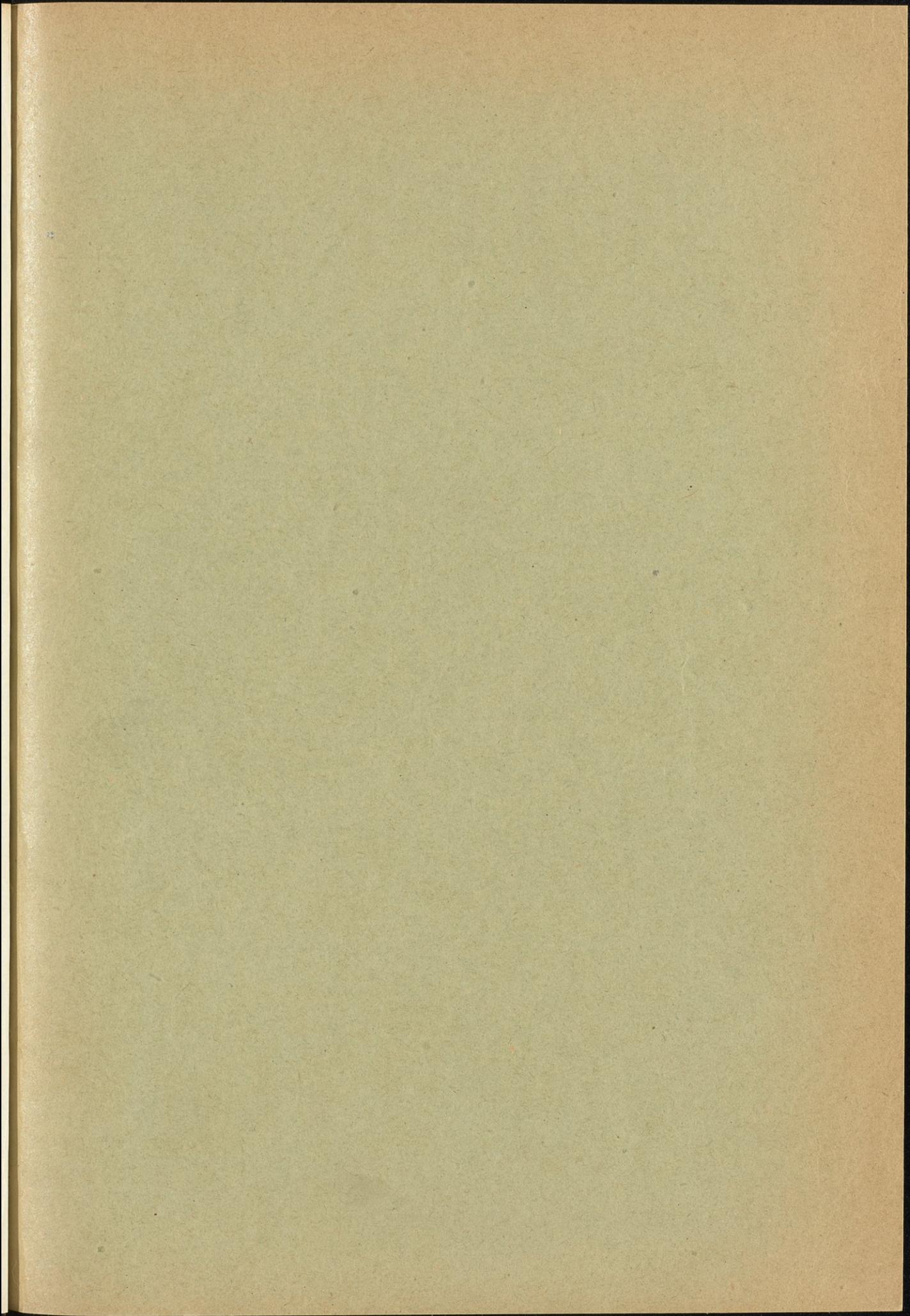
الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها
ومحاكمات الثورة . ولجنة ملزرو الحوادث التي لابستها . ومفاوضات
ملزرو . واستشارة الامة في مشروع ملزرو ، والتباين البريطاني
بأن الخاتمة علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة في حياة مصر
القومية

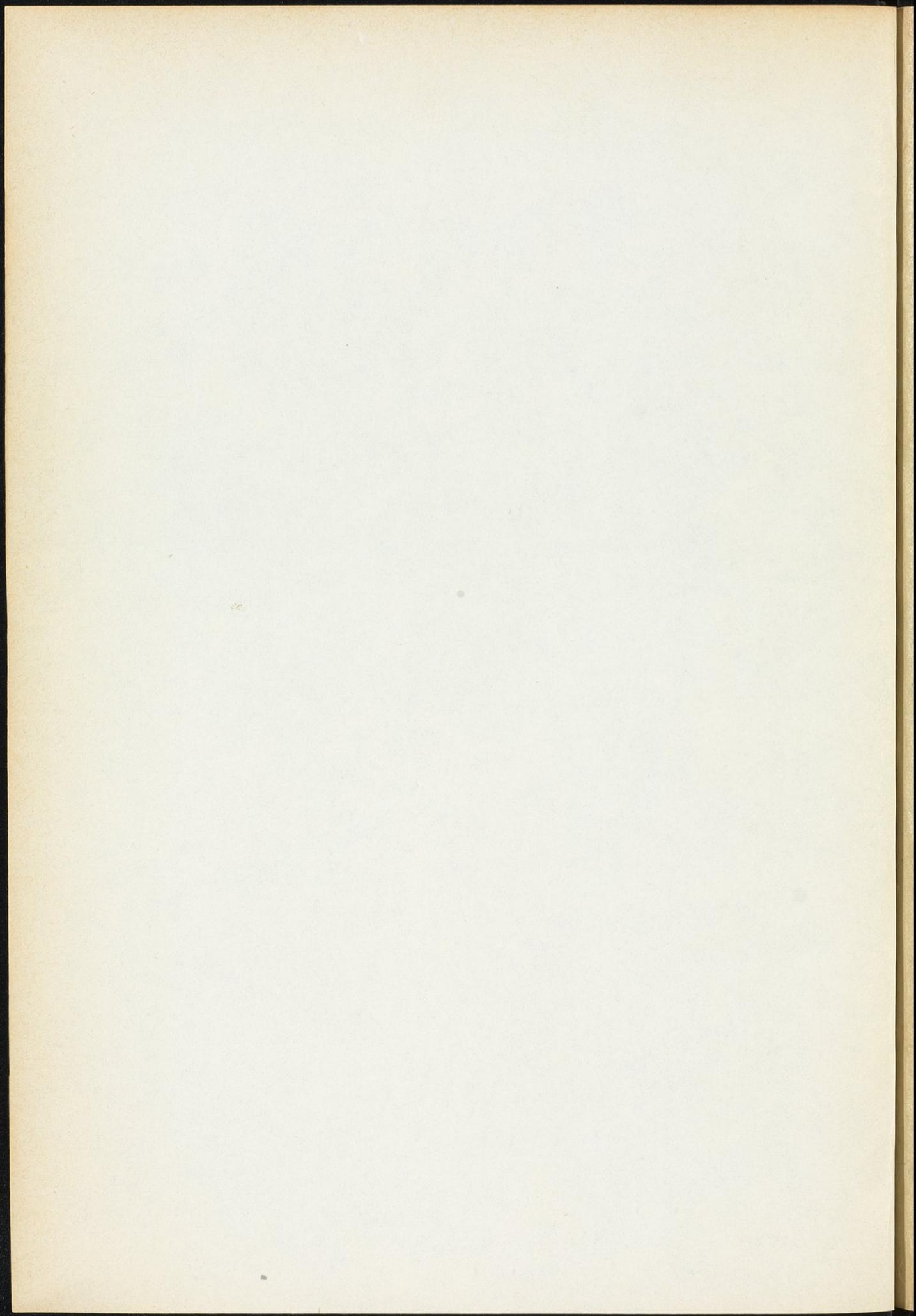
في أعقاب الثورة المصرية

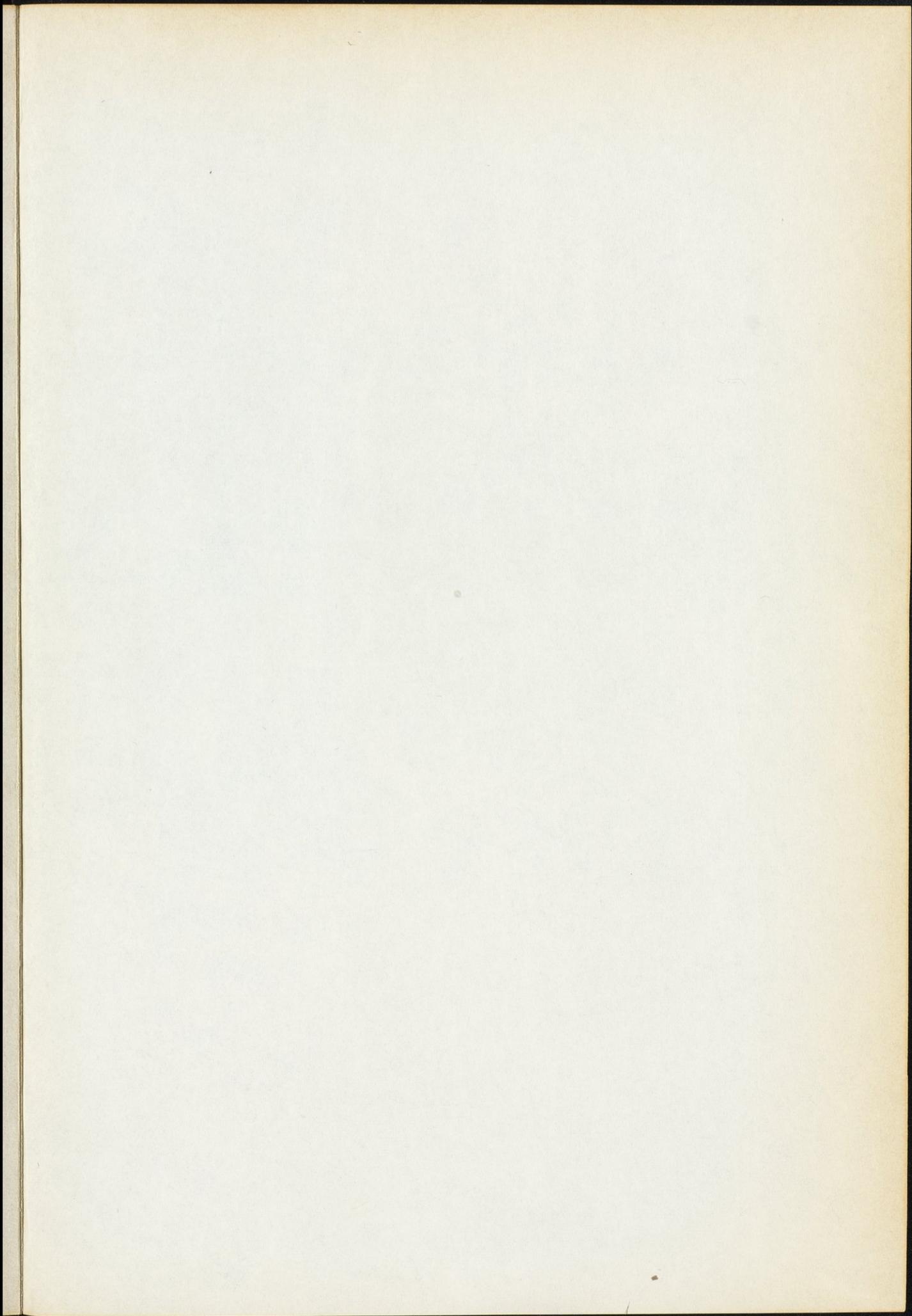
الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١
إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧

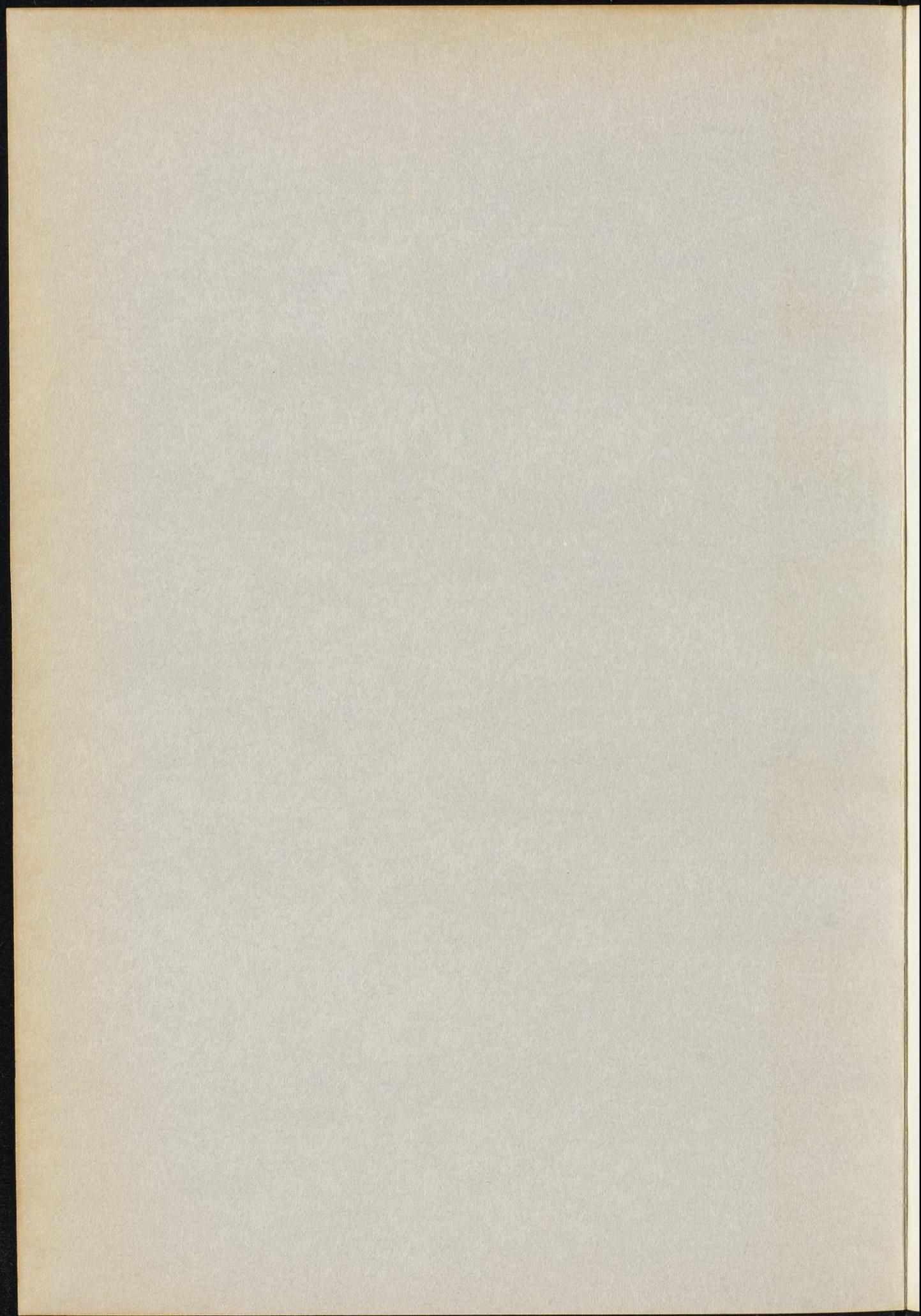












Cornell University Library
DT 106.R13 1947
v.1

Asr Ismail /



3 1924 028 780 132

olin

